مرکز القائمیة اصبهان للبحوث والتحریات الکمبیوتریة

السلام علیک یا صاحب الزمان

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

سلسلة الرسائل الجامعية

١٠

أثر كلام الإمام علي في النثر العربي

حتى نهاية القرن الثاني للهجرة

الحسن البصري وابن المقفع أنموذجا

تأليف

الإصدار

٦٢

بسم الله الرحمن الرحیم

أثر كلام الإمام علي (عليه السلام) في النثر العربي

كاتب:

ضياء طعمة عبد الحسين الطالقاني

نشرت في الطباعة:

مؤسسة علوم نهج البلاغة

رقمي الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس 5

أثر كلام الإمام علي(عليه السلام) في النثر العربي 8

هوية الكتاب 8

اشارة 9

المقدمة 15

التمهيد مفهوم الأثرو 24

المبحث الأوّل: نظرة توثيقية 38

اشارة 38

أوّلاً: جمعه المبكّرو 38

ثانيا: التشكيكات فيه 49

الوقفة الأولى: وقفة مع المشككين الروّاد وتشكيكاتهم 53

الوقفة الثانيةً: وقفة مع شبهة الطول في كلام الإمام علي عليه السلام 62

الوقفة الثالثة: شبهة الصيغ الفلسفية 70

المبحث الثاني: إضاءة تمهيدية 84

اشارة 84

أوّلاً:الجانب الوارثي 86

ثانياً: الأثر النبوي 88

ثالثًا: الأثر القرآني 91

رابعًا: الشمولية في كلامه 96

خامسًا: الإلهام الغيبي و 99

سادساً: هضمه لتراث العرب 104

سابعًا: سداد الرأي و 107

ثامنًا: المحن التي 113

توطئة 128
المبحث الأوّل: في خطب الحسن 136
المبحث الثاني: في رسائل الحسن 164
المبحث الثالث: أثر خطبة المتقين 198
المبحث الرابع: في مواعظ و 224
اشارة 224
أوّلاً: التضمين 225
ثانيًا: البسط أو الزيادة 230
ثالثاً: الإيجاز 243
رابعًا: العكس 250
توطئة 260
المبحث الأول: في رسالة الأدب الكبير 274
اشارة 274
أولا: التضمين 275
ثانياً: التلفيق 296
ثالثاً: البسط 313
رابعاً: الإيجاز 339
المبحث الثاني: في رسالة الأدب الصغير 344
اشارة 344
أولاً: التضمين 347
ثانياً: التلفيق 351
ثالثاً: البسط 366
رابعًا – الإيجاز 377
المبحث الثالث: في رسالتي الصحابة 384
اشارة 384

أولاً: أثره في رسالة الصحابة 384
ثانياً: أثر في الرِّسالة اليتيمة: 402
ثالثاً: في رسائل أدبية أخرى لابن المقفّع 409
المبحث الرابع: تكرار ابن المقفع 416
الخاتمة والنتائج 432
المصادر والمراجع 444
المحتويات 478
تعريف مركز 482

أثر كلام الإمام علي(عليه السلام) في النثر العربي

هوية الكتاب

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق العراقية 1352 لسنة 2016 م مصدر الفهرسة: IQ-KaPLI ara IQ-KaKPLI rda.

رقم تصنيف LC:

BP38.09.N7 T3 2016.

المؤلف الشخصي: الطالقاني، ضياء طعمة عبد الحسين.

العنوان: أثر كلام الإمام علي (عليه السلام) في النثر العربي حتى نهاية القرن الثاني للهجرة: (الحسن البصري وابن المقفع إنموذجا).

بيان المسؤولية: تأليف ضياء طعمة عبد الحسين الطالقاني؛ تقديم سيد نبيل قدوري الحسني.

بيانات الطبعة: الطبعة الأولى.

بيانات النشر: كربلاء: العتبة الحسينية المقدسة - مؤسسة علوم نهج البلاغة.

1437 هـ= 2016 م.

الوصف المادي: 472 صفحة.

تبصرة عامة:

تبصرة ببيلوغرافية: يتضمن هوامش - لائحة المصادر (الصفحات 435 - 466).

تبصرة محتويات:

موضوع شخصي: علي بن أبي طالب (عليه السلام)، الإمام الأول، 23 قبل الهجرة - 40 هجريا - سيرة.

موضوع شخصي: علي بن أبي طالب (عليه السلام)، الإمام الأول، 23 قبل الهجرة - 40 هجريا - النثر العربي.

موضوع شخصي: الحسن البصري، 21 - 110 هجريا - تأثر.

مصطلح شخصي: ابن المقفع، عبد الله، 106 - 142 هجريا - تأثر.

مصطلح شخصي: النثر العربي - تاريخ ونقد.

مؤلف إضافي: الحسني، نبيل قدوري حسن، 1965 م، مقدم.

عنوان إضافي: نهج البلاغة. شرح.

تمت الفهرسة قبل النشر في مكتبة العتبة الحسينية المقدسة

ص: 1

اشارة

اثر كلام الإمام علي في النثر العربي حَتّىٰ نَهايَةِ القُرْن الثَانِيْ لِلِهِجَرة الحسن البصـري وابن المقفع إنموذجاً تَألِيْفُ ضِـيَاءُ طعمَة عَبدُ الحُسَيْن الطَالقَانِيْ إصْدَار مؤسسة علوم نهج البلاغة في العتبة الحسينية المقدسة

ص: 4

جميع الحقوق محفوظة للعتبة الحسينية المقدسة الطبعة الأولى 1437 ه - 2016 م العراق: كربلاء المقدسة - شارع السدرة - مجاور مقام علي الأكبر عليه السلام مؤسسة علوم نهج البلاغة هاتف: 07728243600 07815016633 الموقع: www.inahj.org
Email: Inahj.org@gmail.com

ص: 5

بسم الله الرحمن الرحيم مقدمة المؤسسة الحمد لله على ما أنعم وله الشكر بما ألهم والثناء بما قدّم من عموم نعمٍ ابتدأها وسبوغ آلاء أسداها والصلاة والسلام على خير النّعم وأفضلها محمد وآله الأخيار الذين أذهب الله عنهم الرّجس وطهّرهم تطهيراً.

أمّا بعد:

لو أنصف أهل العلم والفكر الإمام علي بن ابى طالب عليه السلام لوجدوا أثره في جميع الحقول المعرفية إن لم يكن له النصيب الاوفر والسهم الأعظم في البعض منها وما هذه الرسالة الموسومة ب(أثر كلام الإمام على عليه السلام في التراث الأدبي) إلا واحدة من الدراسات المنصفة التي تستنهض الأقلام العلمية للكتابة في أمرين مهمين:

أولا: حجم الظلم الذي جناه كثير6 من المصنفين في المعارف والعلوم الإسلامية ولا سيما أهل الأدب واللغة من خلال تغييب كلام الإمام علي بن ابي طالب عليه السلام

ص: 6

المقدمة

وتحويله بالنسبة إلى غيره تجرباً على الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

والأمر الآخر، انتهاك حقوق الملكية الفكرية للإمام على بن ابى طالب عليه السلام فيما لو عملت به المنظمات الحقوقية في عالم اليوم.

ونحن من هـذه المؤسـسة التي تعنى بعلوم كتاب نهـج البلاغة وحياة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السـلام وفكره ومن هذا البحث الموسوم الذى يعدّ مادة وثائقية تثبت وقوع هذه السرقات في مجالها المعرفي ندعوا الباحثين والعاملين في مجال حقوق الملكية الفكرية الى اعتماد هذه القضـية وبيان حجم السر – قات التي وقعت في التراث الإسلامى ومعارفه العديدة والتي تعود في اصلها الى الإمام علي بن ابي طالب عليه السـلام وتمت سـرقتها ونسبتها الى غيره، وهو القائل عليه السلام: «نحن الشعار الأصحاب، والحزنة والأبواب، ولا تؤتى البيوت إلا من أبوابها، فمن أتاها من غير أبوابها سمي سارقاً».

فجزى الله الباحث عن عمله في هـذه الدراسـة كل خير، فقـد بذل فيها جهده لبيان حق من حقوق الإمام على عليه السـلام في هذا الحقل المعرفي، وآخر دعوانا (أن الحمدلله رب العالمين).

السَّيِّد نَبيلُ قَدُّوِدي حَسَن الحَسَني رئيس مؤسسة علوم نهج البلاغة

ص: 7

المقدمة الحمد لله ربِّ العالمين حمدًا لا يحصي عدده العادون، ولا يبلغ كنهه المجتهدون، حمدًا دائمًا، يصعد أوّله ولا ينتهي آخره، والصلاة والسلام على خير الأنام محمّد وآله الكرام.

وبعدُ ... فإنّه من دواعي البهجة والسرور أن نقدِّم دراسة تخصّ كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام دراسة لم يُسبق أن دُرس هذا الكلام بمثلها، فكانت تحت عنوان «أثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي حتى نهاية القرن الثاني للهجرة».

وقد علمت يقينًا أني بهذه الدراسة كراكب الصعبة لأمرين هما: إنّ دراسة الأثر والتأثير دراسة شاقة، وعمادها الأساس هو الباحث - أي باحث - الذي يتولّى هذهِ المهمة.

والأمر الثاني إن التنقيب عن أثر كلام أمير المؤمنين عليه السلام في النثر مشقة وجسامة أخرى، كون هذا الكلام هو ترجمان للقرآن الحكيم، ولكلام النبي الكريم صلى الله عليه وآله ي

بمعنى إنّ بين هذا الثلاثي شبه كبير جدًّا، وعليه من الصعوبة بمكان فرز أثر النص القرآني عن أثر النص النبوي عن أثر النص العلوي.

وبعد أن جعلت الله حسبي في أموري كلّها، فهو المدعوُّ للمهمّات، وهو المفزع في الملمات، فُتحت أمامي طرُق لم أكن أتوقعها أفضت إلى اكتشاف أثرٍ مهيب لكلام الإمام عليه السلام على جميع الكتاب الذين قرأت لهم مدّة الدراسة.

وبعد هذه النتائج التي حصلت عليها من عشرات الكتاب، قدمت للدكتورة المشرفة خطةً توزّعت على تمهيد وخمسة فصول، وبعد المناقشة والتعديلات أذنت لي وشرعت بالكتابة على هذا الأساس، ولكن عند وصولي إلى الفصل الثالث لاح لي أنّ الرسالة – بالفصول الثلاث – تقلُّ أو تنيف على الثلاثمائة صفحة.

وهنا كنت أمام خيارين:

الأوَل:

الانتقاء من النصوص المتأثرّة التي جمعتها، بسبب عدم إمكان بث هذهِ النصوص في رسالة أو أطروحة واحدة، بل الأمر يحتاج إلى أكثر من ذلك، وهذا الخيار لم أفضله لأنّ النصوص التي تبقى بعد الانتقاء – وهي الأكثر بكثير – لايمكن أنّ تُدرس من جديد على اعتبار أنّ المدّة الزمنية التي ينتمي إليها النص دُرست بهكذا دراسة.

الثاني:

الاكتفاء بما كتبته عن الحسن البصري وابن المقفع، علًما أنّ أيًّا من الأديبين ينهض بدراسة تامة، لكنّي فضلت الجمع بينهما – بعد أن اختصرت من كلامهما المتأثر أيضا – من أجل تعزيز احدهما بالآخر، لأنّ هذا التعزيز يعزز بدوره أثر كلام الإمام من جهة، ومن جهةٍ أخرى حتى لا يكون هنالك إشكال أو تساؤل

مفاده لماذا تأثّر الأديب الفلاني دون غيره بكلام الإمام عليه السلام.

وهذا الخيار الثاني هو الذي فضّلته وحاورت بهِ الدكتورة المشرفة فوجهتني ثم تفضلت عليّ بالموافقة، فأصبح العنوان بحلتهِ النهائية «اثر كلام الإمام علي عليه السلام في النثر العربي حتى نهاية القرن الثاني الحسن البصري وابن المقفع أنموذجا».

وكان قد حصل هذا في الشهر الثامن من عام 2012 م.

وبخصوص باقي النصوص المتأثرة التي تمَّ جمعها من نثرٍ عائدٍ لعشرات الكتاب وعددها بالمئات ندّخرها لدراسات لاحقة بعونه تعالى.

أمّا المنهج الذي اتبعته، فكان على النحو الآتي:

التمهيد:

وفيه تمَّ التعرض لمفهوم الأثر والتأثير في اللغة والإصطلاح.

أمّا الفصل الأول فكان تحت عنوان «كلام الإمام علي عليه السلام من حيث التوثيق والتأثير».

ونحن هنا ندرس أثر كلام الإمام عليه السلام في القرن الأول والثاني كان لزامًا علينا أن نبيّن هل كان الكلام الذي يُدرس أثره مجموعًا ومحفوظًا ومدوّنًا حتى يقرأ ويؤثّر أم لا؟ فإن كان الجواب بنعم، فهذا يعني إننّا قطعنا شوطًا مهمًّا وتوصلنا - مبدئيًا - إلى فاعلية هذا الكلام وتأثيرهِ، وإلاّ لماذا أهتُمَّ بجمعه في ذلك الزمن المبكر جدًّا. فكانت هذه النقطة الأولى من المبحث الأول.

ولمّا عثر الباحث على بعض الأدلة القطعية التي تُسهم في دحض الشبهات التي وُجّهت لبعض كلام أمير المؤمنين عليه السلام، آثر أن يسجلها ويردفها بأدلّةٍ أخرى خاض غمارها الباحثون مسبقًا، فكانت هذهِ النقطة الثانية من المبحث الأول.

ونحن نخوض غمار اثر كلام أمير المؤمنين عليه السـلام كتن من الواجب أن نقف على جمالية هـذا الكلام، وأسـبابها، وما قيل فيها قـديمًا وحديثًا. ولهذا خُصِّص المبحث الثاني.

وجاءَ الفصل الثاني معنونًا ب«أثر كلام الإمام علي عليه السـلام في نثر الحسن البصـري». وعلى وفق المادة التي تم جمعها تمّ تقسيم هذا الفصل على أربعة مباحث:

الأول:

أثر كلام الإمام علي عليه السلام في خطب البصري.

والثاني:

أثر كلام الإمام علي عليه السلام في رسائل البصري.

ولما وجدنا البصري قد أتى على أكثر من خطبة علوية كاملة وفرَّقها في نصوصٍ عدّة آثرنا أن نورد شاهدًا حيًّا على هذا الفعل، فكان ذلك في المبحث الثالث، وتحت عنوان «أثر خطبة المتقين للإمام علي عليه السلام في نثر الحسن البصري».

الرابع:

أثر كلام الإمام علي عليه السـلام في مواعظ البصـري، وتجدر الإشارة هنا إلى الباحث مع كونهِ سار على تقسيم الأثر إلى مظاهرِ المتعددة التي تشـخص ضـمن النتـاج النثري لكلا الأديبين وبنقاط مسـتقلة، إلاّ أنّه رأى من المسـتحسن عـدم إفراد كلِّ مظهر - في المباحث الثلاثة الأولى - بنقطـة منفصـلة، لأن رسائل البصـري وخطبه - وعلى طولها - ما هي إلاّ جمع من كلام الإمام عليه السـلام فكان يجعل مقـدمة الرسالة - مثلاً - من نصٍّ علوي كأن يكون بالمعنى، ثم ينتقل إلى نصٍّ آخر فيوردهِ بنصّهِ، وإلى ثالث يوردهِ بإيجاز... وهكذا.

فكان الأمر – والحال هـذه – إذ قُسِّمت الرسالة إلى أجزاء، جزء منها في نقطة التضـمين، والثاني في نقطة أخرى،... تكون النتيجة عدم تبيان الأثر العلوي بطريقة تبين ما فعله البصـري كدراسـتنا لتلك الرسالة دون أن نجزِّءها، وعلى هذا فضّلنا – طمعًا في بيان الأثر أكثر – أن نشير إلى هذه المظاهر ضمنًا، وذلك عندما نتسلسل بالرسالة أو الخطبة.

وتكفّل الفصل الثالث والأخير ببيان «أثر كلام الإمام عليه السـلام في نثر ابن المقفع»، وجاء هذا الفصل مقسّمًا على أربعة مباحث رئيسـة هي:

الأول:

أثر كلام الإمام في رسالة الأدب الكبير، وكان هذا الأثر قد ظهر بمظاهر هي:

أولاً: التضمين بنوعيه النصي والمحور.

ثانيًا: التلفيق.

ثالثًا: البسط.

رابعًا: الإيجاز.

الثاني:

اثر كلام الإمام عليه السلام في رسالة الأدب الصغير. وكان ظهور هذا الأثر بمظاهر لا تختلف عن سابقتها.

الثالث:

أثر كلام الإمام عليه السلام في رسائل أخرى لابن المقفع، وكان ذلك في نقاط ثلاث:

أولاً: أثره في رسالة الصحابة.

ثانيًا: أثره في رسالة الدرة اليتيمة.

ثالثًا: أثره في رسائل متفرقة أخرى لابن المقفع.

وهذه الرسائل لقصرها لم تقسَّم بحسب التقسيم السابق، بل تمّت الإشارة لنوع الأثر فيها ضمنًا.

الرابع:

تكرار ابن المقفع لكلام الإمام عليه السلام.

وكانت الخاتمة آخر رحلة البحث، حيث ضمّت نتائج عدّة توصلّت إليها الدراسة.

وبعد هذا فإنّ من لم يشكر المخلوق لم يشكر الخالق، لذا لا يسعني إلاّ أن أتقدم بالشكر الجزيل للمشرفة الأستاذة المساعدة الدكتورة جنان الجبوري لرعايتها وتوجيهاتها ووقوفها مع الباحث ونصرتها إياه في يومٍ عزَّ فيه الناصر.

كما أتقدم بالشكر الموصول لفضيلة الأستاذ المساعد الدكتور علي كاظم المصلاوي باذر بذرة الرسالة، وها هي إحدى ثمراتها بين يديه السخيتين.

كذلك الشكر للأستاذ الدكتور الأديب عبود جودي، فهو ممّن شجعني على هذهِ الدراسة، حيث قال لي عندما شكوت له رفض الموضوع: «يا بنيَّ موضوعك جميل فتمسك بهِ».

وأشكر الأستاذ الدكتور أحمد شاكر غضيب أستاذ الأدب الإسلامي في جامعة بغداد، فهو أشعل بداخلي جذوة مميّزة لما كتب لي عندما طلبت منه

استشهادًا «الموضوع في غاية الروعة والجمال، وسيكون دراسة تأسيسية لما بعده من دراسات» وأشكره مجدّدًا أينما حلَّ وارتحل.

كذلك أقدم شكري وامتناني لسماحة الخطيب الشيخ عبد الحميد المهاجر، فهو أسهم إسهاما فعّالاً في هذا الموضوع – وإن كان لا يدري – كوني حفظت بعض كلام الإمام علي عليه السلام بسببه، فكان حفظي لهذا الكلام هو من أعانني وجعلني أشخصه لمَّا كنت أفتش عنه في خبيئات النثر العربي.

وأخيرًا فإنّي من اناسٍ سجيَّتهم النقص، وحليفهم التقصير والقصور، فأدعو الله وأولياءه، وأرجو من القرّاء المعاملة باللطف لا بالعدل، والحمل على التفضّل لا على الاستحقاق، وصلى الله على محمّد وآله الأطيبين الأطهرين.

ص: 13

التمهيد مفهوم الأثرو

التّأثير والتّأثّر في اللغة والإصطلاح:

تعود هـذه المسـميات الثلاث على وفق ما أشارت إليه المعجمات اللغوية إلى الفعل الثلاثي (أثر). قال الخليل بن أحمد (ت 175 ه): «الأثر بقية ما يرى من كل شيء... والأثارة البقية من الشيء والجمعُ أثارات، ومنه قوله تعالى:

«أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ»(1)»(2).

أمّا ابن منظور (ت 711 ه)، فقال: «الأثر بقية الشيء... وخرجت في إثَرِهِ وفي أثرِهِ أي بعده ... والتأثير إبقاء الأثر في الشيء، وأثّر في الشيء: ترك فيه أثرًا»(3). وآثره عليه فضّله. وفي التنزيل:

ص: 15

1- الأحقاف 4

2- معجم مقاييس اللغة 1 / 54 - 55 باب (أثر)

3- لسان العرب 4 / 5 مادة (أثر)

«لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنَا»(1)»(2).

وبعد هذا ومن خلال هذه التعريفات اللغوية نستنتج أنَّ التأثّر له علاقة مباشرة بالتفضيل، أي أنَّ درجة التَّأثُّرِ تتوقَّفُ على درجة التَّفضيل؛ فكلّما كان هذا التفضيل أكثر كان أثره أبلغ وأبين على المتأثر الذي يسعى جاهدًا من أجل تسخيره في عمله، متَّبعًا من أجل ذلك طرقًا عدّة هذا – بالطبع – إذا كان المتَّأثِّرُ أديبًا.

والأمر الآخر الذي يمكن إستنتاجه هو أنَّ هذا الأثرَ الباقي يمكن أن يُرى أو لا يُرى(3). وهذا الإستنتاج مناسب تمامًا لو طُبِّق في ميدان الأدب، كون الأثر الأدبي يُقسم على قسمين:

القسم الأول:

الأثر الظاهر، أو هو ذلك الأثر الذي يُر كالإقتباس، والتضمين...

القسم الثاني:

الأثر غير الظاهر وهذا الأثر – بطبيعة الحال – لا يُرى ولكن يحتاج إلى بصيرة نافذة لإثباته.

وللتدرج في معرفة هذه الظاهرة لابّد من معرفة إنّها ظاهرة طبيعية، لا غنى للإنسان عنها، فهو بطبعهِ كائن اجتماعي جُبِل على هذا الأمر، فمرّةً يؤثر وأخرى يتأثّر بالآخرين – وبشتى الوسائل – لأنّه ومهما أوتي من قوة لا يستطيع تكوين

1- يوسف 91

2- لسان العرب 4 / 7 مادة (أثر)

3- ينظر التأثير والتأثر في النص النقدي العربي 4

نفسه «من لا شيء»(1)، بل لابُدَّ له من معينٍ يعينه بُغيـة ذلك التكوين. والـذي يهمنا هنا هو التكوين الأدبي، وهـذا ما دعا إليه كبار النقاد العرب، وأسـموه بـالتثقيف مرّة، والتمرّس بما جاءت بهِ قرائـح الفحول من الأدباء أخرى، إذ أنّ هـذا التثقيف أو التمرس بتلك الآثار، وبطرق عـدة: حفظًا، وروايـة، ودراسـةً، لا شك بأنها من أهمِّ الروافد التي تسـهم في تكوين الأديب و «تُظهِر التَّأثيرَ والتأثّر على سـطحِ نتاجِ الشاعر مهما حاولَ إخفاءَه، فهو مدينٌ لغيرهِ فيما سيبلُغ أو بلغَ من منزلةٍ شعريَّةٍ»(2).

وكان من أوائل أولئك النُّقاد الـذين دعوا إلى إفادة اللاّحق من كلام السَّابق هو الناقـد الذّوّاقة(3)– مثلما سـمَّته هند حسين طه – ابن طبا طبا العلوي (ت 322 ه)، والـذي كثيرًا ما كان يؤكـد على هـذه المسألـة، فقـد كان معتقدًا ومقتنعًا بأنّ الأُدباء الذينَ عاصـر هم في محنة وهذهِ المحنة عبَّر عنها بقوله: «والمحنة على شـعراء زماننا في أشـعارهم، أشدُّ منها على مَنْ كان قبلهم، لأنَّهم قد سُبِقوا إلى كلِّ معنًى بديعٍ، ولفظٍ فصيحٍ، وحلية لطيفةٍ، وخلاّبةٍ ساحرةٍ...»(4).

ويبدو أنّ هذه الأزمة أو المحنة التي مرّ بها أدباء زمانه كانت إحدى الأسباب الرئيسة التي حدت بابن طباطبا أن ينصح الأديب في أن «يُديم النَّظر في الأشـعار التي أخترناها لتلصقَ معانيها بفهمه، وترسيخ أصولها في قلبه، وتصير مواد لطبعه، ويذربُ لِسانهُ بألفاظها؛ فإذا جاشَ فكره بالشِّعرِ أدّى إليه نتائج ما استفادهَ مما نظر فيه من تلك الأشعار، فكانت تلك النتيجة كسبيكة مفرغة من جميع الأصناف

1- خصام ونقد 257

2- أبو العلاء المعّري والشعر العربي في الأندلس دراسة تحليليَّة في التأثير والتأثر 11

3- ينظر: النّظريّة النقديّة عند العرب 233

4- عيار الشعر 8 – 9

التي تخرجها المعادن. وكما قد أغترف من وادٍ قد مدَّته سيولٌ جارية من شعابٍ مختلفة، وكطيبٍ تركّب من أخلاطٍ من الطيب كثيرة، فيستغرب عيانُه، ويغمض مستبطنُه، ويذهب في ذلك إلى ما يُحكى عن خالدٍ بن عبد اللهِ القسريِّ(1)، فإنّه قال: حفّظني أبي ألف خطبة ثمّ قال ليَ: تناسَ ها، فتناسيتُها؛ فلمْ أرِدْ بعد ذلكَ شيئًا من الكلام إلاّ سَ هُلَ عليَّ. فكان حِفظُه لتلك الخطب رياضةً لفهمِهِ، وتهذيبًا لطبعهِ، وتلقيحًا لذهنهِ، ومادّةً لفصاحتهِ، وسببًا لبلاغته ولسنهِ وخطابتهِ»(2).

فابن طبا طبا في كتابه المذكور الذي يُعدُّ من أخصب الكتب النقديَّة التي وصلتْ إلينا(3)، يشيرُ صراحةً إلى التَّمرُّس بتراث الآخر كون هذا التمرس ينتجُ التَّأثر الذي يستبين من خلال ما يبقى من أثر.

ولم تغبْ هذه الفكرة عن ذهن القاضي الجُرجاني (ت 366 ه)، بل أكَّدها بقوله: «وما زالَ الشاعرُ يستعينُ بخاطرِ الآخر، ويستمدُّ من قريحتهِ...»(4).

أمّا أبو هلال العسكري (ت 395 ه) فقد عقد فصلاً تحدَّث فيه عن حُسن الأخذ وطرقه مؤكِّدًا من خلاله على ضرورة التأثر بالآخر، مُشبِّهًا الأديب المُبتدئ بالطفل الذي لا يتعلمُ النُّطق الصَّحيح إلاّ بعد استماعه من البالغين، فقال «ولولا أنّ القائل يؤدّى ما سمع لما كان في طاقته أن يقول، وإنما ينطقُ الطّفلُ بعد

1- خالد بن عبد الله القسري أحد الخطباء المشهورين. ولي مكة سنة 89 ه، والكوفة والبصرة سنة 105 ه. سجنه يوسف بن عمر وعذبه، ثّم قتله في أيام الوليد بن يزيد سنة 126 ه. ينظر: الأعلام 2 / 297

2- عيار الشعر 10

3- ينظر: النظرية النقدية عند العرب 233

4- الوساطة بين المتنبي وخصومه 185

استماعه من البالغين»(1).

وهذا الدور غير المتناهي الذي أعطاه أبو هلال للمُحيطِ بالأديب، تنبّهَ إليه الدكتور طه حسين، ورأى أنّ الفردَ لا يستطيعُ تكوينَ نفسهِ «من لا ـ شيء وإنما جاء من أسرته أوّلاً، ولم يكدْ يرى النّور حتَّى تلقتهُ الحياةُ الإجتماعيَّة فصوّرتهُ في صورتها، وصاغتهُ على مثالها وأخضعتهُ لمؤثِّر اتها التي لا تُحصى. فعنصر الفرديّة فيه ضئيلٌ لا يكاد يحسُّ إلاّ أن يمتازَ هذا الفردُ، وامتيازه نفسه يرد في كثيرٍ من الأحيانِ إلى الحياةِ الإجتماعيَّةِ التي أنشأتْهُ»(2).

أمّا ابن رشيق القيروانيُّ (ت 456 ه) – ومن خلال توصياته للأديب – فإنّه بدا موافقًا تمام الموافقة لتوصيات بعض من سبقه من النقاد أمثال: أبي هلال، وابن طباطبا وغيرهم. ومن ذلك قوله: «وليأخذ نفسه بحفظ الشعر والخبر، ومعرفة النسب، وأيام العرب؛ ليستعمل بعض ذلك فيما يريده من ذكر الآثار، وضرب الأمثال، وليعلق بنفسه بعض أنفاسهم ويقوى بقوة طباعهم»(3).

ويؤكد القيروانيُّ هذه المسألة بنص آخر موصيًا الشُّعراء بأنْ «لا يستغني المولد عن تصفح أشعار المولدين؛ لما فيها من حلاوة اللفظ، وقرب المأخذ، وإشارات الملح، ووجوه البديع الذي مثله في شعر المتقدمين قليل»(4).

ومهما يكن من شيء فإنّ هذه الإحاطة بالتراث الأدبي التي دعا إليها النُّقّاد كان القصدُ من ورائها تكوين نص إبداعيٍّ جديد «يتمثلُ إبداعُه في بنائِهِ النُّصوص

1- الصناعتين 202
2- خصام ونقد 257
3- العمدة 1 / 197
4- العمدة 1 / 198

السَّابقة عليه ويتجاوَزُها طارحًا قوانينه الخاصَّة التي يُعادُ توظيفُ النُّصوصِ القديمة من خلالها»(1).

وإذا مـا انتقلنا إلى حازم القرطاجنّي (ت 684 ه) وجدناه يشايعُ أسـلافه من النّقّاد العرب مبرزًا هذا الأمرَ بطريقةٍ فيها مسـحة فلسـفيّة حين جعـل للأـديب ثلاث قوى – كما يرى الـدكتور منصور عبـد الرحمن – تكونُ ثمرتُها في القوَّة الصانعـة، التي تبرز فيها مقـدرة الأديب على التأليف، ولكن هذه القوّة تكون خاضعة لقوَّتين سابقتين:

الأولى:

القوّة الحافظة، أي الذاكرة وهذه القوة لا تتأتى للأديب إلاّ عن طريق مُخالطة النُّصوص والتّبصُّر بمنهاج القول.

الثانية:

القوَّة المائزة، تلك القوّة التي يستطيع بها الأديب أنْ يتبيّن مواضع الجمال وأسبابه، وينتقي منها ما يُلائم الحاجة(2).

ولعملية التأثير والتأثر والتي أسماها الدكتور داوود سلوم ب(الإنتقال) ثلاثة حدود تقوم عليها هي:

الحد الأوّل:

المرسل من الأدب المؤثِّر، وقد يكون كتابًا، أو تيّارًا، أو فكرة.

ص: 20

1- إشكاليات القراءة والتأويل 257

2- ينظر: معايير الحكم الجمالي في النقد الأدبي 210 - 212

الحد الثاني:

الأخذ ويقصد بهِ المتلقي، أو هو ذلك النتاج الذي وقَع عليه التأثير(1).

ويرى الباحث – هنا – أنَّ درجـة التأثير تقف و تُحدَّد على أساس هاتين الجهتينِ أو الحدَّين، أي بمدى قوّة الأولى وإبداعها، ومدى إيمان – الإيمان الباطني(2)– وتقبُّلِ الثانيـة، فكلما كان الإبداع من الأولى أكثر، كان التقبل من الثانية والتأثير عليها أبلغ، ومن ثمّ كان الأثرُ أوضح، ويمكن أنّ نستـدِّلَ على ذلك بقول الجاحظ (ت 255 ه): «فإذا كان المعنى شـريفًا، واللفظ بليغًا، وكان صـحيحَ الطبعِ، بعيدًا منَ الاستكراهِ ومنزهًا عن الاختلال مصونًا عن التكلفِ، صنعَ في القلبِ صنيعَ الغيثِ في التُّربةِ الكريمةِ...»(3).

الحدُّ الثالث:

الوسيطُ وهو الذي قامَ بنقلِ ذلك العملَ(4). وهـذا الحـدُّ – مثلما يراه الباحث – ليس حتميًا كالحدَّين الأوّلين، إذ نرى كثيرًا من الأدباءِ تأثرَ بعضهم بالأخر دون الحاجة إلى هذا الحد، سواءً ذلك داخل أدب الأمّةِ الواحدةِ، أم بينَ أدبينِ لأمتين مختلفتين.

ص: 21

1- ينظر دراسات في الأدب المقارن التطبيقي 21

2- يشير الباحث بذلك إلى الجهات الإسلامية التي ناوأت الإمام عليه السلام في الظاهر، بينما هم في قرارة أنفسهم يعتقدون صحة منهجه، وعلى ذلـك أكثر من دليلٍ ودليل، فعنـدما دخل ضـرارُ بن ضـمرة على معاويـة طلب منه الأخير أن يصف أمير المؤمنين عليه السـلام فأبى ضرار، ولكن ألـحَّ عليه معاويـة فقال ضـرار: «... فكان والله بعيد المدى شديد القوى، يقول فصـلاً، ويحكم عدلاً، يتفجّرُ العلمُ من جوانبه، فبكى معاوية وقال: رحم الله أبا الحسن، فلقد كان كذلك...»، زهر الآداب 1 / 78

3- البيان والتبيين 1 / 61

4- دراسات في الأدب المقارن التطبيقي 28

وبعد حدود التأثر تجدر الإشارة إلى الطرق التي من خلالها نتبيّن أو نحدِّد ذلك الأثر، والّتي يمكن حصرها في طريقتين:

الأولى:

الاعتراف أو التَّصريح من قبل الأديب المتأثر، بأنّه تأثر بأديب ما، ومثال ذلك ما قاله عبد الحميد الكاتب (ت 132 ه) حين سُئِلَ ما الّذي خرَّجكَ في البلاغة، قال: «حفظُ كلام الأصلع»(1). وبطبيعة الحال يكون هكذا «اعتراف مفتاح البحث المثمر الأكيد»(2).

الثانية:

التشابه، أي التشابُه بين الأعمال الأدبيَّة، والذي يُعدّ ضرورة لابُدَّ منها في دراسة التأثير والتأثُّر، كونها تمثِّل «نقطة البدء الضّروريّة الّتي تُتيح لنا اكتشاف تأثُّر أو اقتباس، أو غيرَ ذلك، وتتيح لنا بالتَّالي أنْ نفسِّرَ أثرًا بأثرٍ تفسيرًا جزئيًا»(3). وهذه الطريقة يلجأ إليها حتى مع وجود الإعتراف والتصريح، إذ لا بُدَّ من الرجوع إلى النَّصَّين وعمل مقارنة بينهما لإثبات التأُثُّر، ولكن مع الحيطة والحذر والأخذ بالحسبان من أن «يكون هذا التشابه بين النَّصين خادعًا...، بل قد يكون التشابه الأدبي نتيجة صدفة، أو من المواضيع المشتركة بين قرائحِ الإنسانيَّة»(4).

ومن هذا نستنتج أنَّ هنالك نوعين من التشابُهات:

1- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب 61 ، وينظر: رسائل البلغاء 17

2- في الأدب المقارن مقدِّمات للتطبيق 10

3- الأدب المقارن (فان تيغيم) 20

4- في الأدب المقارن مقدِّمات للتطبيق 11

الأول:

تشابُه مُسلَّم بأَنَّهُ جاء نتيجة للتأثُّر، وهذا بطبيعته يكون في المعاني الخاصّة، وكذلك يكون في الأخذ النصيِّ كالإقتباس، والتضمينِ.

الثاني:

تشابه يلفهُ الشَّك، وينتابُه عدم اليقين من كونه جاء نتيجةً للتأثُّرِ أمْ لا، ودرجة الشكِّ هذه تتوقف على درجة التشابه، إذ كلَّما كان التشابه أكبر، قابله شكٌ أقل.

وإذا كان الأمر هكذا – وهو كذلك – كان لزامًا على الباحث أن لا يعُدَّ كلَّ تشابهٍ بين كلام أمير المؤمنين عليه السـلام وكلام غيرهِ من الأدباء – مـدة الدّراسة – أثرًا للنَّصِّ العلوي، كون بعض مصادر الكلاميين مشتركة، وأهمُّها القرآن الكريم، الذي ظهر أثرُه بطريقتين: أوّلُهُما مباشـر عـن طريـق اللَّفـظ، والأسـلوب، والغرض، والمعنى. والآـخر غير مباشـر وذلـك حين مكّنَ العرب من الإختلاـط بغيرهِمُ مِن الأـمَمَ ذواتِ الحضارة الرَّائعة(1)، حتى نقلهم هذا الأثر «من حجرِ ضبٍّ إلى مُلكٍ واسعِ الرِّفعةِ مُترامي الأطراف»(2).

ثمَّ الحـديث النبوي، الـذي يُعدُّ هو الآخر منهلاً لأولئك الأدباء، ولأسـباب عدّة منها: إنه نقل لنفسه ما للقرآن من أثر جليل في اللغة العربية وآدابها فصار نبتًا لـذلك الغرس، أو هو مرآة عاكسـة، أي أنّ الحـديث النبوي الشـريف أثر في اللّغة العربية بالكيفية التي أثر فيها القرآن(3). وكان من أوائل الذين تأثروا

1- ينظر: اثر القرآن الكريم في اللغة العربية 11 – 12

2- م. ن 11

3- ينظر: أثر الأدب النبوي في الأدب العربي حتى نهاية العصر الأموي 9

بالقرآن الكريم أمير المؤمنين عليه السـلام، فكان يسير مع القرآن «جنبًا بجنب، يدعو، ويهدي، ويبين»(1). مثلما تأثرَ بالرسول عليه السلام وقد أوضح جانبًا من هذا بقوله:

«وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اِتِّبَاعَ اَلْفَصِيلِ أَثَرَ أُمِّهِ يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلاَقِهِ عَلَماً وَ يَأْمُرُنِي بِالاِقْتِدَاءِ بِهِ»(2).

ولكن هـذا – على صـعوبته – لا يمنع من معرفة الابتكارات والإبداعات التي أتحف بها الامام عليه السـلام الأدب العربي، وتأثّر ها الأدباء فيما بعد.

وتجـدر الإشارة هنا إلى أنّه بعـد أن عرفنا أنّ النصَّ المتأثر هو ذلك النص «الـذي لم يكتب ما لم يكن صاحبه قد أطّلع قبل كتابته على نصٍّ غيره»(3).

فهـل هـذا الأـثر وبأي طريقـةٍ ورد لـم يكن بمـدعاة عيب، ولا يتنافى مع الأصالـة مثلما قال: (بول فاليري): «لا شـيء أدعى إلى إبراز أصالة الكاتب وشخصـيته من أن يتغذى بآراء الآخرين، فما الليث إلاّ عدة خرافٍ مهضومة»(4). أم ينبغي – من أجل الاحتفاظ بمشـروعية عملية التأثير والتأثر – السـير على وفق شـروط وقواعد لتبتعد هذه العملية عن مفهوم السرقة؟ وحقيقة هذا أمر قيل فيه كثير جدًّا، وأهم ما يهمّنا هنا هو أن الأثر يظهر بمظاهر عـدة في نتاج الأديب المتأثر، كالتضـمين، والإحتـذاء، والبسط، وغير هـذا، والتركيز على هذه المظاهر من حيث هي وإثبات أنّ الأديبين المخصوصين بالدراسة سلوكها أهم بكثير من الخوض في أنّ التضمين هل هو سرقة محضة، أم إبداع؟.

1- عليٌّ من المهدِ إلى اللَّحدِ 73
2- نهج البلاغة 348
3- الأدب المقارن (مجدي وهبة) 15
4- الأدب المقارن (د. محمد غنيمي هلال) 18

وبعبارة أخرى «إنَّ الأخذ، أو السرقة، أو التقليد، أو الإتّباع موجود في فنون النثر جميعًا، ولم تقتصر على فنِّ الشعر»(1). فكل هذه المصطلحات ومثلما يراها الباحث ولادات – سواءً أكانت شرعية أو غير شرعية – للتأثّر، وإلاّ لماذا يسرق الأديب، أو يضمّن، أو يحتذي، أو يختزل نصًّا ما، أليس لأنّه تأثّر بذلك النص ورغب في أن يكون ضمن دائرة عطائه الأدبي.

ثمَّ بعد هذا لو تمَّ تحديد الأثر يبقى هنالك سؤال مفاده هل أنّ هذا الأثر «متَّسِمٌ بعدم القصدية... بشكل عفوي، غير مقصود»(2)، أم هو متَّسِمٌ بالعفوية وعدم القصد تارةً، والقصد والوعي الكامل تارةً أخرى(3).

أمّا الباحث فيرى أنَّ هذهِ التأثيرات – لو ثبتت – فهي مقصودة في معظمها، على إعتبار أنّ النَّصَّ المُتأثِّرَ مرَّ بمرحلتين:

الأولى:

انتقال التأثير هذا من النَّصِّ الأدبي إلى فكر المُتلقي، وإعتلاجه في صدره.

وهذهِ المرحلة لا يُنكِرُ أحد كونها مقصودة، وبإرادة المتلقي، كما ويرى الباحث – أيضًا – أنّ هذهِ المرحلة أهمُّ من لاحقتها لأنّ الأثر الذي سيُحدَّد في نصٍّ ما متوقِّف عليها، ومرتبط بها.

الثانية:

انتقال التأثير من فكر المتلقي إلى نصِّهِ الأدبي إذا كان أدبيًا. وبما أنّه المرحلة

1- السرقات الأدبية 66

2- المسبار النقدي 139

3- ينظر: قضايا الحداثة 151

الأولى مقصودة، فعلى الأرجـح تكون الثّانية مقصودة أيضًا، وإن تباعدت المدة الزّمنيّة بين المرحلتين، وبعبارة أخرى: لا يهمنا متى حدثت المرحلـةُ الثانيـة مـا دامت تلك الصور، أو التأثيرات التي رغب بها الأدباء «كامنـةً في مخيِّلتهم، حتى يحينَ الوقتُ فيؤلِّفوا منها الصُّورَة التي يُريدونها»(1).

ص: 26

1- في النقد الأدبي 167

الفصل الأول كلام الإمام علي عليه السلام من حيث التوثيق والتأثير

ص: 27

المبحث الأوّل: نظرة توثيقية

اشارة

على كلام الإمام على عليه السلام من خلال:

أوَّلاً: جمعه المبكّرو

بعض مصادره.

إن المطّلع على تراث أمير المؤمنين عليه السلام يجدُ حقيقة لا مفرَّ منها، وهي أنّ هذا الكلام أو بعضه، حُفِظ ودوِّن ساعةَ إلقائه، وهذا نابع من أسباب عدة: أهمها تأثير هذا الكلام، والتأثر به؛ لأنّ ما يحمله من ميزات فاقت غيره من الكّلام حتّمت التوجه نحوه، ودعت إلى الاهتمام به وإعطائه الأولوية منذ وقت مبكّر جّداً، وهذا يعني إنّ الشريف الرّضي لم يكن هو أوّل من جمع كلاماً لأمير المؤمنين عليه السلام، بل سُبِقَ إلى ذلك بقرون، وأمامنا على ذلك أدلّةٌ ثلاثة: الأوّل:

التصريحات الواضحة والصريحة التي جاءت من مصادر سبقت الشريف الرضي والتي أكّدت جمع كلام أمير المؤمنين عليه السلام. قال الجاحظ

ص: 29

(ت 255 ه) «هذه خطب رسول الله صلى الله عليه وآله مدّونة محفوظة ومخّلدة مشهورة، وهذه خطب أبي بكر وعمر وعثمان وعلي»(1) وفي البيان والتبيين دوّن الجاحظ حكمة أمير المؤمنين عليه السلام: «قيمةُ كُلِّ إنسانٍ ما يُحسِنُ»(2)ثم علق عليها بقوله: «فلو لم نقف من هذا الكتاب إلاّ على هذهِ الكلمة لوجدناها كافية شافية ومجزية مغنية، بل لوجدناها فاضلة على الكفاية وغير مُقصِّرة عن الغاية»(3) فقول الجاحظ «فلو لم نقف من هذا الكتاب...» يرى فيه الباحث من الممكن أن يكون الكتاب الذي وقف عليهِ الجاحظ هو أحد الكتب التي جمعت كَلامَ أمير المؤمنين عليه السلام، فأخذ الجاحظ منه الحكمة المذكورة، علماً أنَّ الجاحظ ،هو الذي قال بأ-ن خطب علي مدوَّنه ومحفوظة، وهذا يدلّ بوضوح على أنّ خطب أمير المؤمنين عليه السلام كانت بين يدي الجاحظ فأخذ منها. ويمكن أن يكون الكتاب هو كتاب البيان والتبيين لكنّ الأول هو الأصوب ويدعمه أيضاً قوله: «لو لم نقف...» ويُفاد من هذه العبارة أنّه قرأ كتاباً ووقف فيه على هذه الحكمة، وإلاّ لو كان كتابه لقال: لو لم ندوّن في هذا الكتاب، أو لو لم نُودِع في هذا الكتاب.

بعد الجاحظ أكّدَ لنا ابن واضح اليعقوبي (ت 292) هذه الحقيقة بقوله: «كان علي بن أبي طالب عليه السلام مشتغلاً أيّامه كلّها بالحرب، إلاّ أنّه لم يلبس ثوباً جديداً، ولم يتخذ ضيعةً، ولم يعقد على مالٍ، إلاّ ما كان بينبع والبغيبغاء مما يتصدّق به، وحفظ الناس عنه الخطب، فأنّه خطب بأربعمائة خطبة، حفظت عنه، وهي

1- البيان والتبيين 1 / 127

2- م. ن 1 / 61

3- م. ن 1 / 61

التي تدور بين النّاس، ويستعملونها في خطبهم وكلامهم»(1).

أمّا المسعودي (ت 346 ه) هو الآخر أحصى خطب أمير المؤمنين عليه السلام فقال:

«والذي حفظ الناس من خطبهِ في سائر مقاماته أربعمائة ونيّف وثمانون يوردها على البديهة وتداول الناس ذلك عنه قولاً وعملاً»(2).

ومن الـذين أخبروا بأنّ كلام أمير المؤمنين عليه السـلام كان مجموعاً سـبط ابن الجوزي (ت 654 ه) مسـنداً حديثه إلى الشريف المرتضى (ت 436 ه)قال: «وقعَ إليَّ من خطب أمير المؤمنين عليه السلام أربعمائة خطبة»(3).

من هذا نعرف أنَّ كلام أمير المؤمنين عليه السـلام كان مدوّناً ومحفوظاً، بل كان فاعلاً ومؤثراً، يدور بين الناس، يسـتعملونه ويستشهدون بهِ، وبطبيعة الحال سيكون للأدباء الحظ الأوفر من هذا الشأن، كونهم أصحاب مهنة ويعرفون من أين ينهلون لدعم كلامهم.

وبعد هذه الاعترافات الصـريحة التي شـهدت وأكّدت على تأثير كلام أمير المؤمنين عليه السـلام بشكل فعَّال يستنتج الباحث استنتاجاً يراه مهمًّا جدّاً، وهو كالآتي:

إنّ الذين سبقوا الشريف الرّضي، أو الذين لحقوه تحدّثوا عن أعدادٍ متقاربة لخطب أمير المؤمنين عليه السلام • ابن واضح: أربعمائة خطبة.

• المسعودي: أربعمائة ونيف وثمانون.

1- مشاكلة النّاس لزمانهم 15

2- مروج الذهب 2 / 419

3- تذكرة الخواص 128

● ابن الجوزي: أربعمائة.

وهـذه الأعـداد على الأرجـح هي أعداد الخطب والرسائل معاً إذ من غير المتوقع، وغير المعقول أن تُجمَعَ الخطب ولم تجمَعِ الرسائل ولم يُتَحدَّث عنها ولا عن أرقامها.

أمّا الشـريف الرضـي فجمع في نهج البلاغة «ثلاثمائة وعشرين» بين خطبة ورسالة. وينبغي أن نأخذ بعين الإعتبار انّه أقرَّ بعدم جمعه لكلام أمير المؤمنين عليه السلام كاملا، بل قال: «كتاب يحتوي على مختار كلام مولانا أمير المؤمنين عليه السلام»(1).

ولهذا السبب أي الاختيار القائم على الاصطفاء قلَّت الأعداد في نهج البلاغة عن الأعداد إليَ تحدَّثَ عن سابقوا الرضي.

وفي العصر الحديث جاء صاحب مستدرك نهج البلاغة وأردف الخطب والرسائل التي جمعت في النهج ب(مائة وثمان وثلاثين) بين خطبة ورسالة.

أي أنّ «عدد الخطب في نهج البلاغة (241) + عدد الخطب في مستدرك نهج البلاغة (93) = 334.

عدد الرسائل في نهج البلاغة (79) + عدد الرسائل في مستدرك نهج البلاغة (45) = 124.

المجموع: 334 + 124 = 458»(2).

إذاً الحصـيلة شـبه النهائية التي حصلنا عليها هي (458) خطبـة ورسالة وهذه الحصـيلة التي جاءت في القرن العشـرين لو قارنّاها بالأعداد التي صدرت في

1- نهج البلاغة 8

2- مع المشككين في نهج البلاغة 82

القرون الأولى لوجدنا بينهما قرباً قريباً جدّاً، كما هو عند:

• بن واضح: أربعمائة • المسعودي: أربعمائة ونيف وثمانين • ابن الجوزي: أربعمائة يقابلها أربعمائة وثمان وخمسون من النهج ومستدركه، وهذا لم يحدث بمحض الصدفة مطلقاً، وإنّما هو نتيجة طبيعية شرعيّة لما صدر من خطب ورسائل عن مولانا أمير المؤمنين «صلوات الله عليه»، وعلى هذا فإنّ العدد الحديث يدعم بشدة الأعداد القديمة، والأعداد القديمة تؤكد ما صدر حديثاً.

الثاني:

أسماء الكتب التي وصلتنا والتي اختصت بجمع كلام أمير المؤمنين عليه السلام ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

1 - كتاب «خطب أمير المؤمنين عليه السلام على المنابر في الجمع والأعياد وغيرها» لزيد بن وهب الجهني الكوفي ت 96 ه(1).

2 - كتاب «خطب أمير المؤمنين عليه السلام» لمسعدة بن صدقة العبدي (ت 183 ه)، يكنّى أبا محمد، روى عن أبى عبد الله الصادق عليه السلام (استشهد 148 ه)، وعن أبي الحسن الكاظم عليه السلام (استشهد 183 ه)(2).

وهذا الكتاب كان موجوداً في زمن السيد هاشم البحراني (ت 1109 ه)

1- ينظر: الفهرست للطوسي 131

2- ينظر: رجال النجاشي 322

ونقل عنه كثيراً في تفسير «البرهان» وذكره في مقدمة التفسير[1].

3 - كتاب «خطب علي عليه السلام» لأبي الحسن علي بن محمد بن عبد الله بن أبي سيف المدائني (ت 225 ه). وله كتب أخرى منها: كتاب رسائل النبي صلى الله عليه وآله، وكتاب (المغازي)، وكتاب (السرايا)[2].

4 - كتاب «مائة كلمة لأمير المؤمنين» أختارها وجمعها الجاحظ (ت 255 ه).

قال عنها الخوارزمي (ت 568) بحديث مسند: «قال أبو الفضل احمد بن أبي طاهر[3]صاحب أبي عثمان الجاحظ: كان الجاحظ يقول لنا زماناً: إنّ لأمير المؤمنين عليه السلام مائة كلمة،كُلّ كلمة منها تفي ألف كلمة من محاسن كلام العرب.

قال: وكنت أسأله دهراً بعيداً أن يجمعها ويمليها عليَّ وكان يعدني بها ويتغافل عنها ضنّاً بها. قال: فلما كان أخر عمره أخرَج يوماً جملةً من مسودّاتِ مصنفاته، فجمع فيها تلك الكلمات وأخرجها إليَّ بخطّه فكانت الكلمات المائة هذهِ لو كُشِفَ لي الغطاءُ ما ازددت يقيناً...»[4].

وبعد ذلك كان جمع الجاحظ لهذهِ الكلمات السبب المباشر في تأليف كتاب «غرر الحكم ودرر الكلم» لعبد الواحد الآمدي (ت 550 ه)، فقد احتجَّ هذا الأخير بشدّة على الجاحظ، لإختصارهِ على هذه المائة فقط، لذا قال وهو يقدّم

1- ينظر: مصادر نهج البلاغة 1 / 147

2- ينظر: الفهرست لابن النديم (ت 380 ه) 147 - 149. وينظر: معجم الأدباء 13 / 131

3- هو أحمد بن أبي طاهر كان من الكُتّاب البلغاء، وكان شاعراً وراوياً لهُ كتاب بغداد المصنّف في أخبار الخلفاء ولِدَ في بغداد سنة (20 ه) وتوفي بالشام سنة (280 ه) ينظر: تأريخ بغداد 4 / 433

4- مناقب الخوارزمي 338 - 340

لكتابه المـذكور: «فإنّ الـذي حـداني على تخصـيص فوائـد هـذا الكتاب... ما تبجّـحَ» بهِ أبو عثمان الجاحظ عن نفسه... وحدّده من المائة حكمـة... التي جمعها عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السـلام. فقلت: ياالله العجب! من هـذا الرَّجل وهو علامـة زمانه، ووحيد أقرانه... كيف عشـيَ عن البـدر المنير؟ ورضـي من الكثير باليسـير؟... وإني مع كسوف البال... جمعتُ يسـيراً من قصـير حكمه... يخرس البلغاء عن مساحته... سميته غُرر الحِكَم و دُرر الكلم»(1).

وهـذه المائة كلمة ونسـبتها للجاحظ أكدّها حديثاً بروكلمان واسـماها «أمثال سـيِّدنا علي، يُنسب جمعُها إلى الجاحظ، كما روى ذلك ابن قتيبة في عيون الأخبار(2)»(3).

الثالث:

التأثيرات الكبيرة والكثيرة جـدًّا التي تركها كلام أمير المؤمنين عليه السـلام، بما يـدلُّ على أنّ كلامه كان مجموعاً منـذ القرن الأول للهجرة، وهذا ما ستتكفَّل الدراسة بيانهِ في الفصلين القادمين.

أمّا بالنسـبة للمصادر التي من المُحتمل أن يكون جامع نهج البلاغة نقل عنها كونها روت كلام أمير المؤمنين عليه السلام الموجود في نهج البلاغة فهي كثيرة جدّاً. وقبل الحديث عن بعضها تجدر الإشارة إلى أمرين مهمين هما:

1- غرر الحكم ودرر الكلم 14
2- بعـد الرجوع إلى كتاب (عيون الأخبار) لم أجـد هـذا فيه فأمّا بروكلمان أشـتبه في إسم الكتاب الـذي نقلَ عنه وإمّا يـدٌ عبثت بالكتاب. وعلى كلِّ الأحوال فإن كتاب (المائة كلمة) مطبوع ومتوفر بالمكتبات
3- تأريخ الأدب العربي 1 / 179

1 - إنّ الشريف الرضي عندما جمع كلام أمير المؤمنين عليه السلام وأودعه في الكتاب الذي أسماه (نهج البلاغة) لم يُرد لهُ أن يكون كتاباً فقهيّاً أو تـأريخيّاً مـدعوماً بالأسانيـد والأحـداث وتواريخهـا، بـل أراد لهُ أن يكون كتاباً أدبياً ومثلما قال هو: «يتضـمن من عجائب البلاغـة، وغرائب الفصاحة، وجواهر العربية...»(1) علمّا أنّ الرضي لم يكن عاجزاً عن ذكر تلك الأسانيد. ودليل الباحث على ذلك أنّ الرضيَّ نفسه وفي كتابه خصائص أمير المؤمنين كان قد ذكر كلاماً عن أمير المؤمنين عليه السلام مع سندهِ التام، فقال: ومن كلامه عليه السلام لكميل بن زياد النَّخعي على التَّمام حـدثني هارون بن موسى قال: حدثنا أبو علي محمّد بن همام الإسـكافي قال: حدثنا أبو عبد الله جعفر بن محمّد الحسـيني قال: حدثنا محمد بن علي بن خلف قال: حدثنا عيسـى بن الحسـين بن عيسى بن زيد العلوي عن إسحاق بن إبراهيم الكوفي عن الكلبي عن أبي صالـح عن كميل بن زياد النَّخعي قال: أخذ بيدي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السـلام فأخرجني إلى الجبّانة، فلما أصحر تنفّسَ الصعداء، ثم قال: ياكميلَ بن زياد، إنَّ هذهِ القلوبَ أوعيةٌ، فخيرُها أوعاها، فأحفظ عنّي ما أقول لك: الناس ثلاثةٌ...»(2).

بينَما في نهج البلاغة ذكر الرضي هذا الكلام مرفوعاً إلى كميل بن زياد دون المرور بهذا السند «قال كميل بن زياد: أخذ بيدي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فأخرجني إلى الجبانة...»(3).

ص: 36

1- نهج البلاغة 8
2- خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام 86
3- نهج البلاغة 578

وحقيقـة ومن جانب الـذوق الأدبي لو كانت هكـذا أسانيد في نهج البلاغة لذهب من متعته ورونقه الكثير، كون القارئ يبقى منشـغلاً بهذه العنعنـة المملّـة إلى حـدَّ ما، والتي تؤثر سـلباً على التلقي، لأنّ المتلقي يريـد التفاعل مع النّص وما يثيره فيه من عاطفة وخيال... بعيداً عن هكـذا أسانيـد هي ليست من وكـدهِ، ولعلَّ الرضـي كان متنبِّهاً لـذلك، كونه أديباً يعرف أين تتحققُ المتعة الأدبية كاملةً، في أيِّ طريقةٍ، وأيّ نصٍّ.

2 – إنَّ الكتب التي كانت متوفرة بين يدي الرضـي، أو في زمنه لا يمكن التّكهن الدقيق بإعدادها وأسـمائها، لأنها كانت كثيرة جدّاً من جهة. ولم يبق منها إلاّ صـبابة كصبابة الإناء من جهةٍ أخرى. فقد كانت لأخيه السيد المرتضى (ت 436 ه) مكتبة تحتوي على ثمانين ألف كتاب، ولكنهـا دُمِّرت من قبل السـلاجقة(1)، مثلمـا أحرقت قبـل هـذه مكتبـة الصـاحب بن عبـاد (ت 385 ه) التي كـانت فهارسـها فقط عشر مجلّدات(2). أما مكتبة (دار العلم) التي أسَّسها سابور(3)بن أردشير (ت 450 ه) والتي كانت من أغنى دور الكتب في عاصمة العباسيين، فقـد تعرضت هي الأخرى للإحراق(4)، قـال عنها الحموي (ت 626 ه): «لم يكن في الـدنيا أحسنُ كتبـاً منهـا كانت كلها بخطوط الأئمة المعتبرة وأصولهم المحرّرة، واحترقت فيما أُحرِقَ من

1- ينظر: المحرقة الكبرى 110
2- ينظر: م. ن 129
3- هو سابور بن أردشـير وَزِرَ لبهاء الدولة أبي ناصـر بن عضد الدولة ثلاث مّرات وكان كاتباً شديداً أسـس في بغداد مكتبة أسماها دار العلم فيها أكثر من عشرة آلاف مجلّد أحرقت عند مجيء طغرل بك. توفي ببغداد سنة 450 ه. ينظر: المنتظم في تأريخ الملوك والأمم 16 / 49
4- ينظر: الشافي في الإمامة 1 / 10

محال الكرخ عند ورود طغرل بك أوّل مُلوك السلجوقية إلى بغداد سنة 447 ه»(1)، وإلى هذا المصير أيضاً ذهبت كتب الفاطميين التي بلغ عددها مليون وستمائة ألف كتاب(2).

ومن هذه الأمثلة ما أورده صاحب كتاب شذرات الذهب في معرض ترجمته للإمام الصادق عليه السلام، فقال: «.. الإمام سلالة النبوّة أبو عبد الله جعفر بن محمد الصادق بن الإمام محمد الباقر... قد ألف تلميذه جابر بن حيان الصوفي كتاباً في ألف ورقة يتضمَّن رسائله وهي خمسمائة»(3)ولكن لم يصلنا لا الكتاب ولا الخمسمائة رسالة.

والذي يهم الدراسة من هذهِ المجازر التي تعرّضت لها أمات المصادر العربية هو كم هي الكتب التي كانت بين يدي الشريف الرضي، والتي قرأها وأخذ عنها؟ ثمَّ كم هو العدد الذي وصلنا منها؟ أليس «الباقي من الكتب التي ألفها المسلمون.. إلاّ نقطة من بحر مما أحرقه الصليبيون، والتتر،...»(4).

وإذا كان الأمر هكذا فهل يُلام أحد إذا بقيت خطبة أو خطبتان من نهج البلاغة لم يُعثر عليها في كتاب سبق النهج؟ والأعجب من ذلك أن هناك كتبًا جاءت بعد النهج بمئات السنين لم يطالبها أحد بسند، بل ما جاء فيها يؤخذ بهِ وبدون تشكيك خذ مثلاً كتاب صبح الأعشى وصاحبه

1- معجم البلدان 1 / 534
2- ينظر: تاريخ التمدن الإسلامي 3 / 231. وعن هذا الموضوع أيضًا ينظر: مصادر نهج البلاغة 1 / 26 - 37
3- شذرات الذهب 220
4- المحرقة الكبرى 141

القلقشندي ت(756 ه).

وعلى أية حال فلمّا ظهرت هذه الشبهة حديثاً - شبهة المصادر - إنبرى لها من الباحثين وذكروا للنهج من المصادر الكثيرة ومنهم: عبد الزهراء الكعبي في كتابهِ «مصادر نهج البلاغة وأسانيده» إذ ذكر فيه مائة وتسعة مصادر لنهج البلاغة(1).

وكذلك الدكتور إبراهيم السامّرائي في كتابه (مع نهج البلاغة دراسة ومعجم) فكان قد جعل لنهج البلاغة ذكراً من سبعة مصادر(2)، ولكن مصادر السامّرائي ليست فيها زيادة تذكر على مصادر الكعبي.

أمّا الباحث فيردف تلك المصادر بمصدرٍ واحدٍ وهو كتاب «التعازي والمراثي» للمبرد (ت 285). فقد ذكر المبّرد في هذا الكتاب مقطوعات كثيرة من كلام أمير المؤمنين عليه السلام كان قد دوّنها الشريف الرضي في نهج البلاغة ومن ذلك: «قال عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه للأشعث بن قيس(3)وقد عزّاه عن ابنٍ له يا أشعث، إن تجزع على ابنك فقد أستحقّت ذلك منك الرحم، وإن تصبر ففي الله الخلف - يا أشعث -، إنّك إن صبرت جرى عليك القدر وأنت مأجور، وإن جزعت جرى عليك القدر وأنت مأزور»(4). فهذا الكلام موجودٌ في نهج البلاغة مع تغيير طفيف(5). وغير هذا فقد استشهد المبرد بحكمٍ لأمير المؤمنين عليه السلام فى

1- ينظر مصادر نهج البلاغة وأسانيده 27 - 37

2- ينظر: مع نهج البلاغة دراسة ومعجم 30

3- هو معدِ يكرب بن قيس وسمي الأشعث لشعث رأسه وهو من كندة أنجب محمّداً شرك في مقتل الإمام الحسين عليه السلام وجعدة التي سمت الحسن عليه السلام وهو شرك في قتل أمير المؤمنين عليه السلام. ينظر: طرائف المقال 3 / 165. وينظر: الكنى والألقاب 2 / 34 - 35

4- التعازي والمراثي: 205 - 206

5- ينظر: نهج البلاغة 606

مواطن عدّة(1)دوّنت فيما بعد في (نهج البلاغة)، فمن الممكن رجع الشريف الرضي إلى هذا الكتاب وأخذ منه تلك الحكم، أو إلى غيرهِ.

ثانيا: التشكيكات فيه

لعلّ الحديث عن الشكوك التي أثيرت على كلام الإمام علي عليه السلام يُعدُّ من نافلة القول، ولكن بعَد أن عنّت للباحث مسائل تتعلّق بهذا الأمر وتسهم في الدفاع عن حياض كلام أمير المؤمنين عليه السلام بدحض ما أُثير من شبه حول كلامه عليه السلام وبخاصة المجموع منه في نهج البلاغة، سجَّلها معزّزاً إيّاها بردود سابقة.

قبل الخوضَ في هذهِ الشكوك، وإلى كلِّ من ألقى السَّمع وأصبح شهيداً ينبغي الإلتفات إلى سببين رئيسين يبدِّدان كلَّ الإثارات التي أُثيرت حول كلام الإمام عليه السلام لخَّصهما الدكتور زكي مبارك بقوله:

«عندنا في هذا المقام مشكلتان: الأولى عبقرية علي بن أبي طالب عليه السلام، عبقريته الخطابية والإنشائية، والثانية ضمير الشريف الرضي... فقد كان معروفاً إنَّ ابنَ أبي طالب له مجموعة من الخطب تحدّثَ عنها الجاحظ في مطلع القرن الثالث، وهل يعقل أن تضيع آثار ابن أبي طالب ضياعاً مطلقاً وكان في زمانه وبشهادة خصومه من أفصح الخطباء، فأين ذهبت آثاره في الخطابة والإنشاء؟ وهل يعقل أن تضيع آثاره وحوله أشياع يحفظون كُلَّ ما يُنسَب إليه؟ هل يعقل أن يحفظ الناس أشعار العابثين والماجنين من أهل العصر الأموي وينسوا آثار خطيب قَتلَ بسيفه ألوفاً من أبطال الحروب؟ ومن الذي يتصور أنَّ الذاكرة العربية تحفظ أشعار النصارى واليهود وتنسى خطب الرجل الذي غُسِّلَ بدمه في يومٍ من أيام الفتن؟... أما ضمير الشريف الرضي فهو عندي فوق الشُّبهات، وهو خدم التشيّع بالصدق لا بالإفتراء، فإن كان جمع

ص: 40

1- ينظر: التعازي والمراثي 2، 9، 97، 118، 206، 302

آثار علي بن أبي طالب عليه السـلام خدمة سياسـية لمذهب التشيع فهو ذلك ولكنها خدمة بأسلوب مقبول، هو إبراز آثار أمير المؤمنين عليه السلام، ولا يُعاب على الرجل أن يخدم مذهبه السياسي بجميع الوسائل والأساليب ما دام في حدود العقل والذوق»(1).

إذاً هنالك دعامتان أساسيتان تمنعان وتبدّدان الشكوك هما:

1 – عبقرية الشخص الذي جُمِع كلامه، وقدرته على الإبداع في كل حينٍ، وكلِّ موضوع.

2 – وثاقة ونزاهة الشخص الذي جمع هذا الكلام.

3 – ثم نردفها بثالثة وهي حفظ الكتاب – نهـج البلاغـة – من الدسِّ والتحريف؛ لأنّ النسـخة التي وصـلت إلى عبد الحميد ألمعتزلي (ت 656 ه) واعتمدها في شـرحه هي بخطِّ الرضي نفسه(2)، فضـلاً عن أنّ هناك نسـخاً موجودة اليوم لنهج البلاغة منها في مكتبة السيد محمد الطباطبائي في طهران وتأريخها (512 ه) وغيرها(3).

وعليه فالكتاب سالم من التحريف، والجامع موثوق، ومنشئ الكلام عبقري، إذاً من أيِّ باب يدخل الشك؟.

وما دام ورد ذكر وثاقة الرَّضـي يودّ الباحث عمل مقارنة سـريعة بين جامع النهج (الرضي)، وبين باذر بذرة التشكيك الأولى (ابن خلكان ت 681)؛ ليتبيّن مَنْ منهم يستحِقُّ التصديق والإتباع؟

ص: 41

1- عبقرية الشريف الرضي 1 / 222 - 223

2- ينظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 12 / 20، 19 / 374

3- ينظر: نهج البلاغة لمن 54 (الهامش)

أمّا الشـريف الرّضـي، فما قاله عنه الدكتور زكي مبارك: من أنّ ضـميره فوق الشّبهات، هو أمر مسلّمٌ بهِ، معروف قديماً، مُجمَع عليه عند أهل العلم. قال الثعالبي (ت 427 ه) وهو من معاصري الرّضي: «هو أبو الحسن محمد بن الحسين بن موسى بن محمد بن إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السـلام... وهو اليوم أبدع أبناء الزمان، وأنجب سادة العراق، يتحلّى مع محتدهِ الشريف، ومفخره المنيف، بأدب ظاهر وفضل باهر، وحظٍّ من جميع النّاس وافر، ثمّ هو أشعر الطالبيين، من مضى منهم ومن غبر على كثرةِ شعرائهم... ولو قلت إنّه أشعر قريش لم أبعد عن الصدق»(1). وكانَ ابن أبي الحديد يسميه عدلاً وقال عنه: «خبرُ العدل معمول به»(2).

وأمّا ابن خلكان، فقد قال عنه الصـفدي (ت 764)، وابن شـاكر الكبّي (ت 764 ه)، وهـمـا أقرب أصـحاب التراجم لهُ زمناً وفكراً: «وكانَ له ميـلٌ إلى بعض أولاد الملوك ولهُ فيه الأشـعار الرائعـة، يقال إنّه (....)(3) ثم قال ألصـفدي: أخبرني.. القاضـي جمال التبريزي... قال: كان الذي يهواه القاضـي شـمس الدين هو الملك المسـعود، وكان قد تيّمه حبّه فكنت أنام عنده في العادلية فتحدثنا في بعض الليالي إلى أن راح النّاس من عنـده فقال لي نم أنت، وألقى عليَّ فروة، وقام يـدور حول البركـة في العادليـة ويكرر هذين البيتين إلى أن أصـبح وتوضأ وصـلينا. والبيتان المذكوران:

ص: 42

1- يتيمة الدهر 3 / 155
2- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 18 / 328
3- الخبر لا يليق ذكره هنا

أنا والله هالك آيس من سلامتي أو أرالقامة التي قد أقامت قيامتي ويقال إنّه سأل بعض عما يقوله أهل دمشق عنه فاستعفاه فألحّ عليه فقال:

يقولون إنّكَ تكـذب في نسـبك، وتأكـل الحشـيشة، وتحب الغلمان، فقال: أمّا النسب والكـذب فيه فإذا كان ولا بـدّ منه فكنت أنتسب إلى العبـاس، أو إلى علي بن أبي طالب، أو إلى أحـد الصـحابة، وأمّا النسب إلى قومٍ لم يبق لهم بقيّة وأصـلهم فرس مجوس فما فيه فائـدة، وأمّا الحشـيشة فالكلّ ارتكاب محرّم، وإذا كان ولا بـد فكنت أشـرب الخمر لأنّه ألـذ، وأمّا محبة الغلمان فإلى غدٍ أُجيبك عن هذهِ المسألة»(1) نخلص من النص إلى مـا يأتي 1 - كان لابن خلكان ميلٌ شديـد للغلمان ! 2 - لم يجد ابن خلكان لنفسهِ نسـباً معيّناً، بل كان يخيّر نفسـه حسـبما قـال مرّة لابـن عباس وأخرى لأمير المؤمنين عليه السـلام أمّا المجوس فلم ينتسب لهم لأنّ ذلك ليس فيه فائـدة ! 3 - كان يفضل الخمرة على الحشـيشة ؛لأن الأولى ألـذ ! وفعلاً لم يتعرض لتراث أمير المؤمنين عليه السـلام ويقدح فيه إلاّ هكذا نماذج. ولـم يدافع عنه إلاّ الشريف الرضي وأمثاله.

وعلى الرغم من ذلك ينبغي الوقوف على بعض التشكيكات، والتي منها:

ص: 43

1- الوافي بالوفيّات 7 / 203 - 204، وينظر: فوات الوفيات 1 / 155 - 156

الوقفة الأولى: وقفة مع المشككين الروّاد وتشكيكاتهم

مثلما سبق، وبحسب المصادر التأريخية يُعدُّ ابن خلكان رائداً لبذرةِ التشكيك في كلام أمير المؤمنين عليه السلام المجموع في نهج البلاغة، وذلك بقوله: «وقد اختلف النّاس في كتاب نهج البلاغة المجموع من كلام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، هل هو جمعه - أي المرتضى - أم جمعُ أخيه الرّضي.

وقد قيل أنّهُ ليس كلام علي، وإنّما الذي جمعه ونسبه إليه هو الذي وضعه، والله العالم»(1).

وكلام ابن خلكان هذا مردود بنظر الباحث من وجوه عدّة منها:

أ - إن هذه التهمة قائمة على عبارتين وهما في الحقيقة مجهولتين بوضوح «وقد اختَلَفَ الناس - وقد قيل». من هؤلاء الناس الذين اختلفوا أو قالوا؟ لماذا لم يتكلموا هم؟ ولماذا لم يذكر ابن خلكان أسماءهم وتصريحاتهم دعماً لحجتهِ وهو المؤسس ومن ثم يكون بحاجة ماسَّةَ لمن يدعمه ويعضد ما ذهب إليه؟ ب - أين الأدباء والنقاد الذين سبقوا ابن خلكان، ثمّ أين الأدباء والنقاد العباقرة الذين عاصروا الرضي أو جاؤوا بعده؟ إذ المدة التي تفصل نهج البلاغة عن أوّلِ تشكيك هي ما يقارب 280 عاماً؛ لأنّ النهج أُلِفَّ في تمام المائة الرابعة للهجرة، وابن خلكان (ت 681 ه) علماً أنّ هذه المدّة المديدة عرفت من الأدباء، والنقاد، وأصحاب الذوق ما أعجز الدهر أن يأتي بمثلهم فكيف خفي عليهم ذلك؟

ص: 44

1- وفيات ألأعيان 3 / 313

ج – ليس في كلام ابن خلكان شيءٌ واضح يستطيع أحدُ الردَّ عليه إلاّ قوله:

«هل هو جمعه أم جمع أخيه «وفي هذه العبارة اعترف ابن خلكان من حيث يدري أو لا يدري بأن الكلام هو ليس من إنشائهما، بل هو من جمع أحدهما هذا أولاً، ثانياً: إنّ نهج البلاغة مثبت ومؤكد جمعه من قبل الشريف الرضي، وبشهادة الرضي نفسه إذ قال في كتابهِ (حقائق التأويل): «... فلينعم النظر في كتابنا الذي ألفّناه وسمناه ب«نهج البلاغة»»(1). وقال في كتابه (المجازات النبوية): «وقد ذكرناه... في كتاب نهج البلاغة »(2)هذا فضلاً عن مقدمته التي قدّم بها للنهج. ثمّ شهادة معاصريه كالنّجاشي (ت 450 ه) الذي قال في ترجمة الرضي «محمد بن الحسين بن موسى... لهُ كتب، منها: حقائق التنزيل،... كتاب نهج البلاغة»(3) وشهادة المعاصرين ومنهم شوقي ضيف – الذي يُعدَّ من أشد المشككين – الذي قال:

«فالكتاب من عمل الشريف الرضي»(4).

وبعد ابن خلكان سارَ مَنْ سار على نهجه ومنهم الذهبي (ت 748 ه) الذي قال في ترجمته للشريف المرتضى: «عليّ بن الحسين العلوي الحسيني الشريف المرتضى المتكلم الرافضي المعتزلي... وليَ نقابة العَلَويّة، ومات سنة ست وثلاثين وأربعمائة.. وهو المتهم بوضع نهج البلاغة.. ومن طالع نهج البلاغة جزم بأنّه مكذوب على أمير المؤمنين علي (رضي الله عنه).. ففيه السبّ الصُّراح على السيدين أبي بكر، وعمر رضيَ الله عنهما، وفيه التناقض والأشياء الركيكة،

ص: 45

1- حقائق التأويل 167

2- المجازات النبوية 391

3- رجال النجاشي 398

4- الفن ومذاهبه في النثر العربي 62

والعبارات التي مَنْ له معرفة بنفس القرشين الصحابة ونفس غيرهم ممن يعدهم من المتأخِّرين جزم بأنّ الكتاب أكثره باطل»(1).

وهذا مردودٌ أيضاً بالتالي:

أ – أمّا تهمة الخلط بين مَنْ جمع النهج فقد عرفتَها سابقاً.

ب – المرتضى لم يكن معتزلياً، بل هو من علية أتباع مدرسة أهل البيت، وإلاّ كيف «ولي نقابة العَلَوية» مثلما قال الذهبي نفسهُ، ثم أليس الذهبي هو من قال – في كتاب آخر له – عن المرتضى: «عالم الإمامية أبو طالب علي بن الحسين... الشريف المرتضى»(2). إذاً فما هذا التناقض عند الذهبي بين كتاب وآخر؟ مرّة يعد المرتضى علويًّا رافضيًّا إماميًّا، وأخرى يعدّه معتزليًّا؟ ج – ليس في الكتاب أيّةُ ركاكة في العبارة، بل الذين طلب الذهبي الرجوع إليهم أو قال عنهم إنّهم لهم «معرفة بنفس القرشيين..» ذهبوا، بل أجمعوا على خلاف ما ادّعاه الذهبي تماماً، سواءً في القديم أو الحديث. قال ابن أبي الحديد في وحدة كلام أمير المؤمنين عليه السلام الأسلوبية وتناسقهِ من أولهِ إلى آخرهِ: «مَنْ قد أنسَ بالكلام والخطابة، وشدا طرفاً من علم البيان، وصار له ذوقٌ في هذا الباب لا بُدّ من أن يفرِّقَ بين الكلام الركيك والفصيح، وبين الفصيح والأفصح، وبين الأصيل والمولّد،... ألا ترى إنّا مع معرفتنا بالشعر ونقدهِ، ولو تصفّحنا ديوان أبي تمام، فوجدنا قد كتب في أثنائهِ قصائد أو قصيدة واحدة لغيره، لعرفنا بالذوق مباينتها لشعر أبي تمام ونَفَسه، وطريقتهِ ومذهبه في القريض، ألا ترى أنّ العلماء بهذا الشأن حذفوا من شعرهِ قصائد كثيرة منحولة إليه، لمباينتها لمذهبه

1- ميزان الاعتدال 3 / 124

2- تذكرة الحفاظ 3 / 109

في الشـعر... وأنت إذا تأمّلت «نهـج البلاغة» وجدته كلّه ماءً واحداً، وأسـلوباً واحداً، كالجسم البسـيط الذي ليس بعض من أبعاضه مخالفاً لباقي الأبعاض في الماهية، وكالقرآن العزيز، أوّله كأوسطه، وأوسطه كآخره»(1).

أمّا في العصـر الحـديث فقـد علت الأصوات التي أكـدّت هذه الميزة في نهج البلاغة، فقد قال محمد محيي الدين عبد الحميد: «ليس من شك عند أحد في ذلك، وليس عند أحد في إنّ ما تضمنّهُ الكتاب جارٍ على النهج المعروف عند أمير المؤمنين عليه السلام، موافق للإسلوب الـذي يحفظهُ الأدباء والعلماء من كلامه الموثوق بنسـبته إليه»(2)، حتى عُدّت الوحدة الإسـلوبية هذه في كلام أمير المؤمنين عليه السـلام سنـداً قوياً على صـحة كلام الإمام وصـدورهِ القطعي عنه عليه السـلام، إذ قال الأسـتاذ الهنداوي: «لا نكاد نرى كتاباً انفرد بقطعات مختلفة يجمعها سـلك واحد من الشخصـية الواحدة والإسلوب الواحد، كما نراه في نهج البلاغة، لذلك نقرّر ونكرِّر إنّ النهج لا يمكن أن يكون إلاّ لشخصٍ واحدنَفَخَ فيه نفس واحد»(3).

هذا هو طَرَفٌ من شـهادات أولئك الذين قال عنهم الذهبي لهم معرفة بنفس القرشـيين من الصحابة وغيرهم، لكنّ رياحهم جاءت تماماً بما لا تشـتهيه سـفينةُ شـكِّه، وكان الأجـدر بالذهبي أن يستشـهد ولو بعبارة واحدة من تلك التي وصـفها بالرّكيكة حتى يثبت ما ادّعاه، ويجعل القارئ على بيّنة من ذلك.

1- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 10 / 304
2- مجلة تراثنا ع 1 / 103
3- فضائل الإمام علي 72 (الهامش)

إذاً فنهج البلاغة ينتظمه إسلوب واحد رفيع المستوى، ومن طرازٍ خاص،لا يصدر إلاّ عن واحد، ولا يستطيع أحدٌ أن يتقمّصه.

ثمَّ من هذا الذي وصل إلى هذا المستوى وكتب بإسلوب وبلاغةٍ لا يُميَّزان عن كلام أمير المؤمنين عليه السلام؟ لماذا لا يُظهر نفسَه حتى ينال من الخلود ما ناله أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الجانب؟ بل كيف خفي قديماً ولا يزال مخفيّاً عند قومٍ لا يخفى عليهم هكذا أمر لشدة تقديسهم له؟ ومن المناسب هنا إيراد رأي الأمير شكيب أرسلان لّما سُئِلَ عن صحة ما في نهج البلاغة، فقال: «إذا كان نهج البلاغة موضوعاً فمن هو واضعه؟ هل هو الشريف الرضي؟ فقالوا له: نعم. فقال: إنَّ الشريف الرّضي لو قُسِّم أربعين رجلاً ما استطاع أن يأتي بخطبةٍ واحدة قصيرة من خطب نهج البلاغة، أو جملة من جمله»(1).

د – لم يكن في نهج البلاغة السب الصراح مثلما قال الذهبيِ، لكنه أشار بكلامهِ هذا إلى الخطبة الشقشقية، التي قال عنها الدكتور إبراهيم السامّرائي – وهو من طائفة المشككين طبعاً –: «وليس لدارسٍ أن يقول أن الشقشقية ليست لعلي، بل هي له، وهي تشير أشارات صريحة إلى ما كان يعتلج في نفسه مما يشعر أن حقّه قد سُلِبَ»(2).

والشقسقية من خطبه وقد أكدها المؤرخون وبطرقٍ متعددة. قال ابن الخشاب(3)(ت 567 ه): «وإني لأعلم أنّها كلامه – يعني الإمام علي – والله لقد

1- أعيان الشيعة 1 / 540

2- مع نهج البلاغة دراسة ومعجم 10

3- هو عبد الله بن أحمد بن عبد الله بن نصر بن الخشّاب،كان أعلم أهل زمانه بالنحو وكانت له = معرفة بالحديث واللغة والفلسفة والحساب والهندسة. روى كثيراً من الحديث، صنّفَ الرد على الحريري في مقاماته. وشرح اللمع لابن جني ولم يتمه وغيرهما كثير توفي سنة (567 ه) ينظر: الوافي بالوفيات 17 / 11

وقفت على هذهِ الخطبة في كُتُبٍ صُنِّفَتْ قبل أن يُخلقَ الرضـي بمائتي سـنة، ولقد وجدتها مسطورة بخطوطٍ أعرفها، وأعرف خطوط مَن هو من العلماء وأهل الأدب قبل أن يخلق النقيب أبو أحمـد والد الرضـي»(1)، وبعـد ذلك قال ابن أبي الحديـد: «قد وجدت أنا كثيراً من هذهِ الخطبة في تصانيف شـيخنا أبي القاسم البلخي(2)... ووجـدت أيضـاً كثيراً منها في كتاب أبي جعفر(3)بن قبـة أحد متكلمي الإمامية وهو الكتاب المشهور المعروف بكتاب (الإنصاف)»(4) أمّا الباحث فيؤكد هذه الخطبة من خلال طريق آخر لا يقبل الضلال أيضاً، وهو اعتماد بعض أصـحابِ المعجمات اللغوية على بعض فقراتها، وهذا دليل على صدورها من المنبع المؤسس الأصيل للكلام العربي، وهذا السبب دعاهم للإستشهاد بكثيرٍ منها. ومن تلك المعجمات التي عثرنا فيها على بعضٍ من

ص: 49

1- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 1 / 158

2- هو عبد الله بن أحمد بن محمود يكنى أبا القاسم من متكلمي المعتزلة، وأسس طائفة عندهم تسمى بالكعبية. أقام ببغداد ثم عاد إلى بلخ فأقام بها وتوفي هناك(سنة 319 ه). ينظر: تأريخ بغداد 9 / 392. وينظر: وفيات الأعيان 3 / 46

3- هو محمد بن عبد الرحمن بن قِبَة الرازي متكلّم عظيم القدر حسن العقيدة، قوي الكلام كان معتزليّا ثمَّ أصـبح إمامياً. له كتب عدّه منها (المسـتثبت) و (الإنصاف في الإمامة) نقل منه الشيخ المفيد في كتاب العيون والمحاسن. ينظر: معجم رجال الحديث 16 / 136، وينظر: معجم المؤلفين 10 / 184 - 149

4- شرح نهج البلاغة 1 / 159

فقرات الخطبة الشقشقية:

1 – النهاية في غريب الحديث، فقد ذكر منها:

– «حديث عليٍّ في خطبةٍ له: تلك شقشقةٌ هدرت ثمَّ قرَّت»(1).

– «حديث عليٍّ رضي الله عنه: أصولَ بيدٍ جذّاء»(2).

– «حديث علي: والناس حولي كربيضة الغنم»(3).

2 – لسان العرب، فقد ذكر منها:

– «وفي حديث عليٍّ (رضوان الله عليه) في خطبة له تلك شقشقة هدرت ثمَّ قرَّت»(4).

– «وفي حديث عليٍّ كرّم الله وجهه: أصول بيدٍ جذّاء»(5).

– «وفي حديث علي رضي الله عنه: والناس حولي كربيضة الغنم»(6).

3 – القاموس المحيط، فقد جاء فيه: «والخطبة الشقشقية العلوية لقولهِ، لابن عباس،... هيهات، تلك شقشقة هدرت ثم قرَّت»(7).

4 – تاج العروس، استشهد ببعضها فقال:

ص: 50

1- النهاية في غريب الحديث 2 / 490. (باب الشين مع القاف)
2- م. ن 1 / 250 (باب الجيم مع الذال)
3- م.ن 2 / 185. (باب الراء مع الباء)
4- لسان العرب 10 / 185 مادة (شقق)
5- م. ن 3 / 479 مادة (جذذ)
6- م. ن 7 / 153 مادة (رض)
7- القاموس المحيط 3 / 251

- «والخطبة الشقشقية: وهي الخطبة العلوية... سميت بذلك: لقولهِ لابن عباس رضي الله عنهم ... يا ابن عباس هيهات، تلك شقشقة هدرت ثم قرّت»(1).

- «وفي الحديث: كربيضة الغنم»(2).

وصاحب المعجم المذكور هنا اكتفى بقولهِ: وفي الحديث دون أن ينسبه لَمِن.

ولكنهُ عُرِف ممّا مضى.

- «وفي حديث عليٍّ رضي الله عنه: أصول بيدٍ جذّاء»(3).

5 - المعجم الوسيط: «ويُقال: شقشقة هدرت ثمَّ قرَّت»(4).

وأصحاب هذا المعجم لم يذكروا صاحب هذا القول وأكتفوا ب(يُقال)، وبحسب ظنّي الأمر يعود إلى أن من بين مؤلفي هذا المعجم هو الأستاذ الكبير أحمد حسن الزيّات، والزيّات هو من المشككين بكلام أمير المؤمنين عليه السلام ولهذا ذكر هذه الكلمات لأهميتها دون ذكر قائلها حتى لا يكون حجة على المشككين هو وغيره.

هذا هو ذكر لبعض المعجمات وبعض الجمل التي أُخذت من الخطبة الشقشقية.

ومن أولئك الذين وثّقوا هذه الخطبة وأكّدوا عليها هو ابن الجوزي

1- تاج العروس 13 / 250 باب (شفلق)
2- م. ن 10 / 57 باب (ربض)
3- م. ن 5 / 354 باب (جذذ)
4- المعجم الوسيط إبراهيم مصطفى وآخرون 1 / 491 (باب الشين). وينظر: المعجم الوسيط إبراهيم أنيس وآخرون 1 / 489 (باب الشين)

(ت 654)، الذي قال عنها: «ذكر بعضـها صاحب نهج البلاغة وأخلَّ بالبعض، وقد أتيتُ بها مسـتوفاة: أخبرنا بها شيخنا أبو القاسم النّفيس بإسـناده عن ابن عباس قال: لما بُويعَ أمير المؤمنين عليه السـلام بالخلافـة ناداه رجل من الصف وهو على المنبر: ما الذي أبطأك إلى الآن؟ فقال بديهاً: أما والله لقد تقمصها فلان وهو يعلم أنّ محليَّ منها محلُّ القُطب من الرَحا... الخ الخطبة»(1).

وواضح هنا من كلام سـبط ابن الجوزي إنّه مطلع على الخطبة من غير طريق نهج البلاغة، بل هي برواية شـيخه أبي القاسم وبسـند إلى عبد الله بن عباس، ثمَّ بعـد المقارنـة التي أجراها سـبط ابن الجوزي بين الخطبتين، أي الخطبـة التي عنـده والخطبة التي دونها الرضـي في نهج البلاغة خرج بمحصّلة هي إن الرّضي لم ينقلها كاملةً بل «ذكر بعضها... وأخلَّ ببعض».

ومن المنـاسب هنا أن نقف مع ما ذكره الأسـتاذ الكبير أحمـد زكي صـفوت حول الخطبـة، فبعـد ما ذكره – أي الأسـتاذ – من كلام ابن أبي الحديـد السابق الذكر حول الخطبة صـرح قائلاً: «من ذلك يتبين لك أن الشقشـقية كانت معروفة قبل مولد الرضـي من أكثر من طريق. فلا تبعـة إذن عليه، ولا سبيل إلى إتهامه بإنتحالها ولكنّا مع ما نرى فيها من جزالـة اللفظ، وروعة الأسـلوب التي تغرينا أن ننظمها مع كلام علي في سلك واحدٍ. نتراجع حين يبدو شَبحُ الشك ماثلاً فيها...»(2).

فما جاء في ذيل كلام الأسـتاذ فيه من الغرابة شـيء؛ فالأسـتاذ هنا يقرُّ بأنها كانت موجودة قبل الشريف الرضي، ثم جاء الرضي وأكدّها هذا من ناحية

1- تذكرة الخواص 117

2- ترجمة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام 134

السند والرواية التأريخية. أمّا من ناحية الأسلوب فقد رأى الأستاذ أنها داخلة ضمن إسلوب الإمام وطريقتهِ. ولكن مع هذا كله لماذا تراجع الأستاذ الكبير؟ ثمَّ أيُّ دليل تقتضيه الوثاقة أكثر من الدليلين اللذين ذكرهما هو: الرواية التأريخية، وموافقة الأسلوب؟

الوقفة الثانيةً: وقفة مع شبهة الطول في كلام الإمام علي عليه السلام

اتّخذَ بعض الباحثين الطول الذي ورد في بعض خطب أمير المؤمنين عليه السلام كالخطبة المسماة بالقاصعة وبعض رسائله كعهدهِ لمالك الأشتر (رضوان الله عليه) ذريعة للتشكيك في نهج البلاغة. فقد ذكر الدكتور نايف معروف في كتابه الأدب الإسلامي هذه الشبهة قائلاً: «كثرة الخطب وطولها،لأنّ هذه الكثرة وهذا التطويل مما يتعذر حفظه، وضبطه قبل عصر التدوين»(1).

وقال الأستاذ المرحوم أحمد زكي صفوت: «فإذّا يخالج نفوسنا الشك في عهد الأشتر لا من حيث ما ورد فيه من النظريّات السياسية والعمرانية، لأنّا لا نستبعد صدور مثل هذا من الإمام... وإنّما يخالجنا الشك فيه من حيث طوله وإسهابه»(2).

وبنظر الباحث هذا مردود بالتالي:

أ – أما بالنسبة لكثرة الخطب، وردّاً على ما ذكره الدكتور نايف معروف؛ فإنها كانت معروفة ومؤكدّة قبل أن يُجمع نهج البلاغة، بل حتى قبل أن تُعقد للرضي

1- الأدب الإسلامي 54

2- ترجمة الإمام علي بن أبي طالب 128

نُطفـة، بل إنّ الذين تحدثوا عن عدد خطب أمير المؤمنين عليه السـلام ومن سابقي الرضـي تحدّثوا عن (480 ونيف) خطبة، بينما الرضي دوّن في النهج (241) خطبة، أي نصف العدد المذكور تقريباً، وهذا ما أفرغ منه الباحث سابقًا(1).

ب – وبالنسـبة للإطالة في الخطب، وبصورة إجمالية، فهذا أمرٌ قد عُرِفَ عند العرب، وذكرَ أربابُ المصـنفات في مصنفاتهم أطرافاً عنه، فقد نَقَـل لنا الجاحظ عن قيس بن خارجـة أنه خطب بخطبـةٍ: «يوماً إلى الليل فما أعاد فيها كلمـةً ولا معنى»(2). ولْنَتَصور هنا كم سـيملأ هذا الخطاب المذكور لو دوّن. ولنهب أنَّ في هذا الكلام شـيئاً من المبالغة، ولنفترض أنّه خطب بنصف يومٍ، أو ضـحى من نهار أيضاً كم سيملأ من الكراريس؟ وهل سيبقى العهد أو الخطبة القاصعة قباله طويلان؟.

أمّا ما ذكره الـدكتور بدوي طبانة من أنّ «الخطيب صار فيه انحناء فساعدته العصا على انتصاب قامته»(3)أليس هذا الإنحناء راجع إلى طول الموقف وطول الموقف عائـدٌ بـدوره إلى طول الخطبـة؟ وعليه فالطول في الخطب ورغَبـة الخطيب في ذلك موجودة قبل أمير المؤمنين عليه السلام.

ج – لوعدنا للتطويل عند الإمام علي بخاصة، لوجدناه من مزايا خطابه التي قد عُرِفَ بها قبل أن يجمع بعض كلامه في نهج البلاغة. وهذا ما أكّده الجاحظ بقوله: «لم يكن عمر من أهل الخطب الطوال، وكان كلامه قصيراً، وإنّما

1- تنظر: الرسالة 3 – 4

2- البيان والتبيين 1 / 79

3- السرقات الأدبية 21

صاحب الخطب الطوال عليٌّ بن أبي طالب عليه السلام»(1)؛ فالجاحظ الذي هو مضطلع في الأدب العربي باتفاق الجميع، كان متنبِّهاً إلى ميزة طول الخطب عند أمير المؤمنين عليه السلام دون غيرهِ من الصحابة.

وقال ابن دأب(2): «فأدركتُ النّاس وهم يعيبون كُلَّ مَن استعان بغير الكلام الـذي يشبه الكلام الذي هو فيه، ويعيبون الرّجل الذي يتكلّم ويضرب بيده على بعض جسمه، أو على الأرض، أو يدخل في كلامه ما يستعين بهِ. وهم يقولون: كان عليه السلام – أي أمير المؤمنين – يقوم فيتكلم من ضحوةٍ إلى أن تزول الشمس لا يدخل في كلامه غيرَ الذي تكلَّم بهِ»(3).

وهذه هي ميزة ممتازة أخرى من مزاياه عليه السلام فعندما يعمد إلى التطويل لا يدخل في كلامه ما لا طائل منه، ولا يستشهد بكلام غير مصبوبٍ ومسبوك في المعنى الذي أراد. ومهما طال كلامه عليه السلام فإنه يُبقي المتلقي في حالةِ شدٍّ وشوقٍ دونما ملالةٍ أو سأم حتى غدا ينتج الخطب والعهود الطوال بطريقة خاصة تتميز عن كل من طوّلوا في ذلك، ولهذا قال هبة الدين الشهرستاني:

«إنّ الخبراء لو تأمّلوا نسج هذا العهد العلوي وموادهِ حكموا مبدئيّاً على أنّ... المنشيء لهذا العهد أمير عربي أديب. قضائي. فقيه. فلسفي. سياسي. إداري. روحاني. اجتماعي. ولم يسمح الدهر للعرب برجل جامع لهذه المزايا بعد محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعلي عليه السلام حتى ولا يدنو من ذلك نفسيّة الشريف الرضي أيضاً»(4). ولربما نسي الشهرستاني أن يقول: عسكري.

ص: 55

1- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 12 / 265

2- هو عيسى بن يزيد بن بكر بن دأب يكنّى أبا الوليد كان من أكثر زمانه علمًا وأدباً ومعرفةً بأخبار الناس. وكان معاصراً لموسى الهادي العباسي. ينظر: الكنى والألقاب 1 / 281 – 282

3- الاختصاص 155

4- الراعي والرعية 6 – 7

هذا بعض ممّا قيل في قدرة أمير المؤمنين عليه السلام على تطويل الخطب والرسائل. أما هو عليه السلام فقد تحدّث عن هذا الأمر فقال:

«واللهِ لو أمر تُكُم فجمعتُم من خيارِ كُم مائةَ، ولو شِئتُ لحدَّثتُكم من غدوةٍ إلى أن تغيب الشّمس؛ لا أخبرتكم إلا حقًّا»(1).

فهنا أكّد أمير البيان عليه السلام على أنّهُ قادرٌ على ذلك التطويل المهيب وبشرطٍ صعبٍ مستصعب وهو جعله ضمن دائرة الحق والصدق «لا أخبرتكم إلاّ حقًّا». وهذا غير داخل في باب المبالغة البتّة لأنهُ عليه السلام معصوم والمعصوم لا يتوكّأ على عنصر المُبالغة.

د – أما الشكوك الخاصة بالعهد حصراً. لأنّه طويل. فقد دُفِعت بالأدلة السابقة، مثلما تُدفع بأدلة أخرى قائمة على التأثير والتأثر وهي بالعشرات – ستأتي بعونهِ تعالى – ومنها: قال أبو هلال العسكري (ت 395 ه): «ومن حسن الإتباع.. قول إبراهيم بن العباس(2)حيث كتب: إذا كان للمحسن من الثواب ما يقنعه وللمسيء من العقاب ما يقمعه، ازداد المحسن في الإحسان رغبةً، وانقاد المسيء للحقّ رهبة. أخذه من قول عليّ بن أبي طالب (رضي الله عنه) أخبرنا به أبو أحمد، قال: أخبرنا أبو بكر الجوهري(3)قال: أخبرنا أبو يعلى ألمنقري(4)قال:

1- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 6 / 262

2- هو إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول ألصولي البغدادي شاعر، وكاتب مشهور لهُ ديوان شعر. وهو ابن أخت العباس بن الأحنف الشاعر. أتصل بذي الرياستين (الفضل بن سهل ثم تنقل في أعمال السلطان ودواوينه إلى أن توفي بسُرَّ من رأى سنة 243 ه.ينظر: وفيات الأعيان 1 / 44. ينظر: الوافي بالوفيات 6 / 19

3- هو محمد بن شاذان يكنى أبا بكر الجوهري البغدادي، مقرئ معروف، ومحدِّث مشهور، ثقة صدوق. توفي سنة 286 ه ينظر: تاريخ بغداد 2 / 428

4- أبو يعلى زكريّا بن يحيى بن خلّاد ألمنقري من أهل البصرة. كان من جلساء الأصمعي. ينظر: = الثقات 8 / 255

أخبرنا العلاء بن الفضل بن جرير(1)قال: قال عليّ بن أبي طالب (رضـي الله عنه) يجب على الوالي أن يتعهد أموره، ويتفقّد أعوانه، حتى لا يخفى عليه إحسان محسن ولا إساءة مسـيء. ثمَّ لا يترك واحداً منهما بغير جزاء، فإن ترك ذلك تهاون المحسن، واجترأ المسيء..»(2)وهذا المقطع من كلام أمير المؤمنين عليه السلام من مقاطع العهد، لكن الرضي أودعه نهج البلاغة مع تغيير طفيف:

«وَلاَ يَكُونَنَّ اَلْمُحسِنُ وَاَلْمُسِيءُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلَةٍ سَوَاءٍ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ تَزْهِيداً لِأَهْلِ اَلْإِحْسَانِ فِي اَلإِحْسَانِ، وَتَدْرِيباً لِأَهْلِ اَلْإِسَاءَةِ»(3).

ثمّ إننا نجد ابن المقفع (ت 142 ه) أخـذ هذا الكلام أيضًا، فقال: «ثمّ علي الملوك بعد ذلك، تعاهد عمالهم وتفقد أمورهم حتى لا يخفى عليهم إحسان محسن ولا إساءة مسيءٍ.

ثمّ عليهم، بعد ذلك، أن لا يتركوا محسـناً بغير جزاء، ولا يُقرّوا مسـيئاً، ولا عاجزاً على الإساءة والعجز. فإنهم إن تركوا ذلك تهاون المحسنُ، واجترأ المسيء»(4).

ومما أخـذه بن المقفع مؤكـدّاً عن العهـد قوله: «حقُّ الوالي أن يتفقَّد لطيف أمور رعيته، فضـلاً عن جسـمها، فإنّ للّطيف موضـعاً ينتفع بهِ، وللجسيم موضعاً لا يُستغنى عنه»(5).

1- هو العلاء بن الفضيل بن عبد الملك يكنى أبا الهذيل. بقي حيًّا إلى سنة 220 ه. ينظر ميزان الاعتدال 3 / 104
2- الصناعتين 220
3- نهج البلاغة 504
4- الأدب الصغير والأدب الكبير 146
5- الأدب الصغير والأدب الكبير 31

فهذا عن قولهِ عليه السلام:

«وَلاَ تَدَعْ تَفَقُّدَ لَطِيفِ أُمُورِهِمُ اتِّكَالاً عَلَى جَسِيمِهَا، فَإِنَّ لِلْيَسِيرِ مِنْ لُطْفِكَ مَوْضِعاً يَنْتَفِعُونَ بِهِ، وَلِلْجَسِيمِ مَوْقِعاً لاَ يَسْتَغْنُونَ عَنْهُ»(1).

فواضح جدّاً هنا كيف أخذ ابن المقّفَع قول الإمام عليه السلام:

«تفقّد لطيف أمورهم اتكالاً على جسيمها».

وقال:

«يتفقد لطيف أمور رعيته فضلا عن جسيمها».

وقول الإمام عليه السلام:

«فَإِنَّ لِلْيَسِيرِ مِنْ لُطْفِكَ مَوْضِعاً يَنْتَفِعُونَ بِهِ، وَلِلْجَسِيمِ مَوْقِعاً لاَيَسْتَغْنُونَ عَنْهُ».

الذي حوَّره قليلاً ابن المقفع: «فإنَّ للّطيف موضعاً ينتفع بهِ، وللجسيم موضعاً لا يُستغنى عنه». وغير هذا كثيرةٌ جدًّا هى التأثيرات التى تركها العهد. على نتاجات ابن المقفع، وسيعرف هذا لاحقاً بعونهِ تعالى.

إذاً فالعهد كان موجوداً ومقروءاً ومؤثِّراً. والطول في الخطابة كان موجوداً أيضاً وبخاصة عند أمير المؤمنين عليه السلام.

ه – إنّ من الأسباب المهمة وراء طول الخطب والرسائل عند أمير المؤمنين عليه السلام مثلما يرى الباحث هو القرآن، نعم القرآن نفسه؛ لأن العلاقة بين القرآن وترجمانه علاقة وطيدة متداخلة لا يمكن أن تحدَّ بمدى سواء من ناحية الشكل الكلّي أو المضمون. والقرآن – كما هو معلوم – فيه سورة البقرة وفيها

1- نهج البلاغة 507

(286) آية، وفيه سورة الكوثر وفيها (3) آيات.

وهكذا كان كلام أمير المؤمنين عليه السلام ففيه العهد ما يقارب (285) سطراً، وفيه الحكمة «النّاسُ أعداءُ ما جَهِلوُا»(1)وعلى هذا فمن الطبيعي جداً أن يكون القرآن ألقى فيما ألقى بظلاله على أمير المؤمنين مسألة التطويل، فورثها عليه السلام عن القرآن.

و - «ما وقع بين المسلمين من إختلاف مذهبي وسياسي أوجب على الخطيب الإطالة إيضاحا لفكرتهِ ودفاعاً عن مذهبه وتفنيداً لأقوال خصومه. ومن الخطب الطوال... طائفة من خطب علي»(2).

ى - مراعاة مقتضى الحال، قال الدكتور زكي مبارك: «وكان من الخطباء من يطيل، وكان منهم من يوجز... وسحبان بن وائل الذي عُرِفَ بالتطويل وبأنّه كان يخطب أحياناً نصف يوم أُثِرت عنه الخطب القصيرة الموجزة... وذلك يدلُّ على أنّ الفطرة كانت غالبة على ذلك العصر وأن القاعدة المطردة لم تكن شيئاً آخر غير مراعاة الظروف. ورسائل علي بن أبي طالب عليه السلام وخطبه ووصاياه وعهوده إلى ولاته تجري على هذا النمط، فهو يطيلُ حين يكتبُ عهداً يبين فيه ما يجب على الحاكم في سياسة القطر الذي يرعاه، ويوجز حين يكتب إلى بعض خواصه في شأنٍ معَّينٍ لا يقتضي التطويل»(3).

فأمير المؤمنين عليه السلام عندما كان يكتب لمن ولاّه يأمره بأن لا يقصّر لا في حقوق الخالق ولا المخلوق، موضحاً له صغائر الأمور وكبارها وفي وظائف الدولة كافة

1- م. ن 584
2- الخطابة العربية في عصرها الذهبي 41
3- النثر الفني في القرن الرابع الهجري 1 / 69

وعلى هذا لابُدَّ من أن يطول كتابه عليه السلام.

وهنا بودِّ الباحث الإشارة إلى أنّ الأثر الـذي تركه العهـد بخاصة كان ظهوره جليّاً على طبقة خاصّة وهي طبقة الحكام ومن كان في أروقتهم وتحت ظلهم وأمرتهم من الكتاب أمثال عبـد الحميـد، وابن المقفع وهـذا ما سيُعرف في قابل البحث إن شاء الله. ولعل السـبب في ذلك يكمن فيمـا ذكره ابن أبي الحديـد – وهو الراجـح عنـد الباحث – إذ قال في حـديث مسـند: «أنّ عليّاً لما كتب إلى محمّد بن أبي بكر هـذا الكتاب، كان ينظر فيه ويتأدب بأدبه، فلما ظهر عليه عمرو بن العاص وقتله، أخذ كتبه أجمع، فبعث بها إلى معاوية فكان معاوية ينظر في هذا الكتاب ويتعجَّب منه، فقال الوليـد بن عُقبـة، وهو عنـد معاويـة، وقـد رأى لك! قال معاوية: ويحك! أتأمرني أن أحرق علماً مثلَ هذا! والله ما سمعتُ بعمـل هو أجمع منه ولاـ أحكم. فقـال الوليـد: إن كنت تعَجبُ من علمه وقضائه فعلامَ تقاتله! فقال: لولا أنّ أبا تراب قتل عثمان ثم أفتانا لأخذنا عنه. ثمَّ سكت هنيهة، ثمَّ نظر إلى جلسائهِ فقال: إنّا لا نقول: إنّ هذهِ من كُتب علي بن أبي طالب؛ ولكن نقول: هذه من كُتب أبي بكر الصديق كانت عند ابنه محمد فنحن ننظر فيها، ونأخذ منها. قال – أي الراوي –: فلم تزل تلك الكتب في خزائن بني أمية؛ حتى ولي عمر بن عبد العزيز فهو الذي أظهر أنها من أحاديث علي بن أبي طالب عليه السلام»(1).

وفي هـذه الروايـة يبـدو أنّ الذي أُخذ بعد إستشـهاد محمد بن أبي بكر (رضوان الله عليه) أكثر من كتاب، بل كتب عدّة «أخذ كتبه أجمع»، «إنّ هذهِ من كتب...

1- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 6 / 223

كانت». وعلى كلّ الأحوال فيمكن أن يكون من بين تلك الكتب عهـد الإمام لمالك الأشتر، حيث قال عنه ابن أبي الحديـد بعـد ذكره لهذهِ الروايـة «الأليق أن يكون الكتاب الـذي كان معاوية ينظر فيه، ويعجب منهُ، ويفتي بهِ، ويقضـي بقضاياه وأحكامه هو عهد علي عليه السـلام إلى مالك الأشتر... وهـذا العهد صار إلى معاوية لما سُمَّ الأشتر ومات قبل وصوله إلى مصـر؛ فكان ينظر فيه ويعجب منه، وحقيق من مثله أن يقتنى في خزائن الملوك»(1).

وبعد هذا يمكن القول: أنّ معاوية ومن جاء بعده قد أطلعوا كُتَّابهم على العهد المذكور ولهذا كثُر تأثّرُهم بهِ.

الوقفة الثالثة: شبهة الصيغ الفلسفية

والإصـطلاحات الكلامية أو مباحث علم التوحيد والعدل الإلهي يُعرَّف علم الكلام أو علم التوحيد بأنه «علم يتضـمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، وهذا العلم - فيما أعتقد - هو النتاج الخالص للمسـلمين»(2)ومن أوائل أولئك المسلمين هو أمير المؤمنين عليه السـلام، فقـد اشـتهر بالبحث الـدقيق والمعمق في هـذا العلم، لأنّه أراد نشـر الصـفات الإلهيـة الحقّـة غير المتلبسّـة بالترسـبات اليهودية والمسـيحية مثل التجسـيم والتشبيه وهذه العملية «لم تكن عملية سـهلة أبداً بل كانت ضرباً من ضروب المجازفة والمخاطرة بأعزّ ما يملكه المبلِّغُ التوحيدي»(3). وهذا العلم هو وحده من أنصف الذات الإلهية،

1- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 6 / 223 - 224

2- نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام 30

3- الإمام علي في الفكر المسيحي المعاصر 395

وهو الذي ردَّ ويردَّ على أولئك الذين كأنّهم «خلقوا ألهتهم بأيديهم»(1).

وأمير المؤمنين عليه السلام بنهضته تلك قد رام التأكيد على أنّ الدين الإسلامي الحنيف هو مثلما قال الدكتور نظمي لوقا: «دين يؤكّد وجود الله، وانّه خالق الخلق، وانّهُ الكامل المتفرد بالكمال، بيده الأمر، وهو على كل شيءٍ قدير... ويؤكد وحدانية الله توحيداً يقضي على عقابيل التعددية في تصوُّر الإله... ويلزم كذلك أن يؤكد هذا الدين التنزيه لله، حتى لا يُنزلق إلى التجسيم الذي طالما وقعوا فيه بعد كُلِّ دعوةٍ للتوحيد بين غلبة الحسِّ عليهم»(2).

لكن أهل البيت عليه السلام الذين يمكن تسميتهم بسفراء هذا العلم، دفعوا ضريبة عملهم هذا نتيجة حملهم ونشرهم هذه العلوم التوحيدية في ذلك المجتمع الفلسفي المتناقض(3)، وكان من تلك الضريبة أن شُكِّكَ في كلامهم هذا وعلى رأسهم أمير المؤمنين عليه السلام. قال أحمد أمين مشككّاً في نهج البلاغة: «واستوجب الشكَّ هذا أمورٌ: ما في بعضه من سجع منمّق، وصناعة لفظية...»(4). وإلى هذا ذهب أيضاً الأستاذ أحمد زكي صفوت بحجة «أنّ هذا الأسلوب المنطقي لم يعهد في كلام العرب، ولم يستعمله العلماء إلاّ بعد ترجمة المنطق والعلوم الدخيلة، وذلك العصر لم يدركه الإمام»(5).

ردَّ العلماء على هذه الشبهة بردود عدة، ومن ذلك ما قاله محمّد جواد مغنية:

1- م. ن 395

2- م. ن 393

3- ينظر: م. ن 395

4- فجر الإسلام 149

5- ترجمة الإمام علي بن أبي طالب 144

«... والغريب أنّ هؤلاء المنكرين لا يستكثرون على ابن خلدون الكلام في علم الإجتماع قبل أن يعرفه روسو ومنتسيكو، وأن يقولوا عن علومه ومعارفه: تدفق فجائي وحدس باطني وأختمار لا شعوري، ثم يستكثرون على باب مدينةالعلم.. أن يصفَ البارئ بصفات تليق بجلالهِ... وهو أعرف الناس به بعد الرسول»(1).

أما الباحث فيدحض هذه التهمة بطريقين:

الطريق الأول شهرته عليه السلام العَريضة على مر العصور الماضية بهذا العلم إنّ هذا العلم هو من المسلمّات التي عُرِفت عن أمير المؤمنين عليه السلام، وهو الذي أكده مهرةُ الفنّ، وأصحاب المصنفات في مصنفاتهم على مرَّ العصور. فمثلاً الكليني (ت 328 ه) وبعد أن نقل عن أمير المؤمنين عليه السلام إحدى خطبه في التوحيد قال: «وهذه الخطبة من مشهورات خطبهِ عليه السلام، حتى لقد إبتذلها العامة، وهي كافية لمن طلب علم التوحيد إذا تدبّرها وفهم ما فيها، فلو اجتمع ألسنُة الجنّ والإنس ليس فيها لسان نبيّ على أن يبيّنوا التوحيد بمثل ما أتى به - بأبي وأمي - ما قدروا عليه ولولا إبانته عليه السلام ما علم الناس كيف يسلكون سبيل التوحيد»(2).

فواضح إذاً من كلام الشيخ الكليني أنّ هذه الخطبة في التوحيد من مشهورات خطبهِ، بل أصبحت مبتذلةً من كثرة تداولها بين العامة. والكليني توفي قبل أن يجمع نهج البلاغة ب(72) عاماً.

1- فضائل الإمام علي 73

2- الكافي 1 / 136

أمّا المرتضى (ت 436) فقد قال في أماليه: «اعلم أنّ أصول التوحيد والعدل مأخوذة من كلام أمير المؤمنين – صلوات الله عليه – وخطبه، فإنها تتضمن من ذلك ما لا زيادة عليه، ولا غايةَ وراءه، ومن تأمّل المأثور في ذلك من كلامهِ علم أنَّ جميع ما أسهب المتكلمون من بعد في تصنيفه وجمعه، إنّما هو تفصيل لتلك الجمل، وشرح لتلك الأصول»(1).

ثم استشهد الشريف المرتضى بأمثلة عدة على ذلك منها قوله عليه السلام في وصف الله تعالى:

«لا تشبهه صورة، ولا يُحَسُّ بالحَوَاسِ الخَمْسِ، ولا يُقَاسُ بِقِياسِ النَّاسِ»(2).

وقد عدّ ابنُ أبي الحديد هذا العلم أعلى مناقب أمير المؤمنين عليه السلام على كثرتها، وإنّ جميع من جاء بعده فعنه أخذ في هذا المضمار، فقال: «واعلم أنّ التوحيد والعدل والمباحث الشريفة الإلهيّة، ما عُرِفَتْ إلاّ من كلام هذا الرجل،... وهذهِ الفضيلة عندي أعظمُ فضائله عليه السلام»(3).

والقائمة تطول بأسماء هؤلاء ونختمهم بالعلوي (ت 745) فقد نقل كثيراً من حكم أمير المؤمنين عليه السلام وخطبه بهذا الصدد، وقد توسّعَ في شرحها والتعليق عليها، فبعد أن أورد كلام الإمام علي عليه السلام «التوحيد ألاّ تتو هّمه، والعدل إلاّ تتهَّمهُ»(4)قال:

«هاتان الكلمتان قد جمعتا وحازتا علوم التوحيد على كثرتها، وعلوم الحكمة على غزارتها، بألطف عبارةٍ وأوجزها. ولو لم يكن في كلام أمير

1- أمالي المرتضى 1 / 162 - 163

2- م. ن 1 / 163

3- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 6 / 410

4- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز 2 / 251

المؤمنين عليه السلام في علوم التوحيد والعدل إلاّ هاتان الكلمتان لكانتا كافيتين في معرفةِ فضله، وإحرازهِ لدقيق علم البلاغة وجزله..»(1).

وهنا بودِّ الباحث أن يتساءل:

هل كُلَّ هؤلاء الذين صرّحوا وأكّدوا بأنّ أمير المؤمنين كان مبرّزاً في هذهِ الحلبة أي حلبة علوم التوحيد كانوا يكذبون؟ - أجلهّم الله - أم كانوا مُغفّلين؟ أم كانت في كلامهم محاباة؟ ولأي جهةٍ كانت هذهِ المحاباة؟ أم كانوا ماذا؟.

إذا لم تكن هذهِ الخطب العظيمة لأمير المؤمنين عليه السلام إذاً لمن هي؟ لماذا لم يصرح بها صاحبها ويحز ذلك الفضل الذي لم تُحزه الأوائل؟ ولماذا المشككون لم ينسبوها حتى نعرف قائلها؟.

أين علماء القرن الثاني والثالث بل الرابع والخامس وحتى القرن الثالث عشر - وقد رأيت معي لَمِنْ كان حُكْمَهُم - من هذا التشكيك؟ هل يعقل خفي الأمر هذا على جهابذة العلم لما يقارب (1000)عام؟ حتى يأتي في العصر الحديث الأستاذ الكبير أحمد أمين ويخالف ذلك والأستاذ الكبير أحمد زكي صفوت الذي قال: «وإنّنا نسوَّغ لأنفسنا أن نقول: من الجائز أن يكونَ بعضُ غلاة الشيعة قبل الشريف الرضي قد دسوا على الإمام بعض الخطب..»(2). وهل هذا صحيح تأتي هكذا شخصيات لها قدم راسخُ في مجال تخصصها وتنفي تراث عظيم قد شهد بهِ الجميع؛ لأنّ الأستاذ قد «سوّغَ «لنفسهِ. ألا يعلم وهو الخبير أن الباحث العلمي يميل مع الدليل لا مع ما تسوّغه النفس الأمّارة.

1- م. ن 2 / 251

2- ترجمة الإمام علي بن أبي طالب 158

الطريق الثاني طريق تأثير هذا الفن النثري والتّأثر بهِ فبعد أن رسـخت قدم أمير المؤمنين عليه السلام في هذا العلم وانتشرت خطبه التوحيديه «التي ستشـكل لاحقاً حجَر الأساس في عملية انتشار الأيديولوجيا الإسلامية التوحيدية... التي أرادها الرسول صلى الله عليه وآله أن تَنتشر على نطاقٍ أوسع بين الناس»(1) انتشـرت بالفعـل، وأخـذت صـداها الواسع في التـأثير، فكان من أوائل الـذين تأثّروها أبناؤه وأحفاده عليه السلام. ونذكر منهم علماً واحداً وهو الإمام السجاد (استشهد 95 ه) عليه السلام فمما روي عنه من هذا النوع من الكلام قوله في الصحيفة السجادية:

«الحمـدُ للهِ الأوّلِ بلاـ أوّلٍ كـان قبلَهُ، والآـخرِ بلاـ آخرٍ يكونُ بعـدهُ، الّـذي قَصُـرتْ عن رؤيَتهِ أبصـارُ النـاظرين، وعجزت عن نعته أوْهـامُ الوَاصِفِين»(2).

وشبيه هذا كثير في خطب الإمام عليٍّ عليه السلام منها قوله:

«وأشـهد أن لا إله الّا الله وحده لا شـريك له: الأوّلُ لا شيء قبلهُ والّاخرُ لا غاية له، لا تقعُ الأوهام له على صفة، ولا تُعْقَدُ القلوب منه على كيفيّة...»(3).

ومنها:

«الحمدُ لله الأوّلِ قبلَ كُلِّ أوّلٍ، والآخرِ بعد كُلِّ آخر، وبأوليتّه وجَبَ أنْ لا أوّلَ له، وبآخريتّه وجب أن لا آخر له..»(4).

1- الإمام علي في الفكر المسيحي المعاصر 393
2- الصحيفة السجادية 27
3- نهج البلاغة 125
4- م. ن 166

وقال الإمام السجاد عليه السلام متأثراً بجدهِ أيضاً:

«الحمدُ لله الذي... كلّت الألسنُ عن غايةِ صفته وأنحسرَتْ العقولُ عن كنه معرفته..»(1).

وهنا تضمين لكلام أمير المؤمنين عليه السلام:

«الحمدُ للهِ الذي انحسرت الأوصافُ عن كُنهِ معرفتهِ..»(2).

وبعد ذلك لم يعد الأمر مختصّاً بأمير المؤمنين وأهل البيت عليه السلام فحسب، بل نجدُ أنّ هناك من تخرج بخطب الإمام هذه، وعلى رأس أولئك المعتزلة – الذين هم أهل التوحيد والعدل، وأرباب النظر، ومنهم تعلّمَ الناس هذا الفن – فهم تلامذته – أي الإمام – وأصحابه عليه السلام؛ لأنّ كبيرهم واصل بن عطاء تلميذ أبي هاشم(3)عبد الله بن محمّد بن الحنفيّة، وأبو هاشم تلميذ أبيه، وأبوه تلميذهُ عليه السلام(4).

فواصل بن عطاء كان كثير التأثر بخطب أمير المؤمنين عليه السلام التوحيدية ومن خطبهِ التي بان فيها هذا الأثر قوله:

«الحمد لله... الذي علا في دُنوّهِ، ودنا في علوّه...»(5).

وهذا كقوله عليه السلام:

1- الصحيفة السجادية 251

2- نهج البلاغة 249

3- هو عبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب عليه السلام يكنُىّ أبا هشام كان كثير العلم والرِّواية توفي في خلافة سليمان بن عبد الملك سنة 98. ينظر: تأريخ دمشق 32 / 272

4- ينظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 1 / 23. ينظر: الثقات 7 / 2

5- جمهرة خطب العرب 2 / 501

«قرُبَ فنَأى، وعَلا فَدَنا، وظَهَرَ فَبَطَنَ، وبَطَنَ فعَلَنَ»(1).

وكقولهِ عليه السلام أيضاً:

«سبقَ في العلوِّ فلا شيء أعلى منه، وقرُبَ في الدنو فلا شيء أقربُ منه»(2).

وهكذا كان يسير قطار العلوم التوحيدية بشحناتٍ ورثها عن أمير المؤمنين عليه السلام ليصل إلى أبي إسحاق الصابي(3)(ت 384 ه)، الذي قال واصفاً الله تعالى بأوصافٍ إستقاها من الإمام علي عليه السلام: «لا تحدُّه الصفات، ولا تجوزه الجهات، ولا تحصرهُ قرارة مكان، ولا يغيره مرور زمان، ولا تتمثَّله العيون بنواظرها، ولا تتخيله القلوب بخواطرها...»(4). فقوله: «لا تحدّه الصفات» عن قول أمير المؤمنين عليه السلام:

«الذي ليس لصفتهِ حدٌّ محدود...»(5).

ص: 68

1- نهج البلاغة 358

2- م. ن 82

3- هو أبو إسحاق إبراهيم بن هلال،الأديب البليغ صاحب الرسائل المشهورة كان صابئياً مشركاً وكان كاتب الإنشاء ببغداد عن الخليفة عز الدولة بختيار بن معز الدولة سنة(349) كان يصوم رمضان موافقة وحسن عشرة للمسلمين ويحفظ القرآن حفظاً يدور على طرف لسانه وسنِّ قلمه. وعندما توفي رثاه الرضي بقصيدة مشهورة منها: أرأيت من حملوا على الأعواد أرأيت كيف خبا ضياء النادي. وعاتبه الناس على ذلك فقال إنّما رثيت فضله ت (384 ه) ينظر: سير أعلام النبلاء 16 / 523. وينظر: وفيات الأعيان 1 / 212. وينظر: النثر الفني في القرن الرابع الهجري 2 / 353

4- النثر الفني في القرن الرابع الهجري 2 / 360

5- نهج البلاغة 15

وقوله: «لا تتمثّله العيون بنواظرها» كقوله عليه السلام:

«لا تدركه العيون بمشاهدة العيان»(1).

ويبدو أن الدكتور زكي مبارك تنبَّه لأثر أمير المؤمنين عليه السلام على أبي إسحاق الصابي، وإلاّ كيف قال: «ولو أننّا قارنا هذه العبارات بأمثالها مما تكلم بهِ الشريف الرضي على لسان علي بن أبي طالب لرأينا الصابي يستقي من نفس المنبع الذّي الشريف استقى منه»(2).

وينبغي هنا لفتُ الانتباه إلى نكتة وهي أن أبا إسحاق توفي (384 ه) أي قبل أن يُجمع نهج البلاغة ب(ستة عشر عاماً)، وهذا دليل آخر على أنّ تلك الخطب كانت معروفة ومؤثرة قبل جمع النهج.

وصفوة القول هنا إنّ العلوم التوحيدية أو مباحث العدل الإلهي التي برع بها أمير المؤمنين عليه السلام كانت موجودة وفاعلة ومؤثّرة، ولإثباتها سلكت الدراسة أكثر من محجّةٍ بيضاء.

الوقفة الرابعة شبهة السجع السجع لغةً:

قال الخليل بن أحمد (ت 175 ه): «سجع الرجل إذا نطق بكلام له فواصل كقوافي الشعر من غير وزن، كما قيل: لصُّها بَطلٌ وتَمرُها دَقَل.. ويسجع سجعاً

1- م 0 ن 298

2- النثر الفني في القرن الرابع الهجري 2 / 261

فهو ساجع، وسجّاع، وسجَّاعة»(1).

أما اصطلاحاً: فهو مجيءُ الكلام المنثور على رويٍّ واحد، فتصبح الكلمتان في آخر كلِّ فقرتين أو أكثر على حرف معين، بغية أن يكتسب النثر ضرباً من الموسيقى والتنغيم، ويجازي عاطفة قائله، ويثير نَفس سامعه(2). وكان له «منزلةً سنّيةً بين العرب في الجاهلية وكان يغمُر كلامهم»(3). والسجع «لم يخلُ منه عصر من عصور الأدب، ولا نستثني من ذلك عصر صدر الإسلام»(4). وهكذا جاءالسجع العلوي مزدانًا بالعفوية، كقولهِ:

«قد استطعمو كُمُ القتالَ، فأقِرُّوا على مذلّةٍ، وتأخيرِ محلَّةٍ، أو روّوا السيوفَ منَ الدِّماء تروَوا من الماء»(5).

ولكنّ هذا السجع الذي جاء في نهج البلاغة أتخذه بعض الباحثين الكبار ذريعةً للتشكيك في الكتاب. قال الدكتور شوقي ضيف «وكأنّ الشريف الرضي وجد مادةً صاغ منها كتابه، وهي مادة بُنيتَ على السجع، وفي ذلك نفسه ما يدُلُّ على كذب نسبتها إلى علي...»(6).

أمّا الأستاذ أحمد زكي فقد أدلى بدلوهِ وكأنّه يردّ على من شكّكَ في سجع الإمام علي عليه السلام، فقال: «أمّا ما ورد في كلامهِ من السجع فليس ببدعِ أن يسجعَ

1- كتاب العين 1 / 214

2- ينظر: مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ع 27 / 114

3- البديع في ضوء أساليب القرآن 125

4- تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي القديم 207

5- نهج البلاغة 83

6- الفن ومذاهبه في النثر العربي 62

علي، وقد جاءَ فيه سـجع مقبول مّتسق لا يُسـتَوحَشُ منه. وأنت إذا تأمَّلتَ خُطَبَ الجاهلية ألفيتَ كثيراً منها مسجوعاً... والقرآن لا يخلو من هـذهِ الحليـة، وقـد تُبْنى آياتٍ وفيرة العدد بل سورة طويلة كاملة على قافية واحدة - انظر سورة مريم والقمر والرحمن والدهر - وكذلك وردَ السـجع في كلام الرسول - صـلى الله عليه وآله -. على أني أخالك تسـلّم معي بأن الخُطب المسـجوعة - سجعاً غير متنافر - لها رنين في النفس يهزُّ الأفئدة ويأخـذ بمجـامع الألبـاب. وعليٌّ في خطبه يبغي أن يلين القنـاة الجامـدة ويجمع الأـهواء الشاردة، ويسـتهوي الأفئـدة المستعصية..»(1).

وهذا ردٌ كافٍ ووافٍ على مَن لا يقرُّ بالسـجع عند الإمام علي عليه السلام، لأنّ السجع موجودٌ في الجاهلية كخطبة قيس بن ساعده الأيادي التي ينقل الجاحظ أن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله نقلها:

«أيُّها الناس اجتمعوا، فاسمعوا، وعوا. من عَاش مات، ومن مات فات...»(2).

وموجودٌ في القرآن مثلما استشـهد الأسـتاذ بأربع سورٍ قرآنية، ثمّ دعمَّ الأسـتاذ رأيهُ بالأسـجاع التي وردت في الكلام النبوي الشـريف ومن ذلك قوله صلى الله عليه وآله:

«يا أيُّها النَّاسُ: أفشُوا السَّلامَ، وأطعِمُوا الطَّعَامَ، وصلّوا والنّاسُ نيّامُ...»(3).

وميزة السـجع عند الإمام علي عليه السـلام وبحسب رأي الأسـتاذ أيضاً هو «مقبول متسق لا يسـتوحش منه «لأنّه كان» يبغي أن يلين القناة الجامدة... «. ومع هذا كلّهِ ختم

1- ترجمة الإمام علي بن أبي طالب 151

2- البيان والتبيين 1 / 186

3- سنن الترمذي 4 / 65

الأسـتاذ كلامه بعبارة فيها شيءٌ من الغرابة لما قال: «على إنّنا مع هذا كلّه لا نطمئنّ إلى جميع ما وردَ في النهج من كلام مسجّع، ولا نرتاح إلى الثقة بِهِ ثقةً مطلقة»(1).

فلماذا هكذا يقول الأسـتاذ وهو الذي قدَّم ما قدّم عن انتشار السجع بعامة وعند أمير المؤمنين عليه السلام بخاصة؟ ثمَّ ما هي هذهِ الأسجاع التي لا يطمئِنُّ لها؟ حبذا لو ذكر عنها خطبة أو جملة، ليتبين سبب عدم قبوله لها.

ولم يقل أحدٌ بأنَ ما ورد من أسـجاع في كلامه عليه السـلام كان متكَّلفّاً مثلما عرف في العصـر العباسي، بل كان عفوي الخاطر، مصوناً من التكَّلف، وكـان زينـةً تزدان بهـا خطبه ورسائله، والسـجع إذا كان هكـذا «لم يكن في جميع صـنوف الكلام أحسن منه»(2). فمن أسجاعه العجيبة ما جاء في كتابِهِ الذي بعثه إلى عبد الله بن عباس (ت 67 ه):

«أما بعدُ، فإنَّ مصر قد أفتتحت ومحمّد بن أبي بكرِ رحمه الله قد أستشهد؛ فعند اللهِ نحتَسِبُه وَلداً نَاصحاً، وعَامِلاً كَادِحاً، وسَيفاً قَاطِعاً، وَرُكناً دافعاً...»(3).

فجاءت الفواصل بكلماتٍ كلها منصوبـة (جهراً، بَدءاً، كارهاً، كاذباً...) وقد أحسن ابن أبي الحديد عليها تعليقاً، إذ قال: «أنظر إلى الفصاحة كيف تعطي هـذا الرجل قيادها، وتملّكهُ زمامها؛ وأعجب لهـذه الألفاظ المنصوبة، يتلو بعضـها بعضاً كيف تواتيه وتطاوعه؛ سـلسة سـهلة، تتـدفق من غير تعسُّفٍ ولا تكلُّف... وأنت وغيرك من الفصـحاء إذا شـرعوا في كتابٍ أو خطبـة، جاءت القرائن والفواصل تارة مرفوعة، وتارةً مجرورة، وتارةً منصوبة،

1- ترجمة الإمام علي بن أبي طالب 152

2- الصناعتين 267

3- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 16 / 300

فإن أرادوا قسرها بإعرابٍ واحد ظهر منها في التكلّف أثرٌ بيِّنٌ، وعلامةٌ واضحة، وهذا الصنف من البيان أحد أنواع الإعجاز في القرآن»(1).

وبسبب هكذا أسجاع عدّ الكاتب (نرسيسيان) رئيس الكتاب في القنصلية البريطانية عدَّ نهج البلاغة متفوّقاً على كلّ كلام عربي لكثرة ما فيه من السهل الممتنع وأنقياد الأسجاع الصعاب دونما تكلّف(2)مستشهداً بقولهِ عليه السلام:

«أم هذا الذي أنشأهُ في ظُلمات الأرحام، وشُغُفِ الأستارِ، نطفةً دهاقاً، وعلقةً محاقاً، فجنيناً وراضعاً، ووليداً ويافعاً...»(3).

ثمَ قال هذا الكاتب متمنّياً: «لو كان يرقى هذا الخطيب العظيم منبر الكوفة في عصرنا هذا لرأيتم مسجدها على سعته يتموّج بقبّعات الافرنج للإستقاء من بحر علمهِ الزاخر»(4).

ص: 73

1- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 16 / 301
2- ينظر: ما هو نهج البلاغة 7
3- نهج البلاغة 120
4- ما هو نهج البلاغة 7

المبحث الثاني: إضاءة تمهيدية

اشارة

عبقرية الإمام على عليه السلام الأدبية ومرجعيتها لم يشتهر في التراث العربي كلام بعد القرآن الكريم، وكلام النبي محمد صلى الله عليه وآله كاشتهار كلام أمير المؤمنين عليه السلام، فقد أشرق في مملكة الأدب إشراق الشمس في رابعة النّهار، ولشّدة تأثيره وُصِفَ بأنّه «قريباً من حدِّ الإعجاز»(1)، وقيل هو «دونَ كلام الخالق وفوق كلام المخلوقين»(2)، وما قرب من حدِّ الإعجاز فإنَّ الأنام حتماً عجزوا عن مضاهاتهِ، أو الإتيان بمثله، ولكن ما لا يُدرك جلّه لا يترك كلّه، فراح الأدباء صوب هذا الكلام للإستعانة بهِ؛ فهو خيرُ معين لمن أراد أن يجعل لنتاجهِ الأدبي سوقاً رائجة، وهذا ما شهد به الشريف الرضي، إذ قال وهو يقدّم لكلام جدّه: «كان أمير المؤمنين عليه السلام مشرَعَ الفصاحةِ وموردَها،

ص: 75

1- في رحاب نهج البلاغة 18، وينظر: تأريخ الأدب العربي 187

2- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 1 / 28

ومنشأ البلاغة ومولدها؛ ومنه عليه السلام ظهر مكنونها، وعنه أخِذت قوانينُها؛ وعلى أمثلته حذا كُلّ قائلٍ خطيب، وبكلامه استعان كلّ واعظ بليغ. ومع ذلك فقد سبق وقصروا، وقد تقدّم وتأخّروا»(1).

ولكن ما الذي جعل من عليّ بن أبي طالب عليه السلام متربّعاً على عرش البلاغة والفصاحة مالكاً بزمامهما تدوران معه حيثما دار؟.

أرجع أغلب الباحثين عبقرية أمير المؤمنين عليه السلام البلاغية هذه إلى سببين أو ثلاثة، فمثلاً الأستاذ أحمد حسن الزيّات أرجع سمو الإمام في هذا الجانب إلى أمرين: خلاطه بالرسول صلى الله عليه وآله، ومرانه على الخطابة منذ حداثة سنّه فقال: «وهو بالإجماع أخطب المسلمين، وإمام المنشئين... وما نظنُّ ذلك قد تهيّأ له إلاّ لشدّة خلاطِه للرسول، ومرانته منذ الحداثة على الخطابة له والخطابة في سبيله»(2).

في حين رأت الدكتورة إبتسام مرهون الصفّار إنّ من وراء تلك العبقرية العلوية الأدبية القرآن الكريم، فقالت إنّ الإمام يمتلك تراثاً جمّاً يمثّلُ قدرةَ هذه الأمّة العظيمة على الخلق والإبداع متمثّلة بقابليّة الإمام البلاغية وقدرتهِ في التعبير عن شتى المعاني بإسلوب رائع مؤثر. وقد استمدَّ معانيه وأفكاره من معين القرآن الذّي نهل أدبه، وارتوى من آياته(3).

وهذه الأسباب - على أهميتها القصوى - لم تكن هي وحدها التي أنتجت ذلك البليغ المؤثّر، زعيم دولة البلاغة، وقائد صولة الفصاحة(4)، لأنّ الذين

1- نهج البلاغة 8 - 9
2- تاريخ الأدب العربي 187، وينظر: تأريخ الأدب العربي (العصر الأموي) 233
3- ينظر: أثر القرآن في الأدب العربي 186
4- ينظر: شرح نهج البلاغة لمحمد عبده 5

حفظوا وكتبوا وتعلّموا القرآن والحديث النبوي هم كثيرون، ولكنّهم لم يصلوا إلى ما وصل إليه عليه السلام ولم يبلغوا ما بلغ، بل المتأمل في شخصيته وتأريخه يجد أسباباً عدّة اجتمعت في شخصه عليه السلام دون أن تتوفّر لغيره، مكّنته من هذا الإبداع الأدبي، والتي أوجبت فيما بعد التأثير العميق على الأدباء. ومن هذه الأسباب:

أوّلاً: الجانب الوارثي

وُلِدَ عليٌّ بن أبي طالب عليه السلام من أسرة عربية خالصة، فأبوه أبو طالب (رضوان الله عليه) كان شريفاً عظيماً «يمتلك ناصية الخطابة وله شعر جيد»(1). وأمُّهُ فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف، وهي أوّلُ هاشمية ولدت هاشميّاً(2)، وقال المسعودي (ت 346 ه): «وكانَ أوّلُ من وَلَدَهُ هاشميّان من الخلفاء»(3).

ولم يقتصر الأمرُ على والدي الإمام عليه السلام، بل أبعد من ذلك فعليٌّ عليه السلام سليل الدوحة الهاشمية التي امتازت بمزايا كريمة وخلال حميدة سواءً في الجاهلية، أو الإسلام، فقال هو في ذلك:

«فإسلامُنا قد سُمِعَ، وجاهلِيَّتُنَا لا تُدفعَ»(4).

وجاهليتنا لا تدفع أي «إنّ شرفنا في الجاهلية لا ينكره أحد»(5). وهذا ما

ص: 77

1- روائع البيان في خطب الإمام: 77

2- ينظر: الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام 135

3- مروج الذهب 2 / 350

4- نهج البلاغة 452

5- شرح نهج البلاغة لمحمد عبده: 376

أكـدّه الرسول الأكرم صـلى الله عليه وآله في أكثر من تصـريح فمن ذلك قال مفتخراً بنفسه: «إنّ الله اصـطَفَى من ولـد آدم إبراهيمَ، واتّخذه خليلاً، واصـطفى من ولدِ إبراهيم إسـماعيلَ...، ثمَّ اصطفى من قريش بني هاشم، ثم اصطفى من بني هاشم بني عبد المطلب ثمَّ اصطفاني من بني عبد المطلب»(1).

أمّا الفصاحة والبلاغة فكانت إحدى ميِزاتهم التي لا تُنكر بشـهادة كبار المسلمين. قال ابن عباس (ت 67 ه): «أعطى الله عزّ وجَلَّ بني عبد المطلب سـبعاً الصـباحة، والفصاحة، والسماحة، والشجاعة، والحلم، والعلم، وحب النساء»(2)ثم إنّنا بعد ذلك نجد الإمام السـجاد عليه السلام (استُشهد 95 ه) قد أكّدَ مواهب السماء هذه وذلك في خطبتهِ التي خطبها في مجلس يزيد بن معاوية، والتي أفتتحها بقوله:

«أيها الناس أُعطينا ستّاً، وفُضّلنا بسبع: أُعطينا العلمَ، والحلمَ، والسماحةَ، والفصاحةَ، والشجاعة، والمحبّة في قلوب المؤمنين...»(3).

وعلى أيّة حال فإنّ الجانب الوراثي من الجوانب الفاعلة التي تلعب دوراً بارزاً في رسم الشخصية بشتى توجّهاتها. وهذا ما يراه علم الجينات الحـديثّ، فقـد أكّدَ على أنّ وراثة الفرد تتكوّن أساساً من موروثات نوعية يتلقّاها من كلٍّ من والديه عند الحمل، إذ إنّ الخليتين عند الأبوين اللذين نشأ منهما الفرد تحتوي كُلٌّ منهما على مئات الآلاف من جزئيّات دقيقة تسمى بالموروثات، وهذه الجزيئات الموروثة هي المسؤولة عن انتقال الصفات الوراثية من الأبويين والأجيال السابقة

1- ذخائر العقبى 10

2- م. ن 15

3- بحار الأنوار 45 / 138

إلى الفرد(1). وما يهمُّ الدراسة من هذا الأمر هو أن أحد الأسباب الكامنة وراء بلاغة الإمام علي عليه السلام ما ورثه عن آبائه من مقدرةٍ عالية في هذا الجانب، ثمَّ تعزيزهِ إياها بروافد أُخر، فكان مثالاً لقول معروف الرصافي:

وخيرُ النّاس ذو حسبٍ قديم أقامَ لنفسهِ حسباً جديدا(2)(الوافر)

ثانياً: الأثر النبوي

في كلام الإمام عليه السلام للحديث عن العلاقة بين الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، وبين أمير المؤمنين عليه السلام، وإفرازات هذهِ العلاقة على مسيرة الإمام عليه السلام الإبداعية وبخاصة الأدبية منها ينبغي تكرار أمرين هامين:

الأول:

إنّ النبي محمد صلى الله عليه وآله وفي جانب من جوانب شخصيته العظيمة هو ذلك الأديب العربيّ الأسمى الذي بزّ أهل الفصاحة في وقت وصلوا فيه إلى الذروة في هذا الميدان، فقال:

«أنا أفصحُ العربِ بَيدَ أنّي من قريش»(3).

وقال:

«أنا أفصحُ مَنْ نطقَ بالضّاد»(4).

1- ينظر: سيكولوجيّة الفروق الفردية في الذكّاء 35

2- ديوان معروف الرّصافي 1 / 98

3- التلخيص الحبير 4 / 14

4- السيرة الحلبية 1 / 30

ولا جَرَمَ أنّ هـذه القدرة العالية التي كان يمتاز بها مكّنته مثلما قال الرافعي من: إنتزاع المذاهب البيانية، واقتضاب ألفاظٍ كثيرةٍ لم تُسمَعْ من العرب قبله، ولم توجد في متقدّم كلامها، وهي تُعَدُّ من حسنات البيان، لم يتفق لأحدٍ مثلها في حُسن بلاغتها(1).

الثاني:

إنّ القرابـة أو العلاقـة بينهما عليه السلام وعلى الرغم من معرفتهما لـدى العامـة والخاصـة، إلاّ أنّها أصـعب بكثير من أن يُحاط بتفاصيلها ودقائقها، فإن شئت قلت أنها علاقة «من نوع علاقة موسى بهارون»(2)علاقة قائمة على الاصطفاء من جانب المصطفى صلى الله عليه وآله «إكراماً لعلي، وفي روح عليٍّ كانت الاستجابة حاضـرة، مسرعة، متشوّقة»(3). أو هي مثلما وصـفها الحبيب المصـطفى بقوله: «عليٌّ منّي بمنزلة رأسي من جسدي»(4). » علماً أنّ هـذه القرابـة القريبـة بين هـذين العظيمين لم يخلُ منها الذكر الحكيم، والذي يُعدُّ بدورهِ أدقّ من وصفها، وأبلغ من عبَّر عنها وذلك في قولِهِ تعالى:

«فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ»(5).

فالمراد ب «أنفسنا» بحسب ما أورد السيوطي (ت 911 ه) في الدر المنثور:

1- ينظر: تأريخ آداب العرب 2 / 262

2- عليٌّ سلطة الحق 75

3- م. ن 75

4- ميزان الحكمة 1 / 144

5- آل عمران 61

«رسول الله صَلى اللهِ عَليه وآله وسَلَم وعلي عليه السلام»(1).

أمّا أميرُ المؤمنين عليه السلام فكثيراً ما كان يتغنّى بهذه العلاقة وقد وصفها ب :

«القَرابَةِ القَريبَةِ، والمَنْزِلةِ الخَصِيصَةِ، وضَعَني في حجرهِ وأنا ولَدٌ (وليد) يَضُمُّني إلى صَدْرهِ، ويَكْنُفني في فراشِه وَيُمِسُّني جَسَدَه... ولقد كنت أتَّبعه اتِّباع الفصيلِ أثَرَ أُمّه»(2).

في كُلِّ الظروف والأوقات ففي السلم «كان عليٌّ بن أبي طالب أوّل من صلّى مع النبي، فكانت البدايةُ مُمتَلئة بالقوّة، لأنها دمجت ذات عليٍّ بذات النبي القائد دمجاً لا فجوةَ فيه»(3).

وفي الحرب «كان عليٌّ مِنجلَ الموت الذي يلاحق رؤوس قريش من أعداءِ دين الله فيقطفها قطفاً و... كان المؤيّد دائمًا برسول الله المقرّب إليه المرموق منه بعين الحب والرعاية. لم تفت بهِ فرصةٌ واحدة مذ دخوله المدينة إلا إجتباه الرسول دون سواه»(4).

وعلى أية حال فإنّ القيمة الأدبية العظمى التي كان يمتاز بها «أفصح من نطق بالضاد صلى الله عليه وآله» وبفعل تلك القرابة القريبة - بينه وبين أمير المؤمنين عليه السلام - التي تجسَّدت في «السيرة، والسلوك، وفي الأفكار والحياة اليوميّة»(5)ألقت بظلالها على مسيرة أمير المؤمنين عليه السلام، لاسيّما الأدبية منها حتى أصبح من الصعب التمييز بين بعض كلامهما لأنّهما بحسب وصف الشريف الرضي (ت 406 ه):

ص: 81

1- الدر المنثور 2 / 39. وينظر: تفسير القرآن العظيم: 2 / 55 وينظر: تفسير الميزان 3 / 265

2- نهج البلاغة 348

3- عليُّ سلطة الحق 64

4- المجموعة الكاملة للإمام علي بن أبي طالب 1 / 63

5- علي سلطة الحق 64

«مُستقاهُما من قَلِيبٍ(1)، ومفرُوغهما من ذَنوب(2)»(3).

أمّا مواطن كلام الإمام التي برز فيها الأثر النبوي فكثيرة، ومنها خطبته التي قال فيها:

«المغبُونُ من غَبَنَ نفسَهَ... والسعيدُ مَنْ وُعِظ بِغَيْرِه»(4).

فآخر الخطبة تضمين حرفي لقول سيد المرسلين صلى الله عليه وآله:

«السعيد من وُعِظ بغيرِه»(5).

ومن تضمينه لكلام الرسول صلى الله عليه وآله أيضاً قوله عليه السلام:

«لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»(6).

فهذا أيضاً تضمين حرفي لقول المصطفى صلى الله عليه وآله:

«لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»(7).

ثالثًا: الأثر القرآني

في كلام الإمام علي عليه السلام لا يخفى الأثر الواسع الذي أحدثه كتاب الله العزيز حال نزوله على اللغة

1- القليب: البئر وجمعها قُلُب ينظر: لسان العرب مادة (قلب) 1 / 689
2- الذَّنوب: الدَّلو فيها ملؤها أو قريبٌ منه، وقيل هي الملأى ولا يقال لها وهي فارغة ينظر: م.ن مادة (ذنب) 1 / 392
3- نهج البلاغة 593
4- م. ن 127
5- الشّفا بتعريف حقوق المصطفى 1 / 80
6- نهج البلاغة 583
7- نور اليقين في سيرة سيد المرسلين 1 / 27

العربية والناطقين بها عموماً، فقد كان هذا الأثر واضحاً في الإسلوب، والمعاني والألفاظ، حتى أصبحت اللغة العربية بفعله لا تزداد في «كرِّ الغداة ومرِّ العشيِّ إلّا قداسةً وجلالاً، جعلها تتشبث بالبقاء وتمشي إلى الخلود»(1).

لقد أدرك الأُدباء في وقت مبكر هذهِ النقلة الجديدة وهذا التطور الذي أحدثه القرآن الكريم، والذي لم يكن بحسبان أحدٍ منهم، فحاولوا أن يصوغوا آثارهم الأدبية من شعرٍ ونثرٍ مهتدين بهدي ديباجته الكريمة وحاشيته الدَّقيقة وعباراته السلسة، وعكف عليه علماء اللغة وفنونها فهيمن على عقولهم وامتلك مقادُهُ أذواقَهم حتى أينعت ثماره في جميع فنونهم فظهرت للقرآن نتائجُ فريدةُ في اللغة والأدب والبلاغة والنقد»(2). غير أنّ هذا التأثير القرآني ظلَّ متفاوتاً على الشخصيات الإسلامية وغيرها من شخص لآخر، ولكنّه بلغ الذروة على أمير المؤمنين عليه السلام حتى عُدَّ كلامه المثال الحي، وفعله التطبيق الواعي لكلام الله تعالى وغدت تربطهما علاقة حميمة وصداقة صدوقة خالدة بخلود الحديث الشريف:

«لَنْ يفترَقا حتّى يَرِدا عليَّ الحوضَ»(3).

وهذا مرّده إلى إيمانه عليه السلام المطلق بمباديء القرآن الكريم: أوامره ونواهيه جميعاً، ومرّدهُ أيضاً إلى الجهد الجهيد الذي بذله مع القرآن الكريم على صعيد الحفظ، والجمع، والتفسير أمّا الحفظ فقال ابن أبي الحديد (ت 656 ه): «اتّفق

1- أثر القرآن الكريم في اللغة العربية: 31

2- نظرية الإعجاز القرآني وأثرها في النقد العربي القديم 184

3- الحديث: «إني تارك فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر كتاب الله... وعترتي أهل بيتي وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوضَ» مسند أحمد بن حنبل 17 / 170. وينظر: المعجم الكبير 3 / 65. وينظر: المعجم الأوسط 3 / 374. وينظر: السنن الكبرى للنسائي 5 / 45

الكلَّ على أنّه كانّ يحفظ القرآن على عهد الرسول صلى الله عليه وآله ولم يكن غيره يحفظه، ثمّ هو أولَّ من جمعه»(1). وبهذا - أي الجمع - صرّح ابن النديم قائلاً: «فأقسم أنّهُ لا يضع عن ظهرهِ رداءَه حتى يجمع القرآن فجلس في بيته ثلاثة أيّام حتى جَمع القرآن؛ فهو أوّل مصحف جمع فيه القرآن من قلبه... ورأيتُ أنا في زماننا عند أبي يعلى حمزة الحسني رحمه الله مصحفاً قد سقط منه أوراق بخطِّ علي بن أبي طالب يتوارثه بنو حسن على مرِّ الزَّمان، وهذا ترتيب السور من ذلك المصحف»(2).

وهذه العملية - أي عملية جمع القرآن - أصبح من المتاح والميسور الكشف عن تجّلياتها في نتاجه، وبأنواعه وأغراضه المتعدّدة؛ كونها أثمرت وأصبحت سبباً رئيساً في جعل علي بن أبي طالب (صلوات الله عليه) خطيباً مفوَّهاً.

ثمَّ بعَد الحفظ والجمع للقرآن الكريم برع عليه السلام في علمه وتفسيره لكلام الله تعالى، قال القرطبي (ت 671): «فأمّا صدر المفسِّرين والمؤيد فيهم فعليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه، ويتلوه عبد الله بن عباس»(3)الذي قال: «ما أخذتُ من تفسير القرآن فعن عليٍّ بن أبي طالب»(4).

ولكن كُلَّ من وصفَ أمير المؤمنين عليه السلام في هذا المضمار لا يرقى إلى حقيقتهِ، ولا إلى ما وصف بهِ نفسه، لأنه أعلم بنفسه من غيره، ولهذا جاء تصويره لمنزلته العلمية أدق بكثير مما قيل فيه على الأقل في هذا الجانب، فقال عليه السلام واصفاً علمه بالكتاب العزيز:

1- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 1 / 30

2- الفهرست لابن النديم 41

3- الجامع لأحكام القرآن 1 / 37

4- م 0 ن 1 / 37

«.. ما بيَنَ لوْحَي المصحفِ من آية الّا وقد علمتُ فيمَنْ نزلت، وأينَ نَزَلت، في سهلٍ أو في جبل، وإنَّ بينَ جوتنحي لعلماً جمّاً، فسلوني قبل أن تفقدوني فإنّكم إن فقدتموني لم تجدوا من يحدِّثكُم مثلَ حديثي»(1).

وهذا الأثر العظيم الذي تركه القرآن الكريم على كلام الإمام القويم هو الذي دفع كرينكو – أستاذ الآداب العربية في كليّة عليكرة الهندية – عندما سُئِل عن الإعجاز القرآني إلى القول: « إنّ للقرآن أخاً صغيراً يسمى نهج البلاغة فهل في إمكان أحدِ منّا أن يأتيَ بمثل هذا الأخ الصغير حتّى يسوِّغ لنا الدراسة عن الأخ الكبير»(2). فالمستشرق بكلامه هذا قد عدَّ نهجَ البلاغة طريقاً مهَيعاً وعلماً دالّاً على فهم النّص القرآني، وهذا الأمر لربّما يُعدُّ من المسلَّمات عند المسلمين لأنّ كلامه عليه السلام من القرآن منطلقٌ وعليهِ دالٌّ، وهو أيضاً صوتٌ صادح بآيات الكتاب والفاظهِ ومعانيه. وهذا ما سلّط عليه الباحثون جهدَهم وأستخرجوا كثيراً من الدُّرر القرآنية الكامنة في النص النهجي(3).

ومن الشّواهد القرآنية التي أثَّرت في كلامهِ عليه السلام قوله تعالى:

«وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا»(4).

فالباحث يرى أنّ الآية لكريمة هي التي دعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول:

1- أمالي المفيد 152
2- المستويات الجمالية في نهج البلاغة 34
3- درس الباحثون هذا الموضوع في أكثر من دراسة منها: الأثر القرآني في نهج البلاغة دراسة في الشكل والمضمون، ومنها: الأثر الدلالي للقرآن الكريم في نهج البلاغة
4- البقرة 143

«نحن النُمْرُقةُ الوُسطى بها يلحقُ التّالي، وإليها يرجعُ الغالي»(1).

والنّمرُق والنُمرُقَةٌ مثلَّثةٌ هي الوسادة الصغيرة(2)، وهذا تشبيه جميل ذُكِرَ فيه المشـبّه «نحنُ» أي أهل البيت عليه السلام، والمشبه بِهِ الوسادة أو «النمرقة الوسـطى» أمّا وجه الشـبه، أو الغاية التي جاء من أجلها التشبيه فهي مثلما قال محمد عبده: «الإسـتناد اليهم في أمور الدين كما يُسـتند إلى الوسـادة لراحـة الظهر واطمئنان الأعضاء ووصـفها بالوسـطى لإتصال سائر النّمارق بها، فكأنَّ الكل يعتمـد عليها إمّا مباشـرةً أو بواسطة ما بجانبه، وآل البيت على الصراط الوسط العدل، يلحق بهم من قصَّر ويرجع إليهم من غلا وتجاوز»(3).

ولو قال المرحوم:

الإستناد إليهم في أمور الدين والدنيا لكان أدق.

والذي يعضّد الترابط بين الآية الكريمة وبين قول أمير المؤمنين عليه السلام ما صّرح بِهِ المفسرون من جمهور المسلمين، فقد قال الآلوسي: «عن عليٍّ كرَّم الله وجهه:

نحن الذين قال الله تعالى فيهم:

«وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا»»(4).

وعن الإمام لباقر عليه السلام (إسُتشهد 114 ه) إنّهُ قال:

«نحنُ الأمةُ الوسطُ، ونحنُ شهداءُ اللهِ على خلقهِ»(5).

أمّا الأمر الذي تعنيه الدراسة هنا ويهمُّها أكثر من غيره هو أنّ هذا الأثر

1- نهج البلاغة 570 – 571
2- ينظر: القاموس المحيط 3 / 287
3- شرح نهج البلاغة للشيخ محمد عبده 472
4- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم 2 / 39. أو 2 / 4
5- مجمع البيان 1 / 417

القرآني العظيم على كلام أمير المؤمنين عليه السلام كان أحد الإشعاعات المهمة التي من خلالها نَفَذَ كلامه عليه السلام إلى قلوب المتلقين حاملاً معه أبلغ التأثير وأعذبه.

رابعًا: الشمولية في كلامه

عليه السلام من اللافت للنظر في النص العلوي أنّه يمتاز بشمولية واسعة جدّاً قلَّ نظيرها، وما هذا إلاَّ إنعكاس واضح لثقافته غير المحدودة، والتي ظهرت تجلياتها على التنوع المهيب في كلامه الذي تضمّنَ «مُختَلَف مستويات المعرفة، كالحديث عن الكون وظواهره المختلفة، من سماءٍ وأرضٍ وكواكب وبشر وحيوان وعناصر أخرى وكذلك يتضمن الحديث عن الظواهر النفسيّة والتربوية والإجتماعية والسياسية والإقتصادية والتأريخية»(1)، ومن هنا كان كلامه عليه السلام مفتاحاً لكلِّ العلوم، بيدهِ أبجديات المعارف التي تحتاجها البشرية. وقد أوصل بعضهم هذهِ العلوم إلى مائتي علمٍ مُستخرج من نهج البلاغة(2). وهذهِ الظاهرة في كلامه عليه السلام ممّا عُرِفت عنه سابقاً، وكان متفرِّداً بها، قال الرضي: «ومن عجائبه عليه السلام التي انفَردَ بها وأَمِنَ المشاركةَ فيها، أنّ كلامه الوارد في الزهد والمواعظ، والتذكير والزواجر، إذا تأمَّلهُ المتأمِّل، وفكّرَ فيه المتفكِّر، وخلع من قلبه أنّه كلام... من لاحظَّ له في غير الزهادة، ولا شغلُ له بغير العبادة، قد قبعَ في كسر بيت، أو انقطعَ إلى سفحِ جبل، لا يسمع إلاّ حسَّه ولا يرى إلاّ نفسه، ولا يكاد يوقنُ بأنه كلامُ من ينغمس

1- مختصر تأريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي 93

2- ينظر: علوم نهج البلاغة 10. وللمزيد عن هذهِ العلوم وأمثلتها في كلام أمير المؤمنين ينظر: م. ن11 - 162. وينظر: الاتجاهات الفكرية عند الإمام علي: 277 - 300. وينظر: الإعجاز العلمي عند الإمام علي عليه السلام 15 - 71

في الحرب مُصلتاً سيفه فيقطّ[(1)](#content_note_97_1)الرِّقاب، ويجدِّلُ الأبطال، ويعود به ينطف دماً، ويقطرُ مهجاً، وهو مع تلك الحال زاهد الزُّهّاد وبدل الأبدال. وهذه من فضائلِهِ العجيبة وخصائصِهِ اللطيفة، التي جمع بها بين الأضداد»[(2)](#content_note_97_2).

ويبدو أنّ الشاعر صفي الدين الحلّي (ت 750 ه) تأثَّر بوصف الشَّريف الرضي (ت 406 ه) هذا، كما تأثر بتلك الأضداد التي وُجدت سويّةً في كلام الإمام عليّ عليه السلام فقال:

جُمِعت في صفاتك الأضدادُ فلهذا عزّت لك الأنداد (الخفيف) زاهدٌ حاكمٌ حليمٌ شجاعٌ فاتكٌ ناسكٌ فقيرٌ جواد شيمٌ ما جُمعنَ في بشرٍ قط ولا حاز مثلَهُنَّ العبادُ[(3)](#content_note_97_3) وكان من مظاهر هذا الجمع انّه عليه السلام مثلما قال الفاخوري: «من أوّلِ من جمع في الخطبة الواحدة بين الدين والسياسة، وكان هدفه إقناع جنوده بصحّة عقائده، وهكذا كانت خطبه ترتكز على العقيدة الإسلامية»[(4)](#content_note_97_4).

وتجدر الإشارة إلى أنّ كلامه في الأمور والمسائل العلمية البحتة وعلى الرغم مما تتطلبه الكتابة فيها من جمود وبعد عن المتعة الأدبية، إلاّ أنّه عليه السلام وبعد أن يسكب عليها من مواهبه الكبرى وروحه الشّفّافة يخرجها ممتازةً «بلغة فنية تتوكّأ على

1- قطَّ يقطُّ قطاً بالقط هو قطع الشيء الصلب، وقيل هو القطع عَرْضاً. ينظر: لسان العرب 7 / 380 مادة (قطط)

2- نهج البلاغة: 10 - 11

3- ديوان صفي الدين الحلي 89

4- الجامع في تاريخ الأدب العربي 1 / 351

الإيقاع والصُّورةِ وسائر عناصر الفن»(1). أي أنّ استراتيجيته التي كان يتوخاها في الخطاب – على الرغم من تعدده –(2)واحدة من الناحية الفنيـة. ولعلّه من وراء ذلـك أراد لأفكاره ومن خلال كلامه أن تشقَّ طريقها إلى النفوس مصـحوبةً بقوة التأثير، والحجّـة البالغـة في الإقناع، فضـلاً عن دفع الملالة والسأم عن المتلقي. وبما إنّ «عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وهو الحاوي على جميع سمات العبقريّات المتعدّدة، فهو الخليفـة القائـد، وهو المحارب العظيم، وهو الفيلسوف، وهو الأسـتاذ في العـدل والمؤسـس لعلم النحو، وهو الفقيه، القاضـي، العالم بالحسـاب والفلـك، وهو أمير البلاغـة والشـاعر، والحكيم، والحافـظ لتراث محمّـد رسول الله صـلى الله عليه وآله وهو الأخلاقي الرفيع، والأنموذج في كل شـيء. يسـتطيع المرء أن يتعلم عنه أشـياء كثيرة، ولكن لا يسـتطيع أن يكون مثله»(3). فإنّ هـذه الموسوعية التي انطوت عليها شخصـيتهِ ولّـدت أثراً على كلِّ هـذه الأصـناف التي ذُكِرت، وهـذا ما تنشـده الدراسة فمثلاً وجدت الدراسة أنّ أشـهر الواعظين كانوا يتنفسون كلامـه عليه السـلام ثم يعظون الناس، به بالنص أو المعنى وعلى رأس هؤلاء الحسن البصـري (ت 110 ه)، وعمر بن عبد العزيز (ت 101 ه)، وهكذا كان الفلاسفة والمتكلمين مثل واصل بن عطاء (ت 127 ه) الذي نهل علم التوحيد عن أمير المؤمنين عليه السلام، ثمَّ بصمته الواضحة جدّاً لدى الباحث على كُتاب الدولة ومدبري سياستها الداخلية والخارجية، ومنظمي الجند، وواضعي خطط الحرب وليس

1- مختصر تأريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي 94

2- للتوسع حول شـمولية وتعدد الخطاب عند أمير المؤمنين ينظر: الخطاب في نهج البلاغة بنيته وأنماطه ومستوياته دراسة تحليلية 121 – 122. وينظر: الخطاب في نهج البلاغة دراسة موضوعية فنية 66 – 75

3- عليًّ سلطة الحق: 43

أدلَّ على ذلك من التأثيرات الكبيرة التي أوجدتها الدراسة في رسالة الصحابة لابن المقفع (ت 142) والعهد الذي كتبه عبد الحميد الكاتب (ت 132 ه) على لسان مروان بن محمد (ت 132) إلى ولده(1).

ولكن مع هذا وعلى الرغم من إنّ هؤلاء الكتاب قد تخصّص كُلٌّ منهم بعلم أو فنٍ من فنون القول، إلاّ أنّ مرجعيته وإمامه الذي لا يضل هو علي بنُ أبي طالب عليه السلام فهم بذلك استطاعوا التعلُّمَ منه دون أن يصلوا إليه، لأنّ الذي يقرأ كلامه يجده مثلما قال السيد الخوئي: «وهذه خطبه في نهج البلاغة، فإنّه حينما يوجه كلامه فيها إلى موضوع لا يدع فيه مقالاً لقائل، حتى ليُخال من لا معرفة له بسيرته أنّه قد قضّى عمره في تحقيق ذلك والبحث عنه»(2)لذلك غدا: «تعزى إليه كُلُّ فضيلة، وتنتهي إليه كل فِرقة، وتتجاذبه كُلُّ طائفة، فهو رئيس الفضائل وينبوعها، وأبو عُذرها؛...

كُلُّ من بزغ فيها بعده فمنه أخذ، وله اقتضى، وعلى مثالِهِ احتدى»(3).

خامسًا: الإلهام الغيبي و

المدد الإلهي يعرّف الإلهام: «بأنّه قوة تلقائية لا شعورية يتميّز بها بعض الأشخاص فتمنحهم، من حيث لا يدري أحد من أين القدرة على الإبداع والخلق في ومضة خاطفة»(4).

ص: 90

1- لكن بعد أن نهضت الرسالة بابن المقفع والبصري أكتفينا بهما وادخرنا النصوص المتأثرة لدى عبد الحميد وأمثاله إلى دراسة قابلة إن شاء الله

2- البيان في تفسير القرآن 77

3- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 1 / 22

4- الإبداع في الفن 81

أمّا إلهام الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام الذي كان مُعزَّزاً ومحفوفاً بهِ فقد كان معروف المصدر، إذ تشيرُ مُعظمُ الرّوايات والأحداث الإسلامية إلى رعاية السماء له في كثير من جوانب العظمة والإرتقاء(1)، وهذا الأمر جاءَ واضحاً إمّا بأمرٍ من الله تعالى، فعن النبي صلى الله عليه وآله أنهُ قال لأمير المؤمنين عليه السلام:

«إنّ الله أمرني أن أُدنيَك ولا أُقصيَك، وأنْ أُعلِّمك أن تعيَ وحقٌّ على الله أن تعيَ، قال فنزل قوله تعالى:«وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ»(2)»(3).

أو بدعوات الرسول صلى الله عليه وآله فكثيرًا ما كان يدعو لتسديد خطى أمير المؤمنين عليه السلام حتى أن هذه الدعوات دخلت هذا الحيّز من بابه الواسع، فقد ورد عن الإمام علي عليه السلام أنه قال للنبي صلى الله عليه وآله حين بعثه في إحدى المهمات:

«إنّكَ تبعثني إلى قومٍ أسنُّ منّي فكيف القضاء فيهم؟ فقال: إنّ الله سيهدي قلبك، ويثبِّتُ لسانَك. قال فما تعاَييتُ في حكومةٍ بعد»(4).

وهذهِ وثقية ثمينة، وشهادة رصينة من الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بحق عليٍّ عليه السلام أكدّ من خلالها على هداية قلبهِ وتثبيت لسانه. وأيَّ شيءٍ تبتغيه البلاغة أكثر من هذا فالكلام ينبع من القلب ثمّ يترجمه اللسان، ومثلما قال عليٌّ عليه السلام:

«اللِّسانُ تُرجمانُ الجَنَانِ»(5).

أو إنّ الإلهام إفاضة على أمير المؤمنين عليه السلام من الإلهام النبوي، على اعتبار إنّ

1- ينظر: علي كما وصف نفسه 49

2- الحاقة 12

3- مجمع البيان 10 / 107. وينظر: لباب النقول 201

4- خصائص أمير المؤمنين 37

5- غرر الحكم ودرر الكلم 205

الإلهام النبوي انتقل كلّهُ أو بعضه إلى الوصي الـذي أَدمجت ذاته «بـذات النبي القائـد دمجاً لا فجوة فيه فكانت صورة الربيب متجسدّة في السـيرة والسلوك، وفي الأفكار والحياة اليومية»(1). ولربّما هـذه العلاقـة المعقدة المعرفة هي التي حدت بالدكتور محمود البسـتاني إلى أن يؤكد إنتقال الإلهام النبوي إلى العطاء العلوي، فقال: «يمكن القول إنّ أجود ما عرفه تأريخ البشرية هو ما أنتجه الإمام عليٌّ عليه السلام فكراً، وعُمقـاً، وفنّاً. نسوق هـذه الحقيقـة وأمامنا وثيقتان: إحـداهما نتاج الإمام نفسه حيث عكس تأثيراً على الكُتَّاب... وأمّا الوثيقـة الأخرى، فهي الحديث المعروف عن النبي صلى الله عليه وآله القائل:

«أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها»(2).

إنّ هذا الحديث ليس مجرّد إسـتعارة فنية تتوكّأ على المدينة وبابها، بل هي حقيقة لها واقعها الحيّ، حيث نعرفُ أنّ المعصوم عليه السلام لا يتوكّأ على مُبالغـة أو وهم؛ أو خيال، لذلك فإنّ الحديث المذكور يعني أنّ الله تعالى ألهم النبي صـلى الله عليه وآله المعرفة التي لم يُلهمها للآخرين... وأنّ عليّاً هو الشخصـيَّة الوحيـدة التي يمكنها أن تكون بمثابـة باب إلى دخول المدينة، وهذا يعني أيضاً أنّ النبي صـلى الله عليه وآله قد أوصل المعرفة التي منحها اللهُ إيَّاه إلى عليّ عليه السلام وجعله لساناً رسميّاً يتكلَّم بالمعرفة نيابة عن النبي صلى الله عليه وآله»(3).

وهكـذا كان قسمٌ كبير من عطائه مصدره الجانب الغيبي، أو عن طريق الوحي الذي عبّر عنه الفاخوري بقوله: «أَوَّلُ ما يتبادر إلينا من فلسـفة الإمام

1- عليٌّ سلطة الحق 64

2- عليٌّ إمام البررة 2 / 96. وينظر: المستدرك 3 / 137

3- مختصر تأريخ الأدب الإسلامي في ضوء المنهج الإسلامي 93

إنّ للمعرفة طريقين: طريقُ الوحي، وطريق العقل. أمّا الوحيُ فواسعُ النَّطاقِ، وخبرةُ حقُّ اليقين»(1).

أمّا العقاد فقد عـدَّ كلام أمير المؤمنين عليه السلام يَنمُّ عن قـدرة إلهّيـة من خلال ما أوتي من حكمة، فقال: «فكل نمط من أنماط كلامه، شاهـد له بالملكـة الموهوبـة في قـدرة الـوعي وقـدرة التعـبير، فهو ولاـ شـك من أبنـاء آدم الـذين علموا الأسـماء وأوتوا الحكمـة، وفصـل الخطاب»(2).

ولو عدنا إلى أمير المؤمنين عليه السلام نفسه ودعوناه لبيان هذا الجانب لقال: بلغة الواثق، مفتتحاً قولَه بالقسم:

«تَاللهِ لقد عُلِّمتُ تَبلِيغَ الرِّسَالَاتِ، وإتْمَامَ العِدَاتِ، وَتَمَامَ الكَلِماتِ، وعِنْدَنا – أهلُ البيتِ – أَبوابُ الحُكمِ، وضِياءُ الأَمرِ»(3).

وقال:

«فَاستَمِعُوا مِن رَبّانِيّكُم، وأَحضِروهُ قُلُوبَكُم، واستيقُظُوا إنْ هَتَفَ بكُم»(4).

فـأمير المؤمنين عليه السـلام هو صاحب الأذن الواعيـة بحسب الـذكر الحكيم، وهو ثابت القلب واللسان، وهو باب مدينـة العلم بحسـب الوثيقـة النبويـة، وهو ربّانيُّ هـذه الأمـة ومن عُلِّمَ تمام الكلمات بحسب ما وصف به نفسه، وهو صاحبُ القـدرة الإلهية في كُلِّ نموذجٍ من كلامهِ بحسب وصف العقاد، وهو صاحبُ

1- الجامع في تأريخ الأدب العربي: 1 / 345
2- العبقريات الإسلامية 2 / 145
3- نهج البلاغة 202 – 203
4- م.ن 180

فلسفةٍ يشكل الوحي جزءاً لا ـ يتجزّأ منها بحسب كلام حنّا الفاخوري، وهو من عُزِّز بنفحٍ إلهيٍّ وإلهام قدسي مكّناه مع غيرهما من وجوه البيان، وملّكاه أعنّة الكلام، بحسب وصف محمد أبي الفضل إبراهيم(1).

أما سبط ابن الجوزي (ت 654 ه) فقد سبق هؤلاء إلى بيان هذه الحقيقة في كلام الإمام عليه السلام ووصفه بوصفٍ دالٍ على تأثُّرٍ عميق، فقال: «كانَ علي ينطق بكلام قد حُفَّ بالعصمة، ويتكلَّم بميزان الحكمة، كلامٌ ألقى اللهُ عليه المهابة؛ فكُلُّ من طرق سمعَه وراقه فهابه، وقد جمع الله له بين الحلاوة والملاحة، والطّلاوة والفصاحة، ولم يسقط منه كلمة، ولا بارت له حجّة، أعجز الناطقين، وحاز قصبَ السَّبق في السابقين»(2). فابن الجوزي إذاً أرجع غالبية بلاغة الإمام ومهابة كلامه للتّصرّف الإلهي «قد حُفّ بالعصمة» «كلامٌ ألقى الله عليه المهابة» «قد جمع الله له...».

وهذا الدعم الإلهي لم يأت من فراغ، بل هو إستحقاق لهُ عليه السلام؛ لأنّهُ ذاب تماماً في الله سبحانه وتعالى، وطبيعي مَنْ يتميز بهذا يكون مصداقاً فعليّاً لقولهِ تعالى:

«وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا»(3).

ونرى أيضاً أنّ الله – سبحانه وتعالى – حباه بهذه الخصّيصة؛ لأنه مجتبى ومعد لمواصلة المسيرة النبوية بشهادة قول المصطفى صلى الله عليه وآله:

«أنتَ مِنّي بَمنزلَةِ هَارونَ من موسى إلا أنّهُ لا نبيَّ بَعْدِي»(4).

ص: 94

1- ينظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي حديد 1 / 5 حقيق محمد أبو الفضل إبراهيم
2- تذكرة الخواص 114
3- العنكبوت 69
4- صحيح مسلم 7 / 120، وينظر: مناقب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام 317

والعجيب إنّ هارون لم يكن وصيّاً لموسى عليه السلام فحسب، بل كانَ فصيحاً أيضاً، قال تعالى حكاية على لسان نبيّهِ موسى:

«وأخي هارُونَ هُوَ أَفْصَحُ منِّي لِسَاناً فأرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصدقُني إنّي أخافُ أنْ يُكذِّبونِ»(1).

وهكذا كان أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً مدعوماً بهذه الصفة، لأنّها ضرورة من الضرورات التي ينبغي توافرها في المبلّغ الرّسالي الهادف.

وتجدر الإشارة إلى أنَّ الباحث - وبهذا التوجيه الذي يجيء الإلهام من خلاله - لا يتّفق مع تعريف عز الدين إسماعيل للعبقرية والإلهام، فهو يراهما «قوّة خفيّة تدبُّ في الإنسان مستقلّة عن مجهوداته الخاصة»(2).

ومهما يكن من أمرٍ بعد هذا، فلا شكَ ولا ريب من إنّ هذا الإلهام الإلهي، والنفح القدسي الذي تجلّى في كلام أمير المؤمنين عليه السلام كان من افرازاتهِ ذلك النصيب الكبير من التأثير على القارئ.

سادساً: هضمه لتراث العرب

الأدبي ولد عليٌّ عليه السلام في بيئةٍ كان الأدب أرقى وأثمن ما يُمتَلك، فكان عند قومهِ، وفي بيئتّه تلك البضاعة المزجاة التي يحلو التفاخر بها، وتمجيد أصحابها؛ فالأديب يمثل لديهم لسان القبيلة المدافع والذائد عنها، والمحامي عن حقوقها، وهذا يعني إنّ من لا يمتلك هذا الصنف أو تلك الشَّخصيّة فإنّه خسر محارباً فاق في

1- القصص 34

2- الأدب وفنونه دراسة ونقد 35

لسانه وقع السيف. وبسبب أهميّه العرب هذه أصبحت لهم ثروة أدبية هائلة ومتميزة على الصعيدين الكمّي والفنّي.

في هـذه الأثنـاء، وفي تلـك البيئـة والعمـل الأدبي مُفعَمٌ بالعَطاء وُلِـدَ الإمام علي بن أبي طالب عليه السـلام، فمن غير المعقول أن لا يتأثّر ببضاعـة قومه، بل المتتبع لنتاجه يجده قد «ضَمَّ روائع البيان الجاهلي الصافي المتَّحد بالفطرة السـليمة إتحاداً مباشـراً إلى البيان الإسـلامي الصـافي المهـذّب المتَّحِـدُ بـالفطرة السـليمة والمنطق القوي اتحـادًا لا ـ يجوز فيه فصـل العناصـر بعضـها عن البعض»(1)فقـد ورد عنده الإستشهاد بالموروث الجاهلي من شعرٍ ومثل وحكمة في مواطن عدة، فمن التضمين الشعري المباشر أو النصي تمثله في خطبته الشقشقية بقول الأعشى إلى ابن الحطاب:

شتَّان ما يومي على كورها ويومُ حيَّانَ أخي جابر(2)(السريع) ومن التضمين بالمعنى قوله عليه السلام:

«وَلَيس لِوَاضِعِ المعرُوفِ في غيرِ حقِّهِ، وعن غيرِ أهْلِهِ، من الحَظِّ فِيمَا أتَى إلّا محمَدَةُ اللِّئامِ...»(3).

فالباحث يرى أن هناك شبهاً كبيراً بين قول الإمام هذا وبينَ بيت لزهير أبن سلمى في معلقتهِ، قال فيه:

ومن يجعل المعروفَ في غير أهلِهِ يكنْ حمدهُ ذمّاً عليه ويندمِ(4)(الطويل)

1- روائع نهج البلاغة 10
2- نهج البلاغة 26. والبيت للأعشى الكبير، ينظر: ديوانه 147
3- م.ن 228
4- ديوان زهير بن أبي سلمى 111

فالشبه هنا واضحٌ تماماً وبخاصة بين صدر البيت وبين ما أبتدأ به أمير المؤمنين عليه السلام كلامهُ:

«وليس لواضع المعروف في غير حقِّهِ، وعند غير أهله».

أمّا الأمثال، فقد وظّفَها في غير ما موطن من كلامه، حيث جاء في إحدى خطبه:

«وَأَحُثُّكُمْ عَلَى جِهَدِ أَهْلِ اَلْبَغْيِ فَمَا آتِي عَلَى آخِرِ قَوْلِي حَتَّى أَرَاكُمْ مُتَفَرِّقِينَ أَيَادِيَ سَبأ»(1).

فقوله «أيادي سبأ» من الأمثال المشهورة عند العرب(2)، ويضرب للمتفرِّقين، وأصله(3) قوله تعالى:

«وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ»(4).

وبعد أن عرفنا أن المثل يضـرب للمتفرقين؛ فإنّ توظيفه من قبل الإمام كان من البراعة بمكان، إذ عضّد بِهِ تشتت أنصاره عنه، وخذلانهم إيّاه، فكان هذا المعنى الركيزة الأساس والصورة الواضحة للخطبة التي ورد فيها المثل ومنها قوله عليه السلام:

«أَمَا والذّي نَفْسـي بِيَدِه، لَيَظْهَرَنَّ هؤُلاءِ القومِ عليكُم، ليس لأنهم أولى بالحقِّ منكُم، ولكِنْ لإسْـ راعِهِم إلى باطلِ صاحِبِهم، وإبطائِكُم، ليس لأنَّهم أولى بالحقِّ منكُم، ولكِنْ لإسْـ راعِهِم إلى باطلِ صاحِبِهم، وإبطائِكُم عن حقّي. ولَقَـ د أصْـ بَحتِ الأُممُ تَخافُ ظُلمَ رُعاتهَا، وأصـبَحتُ أخَافُ ظُلمَ رعيّتي... أتلُو عليكُم الحِكَمَ

1- نهج البلاغة: 161

2- ينظر: مجمع الأمثال 11 / 276

3- شرح نهج البلاغة لأبن أبي الحديد 4 / 36

4- سبأ 19

فَتَنْفِرونَ منها، وَأَعِظُكُم بالموْعِظَةِ البالِغَةِ فَتَتَفَرَّقُونَ عنها»(1).

وتجدر الإشارة إلى أنَّ توظيفاً للإرث الأدبي قد حصلَ في مواطن متعدّدة من كلام على بن أبي طالب عليه السلام(2). والذي يهم الدرّاسة من هذا الإرث هو أنَّ التضمين الذي أجراه على تلك الأبيات وأنصاف الأبيات والأمثال التي يفهمُ قصتَها وأحداثَها قو مُه، عائدُ إلى رغبته في التوصيل التام لأفكاره المبتغاة، ومن ثمَّ شدة التأثير عليهم وعلى لاحقيهم، لأنّ مِن نتائج انفتاح النص على نصوص الآخرين، ومحاكاتها، وتوظيفها ببراعة هو خلق جوٍّ إبداعيٍّ له القدرة على فرض هيمنته، وتأثيره في الآخرين على مرِّ العصور، وهذا لا يتوفّر إلاّ في نصوصٍ متعاليةٍ كالنص النهجي، والذي هو كغيره من النصوص التي تنفتح على نصوصٍ سابقةٍ لها أثرها في مرجعية الإمام الثقافية»(3).

سابعًا: سداد الرأي و

صدق اللهجة، والتودّد إلى السامع هذه هي الصفات الثلاث التي عدَّها الأب لويس شيخو آداب الخطيب الرئيسة(4).

أمّا السَّداد وبحسب ما وردَ في المعاجم اللغوية فإنّ معناه: الإصابة في المنطق، وأن يكونَ الرجلُ مسدَّداً(5).

1- نهج البلاغة 161
2- ينظر على سبيل المثال لا الحصر: نهج البلاغة 25، 52، 67، 71، 180، 477، 488
3- الاقتباس والتضمين في نهج البلاغة 16
4- ينظر: علم الأدب 2 / 48
5- ينظر: غريب الحديث 2 / 62

وهذا قريبٌ جداً من معناه الإصطلاحي الذي يعني «أصالة العقل وعلمه التام بالقضية وتمييزه لوجوهِ الأمور ومعضلات المشاكل بحيث يثق السامع بقول الخطيب وينقادُ إلى كلامه»(1). ولا بُدّ للخطيب صاحب الرأي السديد من «إيراد قضيّته على صورةٍ جليّةٍ قريبة المنال... وتمكينها في ذهن السَّامع بالبيِّنات اللامعة والشواهد الساطعة... واستدراك اعتراضات الخصم وتفنيدها»(2).

وعلى أيّةِ حال فإنَّ هذه الشروط إن انطبقت على أحدٍ؛ فإنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام يأتي في الطليعة، إذ كان هو المبرَّز في إيراد ما يريد بسدادِ رأيٍّ تام، فضلاً عن أقواله التي كان يؤكد من خلالها على هذا الجانب، كقوله عليه السلام:

«من علاماتِ الإِقْبالِ سَدَادُ الأقْوالِ، والرِّفقُ في الأَفعالِ»(3).

فأمير المؤمنين عليه السلام تحدثّ هنا عن التأثير والذي أسماه ب «الإقبال» لأنّ الإقبال هو نتيجة متوقعة للتأثير، فكلمّا كان التأثير أبلغ كان الإقبال أوسع، ولكن هذا الإقبال أرجعه أمير المؤمنين عليه السلام إلى «سداد الأقوال» علماً أنّ سدادَ القول راجع إلى حجر أساس وهو سداد العقل.

أمّا الحوادث والمناظرات التي بيَّنت سداد الرأي عند أمير المؤمنين عليه السلام، فهي كثيرة جدّاً، إن لم يكن جميع كلامه استدلالاً على الرأي السديد. ولعل من المناسب هنا ذكر كلامه الذي كلّم به كليب الجرمي(4)مرسول أهل البصرة

ص: 99

1- علم الأدب 2 / 48

2- م. ن 2 / 49

3- غرر الحكم ودرر الكلم 210

4- هو كليب الجرمي منسوب إلى بني جرم بن رَبَّان بن حُلوان من حمير بعثه قومه إلى الإمام علي يستعلم حاله أهو على حجة أم على شبهة. ينظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 9 / 197

للإمام بعدمَا أصبحت معسكراً لأهل الجمل، وعند وصول الرجل طلب منه الإمام أن يبايع فقال:

«إنّي رسولُ قومٍ، ولا أُحدث حدثاً حتى أرجع إليهم. فقال عليه السلام لو أنّ الّذينَ بعثوكَ رائداً تبتغي لُهم مساقِطَ الغَيثِ، فرَجَعْتَ إليهم وأخبر تَهُم عن الكلأـ والماءِ، فَخَالَفوا إلى المَعاطِشِ والمجَادبِ، ما كُنتَ صَانِعاً؟ قال: كنتُ تاركَهم ومخالِفَهُم إلى الكلأِ والماءِ. قال عليه السلام: فَامْدُدْ إذاً يَدَكَ. فقال الرَّجُل: فو الله ما أستطعت أن أمتنع عند قيام الحُجَّةِ عليَّ فبايعتهُ عليه السلام»(1).

وهكذا كان عليه السلام وبفعْلِ سداد رأيه يرشد المسترشد ويفحم الخصم بأدلّة قاطعة وبراهين ساطعة، وهذا المثال أحدها، حتى قال عنه ابن أبي الحديد (ت 656 ه):

ولا شيءَ ألطف ولا أوقع ولا أوضح من المثال الذي ضربه عليه السلام، وهو حُجَّةٌ لازمة لا مدفع لها»(2).

جاء تأثير كلام الإمام عليه السلام من مثاله الذي ضربه من الواقع الذي يعيشه الفرد العربي آنذاك؛ فالكلأ والمرعى هو عماد الحياة العربية البدوية، والمثال جاءَ عليها وبطريقة جليّة سهلة الفهم، واضحة المقصد هذا من جهة. ومن جهةٍ أخرى احتفاظهِ عليه السلام بالبلاغة في أروع صورها عند إيراد الحجة، وبخاصة عندما شبّه نفسه أو جهته ومعسكره ب «مساقط الغَيث.. الكلاء والماء»، وهذا ما يتغنّى بِهِ العربي ويرنو إليه أينما حلَّ وارتحل.

أمّا خصومه والمتمثّلون بأصحاب الجمل فقد شبههم ب «المعاطش والمجادب»، وهذا ما ينفرُ منه السمع، ويُتخوَّف من الإصطدام به في أيِّ مكان،

1- نهج البلاغة 282 - 283

2- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 9 / 197

وبالتالي فإنَّ إيراد هذا التشبيه سيكون تأثيره بإتجاهين متعاكسين: الأول هو تثبيط الرجل، وإبعاده عن معسكره، والثاني هو ترغيبهِ بالدخول في حظيرة الصواب، المتمثّلة بمعسكر أمير المؤمنين عليه السلام. وهكذا جاء جواب المبعوث بما خطط لهُ علي بن أبي طالب عليه السلام: «كنتُ تاركهم ومخالفهم إلى الكلإِ والماء».

ومهما يكن من شيء فإنّ هذا كله وسيلة وليس غاية؛ لأن الغاية التي ابتغاها (صلوات الله عليه) قول الجرمي: «فوالله ما استطعتُ أن أمتنعَ عند قيامِ الحُجّةِ عليَّ فبايعته عليه السلام».

وبعد سداد الرأي يأتي صدق اللهجة. واللهجةُ على وفق ما صرّحت بهِ المعاجم اللغوية تعني اللسان، ويُقال فلان فصيح اللهجة(1). وجاء في الحديث النبّوي:

«ولا أظلّتْ الخَضْراءُ ولا أقَلّتِ الغبراءُ ذي لهجةٍ أصدق من أبي ذر»(2).

وصِدق اللهجة من أهمِّ ما ينبغي أن يتحلّى به الخطيب، كونه يسهم في مدِّ جسور الثقة بين الخطيب وجمهورهِ «لِيُثبت لدى السّامعين خلوص نيّتهِ واستقامة عمله وحرصه على الحقيقة، فيزيدُ ميلُهم إلى رأيه وركونُهم إلى تصديقه»(3).

وفضيلة صدق اللهجة البالغة هذه تنبه لها أمير المؤمنين عليه السلام فأسماها صراحة حيث قال:

«مَنْ صدقت لهجَتُه صحَّتْ حُجّتُه»(4).

وجسدها واقعا، فكان مثالاً يحتذى فيها وهذا ما نتلمسه في تصريحات عدة

1- لسان العرب مادة (لَهَجَ)
2- سبيل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد 11 / 241
3- علم الأدب 2 / 49
4- غرر الحكم ودرر الكلم 219

له، من نحو قوله:

«ما كَذَبْتُ ولا كُذِّبْتُ..»(1).

وقوله أيضاً:

«والـذّي بعثَهُ بالحقِّ - يعني الرسول الأكرم صـلى الله عليه وآله -، واصـطَفاهُ على الخلقِ، ما أنْطِقُ إلّا صَادِقاً... أيُّها النّاسُ، إنّي - والله - ما أحثُّكُم على طاعةٍ إلّا وأسْبقُكُم إليها، ولا أنها كُمْ عن معصية إلّا وأتَناهَى قبلكُم عنها»(2).

وهنـا يطلُّ علينا عليه السـلام في قوله الأخير «أيها الناس... الـخ» إطلالـة في غايـة الأهميـة - من أجل أن يكون الواعظ أو القائـد مؤثّراً في جمهوره ورعيته -، ألا ـ وهي التطبيق الفعلي لـما يقول، لأنّ الكلام - مثلما يرى هو (صـلوات الله عليه) - إذا كان قائله مطبِّقاً إياه وبلهجة صادقة خرج من القلب وإذا خرج من القلب سقط في القلب أي كان مؤثّرا.. بينما إذا خرج من اللسان؛ فإنه سيفقد ذلك التأثير المرجو فقال عليه السلام في ذلك:

«الكلمةُ إذا خَرَجَتْ مِنَ القلبِ وَقَعْت في القلبِ وإذا خَرجتْ من اللسّان لم تجاوز الآذان»(3).

وهكـذا كـان عليه السـلام يصوغ قوانين نفسانيـة خالـدة تؤثر في ما لا يحصـى من النفوس دون أن يؤثر على صـلابتها، وصـحتها، وديمومة فاعليَّتها زمان أو مكان.

وتبقى مسألة مهمة هنا تجدر الإشارة إليها، وهي أنّ أمير المؤمنين عليه السلام ملك

1- نهج البلاغة 585
2- م. ن 289 - 290
3- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 20 / 446

ناصـية التوفيق التام في كلامه بين صدق اللهجة وبين البلاغة السّاحرة، وهذا من اكبر العبقريات عنده عليه السـلام على الرغم من صعوبة أو استحالة الجمع بين الأمرين حتى «قال بعض الحكماء لم يُرَ متديِّن صادق اللهجة مفلقاً في شعره»(1).

وأمّا ثالث ركائز الخطيب الرئيسـة، فهو التودّدُ أو التحبب إلى السامع. وتعـدُّ هذه الركيزة من ميزات أمير المؤمنين عليه السـلام وكثيراً ما كان يوصي بها أيضاً بنفسه، فمرّةً قال:

«التودُّدُ إلى النّاسِ رأسُ العقلِ»(2).

وأخرى قال:

«التودّدُ نِصفُ العقلِ»(3).

وثالثة قال:

«أوَّل المروءَةِ طلاقةُ الوجهِ وآخرُها التودُّدُ إلى النّاسِ»(4).

وللتوددِ موجبـات منهـا: الوقـار، والتصوّن، والوفَاء، والنّزاهـة، وأن يؤثرَ الخطيب أمر الرعيّـة على شؤونهِ الخاصـة(5)وهذه الموجبات كانت مجتمعة في شخص أمير المؤمنين عليه السلام، فمن الوقار الممزوج بالتودد ما وصفه به صعصة بن صوحان(6)

1- الإتقان في علوم القرآن 2 / 325
2- غرر الحكم ودرر الكلم 445
3- نهج البلاغة 577
4- غرر الحكم ودرر الكلم 211
5- علم الأدب 2 / 49 - 50
6- هو صعصـعة بن صوحان بن الحجر بن الحارث من ربيعة وكان يكنى بأبي طلحة، وكان خطيباً، ومن أصـحاب علي بن أبي طالب، شهد معه الجمل، وروى عنه عهده لمالك الأشتر. ينظر: الطبقات الكبرى 6 / 221، ينظر: ورجال النجاشي 203

(ت 60 ه): «كان فينا كأحدنا، لينُ جانبٍ، وشدَّةُ تواضُعٍ، وسهولةُ قيادةٍ، وكُنّا نهابُه مهابةَ الأسير المربوط للسَّيّافِ الواقف على رأسه»(1).
ومن التصوّن والنزاهة فَمَنْ غيره قال أو يقول:

«واللهِ لقد رقَّعتُ مِدْرَعتي هذهِ حتّى استَحْيَيْتُ من راقِعِها»(2).

وفي جانب الإيثار آثر التنازل عن حقوق يراها له، متماهياً مع رغبة بعض المسلمين، فقال:

«لَقَد عَلِمْتُم أنّي أحقُّ النّاسِ بِهَا مِن غيري، وواللهِ لَأُسَلِمنَّ ما سَلَمِت أمورُ المُسلمينَ؛ وَلَم يَكُنْ فيها جَورٌ إلَّا عليَّ خاصّةً، التِماساً لأجر ذلك وفَضْلِهِ، وزُهداً فيما تنافستُمُوهُ مِنْ زُخرُفه وَزِبرِجهِ»(3).

ولُبُّ القول الذي تذهب إليه الدراسة هو أنّ هذهِ الصفات الثلاث - سداد ألرأي، وصدق اللهجة، والتودد إلى السامع - إجتمعت متآنسة فيما بينها بكلام أمير المؤمنين عليه السلام، وكان بعضها يدعم بعضاً حتى أنجبت إنجابات شرعية بضمنها ذلك التأثير العظيم الذي تركته على نفوس عشاق الأدب الرفيع، وطالبي الحقيقة المقدمّة بثوبٍ من البلاغة الساحرة.

ثامنًا: المحن التي

تعرّض لها عليه السلام عرفنا في السابق موجزاً عن نشأة أمير المؤمنين عليه السلام وعلاقته بالرسول محمّد صلى الله عليه وآله

ص: 104

1- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 1 / 29
2- نهج البلاغة 263
3- نهج البلاغة 103 - 104

والتي كانت على مرحلتين:

الأولى:

تمتد إلى نزول الوحي وتبشير الرسول بالنبوة.

الثانية:

تمتد إلى رحيل النبي صلى الله عليه وآله (سنة 10 ه). والذي يلحظ على خطاب أمير المؤمنين عليه السلام بعد هذه المدة - وهذا ما تهتم بِهِ الدراسة هنا - هو بروز عنصر الشّكاية والتألّم وعدم الرّضى في كلامه. وقد أصابَ بودلير لما قال: «لكي تكتشف عقليّة.. ما، أو على الأقل تكتشف ما يشغل فكره أساساً دعنا نفتّش عن الكلمة أو الكلمات التي تتردد عنده كثيراً، فسوف تعبِّر هذه الكلمة عمّا يستحوذ تفكيره»(1). فكان من بواكير هذه الكلمات والخطابات التي بيَّنت سأم الإمام عليه السلام قوله عند دفن زوجته الزهراء عليه السلام سنة (10 ه):

«قلَّ يا رسولَ اللهِ عن صفِيَّتِكَ صَبْرِي، وَرَقّ عنها تجلّدِي... أمّا حُزْني فسَرْمَدٌ، وأمّا لَيلي فَمُسَهَّدٌ... وستُنَبِّئُكَ ابنَتُكَ بتَضافُرِ أُمّتِكَ على هَضْمِهَا، فأَحْفِهَا السُّؤالَ، واستَخْبِرْها الحالَ»(2).

وأستمرَّ هذا اللون الخطابي الّا أنّه بدأ يظهر جليّاً عنده عليه السلام، لأنهُ كان «يعيش أصعب مراحل التأريخ فالفتن تأخذه من كُلِّ جانب»(3)تمثّلَ جانبٌ منها بالمعارك الظالمة التي وقعت في خلافته والتي جعلته مثلما قال الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجي: «في كفاحٍ دائمٍ وحروب مستمّرة خرجت عليه عائشة بالبصرة ومعها

ص: 105

1- الاتجاه الأسلوبي في النقد الأدبي 170

2- نهج البلاغة 370 - 371

3- مجلة تراثنا ع 1 / 171

طلحة والزبير، ومعركة الجمل المشهورة ثمَّ استمرت الحروب بينه وبين معاوية بن أبي سفيان... ومنها موقعة صفين ثم كان أمر التحكيم الذي قبله عليٌّ على كره منه»(1).

ثمَّ الخوارج الذين هم في الأصل أصحابه عليه السلام، كما تمثّلت تلك الفتن أيضاً بالإنتهازّيين الذين يركبون موج الأحداث ويتصيَّدون غنائمها، وفي هذهِ المرحلة أدرك الإمام علي عليه السلام أن جذور الفتنة تضرب في أعماق النفس فتوجه إليها خطيباً وواعظاً على السواء، ومن يقرأ ما في نهج البلاغة تنكشف له هذهِ الحقيقة التي هي أم الحقائق فيه(2). فكان في هذا – مثلما قال هو عليه السلام – يُقاتل:

«رجُلَينِ: رجُلاً ادَّعَى ما لَيْسَ لهُ، وآخَرَ مَنَعَ الّذي عَلَيهِ»(3) أمّا الجانب الآخر الذي زاد في محن الإمام عليه السلام هو قلة المُّعين، وهذا ما بدا واضحاً في خطبة الشقشقية:

«وَطَفِقْتُ أرتئِي بينَ أنْ أصولَ بيدٍ جذّاء، أو أصبِرَ على طَخْيَةٍ عميّاء»(4).

والجذّاء هي المقطوعة(5)؛ فالتأريخ لم ينقل لنا بأنّ أمير المؤمنين عليه السلام كانت يده مقطوعة، بل كلامه هذا كناية عن قلة الأنصار، وهذا ما بدا جليّاً في قوله:

«أما والذّي نَفْسي بيدِهِ، لَيَظْهَرَنَّ هؤلاءِ القَومُ عليكم، ليس لأنَّهم أَولى بالحقِّ منكُم، ولكِنْ لإسْرَاعِهم إلى باطِلِ صَاحِبِهم، وإِبْطَائِكُم عن حَقِّي. ولَقد أَصبَحتِ الأُمَمُ تَخافُ ظُلمَ رُعاتِها، وأصبَحتُ أخافُ ظُلمَ رعيَّتي...

1- الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام 132

2- ينظر: مجلة تراثنا ع 1 / 171

3- نهج البلاغة 286

4- نهج البلاغة 25

5- ينظر: لسان العرب مادة(جَذَذَ) 3 / 479

«أيُّها القَومُ الشَّاهِـدَةُ أبـدانُهم، الغائِبَةُ عنهُم عُقُولُهم، المُخْتَلِفةُ أهَواؤُهم، المُبْتَلى بهم أَمَراؤُهم. صَاحِبُكُمْ يُطيعُ اللهَ وأنْتُم تَعْصونَه، وَصَاحِبُ أهلِ الشَّامِ يَعْصِي اللهَ وَهُم يُطيعونه»(1).

وبما إنّ الدراسة – في هـذا الفصل – تبحث في بعض أسباب محن الإمام علي عليه السلام فينبغي التعرض لجانب ثالث كان قد شكل حسرة وغصّة في قلب الإمام عليه السـلام وزاد في عيشته الخانقة تمثّل في التفريق بينه وبين حواريّيه، إمّا عن طريق النَّفي مثلما حدث مع أبي ذر الغفاري (ت 31 ه) الذي قال عنه طه حسين: «وإنّما سيّره عثمان إلى الربذةِ منفياً فأقام فيها حتى مات غريباً»(2).

أو الإغتيال السياسي كإغتيال مالك الأشتر سنة (37 ه) الذي وصفه الامام عليه السلام لمّا جاءَ خبر نعيه:

«مَالِكُ ومَا مالِكُ! والله لو كان جبلاً لكان فِنْداً، ولو كان حجراً لكانَ صَلْداً، لا يرِتقيه الحافِرُ، ولا يُوفي عليه الطائرُ»(3).

وقال فيه أيضا:

«رَحمَ اللهُ مالكاً فلقد كان لي كما كنتُ لرسول اللهِ صلى الله عليه وآله»(4).

أو القتل في الحرب كقتل محمد بن أبي بكر سنة (37 ه) الذي أبّنه الإمام عليه السلام بقوله:

1- نهج البلاغة 160 - 161
2- الفتنة الكبرى 164
3- نهج البلاغة 632
4- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 19 / 120

«إنّ حُزنَنَا عليه على قَدْرِ سُرُورِهِم بهِ، إلّا أنَّهم نَقَصوا بغيِضاً، ونَقَصنا حَبيباً»(1).

فكثيراً ما كان عليه السلام يؤبِّن أصحابه الذين مضوا بكلمات نابعة من قرارة قلب يعتصره الألم والأسى:

«أَينَ إخوَاني الّـذِينَ رَكِبُوا الطَّرِيق، وَمَضَوا على الحقِّ؟ أين عمّارٌ؟ وأينَ ابنُ التَّيِّهَانِ(2)؟ وأينَ ذو الشَّهادَتَينِ(3)؟ وأينَ نُظَراؤُهُم مِن إخَوانِهِمُ الّـذينَ تَعَاقَدوا على المنَيَّةِ، وأُبردَ بِرُؤوسِـهِم(4)إلى الفَجَرَةِ!؟ فقال الراوي: ثم ضرب بيده على لحيته الشريفة، فأطال البكاء، ثم قال عليه السلام: أَوِّهِ على إخواني الّذينَ تَلَوُا القُرآنَ فأحكَمُوه، وتدبّروا الفرضَ فأقَامُوه...»(5).

هذا جانب من المحن والفتن التي تعرّض لها عليه السلام والتي جعلت محياه ومماته تأريخاً دامياً للفضيلة المعذبة، والنفس المطمئنة الشهيدة»(6). وبما إنّ حياته كلها كفاح، ونضال، وحزن ويأس(7)من قومه؛ فقد تولّد عنده الإنفعال الذي منشؤه

ص: 108

1- م. ن 611

2- ابن التَّيِّهان: هو أبو الهيثم بن التَّيِّهان، وأسمه مالك، وأسم أبيه مالك أيضا ابن عبيد بن عمرو بن عامر الأنصاري قيل: إنهُ توفي سنة عشرين. وقيل انهُ أدرك صفّين، وشهدها مع علي عليه السلام وقتل فيها وهو الأكثر. ينظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 10 / 290

3- ذو الشهادتين: هو خزيمة بن ثابت الأنصاري من الأوس جعل رسول الله صلى الله عليه وآله شهادته كشهادة رجلين قُتِلَ بصفين بعدَ أن شهدها إلى جانب أمير المؤمنين. ينظر: م.ن 10 / 290 - 291

4- أُبرد برؤوسهم: حملت رؤوسهم مع البريد إلى الفسقة للبشارة بها والفجرة هنا أمراء معسكر الشام.ينظر: م. ن 10 / 291

5- نهج البلاغة 306

6- تأريخ الأدب العربي 135

7- ينظر: أدب العرب 156

الإتحاد المباشر بين العبقري وبين الموضوع الذي يشغله»(1)والذي يراه - أي الإنفعال - برجسون «جوهر الأبداع»(2)، ثمّ إنّ هذا الإنفعال الذي تولد من هاتيك الفتن، كان من أهمِّ بواعث الخطابة وما يدعو اليها(3)، مثلما تولَّد عنده عليه السلام وكنتيجة متوقعة لتلك الأحداث عنصر الغربة أو الإغتراب(4)، عاش غريباً لأنه لاقى من الإعوجاج والعداوة ما تئِنُّ له الجبال لا لشيء الّا أنه أراد أن يقيم العدل في كُلِّ شيء، وأن تتمثلهُ كُلُّ نفسٍ، لأنه يعدل وهم لا يعدلون لأنّه ينتصف من نفسهِ ولا ينتصفون لأنّه يأتمر بالله ولا يأتمرون(5)فكانت النتيجة:

«اللهُم إنِّي قَد مَلِلتُهم ومَلُّوني وسَئِمتهم وسَئِموني، فأَبدِلني بهم خيراً منهم، وأَبْدِلْهُم بي شَرَّاً مِنّي، اللهم مِثْ قُلُوبهم كما يُماثُ الملحُ في الماء»(6).

عاش غريباً لإنهُ مثلما قال جبران خليل جبران: «لم يعرف العرب حقيقة مقامه ومقداره... مات قبل أن تبلغَ العالمَ رسالته كاملةً وافية. غير أنني أتمثّلُهُ مبتسماً قبل أن يغمض عينيه عن هذه الأرض. مات شأن جميع الأنبياء والباصرين الذين يأتون إلى بلد ليس ببلدهم وإلى قومٍ ليس بقومهم وفي زمنٍ ليس بزمنهم ولكن لربِّك شأنٌ في ذلك وهو أعلم»(7).

ص: 109

1- الإبداع في الفن 80

2- م. ن 80

3- ينظر: الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام 134

4- يرى أغلب الدارسين أن الفيلسوف الألماني هيجل هو من طرح مصطلح الأغتراب وأكدَّ عليه ودرسه بتعمق. ينظر: الاغتراب وأنواعه 5

5- ينظر: الأغتراب عند الإمام علي من خلال نهج البلاغة 112

6- نهج البلاغة 52

7- الراعي والرعية 47

والـذي يهمُّ الدراسة من هذ ِه المحن وما ولدته في تأريخ الإمام، إنّها أسـهمت إسـهاماً فعّالاً في جعل كلامهِ عليه السـلام ذي فاعلية فاعلة على التـأثير لأنـهُ أديبٌ من طرازٍ خاص عانى من أزمات خانقـة – والأديب الـذي يعيش المشـكلة يكون أقـدر من غيره في الإفصاح عنها – وحمل هموم الرعيـة صـغيرها وكبيرها، ممّا انعكس إيجاباً على عَطائهِ الأدبي، فصاغ ما عاناه بكلمات وصور أدبية سَـكبَ عليها حرارة روحهِ المعذبة، فجعلها تشقُ طريقاً مهيعاً إلى قلوب السامعين. وهذا بدوره شكّلَ نواةً مقتدرة على خلق التأثير.

هذه هي مجموعة أسـباب اجتمعت في شـخص أمير المؤمنين عليه السـلام – دون غيره – استطاع أن يوظفَّها توظيفاً مهيباً بمساعدة أسباب أُخر منها: سلامة ذوقه وروحه الصافية(1)، وكذلك ما أمتاز به من ذكاء مُفرط، فقد قال عنه ابن عباس (ت 68 ه):

«مـا رأيتُ قط أذكى من عليٍّ بن أبي طالب»(2)، فضـلاً عن خلوص نيّتهِ، وروحه الإنسانيـة التي جاءت آثارها مثلها، فهي «لم تُوضع لفريق دون فَريق، ولم يُراعِ فيها شعبٍ، وإنّما خُوطِبَ بها الإنسان أنّى وُجِد وكان. ولأنّها تُلامس كُلَّ قلبٍ، وتُضمِّدُ كُلَّ جُرح، وتكفكف كلَّ دمعة، كانت مُلكاً للناس أجمعين، وكانت خالدةً عند الناس أجمعين»(3).

وتجدر الإشارة إلى أنّ هناك صفات عدّة في كلام الإمام عليه السلام كان الدكتور أحمد محمد الحوفي يرى أنها تقف وراء تأثير كلام الإمام عليه السلام هي: تخيّر المفردات وإنسجامها مع النّاحية الصوتية وقوّة التعبير وسهولته، وقصر المفردات وتوازنها،

1- ينظر:الجامع في تأريخ الأدب العربي 1 / 352

2- الأغاني 1 / 81

3- دراسات في نهج البلاغة 11

وكثرة الصيغ الإنشائية(1).

إذا فـأمير المؤمنين عليه السـلام كـان قـد حّلق بجناحين هما عماد البلاغـة: اللب، والإسـلوب ف «الأثر الفني الكامل في نظري – والكلام لتوفيـق الحكيم – هـو ذلـك الـذي يحـدث فينـا ذلـك الشـعور الكامـل بالإرتفـاع... وقلّمـا يحـدث هـذا إلّا عن طريق السـمو في اللبّ والاسلوب»(2)، وتلك سـمتان جليّتان في أدب أمير المؤمنين عليه السـلام، فبكلامه «يندمج الشكل بالمعنى إندماج الحرارة بالنّار والضوء بالشـمس والهواء بالهواء... هذا من حيث المادة. أمّا من حيث الأسـلوب، فعليُّ بن أبي طالب ساحر الأداء. والأديب لا يكون إلّا بإسلوب، فـالمبنى ملازمٌ فيه للمعنى، والصورة لا تقلُّ في شـيءٍ عن المادّة... وإنّ قسط عليّ بن أبي طالب من الـذوق الفنّي – أو الـذوق الجمالي – لمّـا ينـدر وجوده... وإنّ شـروط البلاغـة التي هي موافقـة الكلام لمقتضـى الحـال لم تجتمع لأديب عربي كما اجتمعت لعليٍّ بن أبي طالب»(3).

وعلى كلِّ الأحوال فإنّ هذه الصـفات التي اجتمعت في كلام أمير المؤمنين عليه السلام هي التي جعلت من «كلِّ مثقّفٍ عربي، كلِّ كاتب عربي، كُل شاعر عربي، كُلِّ خطيب عربي مـدين للإمام علي. فإذا كان كُلُّ مسـلم في الـدنيا مدينُ للقرآن الكريم في تكوين عقليّته وتفكيرِهِ فإنَّ كلَّ مثقّفٍ عربي مدين لنهج البلاغة في تقويم قلمه»(4)إذ «لولا كلام عليٍّ بن أبي طالب وخطبه وبلاغته في منطقه ما

1- ينظر:علي سلطة الحق 547 - 559

2- فن الأدب 76

3- الإمام علي صوت العدالة الإنسانية 1 / 529

4- الإمام علي أسد الإسلام وقدِّيسه 225

أحسن أحدٌ أن يكتب إلى أمير جند، ولا إلى رعيّة»(1)، وهذه الحقيقة التي هي عين الصواب - لما سيتضح لاحقاً - وتأثّر الكتاب بأميرهم إلى هذه الدرجة، لم يكن عبثاً بل لأنّهم وجدوا «الفصاحة تُنسَب إليه، والبلاغة تُنقَل عنه، والبراعة تُستفاد منه، وعلم المعاني والبيان غريزة فيه.. فعصابة الفُصحاء على تفاوت طبقاتهم دونه، وزمرة البلغاء على تباين حالاتها عيالٌ عليه»(2) وهكذا كل من وصف بلاغة أمير المؤمنين عليه السلام فقد وصفها بوصف مؤثر.

وهذا راجع لأمرين: الذوق الصافي والفطرة السليمة والمقدرة الأدبية الخلاقة لدى الواصفين وللتأثير العظيم الذي تركه كلامه عليه السلام على متذوّقي الأدب الرفيع، فعن عامر الشعبي (ت 106 ه) أنّه قال: «تكلّم أمير المؤمنين عليه السلام بتسع كلمات ارتجلهُنّ ارتجالاً فقأنَ عيون البلاغة، وأيتمن جواهر الحكمة، وقطعن جميع الأنام عن اللحاق بواحدةٍ منهنَّ، ثلاث منها في المناجاة، وثلاث منها في الحكمة، وثلاث منها في الأدب. فأمّا اللائي في المناجاة، فقال: إلهي كَفى بي عزًّا أن أكونَ لكَ عبداً، وكفى بي فخراً أن تكونَ لي ربّاً أنت كما أُحُبّ فاجعلني كما تُحبُّ، وأمّا اللائي في الحكمة، فقال: قيمةُ كُلِّ امرئٍ ما يُحسِنُه، وما هلك امرؤٌ عرفَ قدرَه، والمرءُ مخبوءُ تحت لسانه. وأمّا اللائي في الأدب، فقال: امنُنْ على مَنْ شئت تكن أميرَه، واستغن عمَّن شئت تكُن نظيرَه، واحتجْ إلى مَنْ شئت تكُن أسيرَه»(3).

وبعد أن أدرك الأدباء هذه الثروة الأدبية اتّكأوا عليها، وتتلمذوا بها، حتى

1- الإختصاص 148 - 149

2- مطالب السؤول في مناقب آل الرسول 178

3- ميزان الحكمة 1 / 57، وينظر: من أروع ما قاله الإمام علي عليه السلام 62

أصبحت لهم بفضلها قدم راسخة في ميادين الأدب قديماً وحديثاً، ففي القديم قال ابن نباتة الخطيب(1)(ت 374 ه): «حفظتُ من الخطابة كنزاً لا يزيدُه الإنفاق إلاّ سعةً وكثرةً، حفظتُ مائةَ فصلٍ من مواعظ عليٍّ بن أبي طالب»(2).

ومن كلام ابن نباتة يَستَدِلُّ الباحث - فضلاً عن التأثر المهيب بكلام الإمام - على أنّ كلام الإمام كان مجموعاً وهذا ما وضح في قول الأديب «مائة فصل من مواعظ...» وإلاّ كلمة فصل لا يمكن أن تُطلق على خطبة، ولا على رسالة، ولا على حكمة، بل هي جزء من كتاب مجموع.

وتجدر الإشارة إلى أنّ ابن أبي الحديد (ت 656 ه) عمل مقارنة بين بعض خطب ابن نباتة «الفائز بقصبات السّبق من الخطباء؛ وللنّاس غرامٌ عظيم بخطبه وكلامه»(3)، وبين كلام أمير المؤمنين عليه السلام امتازت تلك المقارنة بأحكام تعليليّة، ونتائج علمية؛ كونها صادرة من مؤرخ كبير، وناقد بصير، ولغوي، وشاعر.

كانت خلاصة تلك المقارنة هي «أنَّ سطراً واحداً من كلام نهج البلاغة يساوي ألف سطر منه - أي كلام ابن نباتة - بل يزيد ويُربي على ذلك، فإنَّ هذا الكلام

1- اشتهر بابن نباتة في الأدب العربي رجال ثلاثة: أولهم عبد الرحيم بن محمد. والثاني ابن نباتة السعدي (ت 405). والثالث ابن نباتة المصري صاحب (سرح العيون) (ت 768 ه). ينظر: النثر الفني في القرن الرابع الهجري 1 / 192. ومقصودنا الأول عبد الرحيم بن محمد بن إسماعيل صاحب الخطب المشهورة؛ كانَ إماماً في علوم الأدب، وكان خطيب حلب، وبها اجتمع بالمتنبي في خدمة سيف الدولة. ينظر: وفيّات الأعيان 3 / 156. وله ديوان خطب مطبوع يُعرف ب «ديوان الخطب النباتية» متأثر به كثيراً بكلام أمير المؤمنين عليه السلام

2- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 1 / 28

3- م. ن 7 / 144

مُلزَّق عليهِ آثار كُلفة وهُجنة»(1).

ومما يسجّل بقوة لبلاغة أمير البلاغة عليه السلام أن تأثيرها تجاوزَ حدود المحبين ليسحر أشدَّ المناوئين له عليه السلام، فهذا هو معاوية لمّا قال له أحد شيعته: «جئتكُ من عند أعيا الناس. قال له: ويحك وكيف يكون أعيا النّاس! فوالله ما سنَّ الفصاحةَ لقريش غيرُه»(2).

ثم لم يكن تأثير كلامه عليه السلام على أديب بعينهِ أو طائفة، أو قومية، أو بحدود عصر معين، بل بلاغته عليه السلام خارجة عن هذه الأُطر فمثلاً الأديب الفارسي سعدي الشيرازي بعد أن «عثر على ضالّتهِ المنشودة في بلاغة الإمام علي»(3)سبك عهده لمالك الأشتر - على طوله - شعراً، وسكبه نثراً في الرِّسالة الخامسة من رسائله الست(4).

وكان المتنبي (ت 354) معتمد في بعض أبياتهِ الرائعة على حِكم الإمام عليه السلام، قال العّلامه محمد حسين آل كاشف الغطاء(5): «إنّ المتنبي كثيراً ما كان يصول على حِكم الأئمة عليه السلام وخصوصاً حِكم أمير المؤمنين عليه السلام فيأخذ معانيها ثم ينظمها في أقواله... خذ مثلاً المتنبي يقول:

1- م. ن 7 / 146
2- نوادر وقصص من شرح نهج البلاغة 1 / 12
3- الأثر العربي في أدب سعدي 380
4- ينظر:.ن 378
5- هو الشيخ محمد حسين بن الشيخ علي بن الشيخ محمد رضا كاشف الغطاء، من كبار رجال الإسلام المعاصرين ووُصِفَ بأنّه خطيب بارع، ساحر البيان، فصيح اللسان. توفي سنة(1373 ه) في النجف ودُفِن فيها. ينظر: علماء في رضوان الله 441 - 444

الظّلمُ من شيم النفوس فإن تَجد ذا عفّةٍ فلعلّة لا يظلِمُ(1)(الكامل) أخذها من قول عليٍّ عليه السلام:

«ألظُّلمُ كامِنٌ في النُّفوسِ، القوَّةُ تُبديه، والضَّعفُ يُخفيه»(2).

وغير هذا كثيرُ عند المتنبي، فقوله:

وإذا كانت النّفوس كباراً تعبت في مُرادها الأجسام(3)(الخفيف) تتلمَّس من ورائه حكمة أمير المؤمنين عليه السلام:

«أتْعَبُ النّاسِ قلْباً مَنْ عَلَتْ همَّتُهُ، وكثُرَت مُروءَتُهُ»(4).

ومن طُرق تأثُّر الشعراء بكلام أمير المؤمنين عليه السلام هي أن يعمد الشاعر إلى وصف الإمام ومناجاته مع الله سبحانه وتعالى، ويمدح بها من يشاء؛ فالبحتري (ت 284 ه) يصوغ بيتين في المديح - مخاطباً بها ابن المدبر - من أجمل أبياته:

دنوتَ تواضُعاً وعلوتَ قدرا فشأناك انحدارٌ وارتفاعُ (الوافر) كذلك الشمّسُ تَبعُدُ أن تُسامى

ص: 115

1- شرح ديوان المتنبي للبرقوقي 4 / 186
2- مصادر نهج البلاغة 1 / 43
3- شرح ديوان المتنبي 4 / 48
4- غرر الحكم ودرر الكلم 206

ويدنو الضوءُ منها والشعاعُ(1) معتمداً على مناجاة ووصف أمير المؤمنين عليه السلام للباري عزّ وجلَّ:

«قَرُبَ فنأى، وعلا فدنا»(2).

ووصفه أيضاً:

«سَبَقَ في العُلُوِّ فَلَا شَيءَ أعْلَى مِنْهُ، وَقَرُبَ في الدُّنُوِّ فلا شيءَ أقربَ منه»(3).

وفي الأدب الحديث ما زال كلام الإمام علي (صلوات الله عليه) ينبوعاً ثراًّ، ومنهلاً عذباً، يلجأ إليه أدباء لإتمام وتقويم شخصيّاتهم ومواهبهم الأدبيّة، وهذا ما أشار إليه الجواهري بقوله: إنَّ أديباً لم يدرس نهج البلاغة لا يمكن أن يكونَ شاعراً ولا كاتباً أبداً، ولو قرأ مليون مليون رواية، أو كتاب أجنبي، ولو استوعَب كُلَّ النّظريّات والعقائد والمبادئ(4).

أمّا الشيخ الأديب ناصيف اليازجي، فقد عدَّ نهجَ البلاغة الرّكيزة الثّانية بعدَ القرآن الكريم، وهما معاً أسهما في تكوينه الثّقافي وإتقانه الكتابة، فقال: «ما أتقنتُ الكتابةَ إلّا بدرس القرآن العظيم ونهج البلاغة القويم فهما كنز العربية الذي لا ينفذ وذخيرتُها للمُتأدِّب. وهيهات أن يظفرَ أديب بحاجته من هذهِ اللغة الشريفة إن لم يحيِ لياليَهُ سهراً في مطالعتهما والتّبحُّرِ في عالي أساليبهما»(5).

1- ديوان البحتري 2 / 69
2- نهج البلاغة 358
3- م. ن 82
4- ينظر: لغة الشعر بين جيلين 69
5- ما هو نهج البلاغة 20

الفصل الثاني أثر كلام الإمام علي عليه السلام في نثر الحسن البصري

ص: 117

توطئة

الحسن البصـري ولد الحسن بن أبي الحسن البصري عام (21 ه) من أبٍ نصـراني جيء بهِ مسبيًّا وكانت ولادته في المدينة لسـنتين بقيتا من خلافة عمر بن الخطاب(1).

نشأ البصـري في مدينة رسول الله صـلى الله عليه وآله وفي مجتمعها المسلم(2)، وبقي فيها مـدة ما تبقّى من خلافـة عمر بن الخطّاب، ثمَّ خلافـة عثمان بن عفان كلّها، وعنـدما بايع النّاسُ أمير المؤمنين عليه السـلام ليكون الخليفـة الرابع، نزح الحسن البصـري مع أسـرته، لينزلَ البصـرة، جانحًـا عن الأحـداث التي حـدثت مـدّة خلافـة أمير المؤمنين عليه السـلام، ولكن بعـدما حكم الأـمويون خرج للعمل في ظلِّ سلطتهم(3)، إذ «صارَ كاتبًا في أُمرة معاوية للربيع بن زياد(4)»(5).

ص: 119

1- ينظر: الروض المعطار 1 / 531

2- ينظر: النثر عند الحسن البصري 7

3- ينظر: تأريخ الأدب العربي العصر الإسلامي 445

4- هو الربيع بن زياد بن الربيع الحارثي ولاه معاويـة على سجسـتان ثم على الكوفة بعد وفاة واليها المغيرة بن شـعبة. وتولى خراسان أيضًا. توفي 53 ه. ينظر الوافي بالوفيات 2 / 190

5- م. ن

نظراً لفصاحتهِ وبلاغة قلمه(1). وبعدها «وُلّيَ قضاء البصرة لعمر بن عبد العزيز»(2).

وعلى الرغم من أنّ هناك رأيًا يقول إنَّ الحسن البصري «لازمَ عليَّ بن أبي طالب ناشئًا»(3)، إلاّ أنّ هذا لم يقم عليه دليل فَمِن هذا الطرف من حياة البصري نستدل على صحّة الأخبار التي كانت تقول بأنه كان على خلاف مع أمير المؤمنين عليه السلام، وبينهما جفوّة بيِّنة، وما نزوحه عن المدينة عندما آلت القيادة لأمير المؤمنين عليه السلام، ثم تسنّمه مناصب مهمة إبّان حكم بني أمية إلاّ شاهدًا لا يضلّ، فضلاً عن تصريحاتهِ في هذا الشأن كقوله: «لو كان عليٌّ يأكل الحشف بالمدينة لكان خيراً لهُ مما دخلَ فيه»(4).

ومن الصفات التي امتاز بها البصري انه «كان بادي الحزن، فإذا أقبل فكأنه أقبل من دفن حميمه، وإذا جلس فكأنه أُمِرَ بضرب عُنُقِهِ»(5). ولكن لهذهِ الخصلة سببًا غيرُ الذي هو رائج من كونه قد طلّقَ الدنيا لأنَّها فانية زائلة، بل السبب وراء حزنه هو دعاء أمير المؤمنين عليه السلام عليه. فقد روي أن الإمام عليه السلام رأى البصري يتوضّأ ويسرف في الماء فقال له: «أرقتَ ماءً كثيراً يا حسن؛ فقال: ما أراقَ أميرُ المؤمنين من دماءِ المسلمين أكثر! قال: أوساءَكَ ذلك؟ قال: نعم. قال: فلازلت مسوَّءًا»(6).

1- ينظر: الأساليب النثرية 41

2- العقد الفريد 4 / 217

3- الأساليب النثرية 41

4- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 4 / 305

5- البيان والتبيين 2 / 83. وينظر: المعارف 441

6- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 4 / 305

قال ابن أبي الحديد: «قالوا: فما زال الحسن البصري عابسًا قاطبًا مهمومًا إلى أن مات»(1).

أمّا ما أورده الطبرسي «من أعلام القرن السادس الهجري» في كتابه (الإحتجاج) فقد بيّن بوضوح مدى تأثر البصري بأمير المؤمنين عليه السلام من جهة، وعدم رضى الأخير عنه من جهةٍ أخرى فقد جاء في هذا الكتاب « لمّا أفتتح - أي البصرة - أمير المؤمنين عليه السلام بكلمةٍ كتبها. فقال أمير المؤمنين عليه السلام بأعلى صوته: ما تصنع؟ فقال: نكتبُ آثاركُم لنحدِّثَ بها بعدكم. فقال أمير المؤمنين: أما إنَّ لكُلِّ قومٍ سامري وهذا سامريُّ هذهِ الأمة، أما إنّهُ لا يقول لا مساس(2)ولكن يقول لا قتال»(3). إذاً فالحسن البصري وبشهادته يكتبُ كُلَّ كلمة يتحدّثُ بها أمير المؤمنين عليه السلام لتكون سلاحه المضاء - فيما سنرى - في خطبه - ورسائله وحكمه.

أما عن قول الإمام للبصري: إنّكَ ستقول لا قتال، فهذا فعلاً ما نجده فقد كان أهم متبنيّاته، فبمرور الزمن وعندما فتكَ الحجاج (ت 97 ه) بالمسلمين، واجتماع بعض المسلمين لمحاربته، أخذَ البصري يثبّطهم عن ذلك، محاولاً ثنيهم وفلّ عُرى عزيمتهم، طالبًا منهم التوجه إلى الدعاء والتضرع، فقال: «أيّها النّاس

1- م. ن 305
2- أشارَ إلى قوله تعالى حكاية عن النبي موسى $^{\text{ع}}$ إذ قال للسامري: «وَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ» طه / 97. قال الجبائي: معناه لا مساس لأحدٍ من النّاس لأنّ السامري جعل يهيم في البريّة مع الوحوش. ينظر: البيّان في تفسير القرآن 7 / 200
3- الاحتجاج 1 / 209

إنّهُ والله ما سَلّطَ الله الحجّاجَ عليكم إلاّ عقوبةً فلا تُعارضوا عقوبةَ الله بالسيف، ولكن عليكم السَّكينة والتضرُّعَ»(1). ومثلَ هذا قال عندما خرج يزيد ابن المهلّب لمحاربة أهل الشام(2).

ومقابل هذه الأخبار التي تحدثت عن وجود قطيعة وجفوة بين الحسن البصري وأمير المؤمنين عليه السلام، توجد هنالك أخبار تبررها، مثلاً لما سُئِلَ البصري عن الإمام علي عليه السلام قال: «ما أقول فيه! كانت له السّابقة و الفضل و العلم والحكمة والفقه و الرأي والصُّحبة والنّجدة و البلاء والزهد والقضاء والقرابة، إنَّ عليًّا كان في أمره عليًّا... فقلتُ - أي الراوي -: يا أبا سعيد، فما هذا الّذي يُقالُ عنك إنّك قُلتَه في عليٍّ؟ فقال يا ابن أخي أُحقِنُ دمي من هؤلاء الجبابرة، ولو لا ذلك لشَالتْ بيَ الخُشُب»(3).

وبنظر الباحث لم يكن الرأي الثاني هو الراجح، إذ لو علم الإمام علي عليه السلام صدق سريرة البصري وإخلاصه القلبي لما دعا عليه مثلما سلف هذا من جانب، ومن جانب آخر لو كان البصري صادقًا لما ترك أمير المؤمنين، ودخل ضمن الدائرة الأموية. فعليه كان أموي الهوى. ومثلما قال إحسان النص في كتابه « الخطابة العربية في عصرها الذهبي»: «من المحقق أنّ الحسن لم يكن متحمّسًا لعلي وشيعته»(4).

أما موارد ثقافته، فقيلت فيها آراءُ عدّة، فمثلاً شوقي ضيف يرى إنّ

1- الطبقات الكبرى 7 / 164

2- ينظر: تأريخ الطبري 4 / 84

3- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 4 / 305 - 306

4- الخطابة العربية في عصرها الذهبي 349

من وراء ثقافة البصـري «القرآن الكريم، وهدي الرسول صـّلى الله عَليه وآله وسلم، وصحابته الورعين، وخاصّة عمر بن الخطاب، فإنّه يروي عنه كثيراً من أقواله وعظاته»(1).

ولا جدال أنّ البصـري وغيره من كبار الكتّاب والوعّاظ تأثروا بالقرآن، والرسول صـلى الله عليه وآله، وأصـحابه، غير أنّ الباحث يرى في هذا التقسـيم إلتفافا وتعتيمًا على اثر كلام أمير المؤمنين عليه السلام على البصري مصدره الحسن البصري نفسه، ثم من سارَ على قوله، لأنّنا إذا اعتمدنا على أسـماء الأشـخاص الذين ذكرهم البصري في نتاجاته الأدبية، وقلنا إنّهم هم حصراً من تأثّر بهم؛ فإنَّ أمير المؤمنين عليه السلام سوف لم يكن له أيُّ نصـيب يذكر بينهم في هذا الشأن، كون البصـري لم يذكر إسمَ الإمام عليه السلام في نتاجاتهِ ولا مرّةً واحدة – بحسب قراءة الباحث – وهذا إجحاف كبير بحقِّ الإمام من قبل البصـري، الذي اعتمد اعتمادًا مهيبًا على كلام الإمام عليه السـلام، فكان يغترف منه اغترافًا ويسكبه سكبًا في جميع نتاجاته دون استثناء.

وفي بعض الأحيان عندما يُطلب من البصـري ذكر صاحب الحديث أو الموعظة عمَّن هما؟ فيجيب: «وما تصـنع بعمّن؟ أمّا أنت فقد نالتك موعظته، وقامت عليك حُجّته»(2).

وهنا لابـدّ من وقفـة مع هذهِ الرّواية، إذ نسـتنتج منها: إنّ هذا السائل علم أو شكّ، أو لاح له أنّ ما تحدث بهِ البصـري هو ليس له، وإلاّ لماذا سأله عن مُبدع ذلك الحديث.

ونستنتج من هذا أيضًا إنّ عائدية الحديث هذا هي لجهات ثلاث لا غير. أمّا

ص: 123

1- تأريخ الأدب العربي (العصر الإسلامي) 447

2- عيون الأخبار 2 / 137. وينظر: أمالي المرتضى 1 / 217. وينظر: وفيات الأعيان 2 / 70

الجهـة الأولى فهي البصـري نفسه، وهـذا مردود، إذ لو كان الحديث الذي تحدّث به البصـري هو له لأسـرع إلى ذكر اسـمه، دون تحرّج أو تأخير، لما في ذلك من قيمة وفضلٍ كبيرين.

أمّا الجهـة الثانية فتكون متمثّلة بالرسول الأكرم صـلى الله عليه وآله والخلفاء الثلاثة الراشدين الأوائل، ولو كان الحديث لهذهِ الجهة لذكرها البصري – مثلما فعل في مواطن كثيرة من نثره – على اعتبار إنّه لا يتحرّج من ذكر الرسول صلى الله عليه وآله عندما يتحدّث بحديثه، ولا من الخلفاء الثلاثـة الأوائل. ونحن هنا لا نزعم أنّه لم يتأثر بهـذهِ الجهـة العظيمة، بل نتحرّى مَنْ هي الجهة التي يتحرّج بل وامتنع البصـري من ذكر اسمها، مع أخذهِ عنها، ولماذا.

إذاً بقيت لنا جهـة واحـدة وهي عائديـة الحـديث، أو الموعظـة لأمير المؤمنين عليه السـلام، وهـذا ما يتبنّاه الباحث، وعليه أدلة عدة منها: الأول:

قول البصري السالف لمّا سأله أمير المؤمنين عليه السلام ما تصنع؟ فقال: «نكتب آثاركم لنحدِّثَ بها بعدكم».

الثاني:

إذاً باعتراف البصـري كان يكتب آثار أمير المؤمنين عليه السـلام، وفي الوقت نفسه كان البصـري كاتبًا – مدة عطائه بتمامها – في ظلِّ الدولة الأمويـة، وهـذه الدولـة رافضة لكلِّ ما يتصل بأمير المؤمنين عليه السـلام من كلام، ومنهج، وذرية، وعليه فالبصـري لا يسـتطيع ذكر اسـم الإمام، وذكره هذا يستوجب مدحه عليه السلام في معقل مناوئيه.

الثالث:

وهذا أهم الأدلّة، إذ تبيّن بعد عرض نتاجات البصري على كلام أمير المؤمنين عليه السلام أنّ هذه المواعظ هي له عليه السلام بشكل قطعي لا يقبل الطعن.

وهناك خبر طريفٌ عده كثيرُ من المهتمين بالبلاغة سببًا رئيسًا يقف خلف بلاغة الحسن البصري إذ «قالوا وكانت خيرة(1)أمه ربّما غابت فيبكي فتعطيه أمُّ سَلَمَة ثديها تعلِّله بهِ إلى أن تجيء أمّه فيدرُّ ثديها فشربه، فيرون أنَّ تلك الحكمة والفصاحة من بركة ذلك»(2).

وفي نظر الباحث - وبدعم كامل من نتائج الدراسة - لم ينصف الشيخ البصري من جانب ثقافته وتأثرِهِ من القدماء إلاّ الشريف المرتضى (ت 436 ه)، إذ قال: «وكان الحسن البصري بارع الفصاحة، بليغ المواعظ، كثيرَ العلم. وجميع كلامهِ في الوعظ وذم الدنيا أوجلُّه مأخوذ لفظًا ومعنًى، أو معنًى دون لفظ؛ من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فهو القدوة والغاية»(3)وهذهِ شهادة نقدية ودليل ثاقب وثابت على تأثره بأمير المؤمنين عليه السلام.

ومن المحدثين الكاتب محمد أمين النواوي بقوله: «وهل كان الحسن البصري في زواجر وعظه، وبالغ منطقهِ إلاّ أثرًا من عليٍّ، وقطرة من محيط أدبه، ففُتِنَ النّاس بعبادته، وخلبَ البابهم بجمله، فكيف يكون الأستاذ

1- خيرة اسم ام الحسن البصري كانت خادمة لأمّ سلمة زوج النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، ينظر: طبقات الفقهاء 91
2- المعارف 440 0 وينظر: طبقات الفقهاء 91
3- أمالي المرتضى 1 / 167

العليم والإمام الحكيم عليٌّ بنُ أبي طالب»(1).

لم يجانب الصواب هذان الرأيان طرفة عين، غير أنهما تبقى تعوزهما الدراسة المقارنة بين الكلاميين حتى تثبتهما.

وإلى جانب هذه الآراء، هنالك من يقول: إنَّ مرجعية البصري الأدبية وتعليلها أمرٌ حيّرَ القدماء(2).

والباحث يقول: لا حيرة بعد هذه الدراسة، لأنّ الذي وصلنا من عطايا البصري النثرية يكفي للخروج بنتيجة مرضيّة وصريحة حول المنبع الأكبر الذي استقى منه ثقافته بطريقة لا تقبل الشكّ، ولكن لو وصلتنا آثارهُ كاملة لكان ذلك أفضل دون ريب، فقد ذُكِر أنّ لهُ كتباً عدّة(3)، ولكن بعدما ثقُل عليه المرض طلب من ولده عبد الله أن يجمعها فجمعها، ثمَّ أمر خادمه أن يسجر التنور، فأمره بها وأُحرقت غير صحيفة واحدة(4).

1- مصادر نهج البلاغة 1 / 69

2- ينظر: الخطابة العربية في عصرها الذهبي 362

3- ينظر: الطبقات الكبرى 7 / 174

4- ينظر: م. ن 7 / 174 - 175، وينظر: سير أعلام النبلاء 4 / 584

المبحث الأوّل: في خطب الحسن

عاش الحسن البصري أغلب عطائه في العصر الأموي وهو عصرذهبي - مثلما هو معروف - للخطابة العربية، لأسباب عدّة، يمكن أن يكون على رأسها الدافع العقائدي، والدافع السياسي.

ماشى البصري عصره بتطورهِ الخطابي وبلغ فيه شأوًا رفيعًا، وأُشير إليه بالبنان. قال عنهُ الجاحظ «أخطب النَّاسِ صاحبُ العمامة السوداء بين أخصاص(1)البصرة، إذا شاء خطب، وإذا شاء سكت»(2).

وللخطب أنواع عدّة، غير إنّ البصري برز في الخطب الدينيّة منها: «إذ كان من أعلامها البارزين في القرن الأول الهجري»(3).

ص: 127

1- أخصاص: جمع خصّ هو بيت من الشجر أو القصب، وسُمِّيَ بذلك لما فيه من الخصاص وهي تفاريج. ينظر: لسان العرب: 7 / 26 مادة (خصص)

2- البيان والتبيين 1 / 320

3- النثر عند الحسن البصري 32

اعتمـد الحسن البصـري في خطبه الدينيـة على موضوعات طرقها أمير المؤمنين عليه السـلام قبله برمتها كالتخويف من الموت، والزهد في الـدنيا واليأس منها، والاسـتعداد لبيت الغربة والوحشة.. وأغلب خطبه تلك - إن لم تكن جميعها - كان لأثر الكلام العلوي حضورٌ مهيمنٌ عليها، حتى إنّنا نجد خطبًا طوالاً للبصـري ما هي إلاّ تلفيقًا وجمعًا لخطب ومواعظ الإمام، فمن خطبة له عليه السـلام حذر فيها من الدنيا، منها:

«مَنْ أَقَلَّ مِنْهَا اِسْتَكْثَرَ مِمَّا يُؤْمِنُهُ، وَمَنِ اِسْتَكْثَرَ مِنْهَا اِسْتَكْثَرَ مِمَّا يُوبِقُهُ»(1).

وقال عليه السلام في أخرى:

«مَنْ سَاعَاهَا فَاتَتْهُ، وَمَنْ قَعَدَ عَنْهَا وَاتَتْهُ»(2).

فأمير المؤمنين عليه السـلام يـدعو إلى ترك الـدنيا، لأنّ الحصول عليها لا يأتي بأن يقضـي المرء عمره يلهث ورائها، لأنَّ من فعل هذا فاتته الدنيا وأجحف بحظِّه من الآخرة، وكأنّ الدنيا داء فكلما استكثر الإنسان منها فإنّه مستكثرٌ ممّا يهلكهُ والمقلُّ منها مستكثر مما يؤمنه.

نظر البصـري إلى هـذا المعنى واسـتهلَّ بِهِ إحدى خطبه، فقال: « إنّ الدُنيا دارُ عملٍ من صـحَبَها بالنّقص لها، والزَّهادةِ فيها سـعدَ بها ونفعتهُ صحبَتُها، ومَنْ صحبها على الرَّغبة فيها، والمحبَّةِ لها شقيَ بها وأجحفَ بحظّه من الله عزَّ وجلّ»(3).

1- نهج البلاغة 189
2- م. ن 109
3- حلية الأولياء 2 / 140

فالبصـري يرى ما قاله الإمام عليه السلام، ويذهب أيضًا إلى الطريقة التي اعتمدها عليه السلام من أجل توصيل الفكرة، تلك الطريقة القائمة على الشرط ثم النتيجة:

فالشرط عند الإمام «من أقل منها» تكون النتيجة «استكثر مما يؤمنه».

عند البصري «من صحبها بالنقص منها» تكون النتيجة «سعد بها».

والبصـري أيضًا لم يغفل المقارنـة التي اعتمدها الإمام عليه السـلام بين من أقل ومن اسـتكثر من الدنيا والتي اعتمد الطباق فيها كقوله عليه السلام: «ساعاها – قعدَ عنها».

وقوله عليه السلام: «فاتته – واتته».

وقوله عليه السلام: «أقلَّ – استكثر».

وقوله عليه السلام: «يؤمنه – يوبقه».

فقال البصري: «الزهادة فيها – الرغبة فيها».

وقوله: «سعد – شقي».

والملاحظ أنّ البصـري أكّدَ هذا المعنى بقوة، مرّة من خلال «إنَّ» التوكيدية، وأخرى من خلال تكرار «الدنيا» – التي هي موطن الشاهد– إمّا بلفظها، وهذا ورد مرّةً واحدة، أو بالضمير العائد عليها «صحبها، فيها، بها...» وهذا ورد ثمان مرات.

وبعد هذا قال البصري في الخطبة نفسها، واصفًا الدنيا: «فأمرُها صغيرٌ، ومتاعُها قليلٌ، والفناءُ عليها مكتوبٌ...»(1).

وهذا كقول أمير المؤمنين عليه السلام في خطابه للدنيا:

يا دُنيا يا دُنيا، إليكَ عنّي... قَدْ طلَّقتُكِ ثلاثًا لا رَجْعَةَ فِيهَا! فَعَيْشُكِ قصير،

ص: 129

1- م. ن 2 / 140

وخَطَرُكِ يَسيرٌ، وأملُكِ حقير»(1).

وليسَ المعنى وحده شقَّ طريقهُ إلى خطاب البصري، بل حتى صياغة الجملة أو العبارة القائم على القصر تجده بيّنًا عنده كذلك:

فالإمام قال: «فعيشك قصير».

وعند البصري: «فأمرها صغير».

وقال الإمام: «وخطرك يسير».

وعند البصري: «ومتاعها قليل».

ثمّ اعتماد البصري على إسلوب الإخبار الذي أنتهجه الإمام عليه السلام، ولكن مما زاد في وقع عباراتهِ عليه السلام إنّها جاءت جميعها مسجوعة سجعًا محبّبًا «قصير، يسير، حقير» وبألفاظٍ ذات دلالة واضحة على تصغير وتحقير الدنيا، في حين خلا كلام البصري من هذا الفن البديعي.

ولا زال البصري واصفًا الدنيا محذرًا منها في الخطبة نفسها، حتى قال: «فإنّها قد آذنتْ بزوالٍ، لا يدومُ نعيمُها، ولا يؤ مَنُ فجائِعها، يبلى جديدُها، ويسقَمُ صحيحُهَا، ويفتقرُ غنيُّها ميّالةٌ بأهلِها، لعّابَةٌ بهم على كلِّ حالٍ»(2).

فبداية كلامه لا يختلف عن اخبار الإمام عليه السلام عن الدنيا:

«وَقَدْ آذَنَتْ بِبَيْنِهَا، وَنَادَتْ بِإنْقِطَاعِهَا، وَنَعَتْ نَفْسَهَا بالزَّوالِ»(3).

ص: 130

1- نهج البلاغة 563
2- حلية الأولياء 2 / 141
3- تحف العقول 211

فالجملة التحقيقية «قَدْ آذَنَتْ بِبَيْنِهَا» والتي من خلالها أكد الإمام على أنّ الدنيا مصيرها الفراق فلم يغير البصري فيها شيئًا يذكر: «قد آذنت بزوال».

وباقي كلام البصري، فهو من خطبة أخرى للإمام عليه السلام، منها قوله:

أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أُحَذِّرُكُمُ اَلدُّنْيَا، فَإِنَّهَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ... لاَ تَدُومُ حَبْرَتُهَا، وَلاَ تُؤْمَنُ فَجْعَتُهَا. غَرَّارَةٌ ضَرَّارَةٌ، حَائِلَةٌ زَائِلَةٌ... أَكَّالَةٌ غَوَّالَةٌ»(1).

وإذا عرفنا أنّ «الحبرة» في قول الإمام معناها: النعمة، أو النعمة التامة(2)، فعليه أنَّ كلام البصري: «لا يدوم نعيمها، ولا يؤمن فجائعها»، بنصه عن كلام الإمام عليه السلام:

«لاَ تَدُومُ حَبْرَتُهَا، وَلاَ تُؤْمَنُ فَجْعَتُهَا».

ومثلما يرى الباحث إستعمال الفعل المضارع «تؤمن» مع المؤنث «الفجيعة» أكثر دقة من استعمال «يؤمن» معها.

وفي كلام الإمام عليه السلام عن الدنيا وحقارتها نجده يستعمل صيغة المبالغة: «غرّارة، ضرّارة، أكّالة، قوّالة».

وما هذا إلاّ لإعطاء هذهِ المعاني بعدًا عميقًا، وتأكيدًا بالغًا. لم يغفل البصري هذا بل جنح إليه لما قال: «ميّالة، ولعّابة».

وأمّا قول البصري: «يبلى جديدها». فهو ممّا وردَ نظيره في إحدى خطب الإمام عليه السلام:

1- نهج البلاغة 188

2- ينظر: لسان العرب 4 / 158 مادة (حَبَرَ)

«وَصَارَ جديدُها رثًّا»(1).

والرَّثُّ هو البالي(2). أي صارَ جديدُها باليًا، وعليه لا فرق تمامًا بين معنى كلام الإمام عليه السـلام ونصِّ البصري.وهكذا سارَ البصري في خطبتِهِ التي نحن بصـددها تمامًا على النهج العلوي، حتى قال: «يا ابنَ آدَمَ أنتَ اليوم في دارٍ هيَ لافظتُكَ وكأنْ قد بدالكَ أمرُها فإلى الصـرامِ ما يكونُ سريعًا، ثمَّ يفضي بأهلها إلى أشدِّ الأمورِ وأعظمها خطرًا»(3).

وهو هنا تحدث عن ثلاثةِ معانٍ حول الدنيا: كونها لافظتك، بمعنى أنّ الدنيا ستخرجك منها قسراً، وإنّ صرمها وانقطاعها سيكون سريعًا، ثمَّ حذرَ أبناء الدنيا من عقبةٍ كؤودا لا بُدّ من عدّة صالحة لإجتيازها.

وهذه المعاني، وبعض ألفاظها ما نجدها في جانب من خطبةٍ لأمير المؤمنين عليه السلام جاء فيها:

«..وَانْصَرَمَتِ اَلدُّنْيَا بِأَهْلِهَا، وَأَخْرَجَتْهُمْ مِنْ حِضْنِهَا، فَكَانَتْ كَيَوْمٍ مَضَى، أو شَهْرٍ اِنْقَضَى، وَصَارَ جَدِيدُهَا رَثّاً، وَسَمِينُهَا غَثّاً، فِي مَوْقِفٍ ضَنْكِ اَلْمَقَامِ، وَأُمُورٍ مُشْتَبِهَةٍ عِظَامٍ»(4).

فقول البصـري: «أنت اليوم في دار هي لافظتك» المحلّى بالكناية عن الموت هو من كناية الإمام عليه السـلام في هذا المعنى: «وَأَخْرَجَتْهُمْ مِنْ حِضْنِهَا».

1- نهج البلاغة 326

2- ينظر: لسان العرب 2 / 151 مادة (رَثَ)

3- حلية الأولياء 2 / 141

4- نهج البلاغة 326

وقوله: «وكأن قد بدالك امرُها فإلى الصرام ما يكون سريعًا» المحلى بالإستعارة، لا يختلف عن استعارة الإمام في هذا المعنى «وَانْصَرَمَتِ اَلدُّنْيَا بِأَهْلِهَا».

أما تحذيره في آخر المقطع من مخاطر ما بعد الحياة، فنجدها في آخر كلام الإمام عليه السلام.

وفي الوقت الذي ذَمَّ أمير المؤمنين عليه السلام الدنيا، رغّبَ في أن تكون هي محطة تزود لمحطات لاحقة، فقال:

«فَتَزَوَّدُوا فِي أَيَّامِ اَلْفَنَاءِ لِأَيَّامِ اَلْفَنَاءِ لِأَيَّامِ اَلْبَقَاءِ»(1).

كنى عليه السلام عن الدنيا ب «أيام لفناء» بإعتبار ما ستؤول إليه الدنيا هو الفناء الحتمي، وكنى ب «أيام البقاء» عن الآخرة كونها لا موت فيها، إمّا نعيمٌ دائم، أو جحيمٌ دائم.

تجنب البصري الكناية هذه وباشر المعنى مباشرةً، فقال في الخطبة نفسها:

«وليكنْ سعْيُكَ في دُنياكَ لأخرتِكَ»(2).

وكثيرًا ما كان الإمام يقارن بين الدين والدنيا، ويوصي الرعية بأن يكون همهم حفظ دينهم وإن أضرَّ ذلك في دنياهم، لأن صون دينهم حسنة لا تضرُّ معها سيئة، وتضييع الدين سيئة لا تنفع معها حسنة، فقال في إحدى خطبه:

«وَإِنَّهُ لاَ يَضُرُّكُمْ تَضْيِيعُ شَيْءٍ مِنْ دُنْيَاكُمْ بَعْدَ حِفْظِكُمْ قَائِمَةَ دِينِكُمْ. أَلاَ وَإِنَّهُ لاَ يَنْفَعُكُمْ بَعْدَ تَضْيِيعِ دِينِكُمْ شَيْءٌ حَافَظْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاكُمْ»(3).

1- نهج البلاغة 254

2- حلية الأولياء 2 / 124

3- نهج البلاغة 287

اعتمـد البصـري هـذا المعنى في أكثر من نصٍّ، فقال في الخطبـة التي نحن بصددها: «ويحك يا ابنَ آدم ما يضـرّكَ الذي أصابَكَ من شدائد الدُّنيا إذا خلصَ لك خيرُ الآخرة»(1).

وقال في نص آخر: «ابن آدم! إنّهُ لا يضـرُّك ما زُوِيَ عنكَ من دُنياك إذا أُدّخرَ لكَ خيرُ آخِرَتِكَ، وما ينفعكُ خيرُ ما أصبت منها إذا حُرِمْتَ خيرَ آخرتِك»(2).

وهنا يبرز الأثر العلوي مهيمنًا على كُلِّ شـيء من كلام البصـري المـذكور؛ فمقدمـة كلام الإمام لم يغيّر فيها شـيئًا سوى أنه اسـتبدل لفظة «تضييع»ب «زُوِيَ». وحتى التضاد الذي نجده عند الإمام كقوله: «يضرّكم - ينفعكم» استعمله البصري نفسه، فقال: «يضرُّكَ - ينفعك».

أما النداء «يا بن آدم» الذي أفتتح بِهِ البصـري حديثه فهو جزءُ من إسـلوب اعتاده، إذ عندما يأخذ المقطع من كلام أمير المؤمنين عليه السلام يقدم لهُ - في مواطن عدة - بهذِهِ العبارة.

وعلى هـذا النهـج هي خطب الحسن البصـري، حتى أنّك لا تكاد تجـد خطبـة واحـدة من خطبه خاليـة من أثرٍ لكلام أمير المؤمنين عليه السلام، فمن خطبة لهُ نجده يأتي على حكمة الإمام علي عليه السلام:

«افْعَلوا الخيرَ وَلا تَحْقِرُوا منه شيئًا، فإنَّ صغيرَهُ كَبيرٌ وَقَلِيلَهُ كثيرٌ»(3).

1- حلية الأولياء 2 / 143

2- آداب الحسن البصري 70

3- نهج البلاغة 629

فأمير المؤمنين عليه السلام وهو يُرغِّب بفعل الخير؛ فقد افتتح حكمته بفعل الأمر «افعل»، ثم نهى عن تحقير الخير بلا الناهية، مؤكدّاً على أنّ صغير الخير وإن قلَّ فهو كبير؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى ينمي الحسنات.

أخذ البصري هذهِ الحكمة، بعضًا منها بنصّه، والآخر بمعناه، وتوسَّعَ عليها، مؤكّداً بما أكّدَ الإمام، ناهيًا عمّا نهى عنه الإمام، فقال: «فلا تَحْقِرَنَّ من الخيرِ شيئًا وإنْ هو صغر، فإنّكَ إذا رأيته سرَّكَ مكانَه، ولا تَحقِرَنَّ من الشرِّ شيئًا فإنّكَ إذا رأيته ساءَكَ مكانُه»(1).

فبداية كلامه: «فلا تحقرن من الخير شيئا» تضمين محور لبداية حكمة الإمام عليه السلام:

«افْعَلوا الخيرَ وَلا تَحْقِرُوا منه شيئًا».

وكلامهُ «ولا تحقرن من الشر شيئا... الخ» يمثل بؤرة التوسّع، أو البسط التي أجراها على كلام الإمام عليه السلام.

ثم قال البصري في الخطبة ذاتها: «فرحمَ اللهُ رجلاً كسبَ طيِّبًا، وأنفقَ قصدًا، وقدَّمَ فضلاً ليوم فقره وفاقته»(2).

وهذا الكلام يشبه إلى حدٍّ كبير في صياغتهِ، وأسلوبه، ومعناه فاتحةً لإحدى خطب أمير المؤمنين عليه السلام، جاء في بعضها:

«رَحِمَ اللهُ أمرءًا.. قَدَّمَ خالصًا، وعَمَلَ صالًحا..»(3).

فمثلاً استعمل الإمام العبارة المسجوعة القصيرة «قَدَّمَ خالصًا..».

1- حلية الأولياء 2 / 143

2- م. ن 2 / 143

3- نهج البلاغة 105

وهكذا البصري أيضًا «قدّم فضلا».

ونجد البصـري استعمل بعض ألفاظ الإمام بعينها، وبعضها حوّر في ثوبها، كقوله «كسبَ طيّبًا» فهو لا يختلف عن كلام الإمام عليه السلام «عمل صالًحا»، إذ جعل «كسب» بدلاً من «عمل»، و»طيبًا» بدلاً من «صالًحا».

وفي الخطبة نفسها يطالعنا أثر آخر لكلام أمير المؤمنين عليه السلام في قول البصري:

«أنتمْ تسوقونَ النّاسَ، والسَّاعةَ تسوقُكم»(1).

وما هذا إلاّ تحويرٌ شكليٌ لقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«فإنَّ النَّاسَ أَمَامَكُمْ، وإنَّ السَّاعَةَ تَحْدوكُمْ»(2).

فبداية قول البصـري فيه كناية عن الموت، بمعنى إنّ الناس ماتوا وهم الآن أمامكم. وهذا ما نجدهُ صراحة في الجملة الأولى عند الإمام عليه السـلام «فـإنَّ النَّاسَ أمَـامَكُمْ»، وبمـا أنّه لاـ فرق بين «تحـدوكم» و«تسوقكم». حيث يُقال: حـدا الإبل أي ساقها(3)، فلاـ فرق تمامًا بين المقطعين الآخرين من النّصّين، إذ كلّ ما عمله البصري أبدل «تحدوكم»ب «تسوقكم».

وممّا تسـجله الدراسـة على الحسن البصـري إنّهه كان يعمـد إلى المقطع العلوي، فيقدم ويؤخر فيه من جهة، ثم يحوّر فيه شـكليًا من جهة أخرى، وأمثلة هذا كثيرة جدًّا، فمن خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام حذّرَ فيها من الغفلة وبغتة الموت، قال في بعضها:

ص: 136

1- حلية الأولياء 2 / 143

2- نهج البلاغة 280

3- ينظر: لسان العرب 14 / 168

«حَتَّى إِذَا كَشَفَ لَهُمْ عَنْ جَزَاءِ مَعْصِيَتِهِمْ، وَاسْتَخْرَجَهُمْ مِنْ جَلاَبِيبِ غَفْلَتِهِمْ اسْتَقْبَلُوا مُدْبِراً، وَاسْتَدْبَرُوا مُقْبِلاً، فَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِمَا أَدْرَكُوا مِنْ طَلِبَتِهِمْ، وَلاَ بِمَا قَضَوْا مِنْ وَطَرِهِمْ. إِنِّي أُحَذِّرُكُمْ، وَنَفْسِي، هذِهِ الْمَنْزِلَةَ. فَلْيَنْتَفِعِ امْرُؤٌ بِنَفْسِهِ، فَإِنَّمَا الْبَصِيرُ مَنْ سَمِعَ فَتَفَكَّرَ، وَنَظَرَ فَأَبْصَرَ، وَانْتَفَعَ بِالْعِبَرِ»(1).

أخذ البصري بعض هذا مفتتحاً بهِ إحدى خطبه، فقال: «رحمَ اللهُ أمرءًا عرف ثمَّ صَبَرَ، ثمَّ أبصرَ فبصر، فإنَّ أقوامًا عرفوا فانتزَعَ الجزعُ أبصارهم، فلا هم أدركوا ما طلبوا، ولا هم رجعْوا إلى ما تركوا، اتّقوا هذه الأهواءَ المُضِلَّةَ البعيدةَ من اللهِ»(2).

فأول كلام البصري هو مما جاء في نهاية كلام الإمام عليه السلام، إذ كان الأثر العلوي فيه جليًّا سواء من ناحية المعنى الذي أكّدَ وحثّ فيه الإنسان على التفكر والتدبير في ما يسمعه، ثم النظر بالعين والتبصر بالقلب. أو من ناحية صياغة الجملة، فتجد الإمام عليه السلام اعتمد على جملٍ قصيرة مسجوعة، وهكذا البصري.

حتى أنّه لم يغيّر في قول الإمام عليه السلام «ونظر فأبصر» إلاّ شكليًّا فقط حين قال: «ثم أبصر فبصر» أمّا ألفاظ الإمام «سمع، تفكر، نظر، أبصر، انتفع» فحامَ حولها البصري بألفاظهِ «عرف، صبر، أبصر، بصر».

أمّا قوله «فإنّ أقوامًا عرفوا..» بمعنى تبيّن لهم ما كانوا فيه، وما قدمّوه من عمل، فكان ينظر فيه إلى قول الإمام المذكور «حتى إذا كشفَ لهم عن جزاء معصيتهم..».

1- نهج البلاغة 246

2- حلية الأولياء 2 / 146

ولكن هؤلاء القوم جاءت معرفتهم متأخرة، فهي لم تغنِ عنهم شيئًا، وهي في وقتٍ مثلما عبر الإمام عليه السلام عن هذا المعنى بأسلوب العكس الجميل:

«استقبلوا مدبرًا، واستدبروا مُقبلاً».

والمعنى: «استقبلوا أمرا كان في ظنهم واعتقادهم مدبرًا عنهم، وهو الشقاء والعذاب... وتركوا وراء ظهورهم ما كانوا خَوِّلُوه من الأولاد والأموال والنَّعم»(1).

وبما إنهم هكذا، فكانت عاقبتهم مثلما قال عليه السلام:

«فَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِمَا أَدْرَكُوا مِنْ طَلِبَتِهِمْ، وَلاَ بِمَا قَضَوْا مِنْ وَطَرِهِمْ».

إذ تجد الإمام عليه السلام هنا يصوغ هاتين الجملتين بصورة فيها طولٌ على العكس من لاحقاتها، وكان البصري متّكئًا على لفظ ومعنى وصياغة هذا المقطع بقوله: «فلا هم أدركوا ما طلبوا، ولا هم رجعوا إلى ما تركوا».

وممّا يؤخذ عليهِ إنّه لم ينقل ما يجده عند الإمام من ألفاظ، وفنون، وصور، ومعانٍ إلى علاقة جديدة أو توظيف مغاير، بل يتكيء تمامًا سويةً على اللفظ والمعنى والصياغة.

ومثلما افتتح البصري خطبته بأثر علوي عاد وختمها بكلام الإمام عليه السلام:

«وَاعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ لَمْ يُعَنْ عَلَى نَفْسِهِ حَتَّى يَكُونَ لَهُ مِنْهَا وَاعِظٌ وَزَاجِرٌ، لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ غَيْرِهَا لاَ زَاجِرٌ وَلاَ وَاعِظٌ»(2).

1- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 9 / 109

2- نهج البلاغة 135

فـأمير المؤمنين عليه السـلام يـأمر ثـمّ يؤكـد على أنّ أي موعظـة خارجيـة بـدون اسـتعداد وتقبل داخلي لا تؤدي دورها في إحـداث التغيير المرجو.

نظر البصري إلى الشق الأول من هذا الكلام، فقال: «إنَّ العبدَ لا يزالُ بخيرٍ ما كان لهُ واعظٌ من نفسهِ، وكانت المحاسبة من همِّه»(1).

ولو أمعنّا النَّظَرَ أكثر في قول البصري «كان لهُ واعظٌ من نفسهِ» فنجده لا يختلف عمّا ورَد في مقطع الإمام عليه السلام: «يَكُونَ لَهُ مِنْهَا وَاعِظٌ وَزَاجِرٌ»، فأسـتبدل الفعـل المضارع الناقص «يكون»ب «كانَ». ولعل «يكون» آثرُ اسـتعمالاً من «كان» لـدلالتِهِ على الإسـتمرارية، والنفس تحتاج إلى الوعظ بإستمرارية متواصلة.

أمّا «منها» فالهاء هنا عائدة على النفس بمعنى من نفسه، وهذا ما ذكره البصري صراحة (من نفسه).

ونجـد الإمام عليه السـلام لم يكتفِ بالوعظ، بل أردفهُ بالزجر، لأنّ من النفوس لا يكفيها الوعظ، بل هي بحاجة إلى كبح جماحها وزجرها، ولكنَّ البصري أهمل هذا مكتفيا بالوعظ.

أغلب خطب البصري من هذا النوع، حيث يجعل منشئُها هيكليّتَها من مقدمة أو استهلال، ووسط، ثم الخاتمة من كلام أمير المؤمنين عليه السلام، وهذا إن دلَّ على شيء فأول ما يدلّ على الرغبة والغرام بهذا الكلام حتى جعلاه بِهِ يفتتح، وبه يعرض، وبه يختتم.

ومن خطبه الأـخرى التي بُنِيَت على هـذا البنـاء قوله: «يـا ابن آدم: بع دنيـاكَ بآخرتك تربحهُما جميعًا، ولا تبع آخرتك بـدنياك فتخسـرهُما جميعًا»(2).

1- حلية الأولياء 2 / 146

2- جمهرة خطب العرب 2 / 485

فنهيه عن بيع الآخرة بالدنيا، تضمين حرفي لما وردَ في وصية الإمام علي لولدهِ الحسن عليهم السلام:

«فَأَصْلِحْ مَثْوَاكَ، وَلاَ تَبِعْ آخِرَتَكَ بِدُنْيَاكَ»(1).

وقبل أن يضمّن البصري عبارة الإمام عليه السلام التي استعار فيها لفظة البيع للآخرة، كان قد ذكر هذا المعنى، بمعنى أنّهُ كرر المعنى العلوي مرتين: الأولى عن طريق العكس، والثانية بالنص وهذا التكرار لترسيخ معنًى واحد، هو تفضيل الآخرة على الدنيا.

وبعد هذه المقدمّة انتقل البصري إلى موعظة أخرى دعا فيها إلى منافسة أهل الخير في الخير، والابتعاد عن أهل الشر، فقال: «يا بن آدم إذا رأيتَّ النَّاسَ في الخير فنافسْهم فيه، وإذا رأيتهُم في الشَّرِّ فلا تغبطهم عليه»(2).

فكلامه هذا يشبه إلى حدٍّ كبير بعض ما جاء في إحدى خطب الإمام عليه السلام:

«فَإِذَا رَأَيْتُمْ خَيْراً فَأَعِينُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ شَرّاً فَاذْهَبُوا عَنْهُ»(3).

فالمعنى هو المعنى بين النصين، والألفاظ نفسها، وحتى التي غيّر فيها البصري فإنّها بقيت تحوم حول دلالة الألفاظ في نص الإمام عليه السلام:

فقول البصري: «فنافسهم فيهِ» من قول الإمام:

«فأعينوا عليه».

من قول الإمام: «فلا تغبطهم عليه». من قول الإمام:

ص: 140

1- نهج البلاغة 458
2- جمهرة خطب العرب 2 / 485
3- نهج البلاغة 294

«فاذهبوا عنه».

أمّا صـياغة الموعظة والتي ابتدأها الإمام ب «إذا» الشـرطية – وهي ظرف لما يستقبل من الزمان – وما تلاها من فعل الشرط ومفعوله «رأيتم خيرًا»، ثم جواب الشـرط المقترن بالفـاء «فـأعينوا عليه»، ثم الجملـة التي جـاءت بعـد هـذهِ والتي كانت على غرارها تمامًا، ثم ما أختتم بهِ الجملتين من جار ومجرور «عليه، فيه»، فوجد البصري في هذا كلِّه أسوة حسنة، فسار عليه خطوة خطوة.

والـذي يُلحظ على خطب البصـري تعرّضه في الواحـدةِ منها إلى موضوعات وعظية عدّة، يربط بين كلِّ موضوع وآخر بعبارة يا أبن آدم، أو يا فلان، أو غيرهما، وهـذا بـدورهِ أدّى إلى غياب الإنسـجام والسـبك عن خطبه، ومردّ هـذا – مثلما يرى الباحث وستكشـفه الدراسة – إلى أنّ البصـري يجمع في الخطبـة الواحـدة حكمًا ومقاطع من خطب علويـة عـدّة، فبعد أن انتهى من حث الناس على المنافسة في أعمال الخير انتقل إلى موعظةٍ أخرى، فقال: «أمّتكم آخر الأمم، وأنتم آخر أمّتكم، وقد أُسرعَ بخياركم، فماذا تنتظرون»(1).

فالبصري بهذا يشايع أمير المؤمنين عليه السلام في هذا المعنى الذي أورده بطريقة جميلة، حيث قال:

«أَيْنَ أَخْيَارُكُمْ وَصُلَحَاؤُكُمْ! وَأَيْنَ أَحْرَارُكُمْ وَسُمَحَاؤُكُمْ! وَأَيْنَ الْمُتَوَرِّعُونَ فِي مَكَاسِبِهِمْ، وَالْمُتَنَزِّهُونَ فِي مَذَاهِبِهِمْ! أَلَيْسَ قَدْ ظَعَنُوا جَمِيعاً عَنْ هَذِهِ الدُّنْيَا الدَّنِيَّةِ»(2).

فقول البصري: «وقد أُسرعَ بخياركم» يرى فيه الباحث اختزالاً لكلام

1- جمهرة خطب العرب 2 / 485

2- نهج البلاغة 215 – 216

الإمام، إلاّ أنّ الإمام لم يصرح مباشرة بأنّ الأخيار ظعنوا أو أَسْرِعِ بهم، بل اعتمد على الإستفهام المكرر في ثلاث مرات متتالية، وذلك حتى يلفت انتباه السامع إلى ما أجاب بِهِ «أليس قد ظعنوا جميعًا»، أو لأنّهُ أراد أن تكون الإجابة من المخاطب نفسهِ، فعلى الرغم من إن الإستفهام يستعمل «لطلب الفهم لما ليس مفهوما، أو لما هو غامض أو لطلب حصول الصورة الذهنية بواسطة أدوات محددة، ولكن الإستعمال الخاص للإستفهام يفرغ هذه الأدوات من دلالة الإستفهام إلى دلالات بديلة يعكسها السياق الذي ترد فيه»(1). ومثالها كلام الإمام المذكور، فهو يعلم أين ذهب الأخيار والصلحاء، ويعلم أنّ الناس أو من خاطبهم يعلمون بذلك، لكنّه أرادَ منهم أن لا يتناسوا هذه العاقبة الحتمية، وتكون نصب أعينهم. ولذا فإنّ كلامَ البصري لم يكن له هذا الجذب والشد الذي وجدناه في هذا المقطع من خطبة أمير المؤمنين عليه السلام.

ومن شدّة تأثر البصري بهذا المعنى عادَ وكررّ – في الخطبة نفسها – قوله السابق بنصّه مع زيادة فيها أثر علوي أيضًا، فقال: «وَرَبِّ الكعبةِ قد أُسْرِعَ بخياركم وأنتمُ كُلِ يومٍ تَرْذلون فماذا تنتظرون؟»(2).

فبعد أن تحدَّثَ البصري عن ذهاب الأخيار، مؤكِّدًا على هذا المعنى بتكرارهِ، واستعمال القسم، وإيرادهِ بتركيب يدلّ على التحقيق «قد أسرع» عاد وذمّ من خاطبهم «وأنتم كُلّ يومٍ ترذلون»، بمعنى تصيرون أرذال، والرّذيل هو الخسيس، وقيل هو الدُّون من النّاس(3).

ص: 142

1- جدلية الإفراد والتركيب 194

2- جمهرة خطب العرب 2 / 486

3- ينظر: لسان العرب 11 / 280 مادة (رذل)

وهذا ما نجدهُ تمامًا في خطبة أمير المؤمنين عليه السلام السابقة، فعندما تحدّث عليه السلام عن ذهاب الأخيار والصلحاء ذم من خاطبهم بقوله:

«وَهَلْ خُلِقْتُمْ إِلاّ فِي حُثَالَةٍ لاَ تَلْتَقِي بِذَمِّهِمُ اَلشَّفَتَانِ، اِسْتِصْغَاراً لِقَدْرِهِمْ، وَذَهَاباً عَنْ ذِكْرِهِمْ!»(1).

ولكنّ الإمام ومن شدّة توجعه من القوم أكّدَ ذمَّهم أكثر وبطرق مختلفة، فنجده استعمل اللفظ الدال على الذم ك»حُثالة» وهي الرديء من كُلِّ شيء(2).

واستعمل التعبير الجميل الدال على اقوى درجات الذم وأبلغها «تَلْتَقِي إِلاَّ بِذَمِّهِمُ اَلشَّفَتَانِ» بمعنى: «ما بقيتم إلاّ في أوغادِ النّاس وأراذلهم.. يأنف الإنسان أن يذمّهم، ولا يطبق إحدى الشّفتين منه على الأخرى ليتكلم عنهم «استصغارًا لقدرهم» أي ترفعاأي ترفّعا «عن ذكرهم «واحتقارًا لهم»(3). ومن باب تأكيد الذم أيضًا قدّم عليه السلام «بذمّهم» وهو يستحق التأخير على آالشفتان» الذي يستحقّ التقديم، لأنّه فاعل «تلتقي»، بينما اختزل البصري هذا المعنى بتعبيرهِ السالف الذي خلا منه جمالية تذكر سوى الإشتراك في معنى الذم.

وممّا كان باديًا على كلام أمير المؤمنين عليه السلام التأوه والحسرة الشديدان على قومه، كونهم لم يمتثلوا أوامره وبخاصةٍ مواعظه، وكفى بها شأنًا أن يسميها هو صائبة وشافية، فقال في خطبته المسماة بالغرّاء:

«فَيَا لَها أَمْثَالاً صَائِبَةً، وَمَوَاعِظَ شَافِيَةً، لَوْ صَادَفَتْ قُلُوباً زَاكِيَةً، وَأَسْمَاعاً

1- نهج البلاغة 216

2- ينظر: لسان العرب 11 / 142 مادة (حثل)

3- منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة 8 / 233

وَاعِيَةً، وَآرَاءً عَازِمَةً، وَألْبَاباً حَازِمَةً»(1).

ومثل هذا نجده عند البصـري، فعندما يسوق النصائح والعظات، تراهُ معتزًا بها معظمًّا إياها، وفي الوقت نفسه كان متأوِّهَا، ومتشـكيًا من عدم سير النـاس على ما يقول، فقال في الخطبـة التي هي محل الشاهـد: «فيا لها موعظـةً لو وافقتْ من القلوبِ حياة»(2). فهوَ لم يغيّر في كلام الإمام عليه السلام إلاّ في بعض المبنى، فقوله: «فيالها موعظة» من قول الإمام:

«فيالها أمثالاً.. ومواعظ».

وقوله: «ولو وافقت من القلوب» من قول الإمام:

«لو صادفت قلوبًا».

ومن أجل أن تكون المواعظ شافية، وصائبة نجد أمير المؤمنين عليه السـلام أشـرك – وهو العارف بذلك – أكثر من حاسةٍ وعضو، فيريد رأيًا عازمًا، ولُبًّا حازمًا، وسـمعًا واعيًا، وقلبًا زاكيًا. في حين أنّ البصـري اكتفى من هذا بالقلب، ولم يشرك سواه في عملية الوعظ، إلاّ أنّه أكّد عليه وذلك لمّا قدمّه وهو يستحق التأخير.

ومن كلام أمير المؤمنين عليه السـلام الذي نجده حاضـرًا في الخطبة البصـرية هذهِ قوله في وصـيّةٍ لولدهِ محمّد بن الحنفية عليه السـلام لما أعطاه الرّاية يوم الجمل: «.. تِدْ في الأرْضِ قَدَمَك»(3).

1- نهج البلاغة 115
2- جمهرة خطب العرب 2 / 485
3- نهج البلاغة 35

ضمّن البصري هذا المقطع، وبطريقته التي باتت ذائعة، إذ قدّمَ له بعبارة يا يا ابن آدم، فقال: «يا ابن آدم طَأ الأرضَ بقدمكَ»(1).

فلم يغيّر البصـري هنا سوى لفظـةٍ واحـدة، إذ ابدل فعل الأمربفعل الأمر «تد» بفعل الأمر «طأ»، ورفع حرف الجر من الأرض وأدخله على القدم.

يرى الباحث أنّ استبدال البصري للفعل المذكور كان في محلّهِ، لأنّ الإمام عليه السلام عندما أوصى ولده كان في ساحة حرب، وهذا يتطـلب منه فعلاً لهُ دلالة على الثَّبات والعزيمة، والإصرار فأستعمل الأمر «تد» وهو من وتَّد، يقال: «وتَّدَ فلان رِجلَه في الأرضِ إذا ثبَّتها»(2).

بينما البصـري حينما غيّر – وهـذا قليل جدًا – وظيفة هذا المقطع إلى غرض الوعظ والتذكير بالموت، غيّر معه الفعل، وهذا التغيير كانت له المقدرة على تغير سـياق الجملة؛ فتحول المعنى من الثبات والعزيمة في ميدان الحرب إلى التذكير بما سيؤول لهُ مصير الإنسان، وكأنّه أراد أن يقول: طأ أيها الماشي الأرضَ بقدمك، ولكن تذكّر بأنّها ستكون قبرك قريبًا.

وللبصـري خطبةً أخر خطب بها أمام عمر بن هبيرة(3)، قسّـمها على خمسـة مقاطع، كلُّ مقطع يبدأ بعبارة «يا عمر بن هبيرة»، وكانَ تعالق واضـح بين هـذهِ المقـاطع وبين كلام أمير المؤمنين عليه السـلام. قال في أولها: «يا عمر بن هبيرة يوشِكُ أنْ ينزلَ بَك ملكٌ من ملائكـةِ الله تعالى فظٌّ غليظٌ لا يعصي اللهَ ما أمرَه، فيخرجُكَ من

ص: 145

1- جمهرة خطب العرب 2 / 486

2- لسن العرب 3 / 444 مادة (وتد)

3- هو عمر بن هبيرة بن معاويـة الفزاري، جُمعَت له ولاية العراق سـنة 103 ه إبان خلافـة يزيد بن عبد الملك، ثم عُزِلَ بخالد القسـري. ت 107 ه تقريبًا. ينظر: سير أعلام النبلاء 4 / 562

سَعَةِ قصرك إلى ضيقِ قبرك»(1).

حذّر البصري الوالي من سرعة أو بغتة نزول ملك الموت عليه السلام فينقله قسرًا «من سعة قصرهِ» وهو كناية عن النّعيم، وغضارة العيش، وكامل الحرية على الحركة إلى «ضيق قبرك» ومعناه عكس الأول تمامًا.

ومن يمعن النظر في مقابلة البصري هذهِ يجد ربطًا وثيقًا بينها وبين ما جاء في إحدى خطب الإمام عليه السلام:

«اِسْتَبْدَلُوا بِظَهْرِ اَلْأَرْضِ بَطْناً، وَبِالسَّعَةِ ضِيقاً، وَبِالْأَهْلِ غُرْبَةً، وَبِالنُّورِ ظُلْمَةً»(2).

فكلام الإمام عليه السلام: «استبدلوا.. بالسعة ضيقًا» كان مرجعية خصبة لقول البصري: «فيخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك».

ولكن «السّعة» في كلام الإمام عليه السلام لها من الدلالة أوسع وأبعد من «السّعة» عند البصري، كون البصري عرفها بالإضافة وجعلها مختصة بسعة القصر «سعة قصرك».

أمّا الضيق، فالمقصود بِهِ القبر عند الطرفين، غير أن أمير المؤمنين عليه السلام لم يذكر القبر بإسمه الصريح، بل استعاضَ عنها بكنايات، لأن الجميع «قد أجمع على أنّ الكناية أبلغ من الإفصاح، والتعريض أوقع من التصريح»(3) فجاءت كناياته عليه السلام جميلة ومؤثرة: «بِظَهْرِ اَلْأَرْضِ بَطْناً، وَبِالْأَهْلِ غَرْبَةً، وَبِالنُّورِ ظُلْمَةَ» وهذه التعابير

ص: 146

1- حلية الأولياء 2 / 149

2- نهج البلاغة 191

3- دلائل الإعجاز 53

تبيّن بوضوح أنّ الإمام كانَ يقصد الإنتقال من عالم الدنيا إلى عالم البرزخ، وتعطي صورة واضـحة ومكبرة عن وحشة تلك الدار التي لا مفرَّ منها، بما لها – تلك التعابير – من دلالة واسعة على إحداث هزّة من الحزن، والتوجّس لدى المتلقي.

وبعـد ذلـك قال البصـري: «يا عمر بن هبيرة إن تتَّقِ اللهَ يعصـمْك من يزيـد بن عبـد الملك، ولا يعصـمُكَ يزيـد عبـد الملك من اللهِ عزَ و جلَّ»(1).

والباحث هنا يذهب إلى ما ذهب إليه ابن أبي الحديد، حين رأى إنّ هذا الكلام أخذه البصـري مما ورد في عهد أمير المؤمنين عليه السـلام لمحمد بن أبي بكر:

«وَلاَ تُسْخِطِ اَللهَ بِرِضَا أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، فَإِنّ فِي اَللهِ خَلَفاً مِنْ غَيْرِهِ، وليسَ مِنَ اللهِ خَلَفٌ في غيرهِ»(2).

فالإمام عليه السـلام ينهى جازمًا عن تفضـيل رضـى المخلوق على سخط الخلاق، مؤكّدًا على أنّ الله هو الكافي من كلِّ شيٍء، ولا يكفي من الله شيء، وفي هذا برهان دقيق على وجوب الإمتثال لأوامر الله تعالى، إذ «كُلّما كانَ في الله خَلَفُ عن غيره، وليسَ في غيرهِ خلفٌ منه، فالواجب اتِّباع رضاه وأن لا يُسخط برضا غيره»(3).

ومن شدّة تأثر البصـري بهذا المعنى عادَ وكرر – في الخطبة نفسها – ما ذكره مع تغيير طفيف، فقال: «يا عمر بنَ هبيرة! إن تك مع الله تعالى في طاعته كفاك بائقة يزيد بن عبد الملك، وإن تك مع يزيد بن عبد الملك على معاصي الله وكلك الله إليه»(4).

1- حلية الأولياء 2 / 149
2- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 15 / 114
3- شرح نهج البلاغة لابن ميثم 4 / 238
4- حلية الأولياء 2 / 150

والتكرار بهذه الطريقة لم يكن في مصلحة النص والأديب، لأنّه خالٍ من الجدّة والطرافة، قال الخطابي (ت 388 ه): «وأمّا ما عابوه من التكرار فإنّ تكرار الكلام على ضربين: أحدهما مذموم وهو ما كانَ مُستغنًى عنه، غير مُستفاد بهِ زيادة معنى لم يستفيدوه بالكلام الأوّل؛ لأنّه حينئذٍ يكون فضلاً من القولِ ولغوا، وليس في القرآن شيءٌ من هذا النوع»(1).

ثمّ لو أمعنّا النّظر في قول البصري في المقطع الرابع: «يا عمر بن هبيرة لا تأمن أن ينظر الله إليك على أقبح ما تعمل في طاعة يزيد بن عبد الملك نظرة مقت، فيغلق بها بابَ المغفرةِ دونَكَ»(2).

لوجدناه ينهل من حكمة أمير المؤمنين عليه السلام:

«اِحْذَرْ أَنْ يَرَاكَ اَللهُ عِنْدَ مَعْصِيَتِهِ، وَيَفْقِدَكَ عِنْدَ طَاعَتِهِ فَتَكُونَ مِنَ اَلْخَاسِرِينَ، وَإِذَا قَوِيتَ فَاقْوَ عَلَى طَاعَةِ اَللهِّ، وَإِذَا ضَعُفْتَ فَاضْعُفْ عَنْمَعْصِيَةِ اَللهِّ»(3).

فالمعنى واحد بين النّصين وهو تحذير المرء ونهيه من أن يراه الله في العاصين ولا يجده مع المطيعين.

ومثلما ابتدأ الإمام حكمته بإسلوب الإنشاء آمرًا «احذر» ابتدأ البصري بهذا الإسلوب ناهيًا «لا تأمن» والمعنى واحد. وأمّا ما ورد بعد الأمر عند الإمام: «أن يراك الله» فقد غيَّر فيه البصري طفيفًا، بل أقلّ من القليل، لما قال: «أنْ ينظرَ اللهُ إليك».

والذّي لم يلتزم بهذا الوعظ، فقد حذّره الإمام «فتكون من الخاسرين»،

1- بيان إعجاز القرآن 52

2- حلية الأولياء 2 / 150

3- نهج البلاغة 623

والبصري لم يبرح سائراً على فقرات الحكمة العلوية، لمّا حذر واليَه بمثل هذا:

«فيغلق بها باب المغفرة دونك».

لقد رأينا كيف كان يجمع البصري في نصِّه الواحد عدّة آثارٍ علويّة، إذ في المقطع الأول نجدُ أثرًا لخطبةً، وفي الثاني نجد أثرًا لرسالة، وفي الثالث لحكمة، وعلى الرغم من كون هذا الأثر العلوي لهُ قوةٌومقدرة على إثراء كلام البصري على صعيدي الشكل والمضمون، إلاّ أنّ البصري – ومثلما يرى الباحث – بهذهِ الطريقة عرّضَ خطبَهُ ورسائلَه – معظمها – إلى عدم الإنسجام والتلاحم بين عناصرها الرئيسة، لأنَّ المقطع الأول – وإنْ كانت جميعها وعظية وإنْ كانت المواعظ يصلح بعضها مع بعضها الآخر – لا يرتبط بالثاني، والثاني لا يرتبط بالثالث وهكذا. ولذا حاول التخلّص من هذهِ الفجوات التي تحدث بين كُلِّ مقطع وآخر من المقاطع التي ينتقيها من كلام أمير المؤمنين عليه السلام بتكرار بعض العبارات – كتكرار (يا عمر بن هبيرة) هنا – لتكون هي الرابط والموصل بين أجزاء الخطبة الرئيسة.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الميزة في نثر البصري بعامة قد عُرفت عنه، قال إحسان النص «ومن مظاهر إسلوبه... عدم الربط بين الفقرات فتبدو كلّ فقرة موعظة مستقلة بذاتها»(1). والأهم هنا إن عدم الربط هذا عائد إلى السبب المُبَيَّن قبل قليل.

والغالبية الساحقة من خطب ورسائل البصري التي تطول سجَّلت الدّراسة عليها هذه الطريقة في البناء، وذلك الأثر من الإمام عليه السلام.

فمن خطبة أخرى له إبتدأها قائلاً: «رحِمَ اللهُ رجلاً خلا بكتابِ اللهِ، فعرضَ

1- الخطابة العربية في عصرها الذهبي 364

عليهِ نفسه، فإنْ وافقه حَمِدَ رَبَّه، وسأله الزِّيادةَ من فضلهِ، وإنْ خالفه أعتبَ وأنابَ، وراجعَ من قريبٍ»(1).

وهذا المعنى من المعاني الشائعة، غيرَ أنّ البصري جمع في خطبته هذهِ طريقة ومعنى وبعض ألفاظٍ وردت في خطبة دعا فيها أمير المؤمنين عليه السلام للإحتكام للقرآن، فقال:

«وأعَرِضُوا ما أشْكَلَ عليْكُم على القُرآنِ، فَما عَرّفَهُ القُرآنُ فالزَموهُ، وَما أنكرَهُ فرُدّوه»(2).

ومعنى قوله عليه السلام - بحسب فهم الباحث - : «فما عرّفه القرآن». أي ما شهد له القرآن بأنّه عملٌ معروف، وقولهُ: «وما أنكره» أي ما شهد عليه القرآن بأنه عملٌ منكر.

والمعنى واحدٌ بين نصِّ الإمام ونصِّ البصري قائمٌ على الرجوع إلى كتاب الله الكريم وجعله فيصلاً وحكمًا، فإن طابق العملُ الأمرَ القرآني، فالإلتزام بذلك العمل والإزدياد منهُ خيرٌ، وإن خالفَ العملُ القرآن، فإنكار ذلك العمل خير.

ومن الفوارق بين النَّصين: كان موجَّهًا للجماعة:

«وأعَرِضُوا ما أشْكَلَ عليْكُم القُرآن».

وهذا بدورهِ وسَّع دلالة الكلام، ومما زادَ في وسعها ورود «ما» بعد فعل الأمر، بمعنى اعرضوا جميع المشاكل على القرآن المجيد سواء التي تخصّ الفرد، أو التي بينه وبين محيطه.

1- البيان والتبيين 3 / 69

2- تأريخ الطبري 3 / 494

وعلى الرغم من إنّ البصري استعمل هذه الجملة بطريقة واضحة «فعرض عليه نفسه»، إذ أبدل فعل الأمر «اعرضوا» بالماضي «عرض»، وأبدل «على الله»ب «عليه «ولا فرق مطلقًا – هنا – بين شبه الجملة عند الطرفين، لأن الضمير «الهاء» في كلام البصري عائد على لفظ الجلالة فيكون كلامه «على الله». ومع هذا نجد في هذا التبديل قد ضيّق البصري الدلالة وحدَّ من سلطة القرآن اللامتناهية – طبعًا في هذا النص – عندما:

1 – حوَّلَ الخطاب من صيغة الجمع إلى صيغة المفرد، من «اعرضوا» إلى «اعرض».

2 – عرَّف المعروض على القرآن، وحدّده بقوله: «نفسه». بينما نجد الإمام عليه السلام لم يحدد شيئًا معينًا يُعرضُ على القرآن، بل – مثلما سلف – استعمل لفظة «ما» وهذه اللفظة بنكرتها تبيَّن بعض ما للقرآن من سلطة، وأنّهُ هو القادرُ على حل جميع المشاكل خارج حدود الزمان، والمكان، والأشخاص.

وبعد هذا سينتقل البصري في خطبته المذكورة إلى موعظةٍ أخرى، وكأنّ هذهِ الموعظة بداية خطبة جديدة، وقد أدرك وهو بذلك لا بُدَّ من إيجاد رابط بين المقطعين لذا كرَّر الدعاء «رحم الله» الذي ابتدأ بِهِ المقطع الأوّل، فقال: «رَحِمَ الله رجلاً وعظَ أخاه وأهله، فقال: يا أهلي صلاتكم صلاتكم، زكاتكم زكاتكم، جيرانكم جيرانكم، إخوانكم إخوانكم، مساكينكم مساكينكم، لعل الله يرحمكم»(1).

وكأنَّ البصري بكلامه هذا قد أقتطع جملاً لا من وصيّة أمير المؤمنين لولده عليهم السلام لما ضربه ابن مُلْجَم (لعنه الله)، منها:

ص: 151

1- البيان والتبيين 3 / 69

«ثُمَّ إنّي أوصيكَ يا حَسَنُ وجَميعَ أهلِ بيتي ووُلـدي ومَنْ بَلَغَهُ كِتابي بتقوى اللهِ ربِّكم... اللهَ اللهَ في القُرآنِ فَلا يسبِقُكم إلى العَمَلِ به أحدٌ غَيرُكُم... اللهَ اللهَ في جيرانِكُم فـإنَّ النبيَّ$ أوْصى بهم... حتّى ظَنَنّا أنّهُ سَـ يُورِّثُهُم... اللهَ اللهَ في الصَّلاةِ فإنّها خيرُ العَمَلِ، إنَّها عمودُ دينِكُم. اللهَ اللهَ في الزَّكاةِ فانَّها تُطْفئُ غَضَبَ ربِّكُم...

اللهَ اللهَ في الفُقَراءِ والمَسَاكِينِ فَشَارِكوهم في معايشِكُ... وَعَليكُمْ يا بنيَّ بالتَّوَاصُلِ والتَّباذل والتَّبارّ، وإيَّاكُم والتَّقاطُعَ والتَّدابُرَ والتَّفرُّقَ»(1).

فجميع فقرات البصري نجد لها منبتًا في هذا الجزء من الوصية العلوية، وبمقارنة النَّصين جملةً بجملة يكون الأثر العلوي أكثر جلاءً.

فقول الإمام عليه السلام: «إني أوصيك.. وجميع أهلي» قابله البصري وبتحوير طفيف لمّا قال: «رحم الله رجلاً وعظ أخاه وأهله».

وقول الإمام: «الله الله في جيرانكم».

قابله البصري: «جيرانكم جيرانكم».

وقول الإمام: «الله الله في الصلاة».

قابله البصري: «صلاتكم صلاتكم».

وقول الإمام: «الله الله في الزكاة».

قابله البصري: «زكاتكم زكاتكم».

وقول الإمام: «الله الله في الفقراء والمساكين».

قابله البصري: «مساكينكم مساكينكم».

1- الكافي 7 / 35 - 36

وقول الإمام: «عليكم يا بنيّ بالتواصل والتباذل والتبارّ».

قابله البصري: «إخوانكم إخوانكم».

ولم يعتمد البصري على المعنى والألفاظ التي وجدها في الوصية، بل أكّد بما أكّد بهِ الإمام عليه السلام، وهو التكرار، كون التكرار من أهم قوانين الإيقاع(1)، لذا جاء بهِ الإمام عليه السلام ليتم التأكيد على المفاهيم التي أوجزها وهو على فراش الموت، لافِتًا نظر السامع وانتباهه ومستدعيًا اهتمامه من خلال هذا التركيب(2): «الله الله».

وعلى الرغم من التشابه الكبير بين النصين، إلاّ أنّ الباحث يرى هنالك فروقًا شكّلت علامة فارقة بينهما، منها:

أولاً: صحيح أنّ الإمام أوصى ولده وأهله عليهم السلام، لكنّه بعمق نظر، وسعة أفق، وإيمان راسخ بإنه ليس حكرًا على طائفةٍ معينة، أو زمانٍ معينٍ، جعل وصيته لا تختص بالأهل والولد، بل هي خارجة عن أيةِ حدود زمانية، او مكانية، أو شخصية، سارية المفعول لتشمل كُلَّ: «مَنْ بلغهُ كتابي»، بينما البصري اكتفى بوعظ: «أخاه وأهله».

ثانيًا: إنّ التوكيد الذي استعمله الإمام عليه السلام من خلال تكرار لفظ الجلالة، وعلى امتداد الوصية «الله الله في جيرانكم..»، أبلغ وأوكد من تكرار البصري ما أريد الإلتزام بهِ من واجبات إنسانية وإسلامية: «جيرانكم جيرانكم..». لما يحمله لفظ الجلالة من تعظيم وتقديس، وخشية ورهبة في أعماق كُلِّ مخلوق.

ثالثاً: ومن أجل أن تكون وصيته عليه السلام ذات تأثير فعَّال، وحجّة بالغة نجده

1- ينظر: الأسس الجمالية في النقد الأدبي 221
2- ينظر: المستويات الجمالية في نهج البلاغة 70

يبيّن فضيلة العمل الذي يأمر به، ويكشف أجره، فعندما أوصى بالصلاة بين أنها: «خير العمل»، وعندما أوصى بالزكاة بيَّن أنها «تطفيء غضَب ربّكم». وهذا الإسلوب يخلق دفعة من الإقناع بالقول أكثر من لو كان يوصي بالفعل دون بيان أجره وفضيلته، في حين أنّ البصري أهمل هذا في نصّهِ المتأثر.

ص: 154

المبحث الثاني: في رسائل الحسن

يعـدُّ فن الرَّسائل فنًّا مهمًا من فنون النثر الفنّي، حيث بـدأت ملامحه تتطوَّر بوضوح في أواخر العهـد الرّاشـدي، حتى اتُخِذَ هذا المصـطلح للدَّلالـة على النَّصِ المُدوَّن والمبعوث من قبلِ شـخصٍ إلى آخر(1). وقـد حفّزت عوامل عـدّة على كتابة الرسائل والإهتمام بها، كان على رأس هذه العوامل، تعيين الولاة على أطراف مترامية من الدولة الإسـلامية العظمى آنذاك، فكانت وسـيلة الإتِّصال الوحيدة بين رأس السلطة (الخليفـة)، وبين ولاته هي الرسائل – التحريريـة أو الشـفوية – فكان الخليفـة ينقل إلى واليه، أو الوالي إلى الخليفة ما يشاء من أمور تخصّ الدين والدنيا عن طريق هذا الفن.

وعلى الرّغم من تعـدد موضوعـات الرَّسـائـل، إلاّ أنّ أبين ما طرق منها الحسن البصـري موضوع الوعظ، والترغيب في الآخرة، والترغيب عن الدنيا، لأنّها

1- ينظر: الرسائل الفنية في العصر الإسلامي حتى نهاية العصر الأموي 16 - 17

دار تصرّمٍ وانتقال، والتذكير بالموت، بمعنى إنّ موضوعاتها لا تختلف عن موضوعات الخطب، وقد قيل في هذه الرسائل الكثير، وعُدّتْ «نموذجًا راقيًا لأدب المواعظ في هذا العصر، لشيوعها وغزارتها، ولما اتّسمت بهِ أيضًا من مزايا فنيّة عالية... وغدت مثالاً احتذاه منشئووا هذا اللون من الرَّسائل، ونهلوا من معينها»(1).

ورأي الباحث غانم جواد لم يكن دقيقًا كون رسائل البصري عن بكرة أبيها جاءت تقليدًا صارخًا لكلام أمير المؤمنين عليه السلام، حتى أنّ أهم رسائلهِ وأطولها لا تعدو سوى أنها تلفيق لكلامهِ عليه السلام، إذاً فكيف مَنْ جاءَ بعدَ البصري احتذى مثاله ونهل من معينه؟ وعلى أيّةِ حال فمن رسائلهِ الطوال التي جمعها من كلام الإمام عليه السلام رسالة أرسلها إلى عمر بن عبد العزيز تجاوزت اسطرها مائة سطراً، قال في مستهلّها:

«.. واحتمالُ المؤونةِ المنقطعةِ التي تعقبُ الراحة الطويلةَ...»(2).

فالبصري في هذا كان ينظر إلى جملةٍ وردت في خطبة المتقين للإمام علي عليه السلام جاء فيها:

«صَبَرُوا أَيَّاماً قَصِيرَةً أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةَ»(3).

وكطريقته في الخطب يجمع البصري مقاطع عدّة من كلام أمير المؤمنين عليه السلام، ويضع لها جملة لتكون هي الرابط – وهي هنا أحذرها – بين هذه المقاطع على امتداد الرِّسالة، فبعد أن أخذ مقطعًا من خطبة المتقين، قال محذراً من الدنيا:

1- م. ن 280 - 281

2- حلية الأولياء 2 / 134

3- نهج البلاغة 351

«فاحذر هذه الدَّارَ الصارعة الخادعةَ الخاتلةَ التي قد تزيَّنت بخدعِها، وغرَّت بغرورها، وقتلت أهلَها بأمِلها»(1).

وتحذيره هذا لا يختلف عن تحذير الإمام عليه السلام من الدنيا، حينما قال:

«أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أُحَذِّرُكُمُ اَلدُّنْيَا، فَإِنَّهَا.. حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ... وَتَحَلَّتْ بِالآمَالِ، وَتَزَيَّنَتْ بِالْغُرُورِ... حَائِلَةٌ زَائِلَةٌ، نَافِدَةٌ بَائِدَةٌ... كَمْ مِنْ وَاثِقٍ بِهَا قَدْ فَجَعَتْهُ، وَذِي طُمَأْنِينَةٍ قَدْ صَرَعَتْهُ»(2).

سارَ البصري على أثر هذا الكلام شكلاً ومضمونًا، فمثلما ابتدأ الإمام خطبته:

«فَإِنِّي أُحَذِّرُكُمُ اَلدُّنْيَا».

ابتدأ البصري مقطعه من الرسالة «فاحذر هذهِ الدار».

وبعد أن حذَّرَ الإمام من الدنيا، بيّن مساوئها التي توجب التحذير، معتمدًا في بعضهِ على قصر الجملة التي تتكون من الفعل الماضي المتصل بتاء التأنيث وما بعده من شبه الجملة «وتحلَّت بالآمال، وتزيَّنت بالغرور». وهذا ما وجدناه في قول البصري: «قد تزينت بخدعها وغرت بغرورها».

ثمَّ بعد ذلك حذّرَ عليه السلام من الدنيا بواسطة ألفاظ صاغها على إسم الفاعل «حائلة، زائلة، نافذة، بائدة»، وتوظيف هكذا ألفاظ يكشف استغلال ما لها من قوة تعبيرية تؤدّي فضلاً عن معناها كلَّ ما تحمله من صور مدّخرة، ومشاعر كامنة لفَّتْ نفسها لفًّا حول ذلك المعنى الفعلي(3) القائم على تحقير الدنيا. والبصري سارَ

1- حلية الأولياء 2 / 134

2- نهج البلاغة 188 - 189

3- ينظر: فنون الأدب 76

على هذا تمامًا بألفاظه «الصارعة، الخادعة، الخاتلة».

وبعدَ تأثرِهِ بالخطبتين المذكورتين إتّجهَ البصري صوب رسالةٍ بعثها أمير المؤمنين عليه السلام إلى سلمان الفارسي (رضي الله عنه) جاء فيها:

«أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّمَا مَثَلُ الدُّنْيَا مَثَلُ الْحَيَّةِ: لَيِّنٌ مَسُّهَا، قَاتِلٌ سَمُّهَا؛ فَأَعْرِضْ عَمَّا يُعْجِبُكَ فِيهَا، لِقِلَّةِ مَا يَصْحَبُكَ مِنْهَا؛ وَضَعْ عَنْكَ هُمُومَهَا، لِمَا أَيْقَنْتَ بِهِ مِنْ فِرَاقِهَا، وَتَصَرُّفِ حَالاَتِهَا؛ وَكُنْ آنَسَ مَا تَكُونُ بِهَا، أَحْذَرَ مَا تَكُونُ مِنْهَا؛ فَإِنَّ صَاحِبَهَا كُلَّمَا اطْمَأَنَّ فِيهَا إِلَى سُرُورٍ أَشْخَصَتْهُ عَنْهُ إِلَى مَحْذُورٍ، أَوْ إِلَى إِينَاسٍ أَزَالَتْهُ عَنْهُ إِلَى إِيحَاشٍ وَالسَّلاَمُ»(1).

ضمَّن البصري هذه الرسالة كاملةً في منتصف رسالتِهِ التي نحن بصددها، قائلاً: «فاحذرها الحذر كله؛ فإنّها مَثلُ الحيَّة ليِّنٌ ملمسُها وسمُّها يقتلُ؛ فأعرضْ عمّا يعجبُكَ فيها لقلَّةِ مَا يصحَبُكَ منها، وضَعْ عنكَ همومها لِما عاينتَ مِن فجائِعها، وأيقنت به من فراقها، واجعل شِدَّة ما اشتدَّ منها رجاءَ ما ترجوا بعدها وكنْ أسرَّ ما تكون فيها احذر ما تكونُ لها؛ فإنَّ صاحبها كُلَّما اطمأنَّ فيها إلى سرورٍ له أشخصتهُ عنها بمكروه، وكلما ظفر بشيءٍ منها وثنيَ رجلاً عليه انقلبت به..»(2).

والبصري هنا قد أجرى بعض التغييرات البسيطة على كلام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، غير أنّها وإن كانت بسيطة في الظاهر، لكنّها تؤثر في بناء النص بشكل عام، فإذا فتَّشتَ عن أثرها تجده سلبيًا على نص البصري فخذ مثلاً قوله:

«ليِّن ملمسها، وسمها يقتل». الذي هو تضمين

1- نهج البلاغة 538

2- حلية الأولياء 2 / 135

لقول الإمام عليه السلام: «لين مسُّها، قاتل سمها». فهو بهذا التقديم والتأخير الذي أجراه على الجملة الثانية من كلام الإمام عليه السلام خَسِرَ ذلك الوقع المحبب المتأتي من السجع الموجود في «مسها، سُمها». وبتغيير «مسها» إلى «ملمسها» ضيّع ذلك الجناس الموجود في لفظتي الإمام عليه السلام المذكورتين. وحتى ذلك التغيير الذي يعملهُ على الحروف نجده يحرف بعض المعنى الدقيق الموجود في كلام الإمام عليه السلام وهذا مطّرد عند البصري، فمنه: «ولكن أسر ما تكون فيها، أحذر ما تكون لها». الذي هو من مقطع الإمام عليه السلام: «وكن آنس ما تكون بها، أحذر ما تكون لها منها». يرى الباحث في استبدال البصري «منها» ب «لها» فيه بعض الإخفاق، لأنّ ما يقال عن الدنيا: إحذر منها أو احذرها، آنس وألطف على السمع من احذر لها.

وهكذا يتخيّر البصري ما يروقه من خطب ورسائل مولانا أمير المؤمنين عليه السلام ليضعه في رسالتِهِ المطوّلة هذه، فما أن انتهى من رسالة الإمام إلى سلمان الفارسي، عادَ واقتطع مقطعًا من خطبة علوية، جاء فيها:

«أَيُّهَا اَلنَّاسُ، اُنْظُرُوا إِلَى اَلدُّنْيَا نَظَرَ اَلزَّاهِدِينَ فِيهَا، اَلصَّادِفِينَ عَنْهَا؛ فَإِنَّهَا وَاَللَّهِ عَمَّا قَلِيلٍ تُزِيلُ اَلثَّاوِيَ اَلسَّاكِنَ، وَتَفْجَعُ اَلْمُتْرَفَ اَلآمِنَ؛ لاَ يَرْجِعُ مَا تَوَلَّى مِنْهَا فَأَدْبَرَ، وَلاَ يُدْرَى مَا هُوَ آتٍ مِنْهَا فَيُنْتَظَرُ. سُرُورُهَا مَشُوبٌ بِالْحُزْنِ، وَجَلَدُ اَلرِّجَالِ فِيهَا إِلَى اَلضَّعْفِ وَاَلْوَهْنِ»(1).

وكعادتهِ قدّم وأخّر البصري في هذا المقطع، ليقول: «سرورها مشوبٌ بالحزن، وآخر الحياة فيها الضَّعفِ والوهن، فانظر إليها نظر الزّاهد المفارق، ولا تنظرْ نظرَ العاشقِ الوامق، واعلم أنّها تُزيلُ الثاويَ السَّاكنَ وتفجعُ المغرورَ الآمنَ، لا يرجعُ

1- نهج البلاغة 169 - 170

ما تَوَلّى منها فأدبرَ ولا يُدرى ما هو آتٍ فيها فينتظر»(1).

فواضح أنّ البصري نسخَ هذا المقطع العلوي بنصّه، إلاّ قول الإمام عليه السلام:

«انظروا إلى الدنيا نظر الزاّهدين فيها الصادفين عنها».

فقد غيّر فيه طفيفًا لمّا قال: «فانظر إليها نظر الزاهد المفارق».

وبعد هذا قال البصري مباشرة: "فاحذرها فإنَّ أمانيّها كاذبة، وإنَّ آمالها باطلةٌ عيشها نكد وصفوها كدر وأنت منها على خطر»(2).

فهذا لا يختلف عن وصف الإمام علي عليه السلام الدنيا، وذلك بقوله:

«..وعيشها رَنِقٌ، وعذبُها أجَجٌ، وحُلوُها صَبِرٌ»(3).

فقوله: «عيشها نكد».

كقوله عليه السلام: «عيشها رنق».

وأمّا قوله: «وصفوها كدر» فنجده في خطبة أخرى لأمير المؤمنين عليه السلام منها قوله: «وكدَرَ منها ما كان صفوًا»(4).

ثمَّ بَعد هذا اتّجهَ البصري إلى خطبةٍ أخرى لأمير المؤمنين عليه السلام وصفَ فيها عظمة الخالق - سبحانه وتعالى - ، وذكر فيها صفات الأنبياء: موسى، وداوود،

1- حلية الأولياء 2 / 135
2- م. ن 2 / 136
3- نهج البلاغة 189
4- م. ن 84

وعيسى عليهم السلام وختمهم بالنّبي الخاتم صلى الله عليه وآله.

يُذكر أنّ البصري ضمّن من هذهِ الخطبة ما يقارب العشرين سطرًا، وعلى عادتهِ القائمة على تحوير بعض الفقرات، وعلى التقديم والتأخير، فآخر ما تكلّم – أي في الخطبة المقصودة – عنه الإمام عليه السلام من الأنبياء هو النبي محمد صلى الله عليه وآله لأنّهُ صفوتُهم وخاتمهم، ولأنّه خير هادٍ لمن تأسى، وأفضل مُروِّحٍ لمن تعزى، فالخلق لم يصابوا بمثلهِ أبدًا، فقال:

«فَتَأَسَّ بِنَبِيِّكَ اَلْأَطْيَبِ اَلْأَطْهَرِ صلى الله عليه وآله فَإِنَّ فِيهِ أُسْوَةً لِمَنْ تَأَسَّى، وَعَزَاءً لِمَنْ تَعَزَّى... عُرِضَتْ عَلَيْهِ اَلدُّنْيَا فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهَا، وَعَلِمَ أَنَّ اَللهَ سبحانهُ أَبْغَضَ شَيْئاً فَأَبْغَضَهُ، وَحَقَّرَ شَيْئاً فَحَقَّرَهُ، وَصَغَّرَ شَيْئاً فَصَغَّرَهُ»(1).

جعل البصري هذا بداية لمقطعٍ جديد في الرسالة التي ما زلنا فيها، فقال:

»ولقد عُرِضَتْ على نبيِّنا (صلى الله عليه و سلم) بمفاتيحِها وخزائنِها، ولم ينقصه ذلك عنده جناح بعوضةٍ فأبى أن يقبلها، وما منعه من القبول لها إلاّ أنّهُ علم أنّ الله تعالى أبغض شيئاً فأبغضه، وصغّر شيئًا فصغّره، ووَضَعَ شيئًا فوَضَعَه»(2).

وقبل أن ينتقل البصري إلى المقطع الثاني من خطبة أمير المؤمنين عليه السلام، انتقل إلى خطبةٍ علويةٍ أخرى مُؤقّتًا وبالتحديد لقوله عليه السلام:

«وَأُحَذِّرُكُمُ اَلدُّنْيَا فَإِنَّهَا مَنْزِلُ قُلْعَةٍ... لَمْ يُصْفِهَا اَللهُ تَعَالَى لِأَوْلِيَائِهِ، وَلَمْ يَضِنَّ بِهَا عَنْ أَعْدَائِهِ»(3).

1- نهج البلاغة 261
2- حلية الأولياء 2 / 137
3- نهج البلاغة 192

وقال عليه السلام مثل ذلك في حكمة له: «تَغُرُّ وَتَضُرُّ وَتَمُرُّ، إِنَّ اَللهَ تَعَالَى لَمْ يَرْضَهَا ثَوَاباً لِأَوْلِيَائِهِ، وَلاَ عِقَاباً لِأَعْدَائِهِ»(1).

فالمعنى قائم على أن الله تعالى من َع الدنيا و «لم يُصفِها» للذين اختصَّهم وحباهم بولايته، وفي المقابل أباحها، ولم يبخل «لم يضن» بها على من عادوه سبحانه، فعاداهم، أن بسط لهم الدنيا، ليتيهوا في غرورها وزينتها إلى أن تمرَّ عليهم مسرعة وهم على هذا الحال من البعد عن الحقِّ تعالى.

نظر البصري إلى هذا المعنى بتفاصيلهِ، ليقول: «ولو لم يدلّه على صغرِ هذه الدار إلاّ أنّ اللهَ تعالى حقَّرَها أن يجعلَ خيرَها ثوابًا للمُطيعين، وأن يجعلَ عقوبتها عذابًا للعاصين، فأخرجَ ثوابَ الطّاعةِ منها، وأخرجَ عقوبة المعصيةِ عنها، وقد يدلّكَ على شرِّ هذهِ الدّارِ أنّ الله زواها عن أنبيائهِ وأحبائهِ اختبارًا، وبسطها لغيرهم اعتبارًا واغترارًا»(2).

وفضلاً عن المعنى حتى هذه المقابلات التي كررها البصري في هذا المقطع منبتها كلام الإمام عليه السلام المذكور.

وقوله:

«أن الله تعالى حقَّرها أن يجعلَ خيرها ثوابًا للمطيعين وأن يجعل عقوبتها عذابًا للعاصين».

كرَّره بطريقة أخرى لما قال: «أن الله تعالى زواها عن أنبيائه وأحبائه اختبارًا

ص: 162

1- م. ن 627

2- حلية الأولياء 2 / 137

وبسطها لغيرهم اعتبارًا».

وعلى أية حال فهذا التكرار مما ورد في حكمة الإمام:

«إِنَّ اَللهَ تَعَالَى لَمْ يَرْضَهَا ثَوَاباً لِأَوْلِيَائِهِ، وَلاَ عِقَاباً لِأَعْدَائِهِ».

وفي خطبته عليه السلام:

«لَمْ يُصْفِهَا اَللهُ تَعَالَى لِأَوْلِيَائِهِ، وَلَمْ يَضِنَّ بِهَا عَنْ عَلَى أَعْدَائِهِ».

ولعلَّ البصري عندما وجدَ هذا المعنى في نصين مختلفين عند الإمام - في الخطبة والحكمة - ومن شدّة ولعه بهما آثر جمعهما في نصٍّ واحد، لكن هذه حالة غير مرضية لأن هذا التكرار لا طائل منه، كونه جاء في مقطعٍ واحد، وحتى بدون أيِّ فاصل يُذكر، ثم إنّه لا يحمل في طيّاته جدّة.

وبعد هذا النص الذي كان بمثابة فاصلة، ولربّما كانت تمويهيّة، عادَ البصري إلى خطبةِ أمير المؤمنين عليه السلام السابقة التي تحدَّث فيها عن صفات بعض الأنبياء وكيف كانوا مثالاً للزُّهدِ في الدنيا، ومنهم - فضلاً عما تقدَّم - النبي موسى عليه السلام، الذي وصفه الإمام عليه السلام بقوله:

«رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ»(1).

وَاللهِ، مَا سَأَلَهُ إِلا خُبْزاً يَأْكُلُهُ، لأَنَّهُ كَانَ يَأْكُلُ بَقْلَةَ الأَرْضِ، وَلَقَدْ كَانَتْ خُضْرَةُ الْبَقْلِ تُرَى مِنْ شَفِيفِ صِفَاقِ بَطْنِهِ لِهُزَالِهِ، وَتَشَذّبِ لَحْمِهِ»(2).

1- القصص 24

2- نهج البلاغة 260

الصِفاق هو «الجلد الباطن الذي فوقه الجلد الظاهر من البطن وشفيفه: رقيقه الذي يستشفُّ ما وراءه»(1).

ضمّن البصري هذا قائلاً: «وأمّا موسى عليه السلام فرُئي خضرةُ البقلِ من صفاقِ بطنهِ من هزاله. ما سألَ اللهَ تعالى يومَ أوى إلى الظّلِّ إلا طعامًا يأكلُه من جوعه»(2).

فلم يكتفِ البصري بالتقديم والتأخير بين مقاطع الخطبة العلوية، بل يأتي على المقطع الواحد فيقدّم منه ما يشاء ويؤخر ما يشاء، فما ذكره الإمام في آخر وصفه للنبي الكليم:

«وَلَقَدْ كَانَتْ خُضْرَةُ الْبَقْلِ تُرَى مِنْ شَفِيفِ صِفَاقِ بَطْنِهِ لِهُزَالِهِ، وَتَشَذُّبِ لَحْمِهِ».

جعله البصري في أول وصفه للنبي المذكور عليه السلام:

«فرئي خضرة البقل من صفاق بطنهِ من هزاله».

وما ذكره الإمام عليه السلام في أوّل وصفهِ للنبي:

«وَاللهِ مَا سَأَلَهُ إِلا خُبْزًا يَأْكُلُهُ».

جعله البصري آخرًا مع تحوير شكلي وجزئي: «سأل الله تعالى... إلا طعامًا يأكله من جوعه».

وهنا لابُدّ من الإشارة إلى أنّ حتى الآية التي استشهد بها أمير المؤمنين (صلوات الله عليه) استشهد بها البصري، ولكن من طرفٍ خفي، فقوله «أوى إلى الظل» إشارة إلى الآية التي ذكرها الإمام عليه السلام، وبذكرها كاملةً يتضح ذلك،

1- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 9 / 155

2- حلية الأولياء 2 / 138

قال تعالى:

«فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ»(1).

وهكذا كان البصري يحذو حذوَ أمير المؤمنين عليه السلام خطوة خطوة، فبعد أن انتهى عليه السلام من وصف النبي موسى عليه السلام ضرب بالنبيِّ داوود، والنبي عيسى عليه السلام مثالاً على الزهد في الدُّنيا قائلاً:

«وَإِنْ شِئْتَ ثَلَّثْتُ بِدَاوُدَ - صلى الله عليه وسلم - صَاحِبِ الْمَزَامِيرِ، وَقَارِئِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَلَقَدْ كَانَ يَعْمَلُ سَفَائِفَ الْخُوصِ بِيَدِهِ، وَيَقُولُ لِجُلَسَائِهِ: أَيُّكُمْ يَكْفِينِي بَيْعَهَا! وَيَأْكُلُ قُرْصَ الشَّعِيرِ مِنْ ثَمَنِهَا. وَإِنْ شِئْتَ قُلْتُ فِي عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ عليه السلام، فَلَقَدْ كَانَ يَتَوَسَّدُ الْحَجَرَ، وَيَلْبَسُ الْخَشِنَ، وَيَأْكُلُ الْجَشِبَ، وَكَانَ إِدَامُهُ الْجُوعَ، وَسِرَاجُهُ بِاللَّيْلِ الْقَمَرَ، وَظِلاَلُهُ فِي الشِّتَاءِ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمغَارِبَهَا، وَفَاكِهَتُهُ وَرَيْحَانُهُ مَا تُنْبِتُ الْأَرْضُ لِلْبَهَائِمِ؛ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ زَوْجَةٌ تَفْتِنُهُ، وَلاَ وَلَدٌ يَحْزُنُهُ، وَلاَ مَالٌ يَلْفِتُهُ، وَلاَ طَمَعٌ يُذِلُّهُ رِجْلاَهُ، وَخَادِمُهُ يَدَاهُ!»(2).

أخذ البصري هذا كلّه بين التضمين الحرفي والتحوير، والتقديم والتأخير، مقدما وصفَ النبي داوود على النبي عيسى عليهم السلام، فقال: «وإن شئت ثلثته بصاحب الرُّوحِ والكلمةِ ففي أمرِهِ عجيبة، كان يقول: أدمي الجوعُ، وشعاري الخوف، ولباسي الصّوف، ودابتي رجلي، وسراجي بالليل القمر، وصِلايتي في الشتاء الشَّمسُ، وفاكهتي وريحاني ما أنبتتِ الأرضُ للسِّباعِ والأنعامِ، أبِيتُ وليسَ لي شيءٌ وليس أحدٌ أغنى منّي.

ولو شئت ربّعتُ بسليمان ابن داود عليهم السلام، فليس دونهم

1- القصص 24

2- نهج البلاغة 260 - 261

في العجب يأكـل خبزَ الشّـعير في خاصّـته... فإذا جنَّه الليلُ لبسَ المسوح وغَلَّ اليـدَّ إلى العُنقِ، وبات باكيًا حتى يُصـبح يأكلُ الخَشِنَ من الطّعامِ، ويلبس الشّعر من الثّياب»(1).

فأوّل كلامه عن النبي عيسى عليه السلام:

«كان يقول أدمى الجوعُ.. ودابتي رجلي وسراجي بالليل القمر».

تضمين واضح من قول الإمام عليه السلام:

«وكَانَ إِدَامُهُ اَلْجُوعَ، وَسِرَاجُهُ بِاللَّيْلِ اَلْقَمَرَ».

وقوله في الفقرة المذكورة «ودابتي رجلي» أقتنصه من آخر خطبة الإمام عليه السلام:

«دَابَّتُهُ رِجْلاَهُ».

أمّا قوله: «وفاكهتي وريحاني ما أنبتت الأرض للسِّباع والأنعامِ».

ففيه تغيير أكثر على كلام الإمام:

«وَفَاكِهَتُهُ وَرَيْحَانُهُ مَا تُنْبِتُ اَلْأَرْضُ لِلْبَهَائِمِ».

وبالنسبة لقوله: «وصِلايتي في الشتاء الشمس» وما فيه من كناية، فقد أخذه من قول الإمام عليه السلام:

«وَظِلاَلُهُ فِي اَلشِّتَاءِ مَشَارِقَ اَلْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا».

وهذه كناية لطيفة جدًا – مثلما يرى الباحث – عن عدم وجود مأوى للنبي عيسـى عليه السـلام لأنَّ «مَن كانَ كنُّهِ المشرق والمغرب فلا كُنّ له»(2).

ص: 166

1- حلية الأولياء 2 / 137

2- شرح نهج البلاغة لمحمد عبده 2 / 252

وفي المقطع الثاني ذهب البصري بعيدًا، ولم يكن موفّقًا حين أبدل النبي داوود – الموصوف من قبل أمير المؤمنين – بولدهِ سليمان عليهم السلام، وذلك لأن الحديث هو حديث عن الزهد والتبتل إلى الله سبحانه وتعالى، وعلى الرغم من إنّ الأنبياء كلَّهم معصومون و عُبَّاد، إلاّ أنّ الذي اشتهر بالزهد من بين النبيِّين المذكورَين هو النبي داوود عليه السلام، فقد كان صاحب محراب، وكان قارئًا ذا صوت شجي عندما يقرأ كتابه المنزل عليه وهو الزبور، فقد قيل عنه: «أُعطِيَ من طيب النَّغم ولذة ترجيع القراءة ما كانت الطيور لأجلهِ تقع عليه و هو في محرابه»(1).

وعلى أية حال فإنّ في هذا المقطع نجد البصري يستعير وصف الإمام للنبي عيسى عليهم السلام:

«وَيَلْبَسُ اَلْخَشِنَ، وَيَأْكُلُ اَلْجَشِبَ».

ليصف به سليمان عليه السلام:

«يأكلُ الخَشِنَ من الطّعامِ، ويلبس الشّعر من الثّياب».

والبصري هنا كرر الخشونة مرتين الأولى: باللفظ، والثانية: عندما كنّى عنها بلبس الشعر، ولكنه لو استعمل الجشوبة للطعام والخشونة للباس – مثلما وجدهما عند الإمام – لكان ذلك أبلغ.

وقد بدا هذا التكرار على نفس المعنى وبصورة أكثر جلاءً بين قوله: «فإذا جنّه الليل لبَسَ المسوح».

والمسوح أو المسح هو الكساء من الشَّعر(2)، بمعنى لبسَ ثوبًا من الشعرِ.

1- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 9 / 155

2- ينظر: لسان العرب 2 / 593 مادة (مسح)

وقوله: «ويلبس الشّعر من الثّياب».

وهكذا تكرار مذموم لا ـ طائل منه، لأن من يعمد إلى هذا الفن ينبغي أن يأخذ بحسبانه إتحاف المتلقي «بشيءٍ من التلوين اللفظي والمعنوي...، فيه جدّة وطرافة لا توجد في الفقرة السابقة»(1). بينما تكرار البصري خلا من أي جدّة.

أمّا قول البصري وهو يصف سليمان عليه السلام: «وغَلَّ اليد إلى العنق» فلا أدري ماذا كان يقصد بهذا، فهل غلّ اليد إلى العنق مدح؟ وهل في هذا دلالة على الزهد؟ أم فيه دلالة على الإنقطاع إلى الله وطول العبادة؟ يرى الباحث إن من الصعب أن تورد هذهِ العبارة في باب المدح، وبخاصة إذا تأسيَّنا بالقرآن الكريم وعرفنا أنه أوردها في باب الذم. قال تعالى:

«وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ»(2).

فغلُّ اليد مجازٌ عُبِّرَ به عن البخل(3). أو هو «تمثيل الشح والإمساك بغل اليد إلى العنق وهو تمثيل مبني على تخيل اليد مصدرًا للبذل والعطاء.. وغلّها شحًّا، وهو تخيل معروف لدى البلغاء والشعراء»(4).

لكن البصري أراد أن يزيد على كلام أمير المؤمنين عليه السلام زيادةً عسى أن تكون متميِّزة، لكن تميّزها كان سلبيًا، وقد ورد عنده مثل هذا كثير، سنشير إلى بعضه.

انتهت خطبة أمير المؤمنين عليه السلام، لكنّ رسالة البصري لم تنته بعد، إذ انتقل إلى

1- البلاغة الفنية 238
2- الإسراء 29
3- ينظر: الجامع لأحكام القرآن 10 / 219
4- التحرير والتنوير 15 / 84 - 85

وصفٍ عام لأولياء الله الـذين ساروا على منهاج الأنبياء الموصوفين، فقال: «ثمَّ اقتصَّ الصالحونَ بعـد منهاجهم... وصبروا في مُدَّةِ الأجلِ القصير... ونظروا إلى آخر الدُّنيا، ولم ينظروا إلى أوَّلها ونظروا إلى عاقبةِ مرارتها، ولم ينظروا إلى عاجلةِ حلاوتِها»(1).

وإنتقالة البصري هذه من وصف الأنبياء إلى وصف المقتدين بهم، رافقتها إنتقالة من خطبة علوية إلى خطبة علوية أخرى.

فقوله «وصبروا في مُدَّةِ الأجلِ القصير»، من كلام الإمام الذي وصف به المتقين «صبروا أيَّامًا قصيرةً»(2).

وباقي كلامه من حكمة الإمام عليه السلام:

«إِنَّ أَوْلِيَاءَ اَللهَّ هُمُ اَلَّذِينَ نَظَرُوا إِلَى بَاطِنِ اَلدُّنْيَا إِذَا نَظَرَ اَلنَّاسُ إِلَى ظَاهِرِهَا، وَاِشْتَغَلُوا بِآجِلِهَا إِذَا اِشْتَغَلَ اَلنَّاسُ بِعَاجِلِهَا..»(3).

فقد ميّز أولياء الله بصفات تسع منها ماذُكر. وأولى هذهِ الصفات: أنّهم نظروا إلى باطن الدنيا: أي إلى حقيقتها، وغرض الحكمة الإلهية من وجودها، لمّا نَظر النّاسُ إلى ظاهرها، من زينتها وقينتها(4).

إلى هذا أشار البصري بقولهِ السابق: «ونظروا إلى آخر الدنيا ولم ينظروا إلى أوّلها».

1- حلية الأولياء 2 / 137
2- نهج البلاغة 351
3- م. ن 630 - 631
4- ينظر: شرح نهج البلاغة لابن ميثم 5 / 503

فلم يستبدل سوى الطباق في حكمة الإمام«باطن – ظاهر»ب «آخر – أوّل».

وثاني الصفات: إنهم اشتغلوا بآجلها وهو ثواب الله ورضوانه، إذا اشتغل النّاسُ بعاجلها وحاضر لذّاتها(1).

وهذا ما نجده في قول البصري: «ونظروا إلى عاقبة مرارتها، ولم ينظروا إلى عاجل حلاوتها».

وبعدما انتهى من وصف الأنبياء والصالحين، عادَ البصري محذرًا من الدنيا، مشجّعًا على اغتنام أيّامها المعدودة، فقال: «.. وإنَّما الدنيا إذا فكَّرت فيها، ثلاثة أيّام، يومٌ مضى لا ترجوه، ويومٌ أنت فيه ينبغي لكَ أن تغتنمه، ويومٌ يأتي لا تدري أنتَ مِن أهله أم لا؟ ولا تدري لعلَّك تموت قبله، فأمّا أمسٌ فحكيمٌ مؤدَّب وأمّا اليومَ فصديقٌ مودِّعٌ، غيرَ أنَّ أمسَ وإن كان قد فجعكَ بنفسهِ فقد أبْقى في يديك حكمتَه، وإن كنتَ قد أضعتَه فقد جاءَك خلفٌ منه وقد كانَ عنكَ طويلَ الغيبةِ وهو الآن عنك سريعُ الرِّحلةِ»(2).

وكأنّ البصري هو من فكر بالدنيا فوجدها ثلاثة أيّام، ولو قال إنّما الدنيا ثلاثة أيام مثلما وصفها الإمام عليّ بن أبي طالب لكان أقرب للأمانة. وبلا أدنى شك فإنّ البصري لم يكتب هذا ولا بعضه إذا لم تكن بين يديه حكمة أمير المؤمنين عليه السلام التي تقول:

«ألا إنَّ الأيَّامَ ثلاثةٌ: يومٌ مَضَى لا تَرْجُوه، وَيَوْمٌ بَقِيَ لابُدّ منه، وَيَوْمٌ يأتي لا تأمَنَه. فالأمسُ مَوْعِظَةٌ، واليومُ غَنيمَةٌ، وَغَدٌ لا تدْري منْ أهلُه، أمس شاهِدٌ

1- ينظر م. ن 5 / 503

2- حلية الأولياء 2 / 138

مَقْبولٌ، واليومُ أمِينٌ مُؤدٍ، وغَدٌ يعَجلُ بِنَفْسِك سَرِيعُ الظّعنِ، طويلُ الغيبة، أتاكَ وَلم تأْتِه»(1).

فالإمام علي عليه السلام قسَّمَ عمُرَ الإنسان على ثلاثة أقسام، من أجل أن يتذكر الإنسان ما فعل بالأمس ولا يقع في زلاّته، ويتحّرز في يومه الذي هو فيه لأنّه سينصرم كما أنصرم الأمس، ثمّ يستعد للغد عسى أن يكون من أهله.

سـارَ البصـري على هـذا خطوة خطوة، وخيّرَ نفسه – هنـا وعلى طول نتاجـاته – فإن شاء ضـمّن حرفيًّا، وإن شاء حوّر، وإن شاء كرّر المعنى بـدون طائل، وإن شاء أخـذ بالمعنى. وبمقابلة الكلامين فقرة فقرة يتبين ما يريده الباحث، فقوله: «وإنّما الدنيا ثلاثة أيام» بتحوير طفيف عن حكمة الإمام عليه السلام: «ألا إنّ الأيام ثلاثة» وقوله: «يومٌ مضى لا ترجوه».

بنصه من الحكمة: «يومٌ مضى لا ترجوه».

وقول البصري: «فأمّا أمسٌ فحكيمٌ مؤدَّب». ثم تكراره لهذا المعنى بقوله:

«غيرَ أنَّ أمسَ وإن كان قد فجعكَ بنفسهِ فقد أبقى في يديك حكمتَه». بسط وتفصيل لقولهِ عليه السلام: «فالأمس موعظة».

وقوله: «ويوم أنت فيه ينبغي لكَ أن تغتنمه».

توسع وزيادة على قول الإمام عليه السلام: «اليوم غنيمة».

وقوله: «ويومٌ يأتي لا تدري أنتَ من أهله أم لا؟ ولا تدري لعلَّك تموت

ص: 171

1- تحف العقول 247

قبله». وهنا وقع البصري بالتكرار الذي لا طائل منه مرّة أخرى، لأنّ الجملة التي بعد السؤال تكرار واضح لما قبله.

وعلى أية حال فهذا من قولهِ عليه السلام: «وغدٍّ لا تدري مَنْ أهله».

وقول البصري: «وأمَّا اليومَ فصديقٌ مودِّعٌ».

بالمعنى من قول الإمام عليه السلام: «واليوم أمين مؤدٍّ».

وقوله: «فقد جاءك خلف - يقصد يوم الغد - منه وقد كان عنك طويل الغيبة وهو الآن عنك سريع الرحلة».

ففيه تضمين نصي، وتضمين محوّر، وأخذ بالمعنى، وتقديم وتأخير من قولهِ عليه السلام: «وغَدٌ يعَجلُ بِنَفْسِك سَرِيعُ الظَّعنِ، طويلُ الغيبة».

وما دام الحديث عن استغلال اليوم بالطريقة المثمرة، رأى البصري فرصة سانحة في ذلك، ليوظف حكمة علوي أخرى، جاء فيها:

«يَا اِبْنَ آدَمَ، لاَ تَحْمِلْ هَمّ يَوْمِكَ اَلَّذِي لَمْ يَأْتِكَ عَلَى يَوْمِكَ اَلَّذِي قَدْ أَتَاكَ..»(1).

أخذ البصري هذه الحكمة، فقال: «وإيَّاك أن تُدخلَ على اليوم همَّ غدٍ، أو همَّ ما بعده»(2).

هذه هي أطول رسائل البصـري، ذلك الواعظ البليغ! وبسبب هذا الطول زاد الأثر العلوي وضوحًا عليها - إذ كلما زاد أي نصٍّ للبصري طولاً ولو لسـطرين زاد الأثر العلوي في ذلك النص - وفرض هيمنة تامة فاقت التصوّر، فالرسالة باسم البصـري ظاهرًا، أمّا حقيقتها فهيَ جمع من خطب ورسائل وحكم أمير

1- نهج البلاغة 601
2- حلية الأولياء 2 / 137

المؤمنين عليه السلام. ولو لم تكن عند البصري الاّ هذهِ الرسالة لكفى بها بيانًا وإفصاحًا عمّن كانَ يقف خلف بلاغة البصري ووعظه.

كتب البصري رسالة أخرى لعمر بن عبد العزيز، أغلبها مكرّر في الرّسالة السابقة، وكانت عبارة عن أثر علوي من قول كاتبها: «أمّا بعد إلى قوله والسلام عليكم». نذكر منها الجزء القليل الذي لم يُكرر في الرسالة السالفة، فقد ورد في أوّلها: «أمّا بعدُ، اعلمْ يا أميرَ المؤمنين أنَّ الدنيا دارُ ظعْنٍ، وليست بدار إقامة..»(1).

وهذا من خطبة الإمام عليه السلام التي تقول:

«وَأُحَذِّرُكُمُ اَلدُّنْيَا فَإِنَّهَا مَنْزِلُ قُلْعَةٍ، وَلَيْسَتْ بِدَارِ نُجْعَةٍ..»(2).

فالدنيا هي دار ارتحال وليست بدار قرار، والبصري لم يقدم شيئًا يذكر لما أبدل «قُلعة» ب«ظعن»، لأن المعنى واحد، يقال عن «الدنيا دار قُلْعَةٍ أي انقلاع»، وعن القوم هم على قلعة أي على تحوّلٍ وارتحال(3)، وكذلك الظعن فهو يعني الارتحال. وهكذا إبداله «نجعة»ب «إقامة».

فالنجعة تعني «طلب الكلأ في موضعه، أي ليست محط الرحال ولا مبلغ الآمال»(4)، وهذا ما عبّر عنه البصري بأن الدنيا ليست بدار إقامة.

ومثلما افتتح الإمام خطبته بما يدلّ على تشديد التحذير من الدنيا عن طريق استعمال الفعل المضارع «أحذِّرُ» ثمَّ استعمال «إنّ»، كذلك البصري ذهب إلى ما

1- جمهرة رسائل العرب 2 / 326

2- نهج البلاغة 192

3- ينظر: م. ن 8 / 290 مادة (قلع)

4- شرح نهج البلاغة لمحمد عبده 1 / 191

يشبه هذا لمّا افتتح رسالته بفعل الأمر «اعلم»، ثم ب«إنّ». إلاّ أن إيصال المعنى عن طريق الإيقاع الموجود في اللفظتين المسجوعتين «قُلْعَةٍ، نُجْعَةٍ» المتساويتين في كلِّ شيءٍ من المبنى سواءً عدد الحروف، أو ما تحمله الحروف من سكنات وحركات، أعطى كلام الإمام عليه السلام وقعًا وأثرًا أكبر من الذي نجده في لفظتي البصري «ظعن، إقامة».

وبعد ذلك قال البصري: «... ولها في كلِّ حين صرعةً، وليست صرعةً كصرعة، هي تهينُ من أكرَمَها، وتُذِلُّ من أعزّها، وتصرعُ مَنْ آثَرها، ولها في كُلّ حين قَتْلى، فهيَ كالسُّم يأكُله مَنْ لا يعرفه وفيه حتفُه، فالزادُ فيها تركُها، والغِنى فيها فقرُها»(1).

وهذا كقول الإمام عليه السلام في ذمِّ الدنيا:

«مَنْ أَقَلَّ مِنْهَا اِسْتَكْثَرَ مِمَّا يُؤْمِنُهُ! وَمَنِ اِسْتَكْثَرَ مِنْهَا اِسْتَكْثَرَ مِمَّا يُوبِقُهُ، وَزَالَ عَمَّا قَلِيلٍ عَنْهُ. كَمْ مِنْ وَاثِقٍ بِهَا قَدْ فَجَعَتْهُ، وَذِي طُمَأْنِينَةٍ إِلَيْها قَدْ صَرَعَتْهُ...»(2).

فكلُّ مَنْ في الدنيا مصروع لا محالة، أكّد أمير المؤمنين عليه السلام على هذهِ الحقيقة من خلال عبارته التحقيقية «قد صرعته».

ويبدو أنّ البصري أراد أيضًا تأكيد هذهِ الحقيقة، عندما كرر لفظة «صرعة» أربع مرّات بين الإسم والفعل: «صرعةٌ، صرعة، كصرعةٍ، تصرع».

وقد حذر الإمام عليه السلام من الإستكثار من الدنيا؛ لأنّ من استكثر منها ثقل حمله ودنا هلاكه، ومن أقلَّ منها خفَّ حمله وكثر أمانه، مكرّرًا لفظة

1- جمهرة رسائل العرب 2 / 326

2- نهج البلاغة 189

«الإستكثار» ثلاث مرات؛ ولعل سبب ذلك التكرار مثلما يراه الباحث هو انّ الإنسان – وهو خارجٌ من الدنيا – لا بدّ وأن يكون مستكثرًا، إما «ممّا يؤمنه» من الأعمال الطالحة، وإما «ممّا يوبقه» من الأعمال الصالحة.

امّا المقابلات التي وجدناها عند الإمام عليه السلام فإنّ البصري قد غيّر في ثوبها دون معناها فقوله:

«تركها» يُقابل «من أقلَّ منها» عند الإمام عليه السلام.

«الغنى فيها» يُقابل «من استكثر منها» عند الإمام عليه السلام.

وبعد هذا انتقل البصري إلى خطبة المتقين ليضمن منها مقطعًا من ستة أسطر سنعرض لهُ – بعونه تعالى – في مبحث الخطبة المذكورة.

وبعد ذلك المقطع انتقل إلى خطبة رابعة من خطب أمير المؤمنين عليه السلام، ليأخذ منها مقطعًا كبيرًا، وعلى طريقته التي باتت واضحة بين التضمين الحرفي، والمحور، والأخذ بالمعنى، والتقديم والتأخير، فقال: «.. فالعيونُ إليها ناظرةٌ، والقلوبُ عليها والهِةٌ، والنّفوسُ لها عاشقةٌ، وهي لأزواجِها كُلِّهم قاتلةٌ، فلا الباقي بالماضي مُعتَبِر، ولا الآخِرُ لمِا رأى من أثَرِها على الأوَّلِ مُزدَجِر، ولا العارفُ باللهِ المُصدق له حين اخبره عنها مُدَّكر، قد أبت القلوبُ لها إلاّ حُبًّا، وأبت النّفوس لها إلا عشقًا، ومن عشِقَ شيئًا لمْ يُلهم غيرَه، ولم يعقل سِواه، ماتَ في طلبه،... وجاءته منيَّتُه على أسرِّ ما كان منها حالاً وأطول ما كان فيها أمَلاً، فَعظُمَ نَدَمه، وكثُرت حسرتُه، مع مَا عالجَ من سكرته، فاجتمعت عليه سكرةُ الموتِ بكرْبَته، وحسرة الفوتِ بغُصَّته، فغيرُ موصوفٍ ما نزَلَ به»(1).

1- جمهرة رسائل العرب 2 / 327

وما هذا برمته إلاّ إعادة على الطريقة البصرية لجزء من خطبة علوية، جاء فيه:

«سبّحَانَكَ خَالِقًا وَمَعْبُوداً.. خَلَقْتَ دَاراً وَجَعَلْتَ فِيهَا مَأْدُبَةً: مَشْرَباً وَمَطْعَماً، وَأَزْوَاجاً وَخَدَماً، وَقُصُوراً، وَأَنْهَاراً، وَزُرُوعاً، وَثِماراً؛ ثُمَّ أَرْسَلْتَ دَاعِياً يَدْعُو إِلَيْهَا، فَلاَ الدَّاعِيَ أَجَابُوا، وَلاَ فِيمَا رَغَّبْتَ رَغِبُوا، وَلاَ إِلَى شَوَّقْتَ إِلَيْهِ اشْتَاقُوا. أَقْبَلُوا عَلَى جِيفَةٍ قَدِ افْتَضَحُوا بِأَكْلِهَا، وَاصْطَلَحُوا عَلَى حُبِّهَا، وَمَنْ عَشِقَ شَيْئاً أَعْشَى «أعمى» بَصَرَهُ، وَأَمْرَضَ قَلْبَهُ، فَهُوَ يَنْظُرُ بِعَيْنٍ غَيْرِ صَحِيحَةٍ، وَيَسْمَعُ بِأُذُنٍ غَيْرِ سَمِيعَةٍ، قَدْ خَرَقَتِ الشَّهَوَاتُ عَقْلَهُ، وَدَمَاتَتِ الدُّنْيَا قَلْبَهُ، وَوَلِهَتْ عَلَيْهَا نَفْسُهُ،.. لاَ يَنْزَجِرُ مِنَ اللهِ بِزَاجِرٍ، وَلاَ يَتَّعِظُ مِنْهُ بِوَاعِظٍ، وَهُوَ يَرَى الْمَأْخُوذِينَ عَلَى الْغِرَّةِ – حَيْثُ لاَ إِقَالَةَ لَهُمْ وَلاَ رَجْعَةَ – كَيْفَ نَزَلَ بِهِمْ مَا كَانُوا يَجْهَلُونَ، وَجَاءَهُمْ مِنْ فِرَاقِ الدُّنْيَا مَا كَانُوا يَأْمَنُونَ، وَقَدِمُوا مِنَ الآخِرَةِ عَلَى مَا كَانُوا يُوعَدُونَ. فَغَيْرُ مَوْصُوفٍ مَا نَزَلَ بِهِمْ؛ اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِمْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ وَحَسْرَةُ الْفَوْتِ، فَفَتَرَتْ لَهَا أَطْرَافُهُمْ، وَتَغَيَّرَتْ لَهَا أَلْوَانُهُمْ...»(1).

وبهذه المقارنة يتّضح جليًا ما عمله البصري على كلام أمير المؤمنين عليه السلام. فقوله عليه السلام: «فَلاَ الدَّاعِيَ أَجَابُوا، وَلاَ فِيمَا رَغَّبْتَ رَغِبُوا» وقوله «لاَ يَنْزَجِرُ مِنَ اللهِ بِزَاجِرٍ، وَلاَ يَتَّعِظُ مِنْهُ بِوَاعِظٍ».

اختزله البصري قليلا بقوله: «فلا الباقي بالماضي مُعتَبِر، ولا الآخِرُ فِما رأى من أثَرِها على الأوّلِ مُزدَجِر».

«قَدِ افْتَضَحُوا بِأَكْلِهَا، وَاصْطَلَحُوا عَلَى حُبِّهَا».

ص: 176

1- نهج البلاغة 183

أخذه البصري بين اللفظ والمعنى: «قد وأبت القلوبُ لها إلاّ حُبًّا، وأبت النّفوس لها إلا عشقًا».

وقوله عليه السلام:

«وَمَنْ عَشِقَ شَيْئاً أَعْشَى «أعمى» بَصَرَهُ».

نجده بين التضمين الحرفي والتحوير في مقطع البصري: «ومن عشِقَ شيئًا لمْ يُلهم غيَره، ولم يعقل سِواه».

وقوله عليه السلام:

«فَهُوَ يَنْظُرُ بِعَيْنٍ غَيْرِ صَحِيحَةٍ، وَيَسْمَعُ بِأُذُنٍ غَيْرِ سَمِيعَةٍ، قَدْ خَرَقَتِ اَلشَّهَوَاتُ عَقْلَهُ، وَأَمَاتَتِ اَلدُّنْيَا قَلبَهُ، وَوَلَهِتْ عَلَيْهَا نَفْسُهُ».

اختزله البصري، وقدمه إلى أول المقطع: «فالعيونُ إليها ناظرةٌ، والقلوبُ عليها والِهةٌ، والنّفوسُ لها عاشقةٌ».

وقوله عليه السلام:

«وَهُوَ يَرَى اَلْمَأْخُوذِينَ عَلَى اَلْغِرَّةِ - حَيْثُ لاَ إِقَالَةَ لَهُمْ وَلاَ رَجْعَةَ - كَيْفَ نَزَلَ بِهِمْ مَا كَانُوا يَجْهَلُونَ وَجَاءَهُمْ مِنْ فِرَاقِ اَلدُّنْيَا مَا كَانُوا يَأْمَنُونَ».

اختزل البصري معناه: «وجاءته منيَّتُه على أسرِّ ما كان منها حالاً وأطول ما كان فيها أمَلاً».

وقوله عليه السلام:

«فَغَيْرُ مَوْصُوفٍ مَا نَزَلَ بِهِمْ، اِجْتَمَعَتْ عَلَيْهِمْ سَكْرَةُ اَلْمَوْتِ وَحسْرَةُ اَلْفَوْتِ».

ضمنه البصري حرفيًا مع التقديم والتأخير: «فاجتمعت عليه سكرةُ الموتِ..

ص: 177

وحسرة الفوتِ.. فغيرُ موصوفٍ ما نَزَلَل به».

وعلى الرغم ممّا قاله الإمام قي المقطع الأخير من إنّ القومَ غيرُ موصوف ما نزل بهم، إلاّ أنّه وصـفهم بلوحة تفصيلية – على صعيدي المعنى والفن – غايـة في الدقة والتأثير، حتى أنّ القارئ عندما يقرأ الخطبة كاملة يشـعر وكأنّه يراهـم، وكأنَّه هو المقصود بذلك حصـرًا فيتيه حائرًا لما سيحلّ بهِ، وكيفيّـة الخلاص منه. وقـد أجاد ابن أبي الحديد في تعليقه على هذهِ الخطبة، حيث قال: «من أراد أن يتعلم الفصاحة و البلاغة و يعرف فضـل الكلاـم بعضه على بعض، فليتأمَّل هـذه الخطبـة.. ثم لينظر الناظر إلى ما عليها من البهاء، والجلالـة، والرّواء، والديباجـة، وما تحدثه من الروعة والرّهبة، والمخافة، والخشية حتى لو تليت على زنديق ملحد مصمم على اعتقاد نفي البعث و النشور لهدَّت قواه، وأرعبت قلبه..»(1).

وتجـدر الإشارة إلى أنّ باقي الرسالة البصـرية التي نحن بصددها مكرّر برمته في الرسالة السابقة، ثمَّ أنَّ جميع هذا التكرار هو من كلام أمير المؤمنين عليه السلام(2).

ولا تختلف المعاني والتوصيات التي أرسـلها الحسن البصـري إلى عمر بن عبـد العزيز، والتي بيّن فيها صـفات الإمام العادل عمّا كتبه في رسائلهِ الأخرى، فهو بين حاضٍّ له على السـير بعدالة والرفق بالرعية، وبين الزّهد في الدنيا والاستعداد للموت. وممّا جاءَ فيها: «فالآنَ يا أمير المؤمنين وأنت في مَهَلٍ، قبلَ حلول الأجلِ

ص: 178

1- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 7 / 138

2- للمزيد ينظر الرسالة كاملة في جمهرة رسائل العرب 2 / 326 – 328، وتقارن بما بيّنه الباحث عن الرسالة الأولى

وانقطاع الأملِ، لا تحكمْ يا أميرَ المؤمنين في عباد اللهِ بحُكم الجاهلين»(1).

وتشديده هذا على استغلال أيّام الحياة قبل حلول الفوت، قد طرقه أمير المؤمنين كثيرًا، وبصورٍ شتّى، منها قوله:

«رَحِمَ الله امرءًا. اِغْتَنَمَ اَلْمَهَلَ، وَبَادَرَ اَلْأَجَلَ، وَتَزَوَّدَ مِنَ اَلْعَمَلِ»(2).

فالمهل "هنا مـدّة الحياة مع العافيـة. فإنَّهُ أُمْهِلَ فيها دون أن يؤخذ بالموت، أو تحلُّ بِهِ بائقة عذاب، فهو يغتنم ذلك ليعمل فيه لآخرته، فيبادر الأجل قبلَ حلوله بما يتزوَّده من طيب العمل»(3).

وقول البصري: «وأنت في مهل».

لا يختلف عن قول الإمام: «اغتنم المهل».

وهكذا قوله: «قبل حلول الأجل».

بالنسبة لقول الإمام: «وبادر الأجل».

وكتب البصري في الرسالة أيضًا: «ولا يغرنَّك الّذين يتنعّمون بما فيه بُؤسُك، ويأكلون الطيّباتِ في دنياهم بإذهاب طيّباتِك في آخرتك»(4).

وكلامه هذا نجد ما يضارعه في كلام أمير المؤمنين عليه السـلام التي ضـمن منها البصري مقطعًا كبيرًا في الرسالة السابقة، فبعد قوله: «فغير موصوفٍ مانَزَلَ بهم..». قال عليه السلام:

1- جمهرة رسائل العرب 2 / 325
2- نهج البلاغة 105
3- شرح نهج البلاغة لمحمد عبده 1 / 115
4- جمهرة رسائل العرب 2 / 325

«وَيَتَذَكَّرُ أَمْوَالاً جَمَعَهَا... تَبْقَى لِمَنْ وَرَاءَهُ يُنَعَّمُونَ فِيهَا، وَيَتَمَتَّعُونَ بِهَا، فَيَكُونُ اَلْمَهْنَأُ لِغَيْرِهِ، وَاَلْعِبْءُ عَلَى ظَهْرِهِ»(1).

وفي ختام هذه الرسالة بيّن البصري للخليفة إنّه لم يدّخر ما بوسعه من نصائح وعظات إلاّ قدمها له، على الرغم من أنّه لم يبلغ بعظاته تلك من اسماهم بأولي النُّهى، فقال: «إنّي يا أمير المؤمنين وإن لم أبلغ بعِظَتي ما بلغهُ أولو النُّهَى من قبلي فلمْ آلُكَ شفقَةً ونُصحًا»(2).

ففي كلام البصري هذا نشعر بوجود جملة اعتراضية من قولهِ: «وإن إلى قوله قبلي». والكلام الأصلي هو «إني يا أمير المؤمنين لم آلك شفقة ونصحًا»، وهنا يتّضح جليًا أثر ما جاء في وصيّة أمير المؤمنين لولدهِ الحسن عليهم السلام: «فإنّي لم آلُكَ نصيحةً»(3).

ولم آلك نصحًا: أي لم اقصّر ولم أبطىء لك في النصيحة، وهو من ألا يألوا أي قصر(4).

وممّا تميّزت بهِ رسائل البصري، التّفاوت البيّن، من حيث الطول والتّوسط والقصر، فمثلما وجدنا عنده رسالة طويلة وأخرى متوسطة، نجد عنده الرسالة الموجزة. ومن هذا النوع ما كتبه لأحد تلامذته: «أمَا بَعدُ فإنّي أوصيكَ بتقوى الله... فإنَّ الدُّنيا ميدانُ مسابقة، والغايةُ الجنة أو النّار»(5).

1- نهج البلاغة 184

2- جمهرة رسائل العرب 2 / 325

3- نهج البلاغة 461

4- ينظر: منهاج البراعة 3 / 97

5- البداية والنهاية 9 / 289

وتشبيه البصري هذا للدنيا بأنّها ميدان مسابقة ونهاية المسابقة الجنة أو النار إتكأ فيه تمامًا على وصف أمير المؤمنين عليه السلام:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اَلدُّنْيَا قَدْ أَدْبَرَتْ... أَلاَ وَإِنَّ اَلْيَوْمَ اَلْمِضْمَارَ، وَغَداً اَلسِّبَاقَ، وَاَلسَبَقَةُ اَلْجَنَّةُ، وَاَلْغَايَةُ اَلنَّارُ»(1).

المضمار هو «الموضع الذي تُضمَّرُ فيه الخيلُ وتضميرها أن تُعْلَفَ قوتًا بعد سمنها»(2). والمعنى: أراد عليه السلام أنّ الإنسان في مدة عمره يستعد بالتقوى ويروض نفسه بالأعمال الصالحة للسبقة إلى لقاء الله تعالى كما أنّ الفرس يستعد بالتضمير إلى سبق مثله(3).

وعلى الرغم من إنّ التعالق كبيرٌ بين النصّين، فتشبيه البصري للدنيا بانّها «ميدان مسابقة» من تشبيه الإمام لها بأنّها «مضمار».

وقول البصري: «والغاية الجنّة أو النّار». من قول الإمام: «والسبقة الجنة، والغاية النار».

ومع هذا فإنّ البصري لم يصب لما جعل الجنة والنار كليهما غاية، مقارنة بكلام أمير المؤمنين عليه السلام الذي جعل الجنة سَبقة، والنَّارَ غاية. وبإيراد تعليق الشريف الرَّضي على نصِّ الإمام يتضح كم تقدَّم عليه السلام حيث تأخر البصري، قال الرضي (رحمه الله): « وأقول: إنه لو كان كلام يأخذ بالأعناق إلى الزّهد في الدنيا، ويضطر إلى عمل الآخرة لكان هذا الكلام... ومن أعجبه قوله عليه السلام:

1- نهج البلاغة 58

2- لسان العرب 4 / 491 مادة (ضمر)

3- ينظر: منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة 4 / 6

«أَلاَ وَإِنَّ اَلْيَوْمَ اَلْمِضْمَارَ، وَغَداً اَلسِّبَاقَ، وَاَلسَّبَقَةُ اَلْجَنَّةُ، وَاَلْغَايَةُ اَلنَّارُ».

فإن فيه – مع فخامة اللفظ، وعظم قدر المعنى، وصادق التمثيل، وواقع التشبيه – سرًّا عجيبًا، ومعنى لطيفا، وهو قوله: [والسبقة الجنة والغاية النار] فخالف بين اللفظين لاختلاف المعنيين و لم يقل [السبقة النار] كما قال: [السبقة الجنة] لأن الاستباق إنما يكون إلى أمرٍ محبوب، وغرض مطلوب، وهذه صفة الجنة، وليس هذا المعنى موجودًا في النار نعوذ بالله منها فلم يجز أن يقول:

[والسبقة النار] بل قال: [والغاية النار]...»(1).

ومن رسائلِهِ القصيرة الأخرى قوله : «أمّا بعدُ، يا أمير فكأنّ الذي كانَ لم يكن، وكأنَّ الذي هو كائنٌ قد نزل، واعلم يا أمير المؤمنين أنَّ الصبرَ – وإن أذاقك تعجيل مرارته – فلنعم ما أعقبك من طيب حلاوته، و حُسنِ عاقبته، وأنّ الهوى – وإن أذاقك طعمَ حلاوته – فلبئس ما أعقبك من مرارته وسوء عاقبته، واعلم يا أمير أنّ الفائزَ مَنْ حرص على السلامة في دار الإقامة، وفازَ بالرحمة أُدخِلَ الجنة»(2).

تتكون الرسالة من ثلاثةِ مقاطع، كُلُّ مقطعٍ منها يبتدأ ب «يا أمير المؤمنين»، وكلُّ هذه المقاطع بُنيت من كلمات أمير المؤمنين عليه السلام.

أمّا الأول منها، فقد كرر البصري معناه وأرسله بمفرده إلى عمر بن عبد العزيز:

«سلامٌ عليكَ أمّا بعد، فكأنّكَ بالدنيا لم تكن، وبالآخرة لم تزَل»(3). وهذا دون شك عن أمير المؤمنين عليه السلام وقد وردَ في موضعين أيضًا:

ص: 182

1- نهج البلاغة 59
2- جمهرة رسائل العرب 2 / 331
3- حياة الحسن البصري وسيرته العلمية 136

الأول قوله عليه السلام في خطبة ضمّن البصري بعضها حرفيًا، وقد أشرنا لذلك في السابق(1):

«فَكَأَنَّ مَا هُوَ كَائِنٌ مِنَ اَلدُّنْيَا عَنْ قَلِيلٍ لَمْ يَكُنْ، وَكَأَنَّ مَا هُوَ كَائِنٌ مِنَ الآخِرَةِ عَمَّا قَلِيلٍ لَمْ يَزَلْ»(2).

الثاني قوله عليه السلام:

«فَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا لِلدُّنْيَا عُمَّاراً، وَكَأَنَّ اَلآخِرَةَ لَمْ تَزَلْ لَهُمْ دَاراً»(3).

فالمعنى واحد بين النصوص الأربعة، وهو مثلما شرح ابن أبي الحديد نصّ الإمام عليه السلام الأول بقوله: «ما هوَ كَائِنٌ موجود من اَلدُّنيا سيصير عنْ قَلِيلٍ - أي بعدَ زمانٍ قليل - معدومًا، والزّمان القصير ههنا: انقضاء الأجل وحضور الموت. ثم قال: إنّ الذي هو كائن وموجود من الآخرة سيصير عن قليل - أي بعد زمان قصير أيضًا - كأنه لم يزل؛ والزّمان القصير ههنا هو حضور القيامة..»(4) وبودِّ الباحث تبيان التعالق الواضح بين النصوص الأربعة بطريقة أوضح:

فقول البصري: «فكأنّ الذي كانَ لم يكن»، وقوله: «فكأنك بالدنيا لم تكن».اعتماد كلي على قول الإمام:

«فَكَأَنَّ مَا هُوَ كَائِنٌ مِنَ اَلدُّنْيَا عَنْ قَلِيلٍ لَمْ يَكُنْ».

وقوله عليه السلام:

ص: 183

1- تنظر: الرسالة 98 - 99

2- نهج البلاغة 170

3- م. ن 322

4- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 7 / 74

«فَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا لِلدُّنْيَا عُمَّاراً».

أمّا قول البصري: «وكأنّ الذي هو كائن قد نزل» وقوله: «وبالآخرة لم تزل».

اعتماد على قول الإمام: «وكأن ما هُوَ كَائِنٌ مِنَ الآخِرَةِ عمَّا قَلِيلٍ لمْ يَزَلْ».

وقول عليه السلام:

«وَكَأَنَّ اَلآخِرَةَ لَمْ تَزَلْ لَهُمْ داراً».

وبالنسبة للمقطع الثاني من الرسالة «إنّ الصبرَ إلى قوله وسوء عاقبته» فهو لا يعدو - إذا فتشتَ عن معناه - بسطاً، أو توسّعًا لمقابلة أمير المؤمنين عليه السلام التي أجراها بين الحقِّ والباطل:

«إِنَّ اَلْحَقَّ ثَقِيلٌ مَرِيٌ، وَإِنَّ اَلْبَاطِلَ خَفِيفٌ وَبِيءٌ»(1).

وكأنّ البصري بتوسعه السالف شرح الحكمة العلوية كما شرحها ابن أبي الحديد لما قال: «الحق و إن كان ثقيلاً إلاّ أنَّ عاقبته محمودة، ومغبّته صالحة، والباطِلُ وإن كان خفيفًا إلاّ أنَّ عاقبته مذمومة و مغبّته غير صالحة، فلا يحمِلنَّ مضارٌ عظيمة آجلة..»(2) أمّا المقطع الثالث في الرسالة، والمتمثل بقول البصري: «إنّ الفائز مَنْ حَرِصَ على السلامة في دار الإقامة». كقول أمير المؤمنين عليه السلام في وصف السالك الطريق إلى الله سبحانه: «وَتَدَافَعَتْهُ اَلْأَبْوَابُ إِلَى بَابِ اَلسَّلاَمَةِ، وَدَارِ اَلْإِقَامَةِ»(3).

ص: 184

1- نهج البلاغة 621

2- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 19 / 184

3- نهج البلاغة 391

وكتب إلى عمر بن عبد العزيز أيضا: «واعلمْ أنَّ الهولَ الأعظم، و مُفظِعات الأمور أمامك لم يقطع منها بعد، وأنّه لا بُدَّ واللهِ لك من مشاهدة ذلك ومعاينَته، أمَّا بالسَّلامةِ والنجاة منه، وأمَّا بالعطب»(1).

ورسالته هذه مقتطعة – بين المعنى والتضمين والتقديم والتأخير – من خطبةٍ لأمير المؤمنين عليه السلام منها:

«فَإِنَّ أَمَامَكُمْ عَقَبَةً كَؤوداً، وَمَنَازِلَ مَخُوفَةً مَهُولَةً، لاَ بُدَّ مِنَ اَلْوُرُودِ عَلَيْهَا، وَاَلْوُقُوفِ عِنْدَهَا. وَاِعْلَمُوا أَنَّ مَلاَحِظَ اَلْمَنِيَّةِ نَحْوَكُمْ دَانِيَةٌ، وَكَأَنَّكُمْ بِمَخَالِبِهَا وَقَدْ نَشِبَتْ فِيكُمْ، وَقَدْ دَهَمَتْكُمْ مِنْهَا مُفْظِعَاتُ اَلْأُمُورِ، وَمُعْضِلاَتُ اَلْمَحْذُورِ»(2).

فالنّصَّان يصوّران أمرًا حتميًّا في الدنيا، ألا وهو إقبال المنية، وهذا ما نجده في بداية المقطع من خطبة الإمام عليه السلام:

«فَإِنَّ أَمَامَكُمْ عَقَبَةً كَؤوداً... لاَ بُدَّ مِنَ اَلْوُرُودِ عَلَيْهَا، وَاَلْوُقُوفِ عِنْدَهَا».

بينما البصري جعل هذا ثانيًا: «وإنّه لا بُدَّ والله لك من مشاهدة ذلك ومعاينة». محذِّران – أي النصان – من إنّ المنية لا تطلب الإذن، بل تداهم في كلِّ لحظة، وهذا ما جعله الإمام في المقطع الثاني من الخطبة:

«وَاِعْلَمُوا أَنَّ مَلاَحِظَ اَلْمَنِيَّةِ نَحْوَكُمْ دَانِيَةٌ... وَقَدْ دَهَمَتْكُمْ مِنْهَا مُفْظِعَاتُ اَلْأُمُورِ». بينما البصري جعل هذا أولاً: «واعلمْ أنَّ الهولَ الأعظم، ومُفظِعات الأمور أمامك».

ومثلما أكد الإمام عليه السلام هذا المعنى بفعل الأمر «اعلم» ثم ب«أنّ» فعل البصري

ص: 185

1- جمهرة رسائل العرب 2 / 331

2- نهج البلاغة 372

هكذا «اعلم أنّ».

وأما قول الإمام عليه السلام:

«مُفْظِعَاتُ اَلْأُمُورِ».

الذي يعنى تجاوز المقدار في الشدّة(1) فنجده بنصّه في رسالة البصري. ومع هذا يبقى بون بين الكلامين في أمورٍ عدة، منها: تصوير الإمام للمنية كأنها كائن حيّ، أقبلت تلحظ البشر على دنوٍّ منهم، ثمَّ إنّها تتخير مَنْ منهم ستُنشِبُ مخالبها فيه.

وهدف الإمام من تصوير المنيّة بهذهِ الهيأة المرعبة والمقلقة هو دفع المرء للإستعداد أكثر لذلك اليوم الذي لا مفرَّ منه، وهذا ما قاله صراحة في آخر الخطبة:

«واستَظْهِرُوا بزادِ التقوى»(2).

وللبصري رسائل موجزة جدًّا، ومنها: «أما بعدُ يا أمير المؤمنين، فإنّ طول البقاء إلى فناء، فخذ من فنائِكَ الذي لا يبقى، لبقائك الذي لا يفنى، والسلام»(3).

وما هذا المعنى والألفاظ، والمقابلة التي أجراها بين الفناء والبقاء « فخذ من فنائِكَ الذي لا يبقى، لبقائك الذي لا يفنى» إلاّ مقطعًا من خطبةٍ طويلة لأمير المؤمنين عليه السلام منها:

«وَأَزْمَعَ اَلتَّرْحَالَ عِبَادُ اَللهِ اَلْأَخْيَارُ، وَبَاعُوا قَلِيلاً مِنَ الدُّنيا لاَ يَفْنَى»(4).

1- نهج البلاغة 372

2- م. ن 372

3- حياة الحسن البصري 136

4- نهج البلاغة 306

هـذه هيَ أهم رسائل البصـري، وبعد أن عرفنا على مَنْ اعتمد في صـياغتها – اللفظية والمعنوية – تبقى مسألة لها من الأهمية نصـيب أعني ذلك التفاوت الكبير بين طول هذه الرسائل وقصـرها، فمثلما وجدنا عنده رسالة تربو على المائة سطر – وهي الرسالة الأولى في المبحث –، و أُخر تميَّزنَ بالتوسط، وقسم ثالث بالقصـر، وجـدنا رسائل لا تتجاوز كلمات الواحدة منها سـطرًا واحدًا. وهذه الطريقة هي أيضًا أثرٌ علويٌ خالصٌ؛ لأنّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يُسبَقْ إلى هذا، لا منْ الذين سبقوه، ولا منَ الذين عاصروه.

وصفوة القول إنَّ رسائل البصري بلفظها ومعناها، وطولها وقصرها، كانت تموج بأثر كلام أمير المؤمنين (صلوات الله عليه).

ص: 187

المبحث الثالث: أثر خطبة المتقين

للإمـام علي عليه السـلام في نثر الحسن البصـري تُعـدّ هـذه الخطبـة من الخطب التي لا ـ يختلف إثنان في مرجعيَّتها لأمير المؤمنين عليه السلام. وسببُ إلقائها عائدُ إلى طلبٍ من أحد أصحابهِ عليه السلام المقربيّن يدعى همّام(1)، إذ قال:

«يَا أَمِيرَ اَلْمُؤْمِنِينَ صِفْ لِيَ اَلْمُتَّقِينَ حَتَّى كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِمْ فَتَثَاقَلَ عليه السلام عَنْ جَوَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا هَمَّامُ، اِتَّقِ اَللهَ وَأَحْسِنْ..»(2).

ص: 189

1- هو همّام بنُ شريح بن يزيـد بن ثمرة بن عمرو بن جابر، يعـدُّ من خُلَّص شـيعتة أمير المؤمنين عليه السـلام وأوليائه، وكان ناسـكًا عابدًا. ينظر: شـرح نهـج البلاغة لابن أبي الحديد 10 / 307. وقـال عنه الأـميني: هو همّـام ين عبـادة بن خثيم، كان صاحبًا لأمير المؤمنين عليه السلام، وكان أحد الزُّهاد الثمانية. ينظر: أعيان الشيعة 10 / 271. والمترجمون لم يحددوا سنة وفاته لكن يمكن أن نجعلها بين سنة (36 - 41 ه)، أي مدّة خلافة أمير المؤمنين عليه السلام أي همّام - في ساعة إلقاء الخطبة المذكورة، والخطبة ألقاها الإمام في أيام خلافته

2- نهج البلاغة 35

وتثاقل الإمام المروي هنا اختلف في توجيه المفكّرون، ولكن في توجيه ابن أبي الحديد بعض الإحاطة لمّا قال: «يجوز أن يكون تثاقلَ عن جوابه لأنه علم أنّ المصلحة تكمن في تأخير الجواب، أو لعلّه رأى في التثاقل شوقًا يشدُّ همّام للإستماع للوصف، فيكون أبلغ في التأثير، أو إنّه تأخَّر من باب تأخير البيان لوقت حاجته، لا من باب تأخيره عن وقت حاجته»(1).

و لمّا أصر همّام بعد تثاقل الإمام عليه السلام عن إجابته خطب الإمام بخطبةٍ قائمة على الوصف، تعدُّ من أروع خطبهِ وأشدّها تأثيرًا، إلى درجةٍ جعلت من المُخاطب المذكور يصعق ويموت، وهذهِ مقدرة من البيان لا يمكن التكهّن بحدودها. نعم من الممكن لأمراء البيان أن يستهوي بيانهم القلب ويشغفه، ولكن إلى هذهِ الدرجة من التأثير بحيث تلامس البلاغة الروح وتجعلها - بإذن الله - تفارق الجسد فهذا أمرٌ محيِّر للألباب.

فإن قال قائل هنا إنّ الصفات من حيث المبدأ هي التي أثَّرت على همّام وأوصلته إلى حتفه، فالجواب نعم، ولكن ليس هذا الأمر - مطلقًا - هو من يملك زمام الحادثة، لأنّ هذه الموضوعات التي طرقها الإمام هي موضوعات مطروقة بكاملها، وسبق أن سمعها همّام وغيره، لكنّ الإبداع كمَن في الوصف التفصيلي للمؤمنين بصفات رَبَت على المائة صفةِ، فضلاً عن التصوير الدقيق لهم، وكأنّ المتلقي يشاهدهم ويشاهد برنامجهم الذي رسمه الإمام عليه السلام على طول اليوم والليلة، وما صاحب هذا من صدق في الوصف، وفنون بلاغية كثيرة جدًّا كالطباق والسجع والتشبيه والاستعارة والكناية والمجاز وغير ذلك.

1- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 10 / 307 - 308

ونرى أيضًا إنّ جانبًا من هذهِ الدقة – التي ستمر علينا – في وصفهِ عليه السلام جاءَ تلبيةً لطلب همّام، لأنّه حدّدَ الإمام بوصفٍ متميّز للمتقين «كأنّي أنظر إليهم».

وممّا بانَ في الخطبة إنّ الإمام لم يخاطب بها مَنْ سأله فحسب، بل استغلَّ الظرفَ ليجعلَها تشمل أكثر من مخاطب، إبتداءً من أوّلهم المستمع المقصود همّام، إلى مخاطبة الإمام عليه السلام لله – سبحانه وتعالى – على سبيل الدعاء والثنّاء، مرورًا بمخاطبة الجمهور المستمع، وإنتهاءً بالمستمعين المعترضين(1) من نحوِ قول الإمام عليه السلام لأحدهم:

«لاَ تَعُدْ لِمِثْلِهَا، فَإِنَّمَا نَفَثَ اَلشَّيْطَانُ عَلَى لِسَانِكَ!»(2).

وفي هذه التوسعة أي توسعة من يشمله الخطاب، توسعه لأثر الخطبة، وفعلاً كانَ لها أثرٌ بالغ في النثر العربي وعلى رأس مَنْ تأثّروا بها هو الحسن البصري، إذ أتى على الخطبة بكاملها وقسَّمها على قسمين: جعل الأوّل منهما في ثمانية نصوص تقريبًا بين خطبة ورسالة وموعظة، أمّا الثاني فجعلهُ في خطبةٍ طويلة. وسنذكر قسمي الخطبة على طولهما لإقتضاء الضرورة لذلك، ونلحق بكلّ قسمٍ كلام البصري المأخوذ عن ذلك القسم.

قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ اَللَّهَ – سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى – خَلَقَ اَلْخَلْقَ حَيْنَ خَلَقَهُمْ غَنِيّاً عَنْ طَاعَتِهِمْ آمِناً مِنْ مَعْصِيَتِهِمْ، لِأَنَّهُ لاَ تَضُرُّهُ مَعْصِيَةُ مَنْ عَصَاهُ، وَلاَ تَنْفَعُهُ طَاعَةُ مَنْ أَطَاعَهُ. فَقَسَمَ بَيْنَهُمْ مَعَايِشَهُمْ، وَوَضَعَهُمْ مِنَ اَلدُّنْيَا مَوَاضِعَهُمْ. فَالْمُتَّقُونَ فِيهَا هُمْ أَهْلُ اَلْفَضَائِلِ: مَنْطِقُهُمُ اَلصَّوَابُ، وَمَلْبَسُهُمُ اَلاِقْتِصَادُ،

1- ينظر: نهج البلاغة في ضوء علم اللغة الإجتماعي 252 - 254
2- نهج البلاغة 254

وَمَشْيُهُمُ اَلتَّوَاضُعُ. غَضُّوا أَبْصَارَهُمْ عَمَّا حَرَّمَ اَللهُ عَلَيْهِمْ، وَوَقَفُوا أَسْمَاعَهُمْ عَلَى اَلْعِلْمِ اَلنَّافِعِ لَهُمْ. نُزِّلَتْ أَنْفُسُهُمْ مِنْهُمْ فِي اَلْبَلاَءِ كَالَّذِي نُزِّلَتْ فِي اَلرَّخَاءِ. وَلَوْ لاَ اَلْأَجَلُ اَلَّذِي كَتَبَ اَللهُ لَهُمْ (عَلَيْهِمْ) لَمْ تَسْتَقِرَّ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ، شَوْقاً إِلَى اَلثَّوَابِ، وَخَوْفاً مِنَ اَلْعِقَابِ. عَظُمَ اَلْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ، فَهُمْ وَاَلْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا، فَهُمْ فِيهَا مُنَعَّمُونَ، وَهُمْ وَاَلنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا، فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ. قُلُوبُهُمْ مَحْزُونَةٌ، وَشُرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ، وَأَجْسَادُهُمْ نَحِيفَةٌ، وَحَاجَاتُهُمْ خَفِيفَةٌ، وَأَنْفُسُهُمْ عَفِيفَةٌ. صَبَرُوا أَيَّاماً قَصِيرَةً أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً. تِجَارَةٌ مُرْبِحَةٌ يَسَّرَهَا لَهُمْ رَبُّهُمْ. أَرَادَتْهُمُ اَلدُّنْيَا فَلَمْ يُرِيدُوهَا، وَأَسَرَتْهُمْ فَفَدَوْا أَنْفُسَهُمْ مِنْهَا. أَمَّا اَللَّيْلَ فَصَافُّونَ أَقْدَامَهُمْ تَالِينَ لِأَجْزَاءِ اَلْقُرْآنِ يُرَتِّلُونَهَا تَرْتِيلاً؛ يُحَزِّنُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ، وَيَسْتَثِيرُونَ بِهِ دَوَاءَ دَائِهِمْ؛ فَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمَعاً، وَتَطَلَّعَتْ نُفُوسُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقاً، وَظَنُّوا أَنَّهَا نُصْبَ أَعْيُنِهِمْ. وَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَخْوِيفٌ أَصْغَوْا إِلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ، وَظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ جَهَنَّمَ وَشَهِيقَهَا فِي أُصُولِ آذَانِهِمْ، فَهُمْ حَانُونَ عَلَى أَوْسَاطِهِمْ، مُفْتَرِشُونَ لِجِبَاهِهِمْ وَأَكُفِّهِمْ وَرُكَبِهِمْ، وَأَطْرَافِ أَقْدَامِهِمْ، يَطْلُبُونَ إِلَى اَللهِ تَعَالَى فِي فَكَاكِ رِقَابِهِمْ. وَأَمَّا اَلنَّهَارَ فَحُلَمَاءُ عُلَمَاءُ، أَبْرَارٌ أَتْقِيَاءُ قَدْ بَرَاهُمُ اَلْخَوْفُ بَرْيَ اَلْقِدَاحِ، يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ اَلنَّاظِرُ فَيَحْسَبُهُمْ مَرْضَى، وَمَا بِالْقَوْمِ مِنْ مَرَضٍ؛ وَيَقُولُ: لَقَدْ خُولِطُوا! وَلَقَدْ خَالَطَهُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ! لاَ يَرْضَوْنَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ اَلْقَلِيلَ، وَلاَ يَسْتَكْثِرُونَ اَلْكَثِيرَ؛ فَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ مُتَّهِمُونَ، وَمِنْ أَعْمَالِهِمْ مُشْفِقُونَ»(1).

أخذ البصري هذا وجعله في مواطن عدة، إذ إنّ جميع ما سنذكره عنه من

1- نهج البلاغة 351 – 352

نصوص هي من جزء الخطبة المذكور، وسنعزف عن نصوصهِ القصار المتأثرة بهذا الجزء من الخطبة، لأنّ في الطوال منها الكفاية:

النص الأول:

خطب البصري، فقال: «واللهِ لو أنَّ رجلاً منكم أدركتُ من القرون الأولى، ورأى من رأيتُ من السَّلف الصالح، لأصبح مهمومًا، وأمسى مغمومًا... أيُّها النّاسُ! إنّ لله عبادًا هم كمن رأى أهلَ الجنة في الجنّةِ مُتنعمين، وأهلَ النّار في النّار مُعذَّبين، فهم يعملون لمِا رأوا مِنَ النعيم، وينتهون عمّا خالفوا من العذاب الأليم.

أيُّها الناسُ! إنّ للهِ عبادًا قلوبُهم محزونةٌ، وشرورهُم مأمونةٌ، وأنفسهم عفيفة، وجوانحهم خفيفة، صبروا الأيّامَ القلائِلَ؛ لمِا رَجَوا في الدُّهورِ الأطاول، أمّا الليل، فقائمون على أقدامهم يتضرّعون إلى ربِّهم، ويسعونَ في فكاك رقابهم تجري من الخشية دموعهم، وتخفُقُ من الخوفِ قلوبُهم، وأمّا النّهارُ فحكماءُ عُلماءُ أتقياءُ أخفياء، يحسبُهم الجاهل أغنياءَ منَ التعفُّفِ، تخالُهُم من الخشية مرْضى، وما بهم مرضٌ، ولكنَّهم خُولطوا بذكر النّار وأهوالها لَهم – والله – كانوا فيما أحلَّ لهم أزهدَ دمنكم فيما حُرِّمَ عليكم، وكانوا أبصرَ بقلوبهم لِدينهِم منكم لدنياكَم بأبصاركم، ولهم كانوا بحسناتهم أن تُردَّ عليهم أخوفَ منكم أنْ تعذَّبوا على سيئاتكم»(1).

النص الثاني:

لمّا سُئِل البصري أنْ يصفَ أصحاب رسول صلى الله عليه وآله، خطب خطبةً قال فيها: «ظهرت منهم علامات: الخير في السيماء، والسمتُ، والهدى، والصدقُ،

1- آداب الحسن البصري 123 – 124

والخشونةَ، ملابسهم بالاقتصادِ، وممشاهُم بالتواضع، ومنطقهُم بالعملِ، ومطعمهم ومشربهم بالطيب من الرِّزق، وخضوعُهم بالطاعةِ لربِّهم تعالى، واستقادتُهم للحق فيما أحبّوا وكرِهوا، وإعطاؤُهم الحقَ من أنفسِهم ظمِئت هواجرُهم، ونحلت أجسامُهم، واستخفّوا بسخطِ المخلوقين رضى الخالق، لم يفرِّطوا في غضب، ولم يحيفوا في جور، ولم يجاوزوا حكم الله تعالى في القرآنِ، شغلوا الألسُنَ بالذكر، بذلوا دماءَهم حين استنصرهم، وبذلوا أموالهم حين استقرضَهم، ولم يمنعهم خوفُهم في المخلوقين، حسنت أخلاقهم، وهانت مؤونتُهم، وكفاهم اليسيرُ من دنياهم إلى آخرتِهم»(1).

النص الثالث:

وخطب أيضًا، فقال: إنّ المؤمنَ عملَ لله تعالى أيّامًا يسيرةً، فوالله ما ندِمَ أن يكونَ أصاب من نعيمها ورخائِها، ولكن راقت الدنيا له فاستهانها وهضمها لآخرته، وتزوَّد منها. فلم تكن الدنيا في نفسه، بدار ولم يرغبْ في نعيمها ولم يفرحْ برخائِها، ولم يتعاظمْ في نفسه شيءٌ من البلاء إن نزل بهِ مع احتسابه للأجر عند الله، ولم يحتسب نوال الدنيا حتى مضى راغبًا راهبًا فهنيئًا هنيئًا»(2).

النص الرابع:

روي عن البصري أنّه كان يقول: «أدركتُ من صدر هذهِ الأمة قومًا كانوا إذا جنّهم الليلُ فقيامٌ على إطرافِهم يفترشونَ خدودَهم تجري دموعُهم على خدودِهم، يناجون مولاهم في فكاكِ رقابِهم، إذا عملوا الحسنةَ سرَّتهم وسألوا

ص: 194

1- حلية الأولياء 2 / 151

2- م. ن 2 / 146 - 147

الله أن يتقبّلَها منهم، وإذا عملوا سيِّئةً ساءتهم وسألوا اللهَ أنْ يغفرَها لهم»(1).

النص الخامس:

قال البصري واصفًا المؤمنين: «إنّ المؤمنين قومٌ ذُلُل، ذُلِّلتْ منهم واللهِ الأسماعُ والأبصار والجوارح، حتى يحسبهم الجاهلُ مرضى، وإنَّهم لأصحِّاءُ القلوبِ، ولكن دخلهم من الخوفِ ما لم يدخلْ غيرَهم، ومنعهم من الدنيا علمُهم بالآخرة، فقالوا: الحمد لله الذي أذهبَ عنّا الحزنَ، والله ما حزنهم حزنَ الدنيا، ولا تعاظم في أنفسهم ما طلبوا بهِ الجنّة»(2).

النص السادس:

وفي خطبة أخرى له صنّفَ فيها قرّاء القرآن إلى ثلاثة أصناف، ذمَّ الأوَّلَين، ومدح الثالث، فقال فيه: «... ورجلُ قرأ القرآن، فبدأ بما يعلمُ من دواءِ القرآنِ فوضعه على داءِ قلبه، فسهر ليله، وانهملت عيناه، وتسربل بالخشوع، وارتدى بالحزن...»(3).

النص السابع:

كتب الحسن البصري رسالةً أرسلها إلى عمر بن عبد العزيز، منها: «.. فكنْ فيها يا أمير المؤمنين كالمُداوي جَرْحَه: يصبرُ على شدَّةِ الدَّواء، مخافةَ طولِ البلاء وليحتمي قليلاً مخافةَ ما يكره طويلاً فإنَّ أهلَ الفضائل كانوا منطقُهم فيها بالصواب، ومشيُهم بالتّواضع، مطعَمهم الطيِّبُ من الرِّزق، مُغمضي

1- البيان والتبيين 3 / 481

2- جامع البيان عن تأويل آي القرآن 11 / 34

3- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 10 / 232

أبصارهم عن المحارم، فخوفُهم في البرّ كخوفِهم في البحر، ودعاؤهم في السَّرّاء كدعائهم في الضّراء، لولا الآجالُ التي كُتِبتْ لهم، ما تقاوت أرواحُهم في أجسادهم خوفًا من العقاب، وشوقًا إلى الثّواب، عظُم الخالقُ في نفوسهم، فصغُر المخلوقون في أعيُنهم. واعلمْ يا أمير المؤمنين... ليس ما يفنى وإنْ كان كثيرًا بأهلٍ أن يؤثرَ على ما يبقى وإن كان طلبُه عزيزًا، واحتمالَ المؤونةِ المنقطعة التي تعقب الراحة الطويلة خير من تعجيل راحة منقطعةٍ تُعْقب مؤونة باقية، وندامة طويلة..»(1).

النص الثامن:

خطب البصري، فقال: «إن لله – عزَّ و جلَّ – عبادًا كمَنْ رأى أهل الجنّة في الجنّة مخلدين، وكمَنْ رأى أهل النارَ في النّار مخلّدين، قلوبهم محزونة، وشرورهم مأمونه، حوائجهم خفيفة، وأنفسهم عفيفة، صبروا أياما قصارا تعقبُ راحةً طويلة، أمّا الليلُ فمصافّةٌ أقدامُهم، تسيل دموعَهم على خدودهم يجأرون إلى ربِّهم ربنا ربنا، وأمّا النهار فحلماءُ علماء بررة أتقياء كأنّهم القداحُ، ينظر إليهم الناظِرُ فيحسبُهم مرضى وما بالقوم من مرض، أو خولطوا ولقد خالط القوم من ذكر الآخرةِ أمرٌ عظيم»(2).

فجميع هذه النصوص التي ذُكرت هي من الخطبة المذكورة، مرّةً بالنص، وأخرى بتغيير طفيف، وثالثة بالمعنى، ورابعة بهذهِ الطرق كلها، أي يقوم البصري بتكرار العبارة الواحدة من الخطبة العلوية مرّات عدّة كيفما شاء، وأنى شاء.

1- جمهرة رسائل العرب 2 / 326

2- حلية الأولياء 2 / 148

أمّا مباشرة أمير المؤمنين عليه السلام في غرض الخطبة نجده قد استهلّ خطبته مؤكّدًا على أنّ المتقين هم أصحاب الفضائل في الدنيا «فالمتقون فيها هم أصحاب الفضائل» وذلك من خلال ذكره للمتقين مرّتين؛ الأولى بالنص، والأخر لما كرّر الضمير «هم» العائد عليهم. وعلى هذا سار البصري في نصهِ السابع: «فإنّ أهل الفضائل» فهو هنا رغّبَ أيضًا في التأكيد على ما ذكر عن طريق «إنّ». ولكنّ وصفَ الإمام هذا مجمل يحتاج إلى تفصيل(1)، ولا ننسى شرطَ همّام لما أراد وصفًا مفصَّلاً للمؤمنين من أميرهم (صلوات الله عليه)، ولذا بدأ يفصل، والبصريفيما بعد يأخذ ويعظ.

فبدأ عليه السلام باللسان، ولعلَّ السبب في ذلك إن أول ما يدلّ على لبّ الإنسان وجوهرهِ هو منطقه؛ فإذا كان كلام المتكلم صوابًا، فتوسَّمْ يا همّام بصاحبهِ التقوى، واللسان مرتبط بالقلب، فالقلب يفكر ويهيء، واللسان ينطق، فمن صحَّ منطقه، كانت تلك علامة على صحَّة قلبهِ وإيمانه. وبعد اللسان انتقل إلى وصف الهيئة كونها تفصح أيضًا عن مكنون الرجل، ثم غيرهما من الصفات، فقال عليه السلام:

«منطقهم الصَّواب، ... وملبسهم الإقتصاد، ومشيهم التَّواضع غضّوا أبصارهم عمَّا حَرَّم الله عليهم».

ضمّن البصري هذا المقطع مرّتين، مرّةً في نصّهِ السابع حيث قال: «منطقُهم فيها بالصواب، ومشيُهم بالتّواضع، مُغمضي أبصارهم عن المحارم». والأخرى في نصّه الثاني، لما قال: «ملابسهم بالإقتصاد، وممشاهم بالتَّواضع».

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ كلام الإمام عليه السلام:

1- ينظر: البعد الفكري والتربوي في نهج البلاغة 95

«غضوا أبصارهم عمَّا حَرَّم الله عليهم».

أخذه من قوله تعالى:

«قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ»(1).

فالقرآن الكريم دعا المؤمن أن يغضّ «من» بصره، ومن هنا تبعيضّية، أي بعض بصره، وأمير المؤمنين عليه السلام سارَ على هذا، فنهى عن بعض البصر، وشخّصه بالمحرم «عمَّا حرّم الله». بينما البصري آثر أن يقتفي المسلك العلوي باللفظ والمعنى، لمّا قال: «مُغمضي أبصارهم عن المحارم».

ثمّ بعد ذلك انتقل عليه السلام إلى وصف أنفس المتقين، فقال:

نُزِّلت أنفسهم منهم في البلاء كالتي نُزِّلَتْ في الرَّخاء».

بمعنى أنَّ نفوسهم صلبة الإيمان لا تقنط إذا نزل بها البلاء، ولا تبطر إذا حلَّ بها الرخاء، بل شُغْلُها في الحالين الشكر(2).

أخذ البصري هذا بمعناه وكرّره مرّات عدّة في نصوصهِ السابقة، إذ ذكره في نصّهِ السابع لما قال في: «فخوفهم في البرِّ كخوفِهم في البحر، ودعاؤهم في السَّرَّاء كدعائهم في الضّراء».

وفي نصّهِ الثاني، وذلك في قوله: «واستقادتُهم للحقّ فيما أحبّوا وكرهوا».

وكذلك في الثالث، حيث قال: «إنّ المؤمن.. لم يتعاظمْ في نفسه شيءٌ من البلاء إن نزل بِهِ مع احتسابه للأجر عند الله، ولم يحتسب نوال الدنيا حتى مضى راغبًا راهبًا».

1- النور 30

2- ينظر: البعد الفكري والتربوي في نهج البلاغة 96

وكرّره في نصٍّ آخر لم ندرجهُ مع النصوص السابقة منه مواطن الشاهد:

«المؤمن.. حامدٌ على الرَّخاء، صابرٌ على البلاء»(1).

فمقطع الإمام عليه السلام إمامٌ لكلِّ نصوص البصري هذه، فالمعنى واحدٌ بين النصوص تمامًا – فضلاً عن بعض الألفاظ – قائمٌ على المقارنة بين تصرّف المؤمن في حالة الكرب والشدَّة، وتصّرفه في حالة اليسر والفرج، ولذا استعمل عليه السلام من اجل إظهار هذا المعنى بصورة مشوِّقة الطباق، وذلك بين لفظتي «البلاء» و«الرّخاء». والبصري اعتمد هذا تمامًا، فذكره مرّة بلفظه « الرّخاء » «البلاء» وأخرى ذكر «البلاء» ولم يذكر ما يقابله بالنصّ، بل قال: «نوال الدنيا» أي عطاياها، وهذا معناه الرّخاء، والباقي بمعناه وذلك في قوله: «السرّاء» و«الضرّاء» وقوله:

«أحبّوا» و«كرهوا». وكلّ طباقات البصري هذه منبتها طباق الإمام عليه السلام المذكور مثلما اتضح.

والملفت إنَّ الطباق عُدَّ ميزة امتازت بها مفردة البصري، فقد قالت الباحثة سلافة صائب: «ومما امتازت بهِ مفردات الحسن البصري ظاهرة المطابقة بينها، بمعنى أنّه أورد في مواضع كثيرة من نثرهِ ما عرف في البلاغة بعد عصرهِ ب«الطباق»(2). وعللت ذلك قائله: «بأنّه – أي الحسن – كان يضع الخير والشر، والصواب والخطأ، أمام سامعيه، فيخطِّيء هذا ويصوِّب ذلك فهو يعرض أمامهم الخطر ليحذ رهم منه، ويرسم لهم سبيلَ النجاة ليدلَّهم عليه»(3).

1- آداب الحسن البصري 135

2- النثر عند الحسن البصري 91

3- النثر عند الحسن البصري 91

والحقيقة ليست هذه، إذ قبل أن يضع البصري الخير والشرُ أمام سامعيه، وضع كلام أمير المؤمنين عليه السلام أمام ناظرَيه، وأخذ منه فيما أخذ تلك الطباقات.

وتجدر الإشارة هنا أيضًا إنّ الباحثة ضربت أمثلةً على ما قالت، ولكن هذه الأمثلة اغلبها - إنْ لم تكن جميعها - من كلام أمير المؤمنين عليه السلام.

وبعد أن انتهى أمير المؤمنين عليه السلام من وصف أنفس المتقين، انتقل إلى وصف شوقهم للجنّةِ، وخوفهم من النار بقوله:

«وَلَوْ لاَ اَلْأَجَلُ اَلَّذِي كَتَبَ اَللهُ لَهُمْ (عَلَيْهِمْ)، لَمْ تَسْتَقِرَّ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ شَوْقاً إِلَى اَلثَّوَابِ، وَخَوْفاً مِنَ اَلْعِقَابِ».

وكلامه هذا «إشارة إلى غاية نفرتهم من الدنيا، وفرط رغبتهم إلى الآخرة»(1).

فإن كان البصري أخذ مقطع الخطبة السابق بمعناه وبعض ألفاظه، فهو هنا عادَ إلى التضمين المباشر مع التقديم والتأخير لا غير، وذلك لمّا قال في نصه السابع: «لولا الآجالُ التي كُتِبتْ لهم، ما تقاوت أرواحُهم في أجسادهم خوفًا من العقاب، وشوقًا إلى الثّواب».

ثمّ انتقلإل عليه السلام إلى وصف منزلة الباري - جلَّ وعلا - ومنزلة خلقه في نفوس المؤمنين، وذلك لمّا قال:

«عَظُمَ اَلْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ».

فهؤلاء المؤمنون آمنوا بالله حقّ إيمانهِ، ولذا عظم في أنفسهم، وصغر خلقه في أعينهم، وهذه معادلة عكسية، إذ كلّما عظم الباري في نفْس المخلوق، صغر .118 / 1) منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة 12 / 118

ص: 200

1- منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة 12 / 118

في عينه خلق الباري. ومن دقة الوصف هنا عند الإمام استعمال لفظة «أنفسهم» مع الخالق، و»أعينهم» مع المخلوقين الذين كنّى عنهم ب«ما دون ذلك» أي دون الخالق، وكلُّ ما دون الخالق فهو مخلوق، إذ نرى أنّ الإمام عليه السلام - وهو مؤسس علم التوحيد - أراد فيما أراد أنّ المتّقين الحقيقيين هم الذين لم يجسِّموا الإله - مثلما فعلت اليهود والنصارى - بل هو تعالى عظيمٌ في ظنون أفكارهم، بعيدٌ عن نواظر عيونهم، لذا قال إن المتقين عظّموا الله في «أنفسهم». أمّا المخلوقون، فهم مشاهدون، لذا استعمل معهم لفظة «أعين». ويبدو أنّ ابن أبي الحديد لم يتنبه لهذه الدقة في استعمالات الإمام هذه، وذلك لما قال:

«إنّ الخالق عظم في أعينهم..»(1).

ذكر البصري هذا المقطع، وكرّره مرات عدّة، فمرةً بنصه، وذلك قوله في نصه السابع: «عظُم الخالقُ في نفوسِ هم، فصغُر المخلوقون في أعيُنهم».

وأخرى بتحوير طفيف، من نحو ما ورد في نصه الثاني: «واستخفّوا بسخط المخلوقين رضى الخالق».

وثالثة بمعناه، وذلك قوله في نصه الأول: «وكانوا أبصر بقلوبهم لدينهم منكم لدنياكم بأبصاركم».

وما زال عليه السلام يصف درجة يقين المؤمنين المتميّزة، حيث قال:

«فَهُمْ وَالْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا فَهُمْ فِيهَا مُنَعَّمُونَ وَهُمْ وَالنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ».

وهذا "تصوير ليقينهم وإيمانهم بالله، وأنّهم قد بلغوا الذروة منه، عن علم

1- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 10 / 312

وبصيرة لا عن تقليد ومحاكاة»(1). والواو في قوله «والجنة» وكذلك «النار» واو المعية(2) فهو هنا ينقل صورة عن المؤمنين كأنهم في الجنة يتنعمون بنعيمها، وكأنهم فكان هذا ممّا ضمّنه البصري أيضًا، لمّا قال في نصّهِ الثامن: «إن لله – عزَّ وجلَّ – عبادًا كمَنْ رأى أهل الجنّة في الجنّة مخلدين، وكمَنْ رأى أهل النارَ في النّار مخلّدين».

لكن البصري لمّا حذف الحرف «قد» الذي أدخله الإمام عليه السلام على الفعل الماضي مرّتين «قد رأى أهل الجنة» و« قد رأى أهل النار »ضيّع دلالة التحقيق والتأكيد المتأتية من هذا التركيب. أمّا استبداله للفظتي الإمام «منعمون» و«معذبون» بتكرار لفظة «مخلدين»، أذهب الطباق الجميل المتأتي من هاتين اللفظتين، نعم صحيح إنَّ من البشر مَنْ يخلد في الجنة أو النار، لكن في لفظتي النعيم والعذاب الضديتين دافع تحفيز يدفع المتلقي أكثر نحو الجنة، ودافع تنفير ينفّره أكثر عن النار.

وفي نصّه الأول كرّر البصري هذا المقطع، وأعادَ لهُ اللفظتين المذكورتين، فقال: «أيُها الناس إنَّ لله عبادًا كمَنْ رأى أهل الجنّة في الجنّة متنعمين، وأهل النارَ في النّار معذبين».

وبعد ذلك وجدنا الإمام عليه السلام قد قال:

«قُلُوبُهُمْ مَحْزُونَةٌ، وَشُرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ، وَأَجْسَادُهُمْ نَحِيفَةٌ، وَحَاجَاتُهُمْ خَفِيفَةٌ، وَأَنْفُسُهُمْ عَفِيفَةٌ».

ص: 202

1- في ظلال نهج البلاغة 2 / 165

2- ينظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 10 / 313

ضمّن البصري هذا في نصّهِ الثامن: «قلوبهم محزونة، وشرورهم مأمونه، حوائجهم خفيفة، وأنفسهم عفيفة».

وكرّر هذا التضمين في نصّهِ الأول:

«أيُها الناس إنَّ لله عبادًا قُلُوبُهُمْ مَحْزُونَةٌ، وَشُرُورُهُمْ مَأْمونه، حوائجهم خفيفة، وأنفسهم عفيفة».

وكرّر هذا التضمين في نصّهِ الأول:

«أيُها الناسِ إنَّ لله عباداً قُلُوبُهُمْ مَحْزُونَةٌ، وشُرُورُهُم مَأْمُونَةٌ، وَأَنْفُسُهُمْ عَفِيفَةٌ، وَحَاجَاتُهُمْ خَفِيفَةٌ».

ثم قال عليه السلام في وصفهِ للمتقين:

«صَبَرُوا أَيَّاماً قَصِيرَةً، أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً». فكنّى عليه السلام عن الدنيا بالأيام القصيرة، وعن الجنة ونعيمها بالراحة الطويلة.

ولعل قوله هذا من قولهِ تعالى:

«وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا»(1).

لكن البصري اعتمد الوصف العلوي، وكرّره مرّات عدّة من نحو ما ورد في نصّهِ الثامن: «صبروا أيّامًا قصارًا تُعقبُ راحة طويلة».

والملاحظ أنّ الإمام عليه السلام استعمل الفعل الماضي – كونه يحمل دلالة قطعية – مرّتين، لمّا عدّ صبر المؤمنين في الدنيا أعقبهم نعيم الآخرة، إلاّ أن البصري حين أبدل الفعل الثاني «أعقب» عند الإمام عليه السلام وحوّله إلى المضارع «تعقب» أهدرَ تلك الدلالة الحتمية، وصار المعنى إنّ هؤلاء سيُعْقب صبرهم بالراحة، ولعل أمدَ هذا بعيد، وهذه الدرجة من التسويف، عكس درجة اليقين القطعية التي ألفيناها عند أمير البيان عليه السلام. أمّا إبداله «قصيرة»ب «قصارًا» فهو تقصير آخر، كونه بهذا التحوير أضاع الاتفاق المحبب في الوزن والسجع بين اللفظتين العلويّتين

1- الإنسان 12

«قصيرة»و «طويلة».

وثانية كرر البصري هذا المقطع، محوّرًا فيه ما شاء، وذلك في نصّهِ الأول:

«صبروا الأيّام القلائل، لِما رجوا في الدهور الأطاول».

وثالثة رأى من المستحسن أن يزيد أكثر في التحوير، وهذا ما وجدناه في نصّهِ الثالث: «إنّ المؤمنَ عملَ لله تعالى أيّامًا يسيرةً، فوالله ما ندِمَ أن يكونَ أصاب من نعيمها ورخائِها». إذ استبدل «أيّامًا يسيرةً، فوالله ما ندِمَ أن يكونَ أصاب من نعيمها ورخائها». إذ استبدل «أيّامًا قصيرة»ب «أيّامًا يسيرةً»، والباقي عنده توسع على قول الإمام «راحة طويلة».

وغير هذا من تكرارهِ الكثير لهذا المقطع(1).

وبعد ذلك بدأ أمير المؤمنين عليه السلام يفصِّل في صفات المؤمنين أكثر فأكثر، وذلك من خلال ذكر حالهم في الليل، وحالهم في النهار، فقال وهو يصف منهجهم الليلي:

«أَمَّا اَللَّيْلَ فَصَافُّونَ أَقْدَامَهُمْ، تَالِينَ لِأَجْزَاءِ اَلْقُرْآنِ يُرَتِّلُونَهَا تَرْتِيلاً؛ يُحَزِّنُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ، وَيَسْتَثِيرُونَ بِهِ دَوَاءَ دَائِهِمْ؛ فَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمَعاً، وَتَطَلَّعَتْ نُفُوسُهُمْ إِلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ، وَظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ جَهَنَّمَ وَشَهِيقَهَا فِي أُصُولِ آذَانِهِمْ، فَهُمْ حَانُونَ عَلَى أَوْسَاطِهِمْ، مُفْتَرِشُونَ لِجِبَاهِهِمْ وَأَكُفِّهِمْ وَرُكَبِهِمْ، وَأَطْرَافِ أَقْدَامِهِمْ، يَطْلُبُونَ إِلَى اَللَّهِ تَعَالَى فِي فَكَاكِ رِقَابِهِمْ».

ذكر البصري أوّلَ هذا المقطع وآخره في نصّهِ الرابع، وذلك قوله: «أدركت من صدر هذه الأمة قوما كانوا إذا جنهم الليل فقيام على أطرافهم، يفترشون

1- ينظر: جمهرة رسائل العرب 2 / 326، 2 / 329

خدودهم... يناجون مولاهم في فكاك رقابهم».

وممّا يؤاخذ عليه البصري – بنظر الباحث – بعض التغييرات التي أجراها على النص العلوي، ومنها إبداله «فصافون أقدامهم»ب «فقيام على أطرافهم»، فمفردة البصري «أطراف» لم تكن فاعلة كمفردة الإمام عليه السلام «أقدام»، لأنَّ من يريد الوقوف طويلاً بين يدي الله سبحانه وتعالى – وهذا ما جاء من أجله المقطعين المؤثر والمتأثر – لا تعينه أطرافه على ذلك كما تعينه قدماه. نعم الإمام عليه السلام استعمل الأطراف، لكن بعبقريته، ودقة تصويره للمتقين، استعملها عندما وصل بوصفه لهم وهم ساجدين «مفترشون لجباههم وأكفهم وركبهم وأطراف أقدامهم»، فهو هنا ذكر أعضاء السجود السبعة المتمثلة بالجبهة، والكفين، والركبتين، وطرفي القدمين، وبالتالي فإنّ لفظة الأقدام مناسبة للوقوف، ولفظة الأطراف مناسبة للسجود، ولكن البصري حرّف في كلام الإمام عليه السلام، فوقع في التقصير.

ومن تغييراته أيضًا، إبدال قول الإمام: «يفترشون جباههم» والذي هو كناية عن كثرة السجود(1) ب«يفترشون خدودهم»، وهنا سقط البصري أيضًا، كونه جعل هؤلاء الساجدين يتخذون من خدودهم فرشًا يجعلونها مواضع سجودٍ لله – تعالى – ، وهذا غير مقبول لأنّ مواطن السجود سبعة، هي التي عدده الإمام عليه السلام، ولكن لو قال على الأقل: يفترشون وجوههم لقلنا إنه أطلق – على سبيل المجاز – الكل «الوجه»، وأراد الجزء «الجبهة» أي موضع السجود، غير أنّه لم يعمل حتى هذا.

وعلى أيّةِ حال فمن غير المقبول أن يسجد الإنسان بخدّهِ ويترك جبهته، ونحن

1- ينظر: منهاج البراعة 2 / 278

في معنًى يتحدث عن الصلاة.

أمّا قوله: «يناجون مولاهم في فكاك رقابهم» فهو إعادة بتغيير جزئي طفيف لقول الإمام عليه السلام:

«يَطْلُبُونَ إِلَى اَللهِّٰ تَعَالَى فِي فَكَاكِ رِقَابِهِمْ».

أمّا وصفه عليه السلام للمتقين بأنّهم يستثيرون بالقرآن دواء دائهم، والإستثارة بمعنى الهيجان فهم يهيّجون بالقرآن الفكر الذي يمحو الجهل(1)، فقد جعله البصري في حديثه الذي قسم فيه قرّاء القرآن على ثلاثة أقسام، وذلك في نصه السادس إذ قال: «ورجل قرأ القرآن فبدأ بما يعلم من دواء القرآن فوضعه على داء قلبه».

وبعد أن انتهى أمير المؤمنين عليه السلام من وصف حال المؤمنين في الليل، انتقل إلى وصفهم بالنهار، وذلك قوله:

«وَأَمَّا اَلنَّهَارَ فَحُلَمَاءُ عُلَمَاءُ أَبْرَارٌ أَتْقِيَاءُ».

ضمّن البصري هذا بتمامه في نصّه الثامن: «وأمّا النهار فحلماء علماء بررة أتقياء».

ثمَّ بعدَ ذلك وصفهم عليه السلام بأنّهم على خوفٍ دائم، لمّا قال: «قد براهم الخوف برى القداح».

القداح: هو العود إذا بلغ، فشُذِّبت عنه أغصانه، و قُطِعَ على مقدار النبل الذي يُراد من الطول والقصر(2)، وبَرْي العود والسهم نحتُه(3). فهو هنا يشبه

1- ينظر: شرح نهج البلاغة لمحمد عبده 2 / 330

2- ينظر: لسان العرب 2 / 556 مادة (قدح)

3- ينظر: م. ن 2 / 98 مادة (برى)

تأثير الخوف عليهم ببري القداح، ووجه الشبه شدة النحافة(1).

فمرّة أخذ البصري هذا التشبيه بألفاظه، لمّا قال في نصّه الثامن: «كأنهم القداح».

وأخرى بمعناه، لمّا قال في نصّه الخامس: «دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم».

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ أمير المؤمنين عليه السلام وصف المتقين بالليل، بصفاتٍ تختلف عن النهار، فمثلاً اختار الليل للصلاة، لأنّ فضيلتها في جوف الليل تفوق فضيلتها في وضح النهار. أمّا ألفاظ الليل فكانت مخيفة مقلقة من نحو «تخويف، زفير، جهنم، جباه، يحزنون، دواء، داء». وكأنه يصوّر المتقين في ليلهم وهم في ضجّة ودوي، وانقطاع تام لله تعالى.

بينما ألفاظه للمتقين في النهار كانت توحي بالهدوء والسكينة والتواضع، والذبول، من نحو «علماء، أبرار، أتقياء، حلماء، مرضى». وكأنه عليه السلام جعل ليلَ المتقين للمتقين، ينقطعون بهِ إلى ربّهم، وجعل نهارهم للناس، إذ مَنْ كان بهذهِ الصفات من حلم وتواضع وعلم... كان سهلاً ومحبّبًا لدى الناس مخالطته، والإفادة من علمه وخُلُقِه.

وهكذا باقي كلام البصري المذكور سالفًا، فهو إمّا بالنص، أو بالتحوير أو بالمعنى من ذلك الجزء المذكور من الخطبة العلوية.

أمّا جزء الخطبة الثاني، والمتمثل بقوله عليه السلام:

«فَمِنْ عَلاَمَةِ أَحَدِهِمْ أَنَّكَ تَرَى لَهُ قُوَّةً فِي دِينٍ، وَحَزْماً فِي لِينٍ، وَإِيمَاناً فِي

1- ينظر: البعد الفكري والتربوي في نهج البلاغة 99

يَقِينٍ، وَحِرْصاً فِي عِلْمٍ، وَعِلْماً فِي حِلْمٍ، وَقَصْداً فِي غِنىً، وَخُشُوعاً فِي عِبَادَةٍ، وَتَجَمُّلاً فِي فَاقَةٍ، وَصَبْراً فِي شِدَّةٍ، وَطَلَباً فِي حَلاَلٍ، وَنَشَاطاً فِي هُدًى، وَتَحَرُّجاً عَنْ طَمَعٍ، يَعْمَلُ اَلْأَعْمَالَ اَلصَّالِحَةَ وَهُوَ عَلَى وَجَلٍ، يُمْسِي وَهَمُّهُ اَلذِّكْرُ، يَبِيتُ حَذِراً، وَيُصْبِحُ فَرِحاً؛ حَذِراً لَمَّا حُذِّرَ مِنَ اَلْغَفْلَةِ، وَفَرِحاً بِمَا أَصَابَ مِنَ اَلْفَضْلِ وَاَلرَّحْمَةِ. إِنِ اِسْتَصْعَبَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِيمَا تَكْرَهُ لَمْ يُعْطِهَا سُؤْلَهَا فِيمَا تُحِبُّ. قُرَّةُ عَيْنِهِ فِيمَا لاَ يَزُولُ، وَزَهَادَتُهُ فِيمَا لاَ يَبْقَى، يَمْزُجُ اَلْحِلْمَ بِالْعِلْمِ، وَاَلْقَوْلَ بِالْعَمَلِ. تَرَاهُ قَرِيباً أَمَلُهُ، قَلِيلاً زَلَلُهُ، خَاشِعاً قَلْبُهُ، قَانِعَةً نَفْسُهُ، مَنْزُوراً أَكْلُهُ، سَهْلاً أَمْرُهُ، حَرِيزاً دِينُهُ، مَيِّتَةً شَهْوَتُهُ، مَكْظُوماً غَيْظُهُ، اَلْخَيْرُ مِنْهُ مَأْمُولٌ، وَاَلشَّرُّ مِنْهُ مَأْمُونٌ. إِنْ كَانَ فِي اَلْغَافِلِينَ كُتِبَ فِي اَلذَّاكِرِينَ، وَإِنْ كَانَ فِي اَلذَّاكِرِينَ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ اَلْغَافِلِينَ. يَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَهُ، وَيُعْطِي مَنْ حَرَمَهُ، وَيَصِلُ مَنْ قَطَعَهُ، بَعِيداً فُحْشُهُ، لَيِّناً قَوْلُهُ، غَائِباً مُنْكَرُهُ، حَاضِراً مَعْرُوفُهُ، مُقْبِلاً خَيْرُهُ، مُدْبِراً شَرُّهُ، فِي اَلزَّلاَزِلِ وَقُورٌ، وَفِي اَلْمَكَارِهِ صَبُورٌ، وَفِي اَلرَّخَاءِ شَكُورٌ. لاَ يَحِيفُ عَلَى مَن يُبْغِضُ، وَلاَ يَأْثَمُ فِيمَنْ يُحِبُّ. يَعْتَرِفُ بِالْحَقِّ قَبْلَ أَنْ يُشْهَدَ عَلَيْهِ، لاَ يُضِيعُ مَا اُسْتُحْفِظَ، وَلاَ يَنْسَى مَا ذُكِّرَ، وَلاَ يُنَابِزُ بِالْأَلْقَابِ، وَلاَ يُضَارُّ بِالْجَارِ، وَلاَ يَشْمَتُ بِالْمَصَائِبِ، وَلاَ يَدْخُلُ فِي اَلْبَاطِلِ، وَلاَ يَخْرُجُ مِنَ اَلْحَقِّ. إِنْ صَمَتَ لَمْ يَغُمَّهُ صَمْتُهُ، وَإِنْ ضَحِكَ لَمْ يَعْلُ فِي اَلْبَاطِلِ، وَلاَ يَخْرُجُ مِنَ اَلْحَقِّ، إِنْ صَمَتَ لَمْ يَغُمَّهُ صَمْتُهُ، وَإِنْ ضَحِكَ لَمْ يَعْلُ صَوْتُهُ، وَإِنْ بُغِيَ عَلَيْهِ صَبَرَ حَتَّى يَكُونَ اَللهُ هُوَ اَلَّذِي يَنْتَقِمُ لَهُ، نَفْسُهُ مِنْهُ فِي عَنَاءٍ، وَاَلنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ. أَتْعَبَ نَفْسَهُ لِآخِرَتِهِ، وَأَرَاحَ اَلنَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ. بُعْدُهُ عَمَّنْ تَبَاعَدَ عَنْهُ زُهْدٌ وَنَزَاهَةٌ، وَدُنُوُّهُ مِمَّنْ دَنَا مِنْهُ لِينٌ وَرَحْمَةٌ، لَيْسَ تَبَاعُدُهُ بِكِبْرٍ وَعَظَمَةٍ، وَلاَ دُنُوُّهُ بِمَكْرٍ وَخَدِيعَةٍ» (1).

ص: 208

1- نهج البلاغة 352 - 354

فقد أخذه البصري برمته، ووعظ بهِ مجموعة من النّاس بعد فراغهم من أداء صلاة الجمعة، فقال: «إنّ أخلاق المؤمن قوةً في دين، وحزمًا في لين، وإيمانًا في يقين، وعلمًا في حلمٍ، وحلمًا في علم.. وتجمُّلاً في فاقة، وقصدًا في غنى،... وعطاءً للحقوق وإنصافًا في استقامة، لا يحيفُ على مَن يُبغضُ، ولا يأثمُ في مساعدةِ مَن يُحبُّ، ولا يهمزُ، ولا يغمزُ، ولا يلمزُ، ولا يلغو... ولا يجحدُ الحقَّ الذي عليه.. ولا يشمَتُ بالقبيحة إن حلَّت بغيرهِ، ولا يُسرُّ بالمصيبةِ إذا نزلت بسواه... إن أحسن استبشر، وإن أساءَ استغفر،... وإنْ سُفِه عليه حَلم، وإن ظُلِم صبرَ، وإن جِير عليه عدَلَ، لا يتعوّذُ بغير الله، ولا يستعين إلاّ بالله، وقورٌ في الملأ، شكورٌ في الخلاء، قانعٌ بالرِّزقِ، حامدٌ على الرخاء، صابرٌ على البلاء، لا يجمحُ بهِ القنوطُ، ولا يغلبُه الشُّحُّ، إنْ جلسَ مع اللاغطين كُتِبَ من الذاكرين، وإن جلسَ مع الذاكرين، كُتِبَ من المستهترين. المؤمن طلقُ البشرِ... راحمٌ وصولٌ، يُقطعُ فيصِلُ، ويؤذى فيحتملُ، ويهان فيُكرِمُ، صبورٌ على الأذى، محتمِلٌ لأنواعِ البلاءِ... المؤمنُ هيّنٌ ليّنٌ كيّسٌ في دينه، غبيٌّ في دُنياه... وهو في محاسبةِ نفسه في تعب، والنّاسُ منه في راحة.

المؤمنُ... قريبُ الرّضِا، بعيدُ الغضبِ، يعلمُ إذا عُلِّمَ، ويفهَمُ إذا فُهِّمَ، مَن صاحبه سَلِمَ، ومن خالطه غنِمَ، كاملُ العقلِ، كثيرُ العمل، قليلُ الأمل، حسَنُ الخُلُقِ، كتومُ الغيظ»(1).

والبصري كعادتهِ مع كلام أمير المؤمنين عليه السلام إن شاء ضمّنَ حرفيًّا، وإنْ شاءَ حوّرَ قليلاً، وإن شاءَ أخذ بالمعنى، وإنْ شاء قدّم، وإن شاءَ أخّر. فكلُّ هذا طبّقهُ في قولهِ المذكور.

فأوّل كلام الإمام عليه السلام والذي ابتدأه بلفظة» (علامة)، وهي لفظة سيميائيّة

1- آداب الحسن البصري 135 - 136

تعمل بواسطة التشابه الواقعي بين الدال والمدلول على تبني ملاحظة السلوك الدال على صفة المتقين»(1)، والمثل بقولهِ عليه السلام:

«فَمِنْ عَلاَمَةِ أَحَدِهِمْ أَنَّكَ تَرَى لَهُ قُوَّةً فِي دِينٍ، وَحَزْماً فِي لِينٍ، وَإِيمَاناً فِي يَقِينٍ، وَحِرْصاً فِي عِلْمٍ، وَعِلْماً فِي حِلْمٍ، وَقَصْداً فِي غِنًى، وَخُشُوعاً فِي عِبَادَةٍ، وَتَجَمُّلاً فِي فَاقَةٍ».

نجده حرفيًّا في نص البصري، وذلك قوله: «إنّ أخلاق المؤمن قوةً في دين، وحزمًا في لين، وإيمانًا في يقين، وعلمًا في حلمٍ، وحلمًا في علم.. وتجمُّلاً في فاقة، وقصدًا في غنًى».

وبعد ذلك قال أمير المؤمنين عليه السلام واصفًا حالتي الحذر والفرح عند المتقي: «يُمْسِي وَهَمُّهُ اَلشُّكْرُ، وَيُصْبِحُ وَهَمُّهُ اَلذِّكْرُ ولعله هنا لم يقصد تخصيص الحذر بالبيات، والفرح بالصباح، وإنّما المراد انّه يبيت ويصبح جامعًا بين وظيفتي الخوف والرجاء(2).

وهنا انتقل البصري من التضمين الحرفي إلى الأخذ بالمعنى، وذلك قوله بعد كلامه السابق: «المؤمن إن أحسن استبشر، وإن أساءَ استغفر».

وأمّا قوله عليه السلام:

«تَرَاهُ قَرِيباً أَمَلُهُ... مَكْظُوماً غَيْظُهُ... بَعِيداً فُحْشُهُ، لَيِّناً قَوْلُهُ، غَائِباً مُنْكَرُهُ، حَاضِراً مَعْرُوفُهُ مُقْبِلاً خَيْرُهُ مُدْبِراً شَرُّهُ». فد أخّره البصري وختم بِهِ نصّهِ وذلك

1- نهج البلاغة في ضوء علم اللغة الاجتماعي 251 - 252

2- ينظر: منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة 12 / 142

لمّا قال: «المؤمنُ... قريبُ الرّضِا، بعيدُ الغضبِ،... من صاحبه سلم، ومّن خالطه غنِمَ، كاملُ العقلِ، كثيرُ العمل، قليلُ الأمل، حسَنُ الخُلُقِ، كتومُ الغيظ».

فقد أبدل البصري هنا «قريبًا أمله»ب «قليل أمله». وإبداله «قريبًا»ب «قليل» لم يكن موفّقًا بنظر الباحث، لأنّ لفظة قريب بدلالتها المعنوية توائم الأمل بدلالته المعنوية أيضًا أكثر من موائمة قليل بدلالتها المادية له.

وأبدل «مكظومًا غيظه»ب «كتوم الغيظ».

وأبدل «بعيدًا فحشه»ب «بعيد الغضب».

ولا فرق بين لفظتي الفحش والغضب، لأنّ الثانية تسبب الأولى، فالفحش الذي هو القبيح من القول والفعل(1) سببه الغضب.

ومعنى قوله عليه السلام: «بعيدًا فحشه»: «لا يعني به أنّه - أي المؤمن - قد يُفحش تارةً ويترك الفحش تارات بل لا فحش له أصلا، فكنّى عن العدم بالبعد، لأنه قريب منه»(2).

وبالنسبة لآخر كلامه عليه السلام في المقطع المذكور: «بعيدًا فحشه إلى قوله مدبرًا» فإنّ هذهِ صفات نبيلة، مَن يوفّق لمصاحبة حاملها، يكون قد غنم منها، وسلم من خالطه غنم».

وقال أمير المؤمنين عليه السلام واصفًا ذِكر المتقين الدائم لله - سبحانه وتعالى - :

«إِنْ كَانَ فِي اَلْغَافِلِينَ كُتِبَ فِي اَلذَّاكِرِينَ وَ إِنْ كَانَ فِي اَلذَّاكِرِينَ لَمْ يُكْتَبْ

1- ينظر: لسان العرب 6 / 325 مادة (فحش)

2- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 10 / 324

مِنَ اَلْغَافِلِينَ».

ومعناه «أنه لا يزال ذاكرًا الله تعالى، سواء كان جالسًا مع الغافلين أو مع الـذاكرين، أمّا إذا كان مع الغافلين فإنه يـذكر الله بقلبه، وأمّا إذا كان مع الذاكرين فإنه يذكر بقلبه و لسانه»(1).

حوّرَ البصري طفيفًا في هذا لمّا قال: «إنْ جلسَ مع اللاغطين كُتِبَ من الذاكرين، وإن جلسَ مع الذاكرين، كُتِبَ من المستهترين».

وإبدال البصـري «الغافلين»ب «المسـتهترين» لم يكن في محلّه - بنظر الباحث - لأنّ هذهِ اللفظة تعني «كثير الأباطيل»(2). وتعني أيضًا المولع بالذكر والتسبيح(3). وإن يُفهَم من سياق الكلام أن البصـري قصـد المعنى الثـاني، إلاّ أنّه وفي وصفٍ آخر للمؤمن نعته بأنّه غبى، وذلـك لمـّا قال: «المؤمن كيّس في دينه غبيٌّ في دنياه»، وهـذا وصف غير صـحيح، فالمؤمن الحق لم يكن غبيًّا لا في دينه، ولا في دنياه، بل حاذق بهما معًا، لأنّ الدنيا هي مزرعة الآخرة، ولا تصلح هذه المزرعة إذا كان مدبِّر شؤونها غبيًّا، أي غافلاً ولم يفطن(4).

فإن كان البصري أخّر هذه الفقرة والتي قبلها، إلاّ أنّ قول الإمام عليه السلام:

«لا يحيف على مَنْ يُبغض، ولا يأثم فيمن يحب».

قدمه، بعد أن ضمنه بنصّه، وذلك قوله: «لا يحيف على من يبغض، ولا يأثم

1- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 10 / 323 - 324

2- ينظر: لسان العرب 5 / 249 مادة (هتر)

3- ينظر: م. ن 5 / 249 مادة (هتر)

4- ينظر: م. ن 15 / 14 مادة (غبا)

في مساعدة من يحب».

ومن طرقه بالتقديم والتأخير على الكلام العلوي، هي أن يأتي على الجملة الواحدة، فيقدّم ويؤخّر فيها، فمثلاً جملة الإمام عليه السلام: «يصل من قطعه»، قدّم وأخّر البصري فيها لما قال: «يقطع فيصل».

ومن فقرات هذه الخطبة فقرات بسطها البصري، فقول الإمام عليه السلام: «لا يشمت بالمصائب». بسّطه البصري لمّا قال: «ولا يشمت بالقبيحة إن حلّت بغيره ولا يُسرّ بالمصائب إن نزلت بسواه».

وإن فتّشنا عن بسط البصري هذا وجدناه تكرارًا لا طائل منه، فقوله: «إن نزلت بسواه» لا يختلف البتة عن قوله: «القبيحة»، ثم عادَ وذكرها في آخر كلامِ هِ المذكور بنصها «بالمصائب».

فإن كان كرر البصري المقطع السالف مرّتين، إلاّ أنّه لمّا أخذ المقطع العلوي: «وإن بُغي عليه صبر»، كرّره ما يقارب الست مرات:

فقال: «وإن ظُلم صبر». وقال: «وإن جير عليه عدل». : وقال: «صبور على الأذى». وقال: «يؤذى فيحتمل». وقال: «محتمل لأنواع البلاء» وغيرها.

وتنبغي الإشارة هنا إلى أنَّ التكرار ممّا عُرف عن البصري بوضوح، حتى أنّ أغلب دارسيه سجّلوا عليه هذه السمة، فكان يكرر كثيرًا من المعاني الدقيقة والألفاظ والجمل في أكثر من نصٍّ من نصوصه النثرية(1)، ولكنّ الجديد هنا إنّ

1- ينظر: الخطابة العربية في عصرها الذهبي 364، وينظر: الرسائل الفنّية في العصر الإسلامي حتى نهاية العصر الأموي 282، وينظر: النثر عند الحسن البصري 92 - 93

مكرّرات البصري هذه ما هي إلاّ نصوص علوية بامتياز. فكان يقطع العبارة أو المقطع العلوي – المكون لربما من عدّة اسطر – ويكرره فيما شاء من نصوص نثرية، وهذا الأمر بات جليًّا لا غبار عليه.

وبقي لنا أن نشير هنا إلى أنَّ من طِباقات البصري الجميلة(1)، قوله في نصّهِ المذكور:

«وهو في محاسبة نفسه في تعب، والناس منه في راحة».

والحقيقة إنّ البصـري صفر اليدين من هذا الطباق، لأنّه من الخطبة العلوية المذكورة، والمتمثل بقول أمير البيان عليه السلام: «نفسه منه في عناء، والناس منه في راحة». وكلّ ماسُجِلَ للبصري هنا هو إبداله «عناء»ب «تعب»! وهكذا باقي التشابهات بين نص البصري وجزء الخطبة العلوية.

1- ينظر: النثر عند الحسن البصري 91

المبحث الرابع: في مواعظ و

اشارة

وحكم الحسن البصري تُعد الموعظة «نثر فنيّ يُطلق دون تكلّفٍ أو تهيئة، يتألّف من جمل قصار، أو جملةٍ أو جملتين، ويحتوي على حكمة، يلقيه مَن حنّكته التجارب، ومحّصته الممارسات، ودرَّسته الحوادث، فيستفيدُ الآخرون من ثمار تجاربه دونما تكلّف خوض حوادث، وتحمُّل مشاقٍّ، ومواجهة صعوبات، يتوخّى فيه الإيجاز والوضوح والدِّقة في التعبير»(1).

زخرت كتب التراث الإسلامي والأدب العربي بحكم ومواعظ البصري، لما في هذه الحكم من صفات مؤثِّرة، فقد وصفها الشيخ أبو الحسن الندوي بقوله: «ومواعظ الحسن البصري تجمع بين القوّة والسّهولة التي عُرف بها كلام عهد الصحابة وهي تدور غالبًا حولَ قِصَرِ الحياة، وغدر الدنيا، وخلود الآخرة، والحث على الإيمان والعمل الصالح...»(2). وقيل عنه أيضًا:

ص: 215

1- تأريخ الأدب الإسلامي 250

2- حياة الحسن البصري ومسيرته العلمية 127

«ما زال الحسن يعي الحكمة حتى نطق بها»(1).

وما يهمنا هنا إنَّ من أهم الأسباب الكامنة وراء إبداع البصري في حكمهِ هو كلام أمير المؤمنين عليه السلام؛ إذ إنّ من الندرة النادرة تمرُّ حكمة من حكم البصري دون أن تحمل معها أثرًا لكلام أمير المؤمنين عليه السلام. وقد برز هذا الأثر بمظاهرَ عدّة منها:

أوّلاً: التضمين

التضمين في اللغة هو «جعل الشيء في ضمن الشيء مشتملاً عليه»(2).

وفي الاصطلاح هو أن يضِّمن المتكلِّم كلامه كلمةً من بيتٍ، أو من آية،... أو مثلاً سائرًا، أو جملة مفيدة، أو فقرة من حكمة»(3).

والتضمين «فنٌّ: من فنون الإيجاز في البيان»(4)، يلجأ لهُ الأديب من أجل إتمام المعنى، أو زيادة الكلام جمالاً(5)، وهو بهذا يكون قد «شُرِّع... لغرض تعبيري وفائدة معنوية»(6).

وبما أنّ البصري كان رجلاً واعظًا، فقد أدرك إنَّ من أسباب رواج وعظهِ، وتجميله في آذان سامعيه هو الإعتماد على كلام الإمام علي عليه السلام والتضمين منه، إمّا بالنص، وإمّا بتحوير طفيف.

1- م. ن 126
2- التعاريف 181
3- تحرير التحبير 1 / 140
4- البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها 2 / 49
5- ينظر: مصطلحات السرقة الأدبية في التراث النقدي إلى نهاية القرن السابع الهجري 88
6- دراسات في النحو 690

1 – التضمين النَّصي:

بمعنى أن يضمَّن فقرة من الكلام العلوي دونما إبدال كلمة منه. وقد ورد هذا كثيرًا عند البصري، فمن خطبةٍ لأمير المؤمنين عليه السلام منها:

«... وَانْقَلِبُوا بِصَالِحِ مَا بِحَضْرَتِكُمْ مِنَ الزَّادِ»(1).

ضمّن البصري هذا المقطع من الخطبة في آخر موعظته: «تصبّروا وتشدَّدوا فإنّما هي ليالٍ تعدُّ، وإنّما أنتم ربٌ وقوفٌ، يوشكُ أنْ يُدعى أحدكم فيُجيب ولا يلتفت، فانقلبوا بصالح ما بحضرتكم»(2).

وقال الإمام علي عليه السلام في إحدى حكمه:

«خَالِطُوا النَّاسَ مُخَالَطَةً، إِنْ مِتُّمْ مَعَهَا بَكَوْا عَلَيْكُمْ، وَإِنْ عِشْتُمْ حَنُّوا إِلَيْكُمْ»(3).

فهو هنا عليه السلام حثَّ على التعامل بمكارم الأخلاق مع المجتمع، لأنّ الذي يُحنُّ إليه في حياته و يُبكى عليه عند مماته، حصل على ثمرة لم يحصدها إلاّ بعد أن زرع طيبًا في نفوس قومه. ومن أجل التأكيد على هذا المعنى استعمل الإمام عليه السلام الفعل «خالط» مع مصدره «مخالطة».

ضمّن البصري عبارة الإمام الأولى في أوّل موعظته التي قال فيها "خالطو النّاس في الأخلاق الكريمة، وزايلوهُم في الأفعال القبيحة»(4).

1- نهج البلاغة 372
2- حياة الحسن البصري 159
3- نهج البلاغة 552
4- آداب الحسن البصري 46

وفي حكمةٍ أخرى قال الإمام عليه السلام «مَنْ صَارَعَ الحقّ صَرَعَهُ»(1).

استعارَ عليه السلام لفظ المصارعة للمقاومة، فمن صارع الحقّ قاومه الحقُّ وصرعه، لأنّ الله - سبحانه وتعالى - وملائكته، ورسله، والصالحين من عبادهِ أعوان الحق، وهؤلاء لا مقاوم لهم(2).

ضمّن البصري هذه الحكمة في المقطع الثاني من قوله: «منْ لم يجرّب الأمور خُدِع، ومن صارع الحقَّ صُرِع»(3).

إلاّ أنّ البصري هنا أبدل الفعل «صارع» في حكمة الإمام بالفعل نفسه، ولكنّه بناه للمجهول فقال: «صُرِع»، وذلك حتى يوائم فعله الأول «خُدِع».

وبيّن الإمام عليه السلام في إحدى خطبه جانبًا من منزلةِ القرآن السامية قائلاً:

«..ومَا جَالَسَ هَذَا الْقُرْآنَ أَحَدٌ إِلاَّ قَامَ عَنْهُ بِزِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ: زِيَادَةٍ فِي هُدًى، أَوْ نُقْصَانٍ مِنْ عَمًى. وَاعْلَمُوا... أَنَّهُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ، وَقَائِلٌ مُصَدَّقٌ»(4).

فعبارة الإمام عليه السلام «شافع مشفع» نجدها في أول دعاء البصري: «اللهم اجعله لنا شافعًا مُشفَّعًا، ونورًا وشفاءً وهدًى وموعظةً»(5).

2 - التضّمين المحوّر:

وهذا النوع من التضمين كالاقتباس الإشاري الذي يعني عدم التزام الأديب

1- نهج البلاغة 626
2- ينظر: شرح نهج البلاغ لابن ميثم 5 / 498
3- آداب الحسن البصري 57
4- نهج البلاغة 291
5- آداب الحسن البصري 87

بالآية القرآنية وتركيبها، بل هو إشارة إلى ذلك(1).

ويمكن أن نعرف التضمين المحوّر فنقول: هو تضمين بتصرّفٍ لنصٍّ ما، وهذا التصرف قد يكون على اللفظة الواحدة وقد يكون على التركيب.

أورد البصري كثيرًا من كلام أمير المؤمنين عليه السلام بهذهِ الطريقة، فمن حكمةٍ له بيّن فيها إنّ الله تعالى أنعم بنعمٍ شتى على عباده، وأقل درجات شكر هذهِ النعم عدمُ الاستعانة بها على معصية مسديها، فقال عليه السلام:

«أَقَلُّ مَا يَلْزَمُكُمْ للهَّ سُبْحَانَهُ أَلاَّ تَسْتَعِينُوا بِنِعَمِهِ عَلَى مَعَاصِيهِ»(2).

فآخر حكمة الإمام ضمّنه البصري في آخر موعظته التي قال فيها: «أشدُّ النّاس صراخًا يوم القيامة رجلٌ سنَّ ضلالةً فأتبع عليها.. ورجلٌ فارغٌ استعان بنعم الله على معاصيه»(3).

وممّا ورد في وصية أمير المؤمنين لولدهِ الحسن عليه السلام:

«... وَإِيَّاكَ وَالِاتِّكَالَ عَلَى الْمُنَى، فَإِنَّهَا بَضَائِعُ النَّوْكَى»(4).

والنوكى: جمع أنوك وهي كالأحمق(5).

فتحذير أمير المؤمنين لولده الحسن عليهم السلام من الاتكال على المنى ضمّنه البصري مع تحوير طفيف في آخر موعظته التي قال فيها: «القلب الذي يُحبُّ الله يحبُّ

1- ينظر: معجم آيات الاقتباس 19

2- نهج البلاغة 611

3- الفتوحات المكية 4 / 539

4- نهج البلاغة 468

5- ينظر لسان العرب 10 / 501 مادة (نوك)

التعب، ويؤثر النَّصب، هيهات، لا ينالُ الجنّة من يؤثر الرّاحة. من أحبَّ سخا.

ومن أحبَّ سخا بنفسه إنْ صَدَقَ، وترك الأماني؛ فإنّها سلاح النَّوكى»(1).

وممّا جاءَ في إحدى حكمه عليه السلام:

«مَنْ نَظَرَ فِي عَيْبِ نَفْسِهِ اِشْتَغَلَ عَنْ عَيْبِ غَيْرِهِ... وَمَنْ كَثُرَ كَلاَمُهُ كَثُرَ خَطَؤُهُ..»(2).

حوّرَ البصري عبارة الإمام الأخيرة، وذلك في آخر قوله: «من ساء خُلقُه، عذّبَ نفسه، ومن كثر مالُه، كثرت ذنوبُه، ومن كثر كلامُه، كثر سقطُه»(3).

ومن خطبة طويلة لأمير المؤمنين عليه السلام حمد الله فيها، ووعظ بالتقوى، منها قوله:

«فَارْعَوْا عِبَادَ اَللَّهَ مَا بِرِعَايَتِهِ يَفُوزُ فَائِزُكُمْ... فَإِنَّكُمْ مُرْتَهَنُونَ بِمَا أَسْلَفْتُمْ وَمَدِينُونَ بِمَا قَدَّمْتُمْ وَكَأَنْ قَدْ نَزَلَ بِكُمُ اَلْمَخُوفُ فَلاَ رَجْعَةً تَنَالُونَ (تُنَالُونَ) وَلاَ عَثْرَةً تُقَالُونَ»(4).

ضمّن البصري بعضَ هذا المقطع، فقال في إحدى مواعظه: «ابن آدم! إنّكَ مُرتَهنٌ بعملِكَ، واردٌ عليك أجلُكَ»(5).

فكلامه: «إنّك مُرتَهنٌ عليك أجلُكَ»، تضمين محوّر لقول

ص: 220

1- آداب الحسن البصري 33 - 34

2- نهج البلاغة 614

3- آداب الحسن البصري 42

4- نهج البلاغة 327

5- آداب الحسن البصري 32

الإمام عليه السلام:

«فَإِنَّكُمْ مُرْتَهَنُونَ بِمَا أَسْلَفْتُمْ، وَمَدِينُونَ بِمَا قَدَّمْتُمْ».

فحتى وإن غيّر البصري هنا في بعض الألفاظ إلاّ أنّه بقي يدور في ذلك النص العلوي من حيث المعنى الواضح بين النصين، فضلاً عن الصياغة، وذلك لما جعلَ موعظته مكونّة من عبارات قصيرة مسجوعة، وهذا بعينهِ وجدناه في النص العلوي. ومثلما استعمل الإمام عليه السلام التقديم والتأخير هنا ومن نحو قوله: «فلا رجعة تنالون» إذ قدّم «رجعة» على «تنالون» لأهمية الأولى، فهو يريد أن يؤكد أنَّ لا رجعة للحياة بعد الموت، استعمله البصري أيضًا، ففي قوله: «وارد عليك أجلك» قدّم الجار والمجرور «عليك» على «أجلك» في حين أنَّ هذا الأخير يستحق التقديم كونه فاعل لإسم الفاعل «وارد».

وروي أنّ إعرابيًا لقيَ الحسنَ البصري فقال له: «علِّمني دينًا مبسوطًا... فقال الحسن:... إنَّ خيرَ الأمور لأوساطُها»(1).

فحكمة البصري هذه تشبه بشدة فقرة وردت في عهد الإمام علي عليه السلام لمالك الأشتر، جاءَ فيها:

«وَلْيَكُنْ أَحَبَّ الْأُمُورِ إِلَيْكَ أَوْسَطُهَا فِي الْحَقِّ»(2).

ثانيًا: البسط أو الزيادة

البسط في اللغة نقيض القبض(3)، و «وبسط الشيء نشره وتوسّعه»(4).

1- م 0 ن 57

2- نهج البلاغة 502

3- ينظر: لسان العرب 10 / 505 مادة (بسط)

4- المفردات في غريب القرآن 46

أمّا في الإصطلاح فقد عرّفه ابن أبي الأصبع (ت 654 ه) فقال: «أن يأتي المتكلّم إلى المعنى الواحد الذي يمكنه الدلالة عليه باللفظ القليل فيدلُّ عليه باللفظ الكثير ليضمّن اللفظ معاني أُخر يزيدها الكلام حسنًا، لولا بسط ذلك الكلام بكثرة الألفاظ لم تحصل تلك الزِّيادة»(1).

ولا تخرج الزيادة عن هـذا المعنى، فهي تعني زيادة الأديب في معنًى ما، إمّا بشـرحه، أو كشـفه(2)، ويعدُّ الأصمعي (ت 216 ه) أوّل من أشار إلى هذا المظهر النقدي، وضرب مثلاً على ذلك(3).

لا يقلُّ هـذا المظهر أهميـة عن مظاهر التأثير والتأثر الأخرى ولذا ظلَّ ساري المفعول حتى في الأدب الحديث، إذ إنّ الباحث يرى البسـط هو الذي سُمّيَ في الدراسات الأدبية الحديثة ب (التمطيط). وعُدت هذهِ الآلية من أهمِّ آليات التناص، حتى أنَّ بعض الباحثين اقتصر عليها مع آلية الإيجاز(4). وهي - آليـة التمطيط ومثلها مظهر البسط - "في الخطاب النثري أوسع انتشارًا لما لهـذه الآليـة من علاقة مع الصـيغ السردية»(5).

اعتمد البصري هذا المظهر، إذ أورد كثيرًا من النصوص العلوية بهذه الطريقة، فمن حكمة لأمير المؤمنين عليه السلام جاء فيها:

«تَرْكُ اَلذَّنْبِ أَهْوَنُ مِنْ طَلَبِ اَلتَّوْبَةِ»(6).

ص: 222

1- تحرير التحبير 3 / 548

2- بنظر: مصطلحات السرقة الأدبية 109

3- ينظر: فحولة الشعراء 9 - 10

4- ينظر: التناص في شعر أحمد مطر 181

5- التناص في العصر الأموي 14 نقلا عن التناص في الشعر الأندلسي في عهد بني الأحمر 18

6- نهج البلاغة 584

أخذ البصري هذه الحكمة وبسطها، فقال: «ابن آدم تركُ الخطيئةِ أهونُ عليك من طلب التوبة؛ ما يؤمنك أن تكون أصبت كبيرة أغلق دونها باب التوبة، فأنت في غير معمل»(1).

فواضح إنّ البصري لم يكتفِ بإيراد الحكمة، فأول زيادته إنّه قدم على الحكمة العلوية نداء «ابن آدم» وهذهِ افتتاحية محببة عنده يقدِّم بها لكلام أمير المؤمنين عليه السلام، وبعد ذلك لم يكتفِ بإيراد الحكمة كاملةً بل زاد عليها، وذلك لمّا نهى عن مقارفة الكبائر من الذنوب بحجة إنّ من هذهِ الذنوب ما يغلق باب التوبة، وعليه فإن الخيار السليم من هذا التهيّب تركُ الذنب بالأساس حتى لا نرجع إلى خيار طلب التوبة، لأنّ «طلب التوبة من الله يحتاج إلى استعداد شديد يصلح معه العبد لقبولها منه وإفاضة العفو عليه»(2).

وفي الحقيقة هذهِ درجة رفيعة قلَّ من يتمكّنها، أي ترك الذنب أساسًا وعدم اللجوء إلى التوبة.

ولما بلغ أميرُ المؤمنين عليه السلام اتهام بني أميّة له بالمشاركة في دم الخليفة الراشد عثمان بن عفان، سارع عليه السلام إلى نفي هذهِ التهمة عنه مبيِّنًا منزلته السامية، وداعيًا إلى الرجوع إلى القرآن ليكون حَكَمًا فيصلاً، فقال:

«أَنَا حَجِيجُ اَلْمَارِقِينَ، وَخَصِيمُ اَلنَّاكِثِينَ اَلْمُرْتَابِينَ، وَعَلَى كِتَابِ اَللَّهِ تُعْرَضُ اَلْأَمْثَالُ»(3).

فدعوة أمير المؤمنين عليه السلام إلى القرآن، وردت عند البصري بشكل أكثر تفصيلاً وذلك في قوله: «إنَّ المؤمنينَ شهودُ اللهِ في الأرضِ يعرضونَ أعمالَ أبن آدم على

1- حياة الحسن البصري 146

2- شرح نهج البلاغة لابن ميثم 5 / 445

3- نهج البلاغة 104

كتاب اللهِ، فمن وافقَ كتابَ اللهِ حمدَ اللهَ عليه، وما خالفَ كتاب اللهِ عرفوا أنّه مخالف لكتاب الله، وعرفوا بالقرآن ضلالةَ من ضلَّ من الخلقِ»(1).

فقول الإمام عليه السلام:

«وَعَلَى كِتَابِ اَللَّهِ تُعْرَضُ اَلْأَمْثَالُ».

يشبه بشدة قول البصري: «يعرضونَ أعمالَ أبن آدم على كتاب اللهِ». وكلُّ ما قبل كلام البصري هذا وما بعده بسط له.

وفي حكمةٍ له قال الإمام عليه السلام:

«ما مِن يَومٍ إلّ يَتصفّحُ مَلكُ المَوْتِ وجُوَهَ الْخَلائِقِ، فَمَنْ رآه على مَعْصِيَةٍ أو لَهْوٍ، أو رآهُ ضَاحِكًا فَرِحًا، قالَ لَهُ يا مِسْكينُ مَا أَغْفَلكَ عمَّا يُرادُ بك! اعْمَلْ ما شئتَ، فإنَّ لِيَ فيكَ غَمَزَةٍ أقطَعُ بِها وتينك»(2).

ذكر البصري هذه الحكمة، فقال: «ما من يومٍ إلا وملكُ الموت يتصفحُ وجوه الناسِ خمسَ مراتٍ، فمن رآه على لهوٍ ولعب أو معصية أو ضاحكا حرَّك رأسَه وقال له: مسكين هذا العبد غافل عما يراد به ثم يقول له: اعمل ما شئت فإن لي فيك غمزة أقطع بها وتينك»(3).

ففي كلام البصري زيادات على كلام أمير المؤمنين عليه السلام لعلها طريفة من نحو قولهِ عن ملك الموت عزرائيل عليه السلام: «حرَّك رأسه» فمن الإستحالة أن يرى أحد ملك الموت فكيف إذًا نراه يحرِّك رأسه متوعِّدًا أهل اللعب واللهو؟ نعم إلاّ إذا

1- حياة الحسن البصري 157

2- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 20 / 490 - 491

3- المستطرف في كلِّ فنٍّ مستظرف 2 / 501

قصد البصري هذا الأمر على سبيل التصوير.

وفي حكمة لأمير المؤمنين عليه السلام بيَّن من خلالها عمق إيمانه الذي لا يُدانى فقال:

«لوْ كُشِفَ لِيَ الغِطَاءُ لَما ازدَدْتُ يَقِينًا»(1).

قال ابن ميثم: الغطاء ما يُستر بهِ الشيء ويغطى، واليقين مقام في عُرف العلماء أخَصُّ من العلم، فكان أمير المؤمنين عليه السلام متسنِّمًا لذروة ذلك المقام، رائيًا ببصيرته الأسرار الإلهيّة، مطّلعًا بقوَّتِهِ القدسية على الأطوار الورائية(2). ولمّا وصفَ البصري درجةَ إيمانه، أورد هذا المعنى مفصَّلاً فقال: «باليقين طلبتُ الجنّةَ، وباليقين هربت من النّار، وباليقين أدَّيتُ الفرائضَ على أكمل وجهها، وباليقين أصبر على الحق»(3).

وفي إحدى حكمه بيّن الإمام إنّ على الإنسان أن يصبر على المكروه، وعن المحبوب، فمثلما ينبغي الصبر على المصيبة ينبغي أيضًا الصبر عن ارتكاب المحبوب المحذور، فقال:

«اَلصَّبْرُ صَبْرَانِ صَبْرٌ عَلَى مَا تَكْرَهُ، وَصَبْرٌ عَمَّا تُحِبُّ»(4).

أخذ البصري هذه الحكمة بين التنصيص، والتحوير، والزيادة، فقال:

«الصبر صبران: صبرٌ عندَ المصيبةِ، وصبرٌ عن المعصية، فمن قَدَرَ على ذلك فقد نالَ أفضلَ الصبرين»(5).

1- شرح المائة كلمة 52

2- ينظر: م 0 ن 52 - 54

3- حياة الحسن البصري 159

4- نهج البلاغة 561

5- آداب الحسن البصري 39

فأوّل كلام البصري من أول حكمة الإمام عليه السلام، ثم بعد ذلك أبدل قول الإمام عليه السلام:

«صبرٌ على ما تكره»ب «صبرٌ عند المصيبة».

والمعنى واحد تمامًا، كون الصبر على المصيبة هو صبر على مكروه، وأبدل «صبرٌ عمّا تحب»ب «صبر عن المعصية».

وهنا استعمل الإمام عليه السلام مع الصبر على المكروه حرف الجر «على»، لأنّ وقوع المكروه – لا سامح الله – لا يستطيع أحدٌ ردّه، بل خياره الوحيد – كي ينال ثواب هذا الإبتلاء – الصبر عليه، والبصري قال في ذلك «عند»، أي عند نزول المكروه. أمّا الأمر المحبب للنفس، وأن كان محذورًا في الوقت نفسه فبمباشرته وعدمها إراديّتان، ولذلك نهى الإسلام عنه بالحرف «عن»، وهكذا عند البصري.

أمّا الزيادة، فتكمن في آخر كلام البصري لمّا عدَّ من يقدر على الصبر عن المعصية «نال أفضل الصبرين».

وإن كان البصري في حكمته المذكورة بسط الكلام في الصبر الثاني، وعدّه أفضلَ الصبرين؛ فهو في موعظةٍ أخرى توسّع على الصبر الأوّل – أي الصبر على المكروه – وعدَّه فاضلاً أيضًا، فقال: «ما مِن جرعةٍ أحبُّ إلى اللهِ – عزّ وجلّ – من جُرعةِ مُصيبةٍ موجعةٍ يتجرَّعها صاحبها بحُسن عزاءٍ وصبرٍ، أو جرعةِ غيظٍ يحملُها بفضلِ عفوٍ و حلمٍ»(1).

وخلاصة كلامه: إنّ تجرّع المصيبة الموجعة، وتحمل الغيظ «أحبُّ» جرعة

1- آداب الحسن البصري 39

يقـدِّمها العبد قربانًا بين يدي الله تعالى. ولبُّ كلامه هذا أول حكمة الإمام عليه السـلام «صبرٌ على ما تكره». وبشـرح ابن أبي الحديد على هـذا المقطع من الحكمـة: «النوع الأـول أشقُ من النوع الثـاني لأـنّ الأـول صـبرٌ على مضـّرة نازلـة، والثـاني صـبرٌ على محبوب متوقّع لم يحصل»(1). يتبين القرب القريب بين نص الإمام وبسطه من قبل البصري.

وبعد هذا لا ندري أيَّ الصبرين كان هو الأهم عند البصـري، ففي بسـطه لهما نجده قد استعمل افعل التفضيل، فالصبر على المكروه عنده «أحب»، والصبر عن المعصية عنده «أفضل».

وتجدر الإشارة إلى أنّ هذه التقسـيمات العددية التي ألفيناها عند الحسن البصـري عدت من ميزات البصري النثرية(2) وذلك من نحو قوله المـذكور «الصبر صبران» وغيره. ولكن الغريب إنَّ هـذه التقسـيمات عنـدما يجـدها بعض البـاحثين في كلاـم أمير المؤمنين عليه السـلام يعدونها أمرًا مكذوبًا عليه(3)، بحجة إنّ هذه التقسيمات عرفت فيما بعد، أي عندما ترجمت كتب اليونان إلى العربية.

وهنا وقع أصـحاب هـذه النظريـة بتناقض مقيت، لأنّ الكل وبدون أي اسـتثناء مجمعون على أنّ ثقافة أمير المؤمنين والحسن البصـري هي ثقافة عربية إسـلامية محضة، لا تشوبها شائبة أعجمية، وإذا كان الأمر هكذا – وهو كذلك – إذاً لماذا هذه التقسـيمات عند الحسن البصري هي ميزة ممتازة، وعندَ أمير المؤمنين عليه السلام أكذوبة منسوبة!

ص: 227

1- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 18 / 311
2- ينظر: تاريخ الأدب العربي (العصر الإسلامي) 450
3- ينظر المشككون بنهج البلاغة والرد عليهم 110

وفي إحدى حكمه فرّق أمير المؤمنين عليه السلام بين كلام العاقل، وكلام الأحمق بمقارنة فريدة، فقال:

«لِسَانُ اَلْعَاقِلِ وَرَاءَ قَلْبِهِ، وَقَلْبُ اَلْأَحْمَقِ وَرَاءَ لِسَانِهِ»(1).

أخـذ البصـري هـذه الحكمة، وتوسع فيها شـرحًا، فقال: «لسانُ العارفِ من وراءِ قلبه، فإذا أرادَ أن يتكلم تفكّر، فإن كان الكلامُ له، تكلّم به، وإنْ كان عليه، سكت، وقلبُ الجاهل وراءَ لسانهِ، كُلَّما هَمَّ بكلامٍ، تكلَّمَ به»(2).

فواضح إنّ البصـري قسم الحكمة العلوية على قسمين، ثمّ توسَّع على كلِّ منها، وكأنّه شرحٌ لها، فقوله لما وصف لسان «العارف»: «فإذا أرادَ أن يتكلم تفكَّر،فإن كان الكلامُ له، تكلّم به، وإنْ كان عليه سكت، وقلبُ الجاهل وراءَ لسانهِ، كُلَّما هَمَّ بكلامٍ، تكلَّمَ به» تمامًا كشرح الرضي على كلام الإمام «لسان العاقل» وذلك لما قال: «العاقل لا يطلق لسانه، إلاّ بعدَ مشاورة الرّويّة ومؤامرة الفكرة»(3). أما قوله في وصف قلب الجاهل: «كُلَّما هَمَّ بكلامٍ، تكلَّمَ به»، فهو ايضا كشـرح الرضـي على لسان الأحمق، حيث قال: «و الأحمق تسبق حـذقات لسانه و فلتات كلامه مراجعة فكره»(4).

ومثلما هو معروف لـدى الجميع من أنَّ أمير المؤمنين عليه السـلام هو من سـادات العبّاد على مـدى الـدهر، إذ كـان عليه السـلام خبيرًا بالعبادة، وأوقاتها، وطرقها، ومركز ثقلها وإنطلاقها وهو القلب، ولذا أعطانا منهاجًا متميِّزًا في هذا المجال، فقال:

1- نهج البلاغة 559
2- آداب الحسن البصري 43
3- نهج البلاغة 559
4- م. ن 559

«إِنَّ لِلْقُلُوبِ شَهْوَةً وَإِقْبَالاً وَإِدْبَاراً فَأْتُوهَا مِنْ قِبَلِ شَهْوَتِهَا وَإِقْبَالِهَا فَإِنَّ اَلْقَلْبَ إِذَا أُكْرِهَ عَمِيَ»(1).

قصد عليه السلام بإقبال القلب ميله، وبإدباره نفوره(2).

وردَ هذا المعنى في موعظةٍ للبصري قال فيها: «إنَّ الدِّينَ قويٌ، وإنَّ الحقَّ ثقيلٌ، وإنّ الإنسانَ ضعيفٌ، فليأخذْ أحدُكم ما يُطيق؛ فإنَّ العبدَ إذا كلَّفَ نفسَه من العمل فوق طاقتِها، خافَ عليها السّآمةَ والتَّرك»(3).

فقول الإمام عليه السلام لما أمر بممارسة الفعل بشهوة وإقبال من القلب: «فَأْتُوهَا مِنْ قِبَلِ شَهْوَتِهَا وَإِقْبَالِهَا».

نجد معناه في قول البصري «فليأخذْ أحدُكم ما يُطيق» بمعنى لا يجبر نفسه ولا يكرهها، لأنّ هذا الإكراه، ومثلما قال البصري أيضًا:

«فإنَّ العبدَ إذا كلَّفَ نفسَه من العمل فوق طاقتِها، خافَ عليها السّامةَ والتَّرك» وهذا بسط لكلام الإمام عليه السلام.

«فَإِنَّ اَلْقَلْبَ إِذَا أُكْرِهَ عَمِيَ».

وتجدر الإشارة إلى أنّ الإمام عليه السلام أفتتح حكمته ب «إنّ» التوكيدية محذرا من أنّ إكراه القلب في حالة إدباره يولد العمى للقلب. والبصري أيضًا رغب في توكيد هذا المعنى، ولكنه اعتمد كثيرًا على التوكيد ب «إنّ» وذلك لما جعل موعظته مقسمة على خمسة فقرات، أربعة منها وكّدها ب «إن»، وواحدة ب «لام الأمر».

1- م. ن 586
2- ينظر: شرح نهج البلاغة لابن ميثم 5 / 449
3- آداب الحسن البصري 53

وفي الحالتين – إقبال القلب وإدباره – نجد أمير المؤمنين عليه السلام قد قدّم القلب على الرغم من إنّه في الموضع الأول يستحقُّ التأخير، وذلك لأنّ القلب هو مركز الثقل، وهو محرّك الجوارح، فإذا اشتهى القلب وأقبل، أقبل وهو يقود الجوارح، وبإدبارهِ تدبر الجوارح.

وقال الإمام عليه السلام:

«أَيُّهَا اَلنَّاسُ... إِنَّهُ مَنْ وُسِّعَ عَلَيْهِ فِي ذَاتِ يَدِهِ فَلَمْ يَرَ ذَلِكَ اِسْتِدْرَاجاً فَقَدْ أَمِنَ مَخُوفاً وَمَنْ ضُيِّقَ عَلَيْهِ فِي ذَاتِ يَدِهِ فَلَمْ يَرَ ذَلِكَ اِخْتِبَاراً فَقَدْ ضَيَّعَ مَأْمُولاً»(1).

الإستدراج هو الأخذ على فُجأة(2). وفي الحكمة بيّن عليه السلام إنّ مَنْ أنعم الله عليه ولم يكن من ذلك على وجل فقد «أمن مخوفًا»، لأنّ هذهِ النعم قد تكون من باب الإبتلاء الذي يجرّ يفشل فيه إلى البلاء. وإنْ مَنْ ضيّق عليه الله – سبحانه – في «ذات يده» أي أصبح فقيرًا، ولم يواجه هذا الأمر بالصبر والشكر فقد ضيّع «اختبارًا» كان «مأمولاً» لفتح أبواب النعم. وهدف الإمام (صلوات الله عليه) من هذا هو جعل العبد في حالة شكر دائم لربِّ العزّة، سواء في أيّام الرخاء، أو الأيّام التي تكون فيها حَلَقُ البلاء دائرة؛ فإذا كان المرء هكذا أَمِنَ سَلْبَ النعم «الاستدراج»، وضمن الزيادة، لأنّ لكل شيءٍ في الحياة قانون، وقانون الزيادة الشكر.

أخذ البصري هذه الحكمة بشقيّها، فقال: «والله ما أحدٌ من النّاس بُسِط له في أمرٍ من أمور دنياه، فلم يخَفْ أن يكونَ ذلك مكرًا به، واستدراجًا له، إلاّ نقص ذلك من عملهِ، ودينه، وعقله، ولا أحدُ أمسك الله الدنيا عنه، ولم يرَ أنّ ذك خيرٌ

ص: 230

1- نهج البلاغة 615 – 616

2- شرح نهج البلاغة لابن ميثم 5 / 458

له، إلاّ نقصَ ذلك من عمله، وبان العجزُ في رأيه»(1).

فواضح إنّ البصري حوّر شكليًّا في كلام أمير المؤمنين عليه السلام عن الإستدراج، فمثلاً أبدل قول الإمام عليه السلام:

«إنّه من وُسِّع عليه في ذات يدهِ»ب «بسط له في أمر من أمور دنياه».

وكذلك قوله: «فلم يَخفْ أن يكونَ ذلك مكرًا به، واستدراجًا له» فهو كقول الإمام عليه السلام:

«فَلَمْ يَرَ ذَلِكَ اِسْتِدْرَاجًا فَقَدْ أَمِنَ مَخُوفًا».

أمّا موطن التوسّع فيكمن فيما عـدد البصـري من نقصٍ حاصل نتيجـة عـدم الوجل من النعم إذا تتابعت، وذلك لما قال: «إلاّ نقص ذلك من عملهِ، ودينه، وعقلهِ». والشقّ الثاني في موعظة البصري هو كالأول بالنسبة للحكمة العلوية، فقد أخذ باقيها بمعناه وزاد عليها بسطًا في القول أيضًا.

وكتب الإمام علي عليه السلام رسالةٍ إلى محمد بن أبي بكر، منها:

«... فإنّهُ لا ُبدَّ لكَ مِن نصيبِكَ مِن الدُّنيا، وأنْتَ إلى نصيبِكَ من الآخرة أحوج..»(2).

ضمن البصـري هذا المقطع من الرّسالة، وزادَ عليه، فقال: «ابنَ آدمَ! لاغناءَ عن نصيبك من الدّنيا، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أفقر، فعليك بهِ، فإنّه سيأتي بك إلى نصيبك من الدُّنيا، فينظمه لك نظَّما يزولُ معكَ حيثُ تزولُ»(3).

ص: 231

1- آداب الحسن البصري 65

2- الغارات 229، وينظر: المصنّف 8 / 185

3- آداب الحسن البصري 72

وفي حكمةٍ لهُ عليه السلام أعطى من خلالها منهاجًا مستقيمًا لكلّ قائدٍ ينشد القيادة الصحيحة والمؤثرة، فقال:

«مَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلنَّاسِ إِمَاماً، فَعَلَيْهِ أَنْ يَبْدَأَ فَلْيَبْدَأْ بِتَعْلِيمِ نَفْسِهِ قَبْلَ تَعْلِمِ غَيْرِهِ، وَلْيَكُنْ تَأْدِيبُهُ بِسِيرَتِهِ قَبْلَ تَأْدِيبِهِ بِلِسَانِهِ»(1).

أخذ البصري هذه الحكمة، فقدّم وأخر بين فقراتها، وبسط القول على بعضها، فقال: «الواعظُ مَنْ وعظ الناسَ بعمله، لا بقوله. وكان ذلك شأنَه إذا أراد أن يأمر بشيءٍ، بدأ بنفسِه ففعله، وإذا أراد ينهى عن شيءٍ، انتهى عنه»(2).

فآخر حكمة الإمام عليه السلام:

«وَلْيَكُنْ تَأْدِيبُهُ بِسِيرَتِهِ قَبْلَ تَأْدِيبِهِ بِلِسَانِهِ».

جعله البصري أولاً لما قال: «الواعظُ مَنْ وعظ الناسَ بعمله، لا بقوله».

وأوّل حكمة الإمام لما أمر مَنْ سماه بالإمام:

«بِتَعْلِيمِ نَفْسِهِ قَبْلَ تَعْلِيمِ غَيْرِهِ».

جعله البصري ثانيًا - وفيه تكمن الزيادة - لما قال: «وكان ذلك إلى آخر قوله».

وقد بين الإمام علي عليه السلام في إحدى حكمه إنّ الإنسان مخلوق ضعيف، يتهاوى أمام أضعف المخلوقات الأُخر، ويموت بأبسط العوارض والأحداث، وهو في هذا لا يدري من أين تأتيه العلل والأمراض، ومتى يأتيه أجله، فقال:

«مِسْكِينٌ اِبْنُ آدَمَ مَكْتُومُ اَلْأَجَلِ مَكْنُونُ اَلْعِلَلِ مَحْفُوظُ اَلْعَمَلِ تُؤْلِمُهُ اَلْبَقَّةُ وَ تَقْتُلُهُ

1- نهج البلاغة 562

2- آداب الحسن البصري 119

اَلشَّرْقَةَ وَ تُنْتِنُهُ اَلْعَرْقَةُ»(1).

ضمن البصريّ هـذه الحكمة مع زيادة عليها، فقال: «مسكينٌ ابنُ آدم! ما أضـعفهُ! مكتومُ العِللِ، مكتومُ الأجلِ، تُؤذيه البَقّةُ، وتقتلُه الشَّرقَةُ، يرحلُ كلَّ يومٍ إلى الآخرةِ مرحلةً، ويقطعُ من الدنيا منزلةً، وربمّا طغى وتكبّر، وظَلَم وتجبّر»(2).

وحثَّ أمير المؤمنين عليه السلام على العمل الصالح في إحدى خطبه، فقال:

«رَحِمَ اَللهُ عَبْداً... اِغْتَنَمَ اَلْمَهَلَ وَبَادَرَ اَلْأَجَلَ...»(3).

وردت موعظـة للبصـري قوامهـا كلاـم الإمـام عليه السـلام، جـاء فيهـا: «أيُّها النّاسُ! اغتنموا الصِّحَّةَ والفراغ، وبادروا بالأعمالِ من قبلِ يومٍ تشخصُ فيه القلوبُ والأبصارُ»(4).

فقوله: «اغتنموا الصِّحَّةَ والفراغ» يمكن أن يكون بسـطًا لجملـة الإمـام عليه السـلام «اِغْتَنَمَ اَلْمَهَلَ» ولكن مع زيادة البصـري هـذه فإنَّ دلالة «المهل» تبقى أوسع مما عدّد البصري. أمّا باقي قوله فبسط لجملة الإمام «بادرَ الأجل».

وقال عليه السلام:

«مَا عَالَ مَنِ اقْتَصَدَ»(5)، أي ما أفتقر من لزم الاقتصاد.

ص: 233

1- نهج البلاغة 628
2- آداب الحسن البصري 127
3- نهج البلاغة 105
4- آداب الحسن البصري 127
5- نهج البلاغة 577

توسع البصري على هذه الحكمة قليلاً بقولِهِ: «ما عالَ أحدٌ قط عن قصدهِ»(1).

ثالثاً: الإيجاز

الإيجاز لغةً من أوجز الشيء إذا اختصرهُ وقللهُ(2).

والإيجاز في الإصطلاح: هو وضع المعاني المقصودة الكثيرة بأقلّ عبارة(3).

استعمل البصري هذا المظهر مع كلام الإمام علي عليه السلام، حيث أورد عددًا واسعًا من حكم الإمام، وبعض فقرات من خطبه ورسائله بشكل موجز، ففي خطبة أمير المؤمنين عليه السلام المسماة بالغراء، وبعد أن ضرب الأمثال، وأوصى بالتقوى، ونفّر من الدنيا، وأكّد على حتمية الموت، فقال:

«... فَيَالَها أَمْثَالاً صَائِبَةً، وَمَوَاعِظَ شَافِيَةً، لَوْ صَادَفَتْ قُلُوباً زَاكِيَةً، وَأَسْمَاعاً وَاعِيَةً، وَآرَاءً عَازِمَةً، وَأَلْبَاباً حَازِمَةً، فَاتَّقُوا اَللهَ تَقِيَّةَ مَنْ سَمِعَ فَخَشَعَ، وَاقْتَرَفَ فَاعْتَرَفَ»(4).

فأمير البيان عليه السلام يشيد بأمثاله التي يضربها، ومواعظهِ التي يسوقها للناس، لكنّه يتأوّه ويتحسَّر لقلّة مَنْ يتقبلها ويتخذها صراطًا يسير عليه. وقد وردَ مثل هذا - ولكن بشكل موجز - في موعظة للبصري، قال فيها: «لو أنّ بالقلوب حياةً، ولو أنَّ بها صلاحًا، لبكت من ليلةٍ صبيحتُها القيامةُ»(5).

ص: 234

1- البخلاء 192

2- ينظر: لسان العرب 5 / 427 مادة (وجز)

3- ينظر: التعريفات 74

4- نهج البلاغة 115

5- آداب الحسن البصري 127

ومن كتاب بعثه أمير المؤمنين عليه السلام إلى عبد الله بن عبّاس، جاء فيه: «أَمّا بَعْدُ فَإِنَّك لَسْت بِسَابِقٍ أَجَلَكَ، وَلاَ مَرْزُوقٍ مَا لَيْسَ لَكَ، وَاِعْلَمْ بِأَنَّ اَلدَّهْرَ يَوْمَانِ، يَوْمٌ لَكَ وَيَوْمٌ عَلَيْكَ، وَأَنَّ اَلدُّنْيَا دَارُ دُوَلٍ، فَمَا كَانَ مِنْهَا لَكَ أَتَاكَ عَلَى ضَعْفِكَ، وَمَا كَانَ مِنْهَا عَلَيْكَ لَمْ تَدْفَعْهُ بِقُوَّتِكَ»(1).

اعتمد البصري هذا الكتاب بشكل مباشر، ووعظ بهِ قائلاً: «ابنَ آدمَ! إنّكَ لست بسابقٍ أجلُك، ولا بمغلوبٍ على رزقِك، ولا بمرزوقٍ ما ليس لك، فلِمَ تكدح؟ وعلامَ تقتلُ نفسَك؟»(2).

فواضح إنّ البصري قسم كتاب الإمام عليه السلام على ثلاثة أقسام:

الأول ضمّنه بنصهِ، وذلك لما قال :«لست بسابقٍ أجلُك... ولا بمرزوقٍ ما ليس لك».

والثاني والذي قال فيه الإمام عليه السلام:

«وَاِعْلَمْ بِأَنَّ اَلدَّهْرَ يَوْمَانِ، يَوْمٌ لَكَ وَيَوْمٌ عَلَيْكَ».

فقد حذفه البصري بتمامه.

أمّا الثالث والمتمثل بقول الإمام عليه السلام:

«وَأَنَّ اَلدُّنْيَا دَارُ دُوَلٍ، فَمَا كَانَ مِنْهَا لَكَ أَتَاكَ عَلَى ضَعْفِكَ، وَمَا كَانَ مِنْهَا عَلَيْكَ لَمْ تَدْفَعْهُ بِقُوَّتِكَ».

فقد أوجزه البصري بقوله: «فلِمَ تكدح؟ وعلامَ تقتلُ نفسَك».

1- نهج البلاغة 542

2- آداب الحسن البصري 57

وفي خطبةٍ له عليه السلام وصف فيها الملاحم، وذمَّ فيها أقوامًا، منها قوله:

«وَكَانَ أَهْلُ ذٰلِكَ اَلزَّمَانِ ذِئَاباً، وَسَلاَطِينُهُ سِبَاعاً، وَأَوْسَاطُهُ أُكَّالاً، وَفُقَرَاؤُهُ أَمْوَاتاً، وغارَ اَلصِّدْقُ، وَفَاضَ اَلْكَذِبُ، وَاُسْتُعْمِلَتِ اَلْمَوَدَّةُ بِاللِّسَانِ، وَتَشَاجَرَ اَلنَّاسُ بِالْقُلُوبِ، وَصَارَ اَلْفُسُوقُ نَسَباً، وَاَلْعَفَافُ عَجَباً، وَلُبِسَ اَلْإِسْلاَمُ لُبْسَ اَلْفَرْوِ مَقْلُوباً»(1).

فكأنّ البصري وظّفَ بعض فقرات المقطع العلوي المذكور لمَّا ذمَّ بعضَ الفئات من الناس، وذلك في قوله: «إذا أظهرَ الناسُ العلمَ، وضيّعوا العملَ، وتحابُّوا بالألسنِ، وتباغضوا بالقلوب، وتقاطعوا في الأرحام، لعنهُم الله – جلَّ ثناؤه –، فأصمَّهم وأعمى أبصارهم»(2).

فعبارة البصري: «وتحابُّوا بالألسن» إيجاز بعض الشيء لعبارة الإمام عليه السلام:

«وَاُسْتُعْمِلَتِ اَلْمَوَدَّةُ بِاللِّسَانِ».

وعبارته: «وتباغضوا بالقلوب» إيجاز لعبارة الإمام عليه السلام:

«وَتَشَاجَرَ اَلنَّاسُ بِالْقُلُوبِ».

وكتب الإمام علي عليه السلام كتابًا إلى عاملٍ له بعثه على الصدقة، جاء في بعضهِ:

«أَمَرَهُ بِتَقْوَى اَللَّهِ.... أَمَرَهُ أَلاَّ يَعْمَلَ بِشَيْءٍ مِنْ طَاعَةِ اَللَّهِ فِيمَا ظَهَرَ فَيُخَالِفَ إِلَى غَيْرِهِ فِيمَا أَسَرَّ، وَمَنْ لَمْ يَخْتَلِفْ سِرُّهُ، وَعَلاَنِيَتُهُ، وَفِعْلُهُ، وَمَقَالَتُهُ فَقَدْ أَدَّى اَلْأَمَانَةَ، وَأَخْلَصَ اَلْعِبَادَةَ»(3).

1- نهج البلاغة 181
2- آداب الحسن البصري 59
3- نهج البلاغة 446

فهو يأمر عامله بإصلاح قوله وفعله، وظاهره وباطنه معًا، ففي ذلك خالص العبادة، وصون الأمانة.

ورد هذا المعنى، وبعض ألفاظهِ بشكلٍ موجز في حكمةٍ للحسن البصري، قال فيها: «المؤمنُ صدَّقَ قولَه فعلُه، وسرَّه علانيتُه»(1).

ومثلما هو واضح فقد قدّم وأخّر البصري في طباقات الإمام «سره – علانيته»، «فعله – مقالته»، وأوردها بتمامها وقد رُوي لمّا صدر أمر نفي الصحابي أبي ذر الغفاري إلى قرية الربذة، شيَّعه أمير المؤمنين وولداه الحسنان عليهم السلام، وعقيل، وعمّارُ بن ياسر، وعندها تكلّمَ كُلٌّ منهما بكلام(2) غايته التهوين على أبي ذر من ظلامة النفي، وحمله على التصبر، فكان أوّلهم خطابًا أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال كلامًا من أروع كلامه منه:

«يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّكَ غَضِبْتَ للهِ فَارْجُ مَنْ غَضِبْتَ لَهُ إِنَّ اَلْقَوْمَ خَافُوكَ عَلَى دُنْيَاهُمْ، وَخِفْتَهُمْ عَلَى دِينِكَ فَاتْرُكْ فِي أَيْدِيهِمْ مَا خَافُوكَ عَلَيْهِ، وَاُهْرُبْ مِنْهُمْ بِمَا خِفْتَهُمْ عَلَيْهِ، فَمَا أَحْوَجَهُمْ إِلَى مَا مَنَعْتَهُمْ، وَمَا أَغْنَاكَ عَمَّا مَنَعُوكَ»(3).

قال البصري موعظة موجزة لبُّها بعضُ كلام لإمام عليه السلام، جاء فيها: «مَنْ نافسكَ في دينك فنافسه، ومن نافسك في دُنياك، فألقها في نحرِهِ»(4).

فقول أمير المؤمنين عليه السلام:

1- آداب الحسن البصري 61

2- ينظر عمّا قالوه: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 8 / 373

3- نهج البلاغة 216

4- آداب الحسن البصري 68

«إِنَّ اَلْقَوْمَ خَافُوكَ عَلَى دُنْيَاهُمْ، فَاتْرُكْ فِي أَيْدِيهِمْ مَا خَافُوكَ عَلَيْهِ».

نرى البصري أوجزه بقوله: «ومن نافسك في دُنياك، فألقها في نحرهِ».

أمّا الجناس الناقص في خطبة الإمام عليه السلام التمثل بين لفظتي «دنياهم» و «دينك»، أبقاه البصري على حالهِ لما قال: «دينك» و «دنياك».

وبالنسبة لورود التكرار الواضح في النص العلوي من نحو تكرار لفظ الخوف ومشتقاتهِ أربع مرات، اعتمده البصري أيضًا، فقد كرر لفظ المنافسة ومشتقاتهِ ثلاث مرات، فضلاً عن تكرارات أخرى بين النصين.

وكثيرًا ما كان أمير المؤمنين عليه السلام يصف نفسهِ، وزهده في الدنيا، فقال في إحدى خطبهِ:

«وَاَللَّهِ لَقَدْ رَقَّعْتُ مِدْرَعَتِي هَذِهِ حَتَّى اِسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَاقِعِهَا، وَلَقَدْ قَالَ لِي قَائِلٌ أَلاَ تَنْبِذُهَا عَنْكَ، فَقُلْتُ: أُعْزُبْ (أُغْرُبْ) عَنِّي فَعِنْدَ اَلصَّبَاحِ يَحْمَدُ اَلْقَوْمُ اَلسُّرَى»(1).

فوصف الإمام عليه السلام لحالهِ من الزهد نتلمّس بعضه في حكمةٍ للبصري وصف فيها أشخاصا لم يسمّهم، منها قوله: « أدركتُ أقوامًا... كان أحدهم يعيشُ دهرهِ » لم يجدَّدْ له ثوبٌ... ولا يُجعلُ بينه وبين الأرض سترٌ»(2).

فنرى أنّ وصف البصري هذا ينطبق فيما ينطبق على أمير المؤمنين عليه السلام فقوله: «يعيش دهره لم يجدد له ثوب» كأنه إيجاز لكلام الإمام لمّا قال إنّه لم يبدل ثوبه، بل كان يرقعه كثيرًا، ومن كثر ترقيعه بدأ يستحي من راقعه.

1- نهج البلاغة 263

2- آداب الحسن البصري 68

وليس هـذا فقط، بل إنّ أمير المؤمنين عليه السلام يعد مصداقًا بيّنًا من مصاديق قول البصري: «لا يُجعل بينه وبين الأرض ستر»، إذ كان الأول يُحبَّ مباشرة التراب، حتى سُميَّ بأبي تراب.

وممّا وردَ في عهد الإمام علي عليه السلام لمالك الأشتر قوله:

«فَإِنَّ صَبْرَكَ عَلَى ضِيقِ أَمْرٍ تَرْجُو اِنْفِرَاجَهُ، وَفَضْلَ عَاقِبَتِهِ خَيْرٌ مِنْ غَدْرٍ تَخَافُ تَبِعَتَهُ، وَأَنْ تُحِيطَ بِكَ مِنَ اَللهِ طِلْبَةٌ لاَ تَسْتَقِيلُ (تَسْتَقْبِلُ) فِيهَا دُنْيَاكَ وَلاَ آخِرَتَكَ»(1).

فتفضيل أمير المؤمنين عليه السلام ضيق أمرٍ مع رجاء انفراجه، على آخر مجهولة تبعته، وربما قد تكون مخيفة، تخسر الدنيا والآخرة، فضلاً عن تركيب النص المتكوّن من مقطعين، يفصل بينهما فعل التفضيل «خير»، نجده في موعظةٍ موجزة للبصري، قال فيها: «إنَّ خوفَك حتى تلقى الأمنَ؛ خيرٌ من أمنِك حتى تلقى الخوفَ»(2). وفي إحدى حكمه قال الإمام عليه السلام:

«إِنَّ هَذِهِ اَلْقُلُوبَ تَمَلُّ كَمَا تَمَلُّ اَلْأَبْدَانُ، فَابْتَغُوا لَهَا طَرَائِفَ اَلْحِكْمَةِ (اَلْحِكَمِ)»(3). ولمّا كان انصراف القلب عن العلم وملاله منه فعلاً غير محمود أمر (صلوات الله عليه) بطلب طرائف الحكم المعجبة للنفس، اللذيذة لها، لتكون هذهِ النفوس أبدًا في اكتساب العلم والحكمة(4).

ص: 239

1- نهج البلاغة 519

2- آداب الحسن البصري 35

3- نهج البلاغة 566

4- ينظر: شرح نهج البلاغة لابن ميثم 5 / 418

أخذ البصري معنى الحكمة وأوجزه، فقال: «حادثوا هذهِ القلوبَ؛ فإنَّها سريعةُ الدثورِ»(1).

وفي حكمة أخرى قال عليه السلام:

«أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْناً مَا، عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْماً مَا، وَأَبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْناً مَا، عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْماً مَا»(2).

وخلاصة معنى الحكمة: «كلُّ حبيب جازَ أن يكون عدوًّا في وقت ما فينبغي أن لا يفرط في محبّته. وكلُّ عدوٍّ جاز أن يكون صديقً يومًا ما فينبغي أن لا يفرط في بغضه»(3).

أخذ البصري هذِه وأوجزَ بعضها، فقال: « أحبوا هونًا، وأبغضوا هونا، فقد أفرط أقوامٌ في حبِّ أقوام فهلكوا، وأفرط أقوام في بغض أقوام فهلكوا، لا تفرط في حبّك، ولا تفرط في بغضك»(4).

فقوله: «أحبوا هونا» إيجاز لقول الإمام:

«أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْناً مَا».

وقوله: «وأبغضوا هونا» إيجاز لقول الإمام:

«وَأَبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْناً مَا».

وهنا أيضًا جنح البصري إلى التكرار الذي لا طائل منه، فقد كرر قوله:

1- آداب الحسن البصري 130
2- نهج البلاغة 602
3- شرح نهج البلاغة لابن ميثم 5 / 465
4- المصنف 11 / 181

«أحبوا هونا» لم قال: «لا تفرط في حبِّك». وكذلك كرّر قوله: «وأبغضوا هونا» لما قال: «لا تفرط في بغضك».

رابعًا: العكس

العكس لغةً: من «عكس الشيء يعكسهُ عكسًا، فانعكسَ ردَّ آخره على أوّله»(1).

وفي الاصطلاح: أن يجعل الأديب مكانَ اللفظة لفظةً ضدَّها(2). وهذا يعني إنَّ العكس لا ـ يقتصر على المعنى فحسب، بل يشمل اللفظة(3). وسواءً عكس اللفظ، أم المعنى لم يرد عند البصري إلا ضئيلاً، ولعل السبب في ذلك عائد إلى أنَّ هذا المظهر يتطلب من الأديب المتأثر أن يكدَّ ذهنه، ويجيل نظره، حتى يغيِّر جذريًا في المعنى المأخوذ من خلال عكسه، بينما البصري – ومثلما بان سلفًا – لم يتبع هذا الإسلوب، أسلوب التغيير العميق مع كلام الإمام عليه السلام، بل ما أجراه تغيرات في غالبيتها شكليّة.

وعلى أيّةِ حال فإنَّ من حكم الإمام عليه السلام التي تعامل معها البصري بهذهِ الطريقة قوله عليه السلام:

«قِلّةُ العِيَالِ أحَدُ اليَسَارَيْنِ»(4).

واليساران هنا هما: الحصول على المال أولاً، وعدم إنفاقهِ على العيال لقلّتهم

1- لسان العرب 6 / 144 مادة (عكس)
2- ينظر: العمدة 2 / 282
3- ينظر: مصطلحات السرقة الأدبية 127
4- نهج البلاغة 577

ثانيًا، وإطلاق اليسار على قلّةِ العيال مجاز، حيث أطلق المسبب وأراد السبب(1).

عكس الحسن البصري ألفاظًا من الحكمة، فقال "جهدُ البلاء... كثرَةُ العيال»(2).

فأوّل ما فعله البصـري مع الحكمة العلوية هو التقديم والتأخير، حيث قدّم النتيجة، وأخّرَ سـببها، فالنتيجة هي الجهد والمشـقة، وسببها عند البصـري كثرة العيال، ثم عكس «قلة العيال» لما قال «كثرة العيال». وبما أنّه عكس السـبب – المؤخر – لذا عكس النتيجة – المقدّمة – لما عدَّ كثرة العيال «جهد»، وهذا هو عكس لليسار في حكمة الإمام عليه السلام.

أمّا حكمة الإمام عليه السلام التي تقول:

«أرْكانَ الكُفْرِ أرْبَعَةٌ: الرَّغَبةُ، والرَّهبَةُ، والسُّخط، والغَضَبُ»(3).

فقد ضمنها البصري، مع شيءٍ من العكس لما قال: «مَنْ كانت له أربعُ خلالٍ حرَّمهُ اللهُ على النّار، وَأعاذه من الشيطان: مَنْ يملك نفسه عندَ الرَّغبةِ، والرَّهبةِ، وعندَ الشهوَةِ، وعندَ الغضبِ»(4).

فـال «أركـان» بحسب تعبير الإمـام، وال»خلال» بحسب تعبير البصـري هي واحـدة بين النصّـين، إلاّ الثالثـة، حيث أبـدل «السـخط»ب «الشهوة». لكنّ الأركان تؤدي عند الإمام إلى «الكفر»، والكفر يؤدي إلى النار، بينما البصري عكس هذا لما الكفر

ص: 242

1- ينظر: شرح نهج البلاغة لابن ميثم 5 / 436
2- آداب الحسن البصري 51
3- تحف العقول 207
4- حلية الأولياء 2 / 145

عـدَّ مَنْ يملك نفسه ويزلفها عن هذهِ الخلال محرّم على النار. وبعبارة أخرى فالذي يباشـر هذهِ الأركان وتُدخلُه مباشـرتُها النار، عكس من يمتنع عنها فيورث الجنّة.

ولعلّ من المناسب هنا أن نشـير إلى أنَّ هنالك حكمًا علوية كثيرة ذكرها البصري، ووعظ بها الناس دون أن يشير إلى مبدعها الأول ودون أن يضمنها في كلامٍ له حتى نقول عنها إنّها تضمين. وأمثلة هذا كثيرة جدًّا، فمن حكمةٍ لأمير المؤمنين عليه السلام قال فيها:

«إنَّ لأهلِ الـدين علامات يعرفون بها: صـدق الحـديث، وأداء الأمانـة، ووفاء بالعهد، وصـلة للأرحام، ورحمة للضـعفاء، وقلة مواتاة للنساء، وبذل المعروف وحسن الخلق وسعة الحلم وأتباع العلم وما يقرب من الله زلفى، فطوبى لهم وحسن مآب»(1).

وعظ البصري بهذه الحكمة، فقال: «إنَّ لأهل الخير علامةً يعرفون بها: صدقُ الحديث، وأداءُ الأمانة، والوفاءُ بالعهد...»(2).

وقال أمير المؤمنين عليه السلام في حكمة أخرى:

«مَنْ أطالَ الأمَلَ أساءَ العَمَلَ»(3).

روي أنّ البصري كان يعظ بهذه الحكمة، فيقول: «ما أطالَ الأمَلَ أساءَ العَمَلَ».

روي أنّ البصري كان يعظ بهذه الحكمة، فيقول: «ما أطالَ عبدٌ الأملَ إلاّ أساءَ العَمل»(4).

1- تحف العقول 237. وهناك من يروي هذه الحكمة عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، ينظر: الكافي 2 / 289

2- آداب الحسن البصري 37 - 38

3- نهج البلاغة 558. وينظر: مناقب الخوارزمي 377

4- آداب الحسن البصري 45

و لمّا قيل للبصـري ما تقول يا أبا سعيد في الدنيا؟ فأجاب: «وما عسى أنْ أقولَ في دارٍ حلالُها حسابٌ، وحرامُها عقابٌ؟ فقال له الرجل: تالله ما رأيتُ كلامًا كلامي...»(1).

وفي الحقيقة ليس وصف الدنيا هذا للبصري، بل ما هو إلاّ جزءًا من خطبةِ أمير المؤمنين عليه السلام التي تقول:

«مَا أَصِفُ مِنْ دَارٍ أَوَّلُهَا عَنَاءٌ، فِي حَلاَلِهَا حِسَابٌ، وَفِي حَرَامِهَا عِقَابٌ، مَنِ اسْتَغْنَى فِيهَا فُتِنَ، وَمَنِ افْتَقَرَ فِيهَا حَزِنَ، وَمَنْ سَاعَاهَا فَاتَتْهُ، وَمَنْ قَعَدَ عَنْهَا وَاتَتْهُ، وَمَنْ أَبْصَرَ بِهَا بَصَّرَتْهُ، وَمَنْ أَبْصَرَ إِلَيْهَا أَعْمَتْهُ»(2).

روي عن البصري أنّه كان يقول: «من أيقنَ بالخلف جادَ بالعطيَّةِ»(3).

وهذه هي حكمةٌ علوية بتمامها: «من أيْقَنَ بالخَلَف جَادَ بالعطيَّةِ»(4).

ووعظ البصري، فقال: «إنّ فضلَ الفعال على الكلام مكرمة، وإنَّ فضلَ الكلام على الفعل عار»(5).

وهنا غيّر البصري طفيفًا في حكمة الإمام عليه السلام:

إنَّ فضلَ القوْلِ على الفِعْلِ لهُجْنَةٌ وإنَّ فَضْلَ الفِعْلِ على القَوْلِ لَجمَالٌ

1- آداب الحسن البصري 76
2- نهج البلاغة 109. وينظر: كنز الفوائد 160
3- حياة الحسن البصري 125
4- نهج البلاغة 138
5- حياة الحسن البصري 144

وزيْنَةٌ»(1).

والقائمة تطول وتطول جدًّا بهذهِ الأمثال، ولكن لا ينبغي أن يحدث هذا، فهو أمرٌ مجانب للإنصاف، وبخاصّةٍ إذا عرفنا أنّ البصري عندما كان يورد حكم الرسول الكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم كان يذكر اسم الرسول، وهكذا كان يذكر أسماء الخلفاء الراشدين الثلاثة الأوائل عندما يعظ بمواعظهم الناس، إلاّ الإمام علي عليه السلام فلم يذكره البصري - على الرغم من أخذهِ لعددٍ لا يُحصى من حكمه ومواعظه عليه السلام - ولا مرّة واحدة، إلاّ بتلميح واحد فقط - هذهِ النتائج بحسب قراءة الباحث في نتاجات البصري الأدبية - حيث قال البصري: «روي عن بعض الصالحين أنّه كان يقول: أفضلُ الزُّهدِ إخفاءُ الزُّهدِ»(2).

وهذه هي حكمة علوية بنصِّها(3).

وتجدر الإشارة إلى أنّ هذا الأمر - أي عدم ذكره اسم من تأثر بهِ، ووعظ بكلامه - له منبت في اعترافات البصري الشخصية، فعندما كانَ يُسأل عن صاحب الحكم التي يستشهد بها يغضب ويرفض الإجابة عن هذا السؤال، وهذا ما عرفنا طرفًا منه في توطئة هذا الفصل.

ولكنّ الآن عرفنا إنها تعود لحكيم الإسلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، ذلك الشخص الذي وقع المتذبذبون في حيرةٍ من أمرهم تجاهه، فهم من جهةٍ لا يستطيعون ذكر اسمه، لأنّهم في ركب أعدائه، ومن جهة أخرى معاكسة لا يستطيعون الاستغناء عن كلامه الرفيع.

ص: 245

1- غرر الحكم ودرر الكلم 233

2- م. ن 170

3- ينظر نهج البلاغة 554. وينظر: دستور معالم الحكم 20

وبعد أن عرفنا تفصيلاً عمق أثر كلام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في أدب الحسن البصري كان من الجدير أن نشير هنا أيضًا إلى أنّ الآراء التي عللت ثقافة البصري الأدبية لم يصمد منها إلاّ رأيٌ واحد، وهو رأي الشريف المرتضى، حين عدَّ جميع أو جلَّ كلام البصري مأخوذ من كلام أمير المؤمنين عليه السلام. أمّا الآراء التي عاكست هذا الرأي، فهي عاكست الصواب أيضًا، من نحو قول الجاحظ: «فأمّا الخطب فإنّا لا نعلم أحداً يتقدم الحسن البصري فيها»(1).

وهذا الكلام تعوزه الدقة، كون جميع خطب ورسائل ومواعظ البصري جاءت تقليدًا صارخًا - بكلِّ ما تعنيه الكلمة من معنى - لكلام أمير المؤمنين عليه السلام. إذاً فكيف الجاحظ - وهو الخبير في التراث العرب الأدبي - لا يعلم أحدًا يفوق البصري في هذا المجال؟ ورأي الجاحظ هذا هو الغالب، بل الساحق في أدبنا الحديث، فمثلاً الدكتور شوقي ضيف عدّ البصري "بلا ريب أكبر من ثبّتوا في هذا العصر - أي الأموي - ذلك الأسلوب المونق الذي تأثر به عبد الحميد و مَن خلفوه من الكتاب»(2). وكان للبصري إسلوبًا خاصًّا وطابعًا متميّزًا في نظر كلٍّ من طه حسين، و إحسان النص(3).

أمّا من حيث الأسلوب، فبعد مقارنة كلام البصري بكلام أمير المؤمنين عليه السلام لم يثبت للبصري أسلوب مميّز قط، بل أسلوبه الموصوف بالمونق والقائم على "الطباق والتصوير»(4)، ثبت أنّه ورثه عن أمير المؤمنين عليه السلام، وقلّده فيه تقليدًا

1- البيان والتبيين 1 / 207

2- تأريخ الأدب العربي (العصر الإسلامي) 450

3- ينظر: من حديث الشعر والنثر 26 - 27، وينظر: الخطابة العربية في عصرها الذهبي 354

4- تأريخ الأدب العربي (العصر الإسلامي) 450

صارخًا. ويستشفّ أيضًا من كلام الدكتور شوقي ضيف أنّه أراد أن يقول: إنّ عبد الحميد تأثر بالحسن البصري، وهذا لا يمكن أن يقبل بحال من الأحوال، لأنّ الحسن البصري هو متأثّرًا أكثر بكثير من كونهِ مؤثّرًا، هذا من جهة، ومن جهة أخرى لا النقاد قالوا بتأثر عبد الحميد بالبصري، ولا عبد الحميد قال بذلك، بل إنّ اعتراف الأخير كان صريحًا عندما سُئِل ما الذي خرّجك في البلاغة قال: «بعد أن حفظت سبعين خطبة من خطب الأصلع قال الثعالبي: يعني أمير المؤمنين»(1). وليت الوقت أمهلنا لندوّن ما استخرجناه من تأثيرات عبد الحميد الهائلة بكلام أمير المؤمنين عليه السلام.

1- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب 1 / 189

الفصل الثالث أثر كلام الإمام علي عليه السلام في نثر ابن المقفع

ص: 249

توطئة

قلّما تجدُ كتاباً عنى بالنثر العربي الفني ومدارسه وأصوله ومن أبدع فيه دونما تجدُ شـهيته مفتوحة أمام هذا المُنشئ الذي احتدم الصراع حول ديانته، وموارد ثقافتهِ، ومنزلته الأدبية، ولذا لا أراني بحاجة إلى التوسع في تلك الآراء، إلا بما يخدم البحث، ويوضِّح ما يذهب إليه الباحث.

وإجمالاً هو أبو عمرو روزبه بن داذويه قبل الإسـلام، فلمّا اسلم سُمِّيَ عبد الله وكنّي بأبي محمّد وكان في نهاية الفصاحة والبلاغة(1). و يُعدُّ من العشـرة المبشـرين بالبلاغة بحسب تصـنيف ابن النديـم(2). حصـل على نصـيبٍ وافرٍ من العلم في البصـرة عن طريق الأعراب الـذين يفدونها؛ لأنها كانت تمثل كعبة العلم والأدب

1- خزانة الأدب 8 / 180

2- ينظر: الفهرست 182

يومئـذ، ومحط أنظار طلاّب العلم، لاسـيّما وأنّها ضـمّت سوق المربـد الذي عرف باحتضانه للعلم والعلماء، وقد ضاهى سوق عكاظ الذي عُرِف قبل الإسلام، وبها اتصل بآل الأهتم المشهورين بالفصاحة(1).

ومن بعض الرِّوايات يُفهم أنّ ابن المقفع قضّى ردحاً من الزمن بالكوفة فقد ذكر سـعيدُ بن سِـلْم(2): «قصـدتُ الكوفة فرأيتُ ابن المقفع فرحّبَ بي وقال: ما تصـنع هاهنا، فقلت: ركبني دَين... فقال: أين منزلك؟ فعرَّفته. فأتاني في اليوم الثاني...ومعه منديل فوضعه بين يدي، فإذا فيه أسورة...ودراهم متفرِّقـة، مقدار أربعة آلاف درهم، وحينئذٍ زمان المنصور، وفي الدراهم ضـيق...»(3). ومن هـذا يعرف إنّ ابن المقفع كان قبل سـعيد بالكوفة، ولهذا رحّب بهِ وسأله عن حاله، ثم أعطاه مكرمةً سخيّةً. ولو كان ابن المقفع غريباً على الكوفة، أو ضيفاً مارّاً بها لما استطاع أن يفعل ذلك مع الرجل. ولعلَّ أديبنا في رحلتهِ إلى الكوفة اطَّلَع على كلام أمير المؤمنين عليه السلام فتأثّر بهِ، وحفظ بعضه. وسواء البصرة أم الكوفة فإنهما مصران عربيّان تخرّجَّ فيهما ابن المقفع وغدا عربيّ الثقافة والمنشأ.

أما بالنسـبة لـديانته فقـد عُرِفَ بالتـدين من خلال كلامه، وقد رُبِّيَ تربيةً إسـلامية، وأولع بالعلوم والآداب فما بلغ العشـرين حتى كان آية من الآيات في الفطنةِ والذّكاء لا يشقُّ له غبار في حسن البيان ومتانة التبيان(4). وإلى هذا ذهب

1- ينظر: دفاتر عباسية 286

2- وهو سـعيد بن سـلم بن قتيبـة بن مسـلم الباهلي، سـكن خراسان، وولي بعض أعمالها، وقـدم بغـداد وحـدَّثَ بها. كان عالماً بالحديث والعربية. ينظر: تأريخ بغداد 9 / 74

3- محاضرات الأدباء 1 / 29

4- ينظر: ابن المقفع، حياته، آثاره، 41

الأستاذ محمد كرد علي فقد أنصف ابن المقفع في هذا المجال لما قال: «لم يخالف الشرع بل خدمه وأحنى عليه»(1). ولا توجد عنده فيما أثِر عنه من نصوص نثرية كلمةٌ واحدةٌ تشعر بزندقته(2). وكيف يكون زنديقاً ويخالف الشرع وهو الذي كانت وصاياه ومواعظه تزخر بالأخلاق والآداب الإسلامية في صغائر الأمور وكبارها من نحو قوله: «لا يعجبنَّك إكرامُ من يُكرمُك لمنزلةٍ أو سلطانٍ، فإنّ السلطان أوشكُ أمورِ الدنيا زوالاً. ولا يعجبنَّكَ إكرامُ من يُكرمُكَ للمالِ، فإنّه هو الذي يتلو السلطان في سُرعةِ الزوال.. ولكن إذا أُكرِمْتَ على دينٍ أو مروءةٍ فذلك فليعجُبْكَ! فإنَّ المروءة لا تُزايلُكَ في الدُّنيا. وإنّ الدينَ لا يُزايلُكَ في الآخرة»(3). وخلاصة قوله إنّ المكرمة إذا جاءت من أجل الدين والمروءة فهيَ الغالبة على كُلِّ المكرمات. وواضح من كلامهِ إنّهُ يؤمن بالآخرة وأنّ طريقها السليم هو الدين.

ولكن مع هذا ما زال ابن المقفع عند جمهور من الباحثين معلقاً على شمّاعة الزّندقة. والزندقة في زمن ابن المقفع – مثلما معروف – أُريد بها أهدافا سياسية أكثر منها دينية، فكانت من التهم الجاهزة التي تُسَاقُ لمن لا يسوق للسلطان كامل الطاعة. فكان من الذين اتهموه بهذه التهمة الدكتور شوقي ضيف، حيث قال: «ويظهر أنّه على الرُّغم من زندقته كان يبهره جمال القرآن»(4).

ولو كان زنديقًا حقًا لنفّذ بِهِ المنصور الحكم بطريقة علنية لا بطريقة

1- أمراء البيان 1 / 123
2- ينظر: م. ن 122
3- الأدب الصغير والأدب الكبير 124
4- تأريخ الأدب العربي (العصر العباسي) 523

الإغتيال(1).

وإلى جانب الزندقة اتّهمه حنا الفاخوري بالشعوبية، ولكن شعوبيته هذهِ المرة «اتخذت طريق التشيّع، فأظهر مع الموالي ميله إلى بني العبّاس وإن لم يكن قلبه معهم، وكان علوي السياسة، فارسي النزعة، يدين بالإسلام ظاهراً لا باطناً، ويأخذ بالتَّقيّة..»(2).

وبحسب ما يرى الباحث إنَّ في كلام الفاخوري غموضاً، أو تناقضاً بعض الشيء، إذ كيف كان ابن المقفع غير إسلامي فارسي النزعة ثمَّ يعمل بالتقية، والتقية هي مبدأ إسلامي؟ وعندما أخذ بها ابن المقفع هل أراد تمرير شعوبيّتِهِ أم تمرير سياستِهِ العلوية؟ وهناك بون شاسع بين الشعوبية وبين السياسة العلوية التي كانت جامعة مانعة ليس فيها تقصير لا في الدين ولا في الدنيا، ثم لا أدري كيف اتفقت هذهِ الصفات الثلاث (الشعوبية، السياسة العلوية، التقية) في نصٍّ واحد عند الفاخوري؟ أمّا روافد ثقافته فعلى الرغم من اختلاف الباحثين حول مصدرها الأهم، إلاّ أنّ غالبيتهم قد أرجعوا السواد الأعظم منها إلى الإرث الأدبي الفارسي، فبعد حديثه عن ثقافة ابن المقفع وبخاصة في الأدبين الكبير والصغير قال أحمد أمين:

«في الكتابين اثرٌ كبير من الثقافة الفارسية. ففيها حكم كثيرة من حكم الفرس... وكثيراً ما كان يقول (احفظ قول الحكيم) و (قال الحكيم) و (قالت الحكماء) وهو يقصد حكماء الفرس...»(3).

1- ينظر رسائل البلغاء 12

2- الجامع في تأريخ الأدب العربي 1 / 534

3- ضحى الإسلام 1 / 203

وبدورنا أن نردَّ على مقولة أحمد أمين في حُكمه على ابن المقفع بأنّه أراد حكماء الفرس، فلماذا «يقصد حكماء الفرس «حصراً؟ وهل الأمة الفارسية تمتلك من الحكماء ما فاق حكماءنا علماً وأدباً وبلاغة...؟ وكان الأجدر بالأستاذ وهو يتهم ابن المقفع بهذا أن يذكر الحكمة التي ضمّنها ابن المقفع، ثم يذكر الحكيم الفارسي الذي أَخذت عنه، حتى يضمن صمود رأيه عن طريق هكذا دليل.

وعلى كل الأحوال فذيل كلام المرحوم لم يكن دقيقاً، لأنّ هؤلاء الحكماء الذين تحدّث عنهم ابن المقفع، واحتجَّ بهم أحمد أمين لم يكونوا – بحسب نتائج الدراسة – فُرسًا قط، بل هم إسلاميون ويتصدرهم أمير المؤمنين عليه السلام.

وإلى جانب هذهِ الآراء التي عدّت ابن المقفع فارسي الثقافة، توجد هنالك آراء في القديم والحديث أرجعت ثقافة أديبنا المذكور إلى الإرث الأدبي العربي الإسلامي، وبالتحديد إلى كلام الإمام علي عليه السلام، فمثلاً القلقشندي كان يرى إنّ ابن المقفع من فرسان الكلام الذين اقتفوا طريقة الإمام علي عليه السلام في الكتابة(1).

أمّا المحدثون الذين تحدثوا عن وجود رابط بين ثقافة ابن المقفّع وبين كلام أمير المؤمنين عليه السلام فمنهم يوسف أبو حلقة، فبعد دراستهِ وتحليله لكلام ابن المقفع قال: إنّهُ يرى – أي ابن المقفع – في كلام أمير المؤمنين عليه السلام البناء النّثري الأوّل عند العرب، ولهذا عمد إلى تفصيله(2).

وقال الدكتور محمد نبيه حجاب «إنّ ابن المقفع كان مشغوفًا بإسلوب

1- ينظر: صبح الأعشى في صناعة الإنشا 2 / 353
2- ينظر: عبد الله بن المقفع دراسة وتحليل 7

الإمام»(1).

ومنهم من كان يرى إنّ ابن المقفع تبنّى جانبًا من آراء الإمام عليه السلام فقد قال جورج غريب «يتبنّى ابن المقفع رأي عليّ بن أبي طالب، القائل بكون السلطان عماد الناس»(2).

وباقي رجالات أدبنا المعاصر الذين تحدّثوا عن هذا الشأن، جاءت آراؤهم على استحياء وتشكيك، فمثلاً قال محمد كرد علي: «وقيلَ أنّهُ تخّرجَ في البلاغة بخطب عليٍّ بن أبي طالب»(3). وما نقله محمد كرد علي لم يَرُقْ لمحمد كرد علي نفسه بدعوى «قلّة المأثور من تلك الخطب يومئذ»(4).

ولا أدري كيف علم الأُستاذ المرحوم بقلّة خطب الإمام يومذاك، والمصادر التأريخيّة تحدِّثنا عن المئات منها، والتي كانت محفوظة مدونّة ومشهورة، وعليها تخرج الأدباء، وأقلّها على الإطلاق ما دونّه الشريف الرضي في نهج البلاغة، لأنّهُ كان يصطفي من كلام جدّهِ اصطفاءً بما يتلاءم وذوقه الأدبي، وهذا ما تطرقنا لهُ في الفصل الأول.

وشبيه ما قاله كرد علي ذهب إليه الدكتور محمد مهدي البصير بقوله: «يرى بعض مؤرِّخي الأدب العربي أنّهُ حَفِظَ القرآن، وقرأ الشعر الجاهلي، وعرف الشيء الكثير من خُطب علي بن أبي طالب عليه السلام»(5).

ص: 256

1- بلاغة الكتاب في العصر العباسي 133 (الهامش)

2- عبد الله بن المقفع 81

3- أمراء البيان 1 / 105

4- م. ن 1 / 105

5- في الأدب العباسي 9

ولكن الدكتور في نفسه شيءٌ من هذا الرأي، لأنّه رأى من الصعوبة إثباته لعدم وجود دليل من آثار ابن المقفّع يدُلَّ على تأثّرِهِ بالأدب العربي دلالة واضحة(1).

ورأي الدكتور المرحوم هذا يفتقر إلى الدّقة، كون الدراسة تكفّلت بكشف عشرات الأدلة التي بيّنت تأثر ابن المقفع العميق بأحد أهم زعماء الأدب العربي، ألا وهو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

ولوعدنا إلى ابن المقفع نفسه، وتوخينا رأيه عن أي رافدٍ استقى ثقافته الأدبية، لوجدناه يقرّ صراحة بتأثّرِهِ تأثراً كبير بأناس لكنّه لم يسمِّهم، فمثلاً عندما سُئِل عن هذا الأمر قال: «شربت من الخطب ريًّا. ولم أضبط لها رويًّا. ففاضت ثمَّ فاضت. فلا هي نظاماً، ولا نسيتُ غيرها كلاما»(2).

وكلمة خطب هنا فيها دلالة على العروبة، لأنّ الفرس لم تُنقَلْ لنا عنهم خُطبٌ، بل حكمٌ ومواعظ هذا من جانب، ومن جانب آخر لو أمعنَّ النظرَ القارئ معي لوجدنا في كلام صاحبنا ابن المقفع تضمينًا نصيًّا المقرَّب عبد الحميد بن يحيى الكاتب لمّا سُئل ما الذي خرّجَك في البلاغة فقال:

«حفظتُ سبعين خُطبةً من خُطَبِ الأصلعِ ففاضت ثمَّ فاضت»(3). إذاً (ففاضت ثمَّ فاضت) علمنا من أين أخذها ابن المقفع. وهذا الفيضان في بلاغة الرجلين كان وراءه واحد، لكنّ عبد الحميد صرّحَ بذلك وابن المقفع لمّحَ له. وهذا بدورهِ عائدٌ إلى الإستراتيجية التي يتّبعُها كلٌّ من البليغين، فعبد الحميد كان أموي التوجه

1- ينظر: م. ن 9 (الهامش)
2- البداية والنهاية 10 / 102. وينظر: وفيات الأعيان 2 / 151. وينظر: سير أعلام النبلاء 6 / 209. وينظر: تأريخ الإسلام 9 / 198
3- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 1 / 28

في السرِّ والعلن، ورأينا كيف استعمل النبز مع أمير المؤمنين عليه السلام، ولذا فهو لا يتهيّب من ذكره الإمام عليه السلام بهذهِ الغلظة. أمّا ابن المقفع فهو على العكس من ذلك كان علوي التوجّه «يأخذ بالتقية فيما يعمل وفيما يقول، ويسعى لقلب وجه الحكم عن طريق العقل والفلسفة... وهذا كُلُّه من طلائع الحركة الشيعيّة...

وهكذا نفهم السبب الذي لأجله انتشرت آراءُ ابن المقفع في كتب رجال التشيّع والإسماعيلة من مثل المتنبّي، وأبي العلاء المعرّي وإخوان الصفاء وغيرهم، وهكذا نفهم أيضًا السبب الخفي الذي لأجله اضطُهِدَ ابنُ المقفع، وقُتِلَ شرَّ قَتلة»(1).

توجّهَ ابنُ المقفع هذا التوجّه لأنّهُ «كان ينظر إلى مثل أعلى لم يجده عند الأمويين، كما إنّه لم يقع عليه عند العباسيين. ولكنّه رآه أغلب الظن، عند بعض جماعات لم يتسلّموا مقاليد الحكم»(2) ولعلّ حديث ابن المقفع «عن السلطة والإمام»(3) يبيّن هؤلاء الناس الذين اقترنت بهم المُثل العليا، ولكن يوسف أبو حلقة يرى في حديث ابن المقفع هذا «حديثاً غامضًا... حتى أنّهُ ليوقع ابن المقفع في تناقض مقيت. وما ذاك إلا لأنّ ابن المقفع كان يعمدُ إلى اللفَّ والدوران خوفًا من الخليفة المتسلّح بالحكم المطلق»(4).

والباحث يرى إنّ دراسة نتاج ابن المقفع وعرضه على كلام أمير المؤمنين عليه السلام هو وحده الذي يتكفّل بكشف هذا الغموض.

1- الجامع في تأريخ الأدب العربي 1 / 534
2- عبد الله بن المقفع دراسة وتحليل 7
3- م. ن 20
4- م. ن 20

أمّا في كتابيه الأدب الكبير والأدب الصـغير فقد تحدثَ ابن المقفّع مراراً اوتكراراً على أنّه ضـمنها حِكماً وأمثالاً ومواعضاً من أناس وصفهم، ووصف كلامهم، وأخلاقهم، ومذهبهم، وديانتهم، وعلاقتهم بالله تعالى، وبلاغتهم... ولكنّه مع ذلك – كعادته – لم يسـمِّهم، فهو بوصـفه «كأكثر أصـحاب المُثُل العليا يترك لأبناء الإنسانية أن يقرؤوا ما بين السـطور، خوفاً من ظلم بطّاش يمنعُ تأديةَ الواجب الفكري ألبنّاء العامل للخير العام»(1).

ففي الأدب الصـغير مثلاً قال: «وقد وضعتُ في هذا الكتاب من كلام الناسِ المحفوظِ حروفاً فيها عونٌ على عمارةِ القلوبِ وصقالها وتجليةِ أبصارها، وإحياءٌ للتفكيرِ وإقامةٌ للتدبير، ودليلٌ على محامدِ الأمور ومكارمِ الأخلاقِ إن شاء اللهُ»(2).

ثمّ يسـتمر ابن المقفع واصفًا أولئك الناس الّذين أخذ عنهم. وهذهِ المرّة في الأدب الكبير، فقال: «إنا وجدنا الناس قبلنا كانوا أعظم أجساماً، وأوفر مع أجسامهم أحلاماً... فكان صاحبُ الـدين منهمُ أبلغ في أمر الـدينِ علماً وعملاً من صاحبِ الـدين منا، وكان صاحبُ الـدنيا على مثلِ ذلك من البلاغـةِ والفضلِ... وبلغَ من اهتمامهم بذلكَ أن الرجلَ منهم يفتحُ له البابُ من العلم»(3). وعلى هذا وبعد أن عددّ صفات كثيرة كانت إسـلامية، بل لم تجتمع كلّها إلاّ عند الصـفوة من الإسـلاميين، خلص ابن المقفع إلى نتيجة هي أنَّ «مُنتهى علم عالمنا في هذا الزّمان، أن يأخذَ من علمِهم، وغايةُ إحسان مُحسِنِنا أن يقتدي بسـيرتهم. وأحسن ما يصـيبُ من الحديث محدِّثُنا أن ينظرَ في كُتُبِهم فيكون كأنّهُ إيّاهُم يحاوِرُ، ومنهم

ص: 259

1- عبد الله بن المقفع دراسة وتحليل 7

2- الأدب الصغير والأدب الكبير 132

3- م. ن 63 – 64

يستمع، وآثارهم يتَّبع... ولم نجدهم غادروا شيئاً يجدُ واصفٌ بليغٌ في صفةٍ له مقالاً لم يسبقوه إليه: لا في تعظيم الله، عزَّ وجلَّ، ولا في تحرير صنوفِ العلم وتقسيم أقسامها وتجزئة أجزائها وتوضيح سُبُلِها، وتبينِ مآخذها، ولا في وجهٍ من وجوهِ الأَدَبِ و ضُروبِ الأخلاق»(1).

ومما تقدم هل يبقى بعدَ ذلك لقائل مقال أنّ هؤلاء الذين تأثّر بهم ابن المقفّع غير إسلاميّين. ولكن مع هذا ومما يؤسف له إنَّ هذهِ التصريحات ومثلما يرى الباحث أنّها فُهِمتْ عكس ما أراد لها ابن المقفع، فمثلاً الأستاذ محمد كرد علي يرى في قول ابن المقفع الأخير مسألةٌ فيها نظر، فقال: «وقوله: إنَّ القدماء لم يغادروا شيئاً لا في تعظيم الله... قولٌ فيه نظر، ولعلّه مما قاله قبل إسلامه، ولا يعقل أن تحتويَ كتب زراد شت وغيرها من الكتب أموراً في تعظيم الخالق وتصغير الدنيا أكثر من القرآن»(2) وردًا على كرد علي فهنا إذا قسنا على أنّ إسلام ابن المقفع كان إيذانًا بمرحلة جديدة أو نوع جديد من الخطاب، فإنّ قوله المذكور يدلُّ على إسلاميته الواضحة، لما طفح به من ألفاظ ومعانٍ تدلُّ على ذلك لا العكس هذا من جهة. ومن جهة أخرى مَن قال إنّ ابن المقفع كان يقصد كتب زرادشت حتى تُطلق هكذا أحكام؟ وهنالك من ذهب أبعد من هذا بكثير، وأطلق أحكامًا قاسية على تصريحات ابن المقفع تلك. فقد قال أنعام الجندي: «كان فارسيُّ النزعة يطمح إلى عودة استقلال بلاده، وحكمها الذاتي، وكان يرى أنّ العقبة الوحيدة، هي العرب

1- م. ن 64

2- أمراء البيان 1 / 113

والحكم العربي، ولهـذا عمل جاهـداً على الطعن بهم، والتقليل من شان حضارتهم وفنونهم جميعًا، وما قدمتا كتابي الأدب الكبير والأدب الصـغير، إلاّ دليل على ذلك. ولقـد كان شديد التوكيد على تحسـين كلام الأقدمين... حتى لإدعى أنّ كلَّ نتاج جديد إنّما هو ترديد وتقليد لمـا أثر عن السـابقين. هـذهِ الفكرة وحـدها، لاـ إخلاقيـة أولاـً لإنّهـا تجرد الإنسان من قيم الإبـداع... وهي لا إنسانيـة ثانيًا لأنّها لا تؤمن بالعقل..»(1).

فما ذهب إليه الجنـدي في طعن ابن المقفع بالعرب وهم عقبته الوحيدة، فهذا ليس له أي دليل يذكر في ما قال أديبنا المخصوص بالدراسة، بل كان على العكس من ذلك، يمدح العرب، ويعلّي من شأنهم، ويمنِّي نفسه بأنّه لو كان منهم.

ففي قُصَّةٍ طويلـة سأل شبيبُ بن شـيبة(2) ابنَ المقفع أيّ الأـُمِمِ أعقـل: الفرس أم الروم أم الصـين...؟ فقـال: العرب «قـال: أي شـبيبُ -: فضـحكنا. فقال: أما أنّي ما أردتُ موافقتَكم ولكن إذ فاتني حظِّي من النسـبة فلا يفوتني حظّي من المعرفة، إنّ العرب حَكمتْ على غير مثالٍ مُثِّلَ لها، وآثارٍ أُثرِتْ... يجودُ احـدهم بقوَّته، ويتفضّلُ بمجهودهِ، ويُشاركُ في ميسورهِ ومعسورِه، ويصفُ الشـيءَ بعقلِه فيكون قـدوةً ويفعلُه فيصـيرُ حجّةً... أدَّبتهم أنفُسُ هم، ورفعتهُم هِمَمُهُم، وأعلتْهم قلوبهم وألسنتهم، فلم يزل حباء الله فيهم، وحباؤهم في أنفسهم حتّى رفع لهم الفخر، وبلغ بهم أشرف الذِّكر... وافتتح دينه وخلافته بهم إلى الحشرِ، على الخير فيهم ولهم.

1- دراسات في الأدب العربي 56

2- هو شبيب بن شـيبة المنقري يكنى أبا معمر. كان ممتازاً بالفصاحة. قدم بغداد في أيام المنصور العبّاسي واتصل بهِ، ومن بعدهِ بالمهدي، وكان كريماً عليهما أثيراً عندهما. ينظر: وفيات الأعيان 2 / 458

وقال:

«إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ»(1).

فمن وضعَ حقَّهم خسر، ومن أنكر فضلهم خصم، ودفع الحق باللسان أكبتُ للجنان»(2).

والغريب إنّ من يُقـدِّس العرب بهـذا التقـديس هل من المنطقي أنْ يُقال عنه إنَّ عقبته الوحيـدة العرب، وإنّه عمل جاهداً على الطعن بهم؟ وعلى كلّ حال فابن المقفع أجاد في دحض هـذه الشـبهة عن نفسهِ هـذا أولاً. ثانياً: إنّ اعتراض الجنـدي على امتيازات أولئك الناس الذين وصـفهم ابن المقفع بأنهم لم يتركوا صـغيرة ولا كبيرة.. ثمّ عدَّ دعوةَ ابن المقفع تلك – بموجب هذا الوصف – لا أخلاقية ولا ثقافية. فيما لا يشكُّ فيه الباحث إنّهُ لبس؛ فابن المقفع لم يكن يقصد أو يدعو بما ذكر إلى الجمود أو الإتكاء على الأقدمين وتقليدهم الأعمى – مثلما فهم الجنـدي وغيره – وإلاّ لو كان يقصـد هذا الجمود لبقى هو في تلك الخانة، ولما وصل إلى ما وصل إليه من ذلك الإبداع النثري الذي ما زال متميّزاً على الرغم من زحمـة النثر والناثرين، ولكن غايـة ما هنالك أنّهُ وجد كلامًا لأُناس امتازوا ب«تعظيم الله عزَّ وجل، ومعرفتهم بالأولى وتحقيرها، وترغيبهم بالآخرة، ومعرفتهم في صـنوف العلم المتعددة وتقسيم أقسامها، وتجزئة أجزائها، وسمو أخلاقهم، وعُظم حلمهم على الرغم من قوّةِ أجسامهم، فضلاً عمّا امتازوا بهِ من البلاغة...» فوصفهم بما يستحقون وأثنى عليهم، وحبّبَ الأخذ عنهم، والسير على هديهم. أما ثالثاً فلم يكن ابن المقفع متأثراً بالفرس بقدر تأثّرِهِ بالعرب لأنّهُ حينَ سُئِل عن الفرس

1- الأعراف 128

2- أمراء البيان 1 / 114 - 115

قال: «ليسوا بذلك، إنّهم ملكوا كثيراً من الأرض، ووجدوا عظيمًا من الملك، وغلبوا على كثير من الخلق، ولبث فيهم عقد الأمر، فما استنبطوا شيئًا بعقولهم، ولا ابتدعوا باقي حكم في نفوسهم..»(1). وهكذا أجوبته عن باقي القوميّات، حتى إذا وصل إلى العرب أجاب ما عرفتهُ، وكانت إجابته تلك تنمُّ عن معرفة ودراسة لا تعصُّب، فبما فاته الحظ أن يلتحق بهم من ناحية النسب، لم يفته الحظ من معرفتهم والتأثر بهم. ومن هنا نستنتج أهمَ الإستنتاجات، وينكشف لنا جزءٌ كبير من الغموض الذي لفّ مقدمتي الأدب الكبير والأدب الصغير وما علينا في ذلك إلاّ إرجاع آراء وانطباعات ابن المقفع في الأمم والقوميّات وعرضها على مقدمتي الأدبين سنعرف أنّ ما كان مقصوداً هناك هم العرب.

وخلاصة القول بعد هذا إنّ الذين اتهموا ابن المقفع بأنّهُ نقل الكتابين عن الفارسية كانوا قد اعتمدوا على ما قدّمهُ لهذين الكتابين. وبرأي الباحث إنّ القوم فهموا عكس ما أراد ابن المقفع، لأنّهُ كان قاصداً العرب فيما قدَّم، أو على الأقل كان لهم النصيبُ الأكبر في ذلك. وعلى رأسهم أمير المؤمنين عليه السلام، فقد كان أديبنا يحمل في بنيّات أفكارهِ جانبًا من السياسة والأهداف والتطلعات العلوية.

هذا فضلاً عن تأثرهِ بأبناء وذرية أمير المؤمنين كالإمام الحسن، وزين العابدين والصادق عليه السلام - مثلما سيمر علينا - ولكنه لا يستطيع أن يجهر بذلك، لما كانت - تكّنهُ لهم السلطتان الأموية ومن ثم العباسية - واللتان كان ابن المقفع يعيش في ظلهما - من عداء مبرم.

وعلى هذا فابن المقفع كان واقعًا بين قوّتين متعاكستين: الأولى شدّة تأثرهِ بهؤلاء النفر الذين رأى في كلامهم حلاً جذريًّا لكلِّ معضله. الثانية بغض

1- م 0 ن 1 / 114

السـلطتين لهما. ولكن ابن المقفع بفطنته وذكائهِ الحاد، ورغبته الرساليـة الهادفـة، اسـتطاع أنّ يوفّق بين هاتين الطائفتين، وأن يسـير برهة من الزمن وهو يكتب ما يريد في هذا الطريق طريق ذات الشوكة مثلما سيتضح ذلك.

ص: 264

المبحث الأول: في رسالة الأدب الكبير

اشارة

الأدب الكبير رسالـة، أو كُتيّب ضـمّنه ابن المقفع طائفة من الحكم والمواعظ في أسـلوب خطابي موجّه إلى العقلاء الذين هدفهم الحصول على سعادة الدّارين(1).

يحتوي هذا الكتاب على مقدمة – عُرِف محتواها في الصفحات السابقة – وقسمين: الأول قسّمهُ على بابين أيضًا. خصَّ بأولهما الحديث عن السلطان، ومـا يحتاجه من أمور في تـدبير ملكه، وما ينبغي عليه أن يتجنبه من آفات كالبخل، والكـذب، والاحتجاب عن الناس...، وخص بالثاني صاحب السلطان وكيف يتعامل مع السلطان.

أما القسم الثاني: فبسط القول فيه عن الصداقة والصديق، ومكارمٍ من الأخلاق عدّة. وكانت تنضوي تحت هذه العنوانات الثلاثة ما شئت من الحكم والمواعظ كماًّ ونوعاً. وهي في حقيقتها وبغالبيتها لا تخلو من اثر لكلام أمير 1) ينظر: الجامع في تأريخ الأدب العربي 1 / 546

ص: 265

1- ينظر: الجامع في تأريخ الأدب العربي 1 / 546

المؤمنين عليه السلام فقد كان له هيمنة عجيبة عليها واثر بالغ فيها تجلى بمظاهر عدّة، منها:

أولا: التضمين

عرفنا مما سبق إن التضمين له محّرك أساس، وهو أنّ تضمين نصٍّ ما معتمد على الإعجاب بذلك النص، والرغبة من قبل الأديب المتأثر في أن يكون ذلك النص ضـمن نتاجا ته من جهـة، ورغبة ذلك الأديب في أن يؤثر نصّه الكلي بشـفاعة النص المُضـمَّن على المتلقين من جهةٍ أخرى.

وقـد برز التضـمين بروزاً واضـحا ًفي رسالـة الأـدب الكبير حتى أصـبحوقد ظهر يشـكل ظـاهرة من أكبر مظاهر تأثر ابن المقفع بكلام أمير المؤمنين عليه السلام، وقد ظهر فنّ التضمين عند ابن المقفع بنوعين:

1 - التضمين النصّي:

ومن هذا التضمين قوله الذي افتتح بِهِ الباب الثاني من رسالة الأدب الكبير وقد خص به الأصدقاء: «ابذُلْ لِصديقك دَمَكَ ومالكَ، ولمعرفتك رِفدَكَ ومحضرك، وللعامة بشرَك وتحنّنك، ولعدوكَ عدلكَ وإنصافك، واضنَنْ بدينك وعرضك على كلِّ أحد»(1).

وما هذا إلا فقرة من وصية أمير المؤمنين لولدهِ محمد ابن الحنفية عليهم السلام التي قال فيها:

«ألزمْ نفسَكَ التودُدَ.... وأبـذِلْ لِصـّـدِيقِكَ نفسَكَ ومالَكَ، ولمعِرفَتِكَ رِفْـدَكَ ومحضـَرَكَ وللعامـّـةِ بشـرَكَ ومَحَبَّتَكَ، ولعدَوِّكَ عَدْلك وإنْصَافَكَ، واضْنَنْ

1- الأدب الصغير والأدب الكبير 98

«بدينِك وعِرْضكَ عن كُلِّ أحدٍ فإنّهُ أسلمُ لدينِكَ و دُنياك»(1).

فواضح إذاً إنّ أغلب كلام ابن المقفع المذكور أخذه بالنصّ من هذهِ الوصية.

والملفت للانتباه إنّ ابن المقفع وبعد صفحات ذكر هذا المعنى وهذهِ التفاصيل، مكرِّراً بعض الألفاظ ولكن باختزال شديد، ثمّ نسبها للحكيم فقال : «أحفظْ قول الحكيم الذي قال: لِتكُنْ غايتُك فيما بينَك وبينَ عدوِّك العدْلَ، وفيما بينَكَ وبين صديقِك الرِّضاءَ»(2).

ومن هذا نستنتج أمرين:

الأول:

إذا كانت حكمة ابن المقفع السابقة هي له، فهو لم يعد مطلقاً بحاجة إلى الاستشهاد بقول الحكيم هذا، لأنّ تلك الحكمة هي ابلغ، وأكثر بياناً، وتفصيلاً، وإيصالا للمعنى من قول الحكيم، وما الداعي إذا كان ابن المقفع يمتلك أكثر من قول الحكيم بكثير أن يستشهد بكلامه، وعلى هذا فإنّ هذا دليل آخر على إن الحكمة الأولى هي ليست لأبن المقفع أيضاً.

الثاني:

حكمة الحكيم هذه مكوّنة من فقرتين لا غير، الأولى أُخذت بتحوير طفيف عن قول أمير المؤمنين عليه السلام السالف وهي كالتالي:

1- نهج السعادة 7 / 232، وينظر بحار الأنوار: 74 / 396
2- الأدب الصغير والأدب الكبير 103

الحكيم: «بينك وبين عدوّك العدلَ».

ابن المقفع: «ولعدوّك عدلك».

بينما الفقرة الثانية أُخذت بالمعنى عن كلامه عليه السلام.

أمير المؤمنين عليه السلام: »ابذل لصديقك نفسك ومالك».

الحكيم: «وفيما بينك وبين صديقك الرضاء».

ابن المقفع: «أبـذل لصـديقك دَمَك ومالك». وبالتالي فإنّ هـذا الحكيم إما هو أمير المؤمنين عليه السـلام، بعد أن غُيِّر في كلامه المذكور، وإمّا شخص كانت مرجعيته كلام الإمام عليه السلام، وفي كلِّ الأحوال أصل هذا كلّه هي وصية أمير المؤمنين عليه السلام المذكورة.

وأمّا من يطالع مجموعة المغريات التي أمر ابن المقفع باجتنابها «تحرّزْ من سُكر السُّلطان و سُكر المالِ وسُكر المنزلة وسكر الشباب، فإنّه ليس هـذا شـيءُ إلاّ وهو ريحُ جِنّةٍ تسـلُبُ العقل، وتذهب بالوقار، وتصـرفُ القلب والسـمعَ والبصـرَ واللسانَ إلى غير المنافع»(1) فسيجد عباراتٍ عدّة منها مضمّنة نصيًّا من حكمة أمير المؤمنين عليه السلام:

«يَنْبغي للعاقلِ أن يحترِسَ من سُكرِ المالِ و سُكرَ القُدرَةِ و سُكر العلم وسكر الشباب، فإنّ لكَلّ ذلك ريحاً خبيثةً تسلِبُ العقلَ وتستَخِفُّ الوقارَ»(2).

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

ص: 268

1- الأدب الصغير والأدب الكبير 96 - 97

2- غرر الحكم ودرر الكلم 242

«كان أمير المؤمنين (صلوات الله عليه) يقول: ليجتمع في قلبِكَ الافْتِقارُ إلى النّاسِ والاستغناءُ عنهم، يكونُ افتقارُكَ إليهم في لين كلامِكَ، وحْسْنِ بشرِك، ويكونُ استِغْناؤُك عنهُم في نزاهَةِ عِرضِكَ، وبقاءِ عزَّكَ»(1).

فقد أكّدَ عليه السلام على معانٍ ساميةٍ، وأعطى منهاج عمل وطريقة تصرف رائعة بين الفرد ومجتمعه موظفاً فن المقابلة من أجل إيصال المعنى بطريقة مؤثرة، فهو من جهة يأمر بالافتقار إلى الناس والتودد لهم من خلال أعمالٍ تسمح بذلك كلين الكلام، وبشاشة الوجه، ومن جهة أخرى أمر بالاستغناء عن النّاس من خلال صون العرض وعيش العز، لأنّ مثل العرض والعز لا يمكن التقرّب على حسابهما إلى أيِّ جهة كانت.

وجد ابن المقفع ضالته في هذه الحكمة؛ فنظمها في عقد حكم الأدب الكبير بنصها، فقال: «ولْيجتمعْ في قلبكَ الافتقارُ إلى النّاسِ والاستغناءُ عنهم، وليكنِ افتقارُكَ إليهم في لين كلمتك لهم، وحُسنِ بشرِكَ بهم. وليكُنْ استغناؤك عنهم في نزاهةِ عرضِك، وبقاء عِزّك»(2).

وقال عليه السلام في بيان فضل العقل على القول:

«إنّ فضلَ القولِ على الفعل لُهجنَةٌ، وإنَّ فضلَ الفِعْلِ على القولِ لَجمالٌ وزينَةٌ»(3).

ضمن ابن المقفع هذهِ الحكمة في الأدب الكبير فقال: «فإنّ فضلَ القول على

ص: 269

1- الكافي 2 / 149، وينظر: معاني الأخبار 267
2- الأدب الصغير والأدب الكبير 126
3- غرر الحكم ودرر الكلم 233

الفعل عارٌ وهجنة، وفضلَ الفعل على القول زينةٌ»(1).

ومن أكثر حكم الإمام أثراً في الأدب الكبير قوله عليه السلام في وصف أخٍ لهُ:

«كَانَ لِي فِيمَا مَضَى أَخٌ فِي اللهِ، وَكَانَ يُعْظِمُهُ فِي عَيْنِي صِغَرُ الدُّنْيَا فِي عَيْنِهِ. وَكَانَ خَارِجاً مِنْ سُلْطَانِ بَطْنِهِ، فَلاَ يَشْتَهِي مَا لاَ يَجِدُ، وَلاَ يُكْثِرُ إِذَا وَجَدَ. وَكَانَ أَكْثَرَ دَهْرِهِ صَامِتاً، فَإِنْ قَالَ بَذَّ الْقَائِلِينَ، وَنَقَعَ غَلِيلَ السَّائِلِينَ، وَكَانَ ضَعِيفاً مُسْتَضْعَفاً! فَإِنْ جَاءَ الْجِدُّ فَهُوَ لَيْثُ غَاب، وَصِلُّ وَادٍ، لاَ يُدْلِي بِحُجَّة حَتَّى يَأْتِيَ قَاضِياً، وَكَانَ لاَ يَلُومُ أَحَداً عَلَى مَا يَجِدُ الْعُذْرَ فِي مِثْلِهِ، حَتَّى يَسْمَعَ اعْتِذَارَهُ؛ وَكَانَ لاَ يَشْكُو وَجَعاً إِلاَّ عِنْدَ بُرْئِهِ؛ وَكَانَ يقُولُ مَا يَفْعَلُ وَلاَ يَقُولُ مَا لاَ يَفْعَلُ؛ وَكَانَ إذَا غُلِبَ عَلَى الْكَلاَمِ لَمْ يُغْلَبْ عَلَى السُّكُوتِ، وَكَانَ عَلى مَا يَسْمَعُ أَحْرَصَ مِنهُ عَلى أَنْ يَتَكَلَّمَ؛ وَكان إذَا بَدَهَهُ أَمْرَانِ نَظَرَ أَيُّهُمَا أَقْرَبُ إِلَى الْهَوَى فَيُخَالِفُهُ، فَعَلَيْكُمْ بِهذِهِ الْخَلاَئِقِ فَالْزَمُوهَا، وَتَنَافَسُوا فِيهَا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِيعُوهَا فَاعْلَمُوا أَنَّ أَخْذَ الْقَلِيلِ خَيْرٌ مِنْ تَرْكِ الْكَثِيرِ»(2).

وهذهِ الحكمة امتازت بالطول نوعا ما، لأنها قائمة على وصف شخصٍ معين عُرِفَ بأخلاقه النبيلة لا يرغب أمير المؤمنين عليه السلام بذكر إحداها وترك الأخرى لذا طال الكلام فيها، إلاّ أنّ وحدة الموضوع سمة بارزة فيها تجلت في التركيز على بيان صفات ذلك الأخ الذي اخُتلِفَ فيه من هو، فقال قوم: هو رسول الله صلى الله عليه وآله واستبعده آخرون لقوله: «كان مستضعفاً» فإن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله لا يُقال في صفاته مثل هذه الكلمة، وقال قوم: هو أبو ذرٍ الغفاري، وقال غيرهم هو المقداد، وذهب غيرهم إلى إن أمير المؤمنين عليه السلام لم يُشر إلى أخٍ معيَّن،

1- الأدب الصغير والأدب الكبير 103

2- نهج البلاغة 605 - 606

ولكنّه كلامٌ خارج مخرج المثل(1).

كان ابن المقفع شديـدُ التأثر بهـذه الحكمة وعلى طول الأدب الكبير لما اجتمع فيها من عبقرية فَذّةً تجلت في الوصف الدقيق الرائع المعبّر عن أغزر المعاني(2) بفنون بلاغية عدّة منها: أسـلوب الأخبار الذي ابتدأ به الحكمة، و هذا الأسـلوب موائم مع الحكمة تماماً، لأنّ غرضها الرئيس هو الإخبار وبيان صفات ذلك الممدوح الذي وصفه أمير المؤمنين عليه السلام بالأخ.

ثمّ ما فيها من فنون أخرى كالكناية في قوله: «خارجاً من سلطان بطنه وهو كنايةٌ عن الخروج من أسر الشهوة والرذيلة إلى فضيلة العفّة(3).

والتشبيه «فإن جاء الجدُّ فهو ليث الغاب وصل واد»... فضـلاً عن الفنون البديعية المتعددة من تكرار متعدد الطرق. مرة باللفظ نفسه «وكان يقول ما يفعل، ولا يقول ما لا يفعل» إذ ذكر الفعل المضارع «يقول» » مرتين وكذلك «يفعل»، لبيان رجاحة القول على الفعل، ورذالة القول إذا اقتصـر عن الفعل. وأخرى كرّر الفعل نفسهُ ولكن مرة بالمضارع وأخرى بالماضي «.. ما لا يجد، ولا يكثر إذا وجد «. وثالثة كرّرَ الأسماء «وكان يعظّمُه في عيني صـغرُ الدنيا في عينهِ» وفي الجملة هذهِ فضـلاً عن تكرار «عيني – عينهِ» أسـلوب التقديم والتأخير إذ قدّم عليه السلام فعل الإمام هذا للتأكيد على عظمة ذلك الممدوح، ولأنّ الغرض الرئيس الذي جاءت من اجلهِ الحكمة هو التعظيم والتبجيل،

1- ينظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 19 / 109

2- ينظر: شرح ابن ميثم 5 / 471

3- م 0 ن 5 / 471

فضلاً عن استعماله – لأجل هذا البيان – الجملة الفعلية وبالتحديد الفعل المضارع «يعظم» لما فيه من دلالة على الحركة والاستمرارية. أمّا طباق الإيجاب الـذي وردَ في هـذا المقطع والمتمثل العظم والصـغر، فكان عماد معناه، إذ أنّ هناك علاقـة عكسـية مفادها إن صـغر الدنيا وتحقيرها في عينِ الممدوح، ولَّد لهُ٬ه عظم المنزلة عند أمير المؤمنين عليه السلام.

وسجع بأنواع متعددة، فمرّة السجع المتفق بالفاصلة والوزن «فإن قال بذ-القائلين، و نَقع غليل السائلين».

وأخرى متفق بالفاصلة دون الوزن «فلا يشتهي ما لا يجد، و لا يكثر إذا وجد «. ف «يجد – وجد «بينهما أتفاق في الفاصلة دون الوزن.

وثالثة متفق بالوزن دون الفاصلة «أنّ اخذ القليل خيرٌ من تركِ الكثير»، «فهو ليث غاب، وصلٌّ وادٍ».

فقد اتفق «قليل – كثير» بالوزن دون الفاصلة، ومثلهما »غاب – واد». كانت هذهِ وقفة قصيرة مع صياغة النص الفنية.

وفي هـذا التنـاغم العميق بين المضـمون والفن وجـد ابن المقفع ضالّتَهُ وجعل من تلك الحكمـة مسك الختام للأدب الكبير فقال: «وإني مخبركَ عن صاحبِ لي كانَ من أعظمِ الناسِ في عيني، وكان رأسُ ما أعظمه في عيني صـغر الدنيا في عينهِ: كان خارجاً من سلطانِ بطنهِ، فلا يتشـهى ما لا يجـدُ، ولا يكثرُ إذا وجـدَ، وكان خارجاً من سـلطانِ فرجهِ، فلا يـدعو إليه ريبةً، ولا يسـتخف له رأياً ولا بدناء وكان خارجاً من سلطان لسانهِ، فلا يقولُ ما لا يعلمُ، ولا يُنازعُ في ما يعلمُ، وكان خارجاً من سلطانِ الجهالةِ، فلا يقدمُ أبداً إلا على ثقةٍ بمنفعة.

ص: 272

كان أكثر دهرِهِ صامتاً. فإذا نطق بذّ الناطقينَ.

كان يرى متضاعفاً مستضعفاً، فإذا جاء الجد فهو الليثُ عادياً.

كان لا يدخلُ في دعوى، ولا يشتركُ في مراءٍ، ولا يدلي بحجةٍ حتى يرى قاضياً عدلاً وشهوداً عدولاً.

وكان لا يلوم أحداً على ما قد يكون العذرُ في مثلهِ حتى يعلمَ ما اعتذارهُ.

وكان لا يشكو وجعاً إلا إلى من يرجو عندهُ البرء.

وكان لا يستشير صاحباً إلى من يرجو عندهُ النصيحةِ.

وكان لا يتبرمُ، ولا يتسخطُ، ولا يشتهى، ولا يتشكى.

وكان لا ينقمُ على الولي، ولا يغفلُ عن العدو، ولا يخص نفسهُ دونَ إخوانهِ بشيءٍ من اهتمامهِ حيلتهِ وقوتهِ.

فعليكَ بهذه الأخلاقِ إن أطقت، ولن تطيق، ولكن أخذ القليلِ خيرٌ من تركِ الجميعِ»(1).

وما دمنا بين النصيّن المذكورين بودّ الباحث أن يفرغ من أمرين هامين هما:

الأمر الأول:

إن متأمل النصّين بدقة يجد غالبية كلام ابن المقفع تضمينا نصيا من الحكمة، ويجد أيضًا إنّ ابن المقفع قد مسّ حكمة أمير المؤمنين عليه السلام مرّةً بزيادةٍ عليه، وأخرى بحذف منها.

أما الزيادة فهو أسلوب واضح يلجأ إليه ابن المقفع في أحايين كثيرة مع كلام

1- الأدب الصغير والأدب الكبير 133 - 134

أمير المؤمنين عليه السلام الذي يضمّنه في رسائِلهِ، وهي هنا كثيرة ومنها قوله: «كانَ لا يدخُلَ في دعوى، ولا يشترك في مَراءٍ، ولايُدْلي بحُجةٍ حتى يرى قاضياً عدلاً وشهوداً عدولاً».

وما هذا إلا تَوسعاً لإحدى فقر حكمة الإمام عليه السلام: «لا يُدْلي بحُجّةٍ حتى يأتي قاضياً» فأخذَ ابن المقفع هذا وبدأ يفصل: أن لا يدخل ذلك الصاحب في دعوى إلا إذا وجَد قاضياً، والقاضي ينبغي كونه عادلا، ومعه شهود، والشهود يجب توافر العدالة فيهم.

وأمّا الحذف، فإن فقرات حكمة أمير المؤمنين عليه السلام والتي لم يذكرها ابن المقفع في حكمته المذكورة لم يُفرّط بها لكنّه ذكرها سابقاً، وجعلها متناثرة على طول الأدب الكبير. وهي كالأتي: فقول أمير المؤمنين عليه السلام: «وكان على ما يسمع احرَص ـمنه على أن يتكلّمَ «نجده في وسط الأدب الكبير «وليعرف العلماء حينَ تُجالِسُهم أنّكَ على أن تسمعَ أحرص منك على أن تقول»(1).

وقوله عليه السلام:

«وكان إذا غُلِبَ على الكلامِ لم يُغْلَبْ على السكوت».

لم يغفله ابن المقفع، بل ضمّنه إحدى مقاطعه متوسّعاً فيه من خلال تبيان محاسن السكون «وإن غلبتَ على الكلامِ وقتاً فلا تغلبن على السكوتِ، فإنهُ لعلهُ يكونُ أشدهما لكَ زينةً، وأجلبهما إليكَ للمودةِ، وأبقاهُما للمهابةِ، وأنفاهما للحسدِ»(2).

1- الأدب الصغير والأدب الكبير 99

2- م 0 ن 126

وهكذا فعل ابن المقفع مع قوله عليه السلام:

«وكان إذا بدَهَهُه أمرانِ ينظُرُ أَيُّهُمَا اقرب إلى الهوى فَيُخالِفُهُ».

وبـدهه: إذا خطَرَ بباله أمران دفعةً من غير سابقة(1). رأى أيهما تسـتهويه نفسه أكثر فعمل بالآخر الـذي يشقُّ عليها، ولعله كان منطلقًا من قولِهِ تعالى:

«إنَّ انَّفسَ لأَمَّارةٌ بالسُّوءِ»(2).

ضمّن ابن المقفع هذا المقطع من حكمة الإمام عليه السلام في نهاية الأدب الكبير بتحويرٍ بسيط مع زيادة عليها، فقال: «إذا بَدَهَكَ أمران لا تدري أيُّهُما أصوَب فانظرْ أيُّهما اقربُ إلى هواك فخالِفْهُ، فإنَّ أكثرَ الصواب في خلاف الهوى»(3).

وإما قوله عليه السـلام: «وكان يقول ما يفعل ولا يقول ما لا يفعل». فقـد ضـمّنه ابن المقفع في وصاياه التي دعا فيها إلى تقـديم الفعل على القول فقال: «وليعرف إخوانك والعامةُ أنكَ، إن استطعتَ، أن تفعلَ ما لا تقولُ أقربُ منك إلى أن تقولَ ما لا تفعلُ»(4).

الأمر الثاني:

إنّ الأسـتاذ المرحوم محمـد كرد علي وبعـد أن قرأ نص الحكمـة العلوية في نهج البلاغة، وقرأها عند ابن المقفع، شـكّك بمرجعيتها لأمير المؤمنين عليه السلام مدّعياً بأنها لابن المقفع، فقال في استدراكه الذي جعله في آخر كتاب (أمراء البيان):

1- شرح نهج البلاغة لابن ميثم 5 / 471
2- سورة يوسف 53
3- الأدب الصغير والأدب الكبير 126
4- م 0 ن 103

«أنّ صفة الرّجل الكامل الذي عرفه ابن المقفع قد استحسنها بعض المتأخرين فأدمجوها في الكتاب الذي كسروه على كلام الخليفة الرابع»(1). وقال: «فإنّ نصّ عبارة ابن المقفع مُعلنةً عن نفسها بأنّه عرف رجلاً هذهِ صفاته الحسنة فوصفه ولا يعقل أن يأخذ كلاماً لغيره ويستحلَّ نسبته إليه خصوصاً إذا كان من الكلام المأثور المعروف صاحبه ثمَّ إنّ يتيمتهُ اشتهرت قبلَ أنْ يؤلَّفَ نهج البلاغة بنحو قرنين ونصف»(2).

والباحث يدحض هذا بما يأتي:

1 - الأستاذ قال عن الحكمة: «استحسنها بعض المتأخرين فأدمجوها في الكتاب..» وهذا الكلام فيه انتقاص واضح من المقابل، إذ إنّه يرمي الآخرين بالانتحال لمجّرد استحسانهم لكلام ما وسرقة ذلك الكلام ونسبه لأمير المؤمنين عليه السلام.

فهل أمير المؤمنين عليه السلام بحاجة إلى هكذا عمل شنيع تُسرق الحكمة من غيره وتُنسب لهُ؟ ثم مَنْ هذا الذي استحسنها ونسبها زوراً للإمام عليه السلام؟ فضلاً عن إنّ الكلام المُستحسن كثير جدّاً فلماذا هذهِ الحكمة بالذات أُخذت من ابن المقفع ونُسبت لأمير المؤمنين عليه السلام؟ وأما قوله بأنّ المتأخرين وضعوها في كتاب نهج البلاغة. فهذا غير مقبول أيضا، لأنّ الحكمة معروفة منذ وقت مبكر على أنّها من كلام أمير المؤمنين عليه السلام، ومعروف أيضاً إنّ ابن المقفع أخذها عنه عليه السلام. فمثلاءً قال صاحب التذكرة الحمدونية بعد أن دوّن الحكمة المقصودة: «وقد ادعى ابن المقفع أكثر

1- أمراء البيان 575

2- م 0 ن 574

هذا الكلام في رسالة له»(1).

2 – إنّ ابن المقفع لم يتأثر بهذهِ الحكمة العلوية فحسب، بل جميع رسائله المشـهورة كانت تموج بالأثر العلوي. وعليه فماذا عن عشـرات الحكم التي ضـمنها ابن المقفع في نتاجا ته هل كلُّها من الحكم التي »استحسنها بعض المتأخرين فأدمجوها في الكتاب الذي كسروه على كلام الخليفة الرابع..»؟ 3 – وبالنسـبة لقوله: «فإنّ نصَّ عبارة ابن المقفع معلنة عن نفسها بأنّه عرف رجلاً هذهِ صفاته... «. فهذا ليس دليلاً، فإن كان هذا دليلاً؛ فإنّ حكمة الإمام أيضاً معلنةً عن نفسـها بأنّه عرف رجلاً هذهِ صـفاته. وممّا يؤكد ذلك الاهتمام المكثف بمعرفة شخص ذلك الصاحب. ولذا قيلت فيه أقوال عدّة:

فقال قوم: هو رسول الله صلى الله عليه وآله، واستبعده قوم لقول الإمام عليه السلام:

«وكان ضعيفاً مستضعفاً»، وقال قومٌ: هو أبو ذر الغفاري، واستبعده قومٌ لقول الأمام عليه السلام: «فإن جاء الجد فهو ليث عادٍ.. «، وأبو ذر لم يكن من الموصوفين بالشجاعة، وقال قوم: هو المقداد بن الأسود وكان شجاعاً حسن الطريقة(2).

أما صاحب ابن المقفع المزعوم – وهو يحمل تلك الصـفات الفاضلة – كان من المُفترض أن يُعرف مَنْ هو، ولكن لم يبحثه احد ولم تصلنا أخبار عنه.

4 – ثم قال الأستاذ عن ابن المقفع: «ولا يعقل أن يأخذ كلاماً لغيره

1- التذكرة الحمدونية 1 / 397

2- ينظر: شرح نهج البلاغة لأبن أبي الحديد 19 / 109

ويستحلّ نسبته إليه «وهل يعقل أم لا يعقل بأنّ ابن المقفع اخذَ كلاماً لغيره، فهذه مسألة تحدثنا فيها سابقاً، وتكّل بالإجابة عنها ابن المقفع نفسه. فقد ذكر في الأدب الكبير وهو الذي وردت فيه تلك الحكمة بأنّ كلامه مأخوذ من حكم الأولين، فقال: «فلم يبقَ في جليل الأمر ولا صغيرهِ لقائلٍ بعدهم مقال، وقد بقيت أشياءُ... مشتقّ من جسام حكم الأولين وقولهم،... ضمن ذلك بعض ما أنا كاتبٌ في كتابي هذا من أبواب الأدب التي يحتاج أليها النّاسُ»(1).

وقال في هذا الغرض أيضاً: «وأحسنُ ما يصيبُ مُحدِّثُنا أن ينظرَ في كُتُبِهم فيكون كأنه إياهم يحاور،.. وأثارَهُم يتّبع»(2).

فالمحسن عند ابن المقفع من يتأثر ب «حكم الأولين» - وسنعرف الأولين من هم أكثر فأكثر - إذاً لماذا لا يعقل أن يأخذ ابن المقفع كلاماً لغيرهِ؟ ثم أليس الأستاذ المرحوم هو الذي أعترف وأكّد في ترجمته لأبن المقفع بأنّ حكمه منقولة، ولم يكن أبا عذرتها(3).

فهل نقل الحكم هذا - بنظر المرحوم - جائز عن غير الإمام فقط؟ أم يجوز عنه عليه السلام، وإذا جاز ذلك لماذا رفع لواء التشكيك لمّا وجد أولَّ تماثل بين الكلاميين؟ 5 - تحدث الأستاذ عن «الكلام المأثور المعروف صاحبه». وهو بهذا عدَّ الحكمة المذكورة مأثورة عن ابن المقفع أكثر منه عند أمير المؤمنين عليه السلام، وهذا مجانب للصواب جملةً وتفصيلاً، لأنّ - وبحسب إطّلاع الباحث - جميع من

1- الأدب الصغير والأدب الكبير 65

2- م 0 ن 64

3- ينظر: أمراء البيان 112

رواها إمَّا عن أمير المؤمنين، وإمّا عن الإمام الحسن عليهم السلام، وهناك من رواها في كتاب واحد مرّةً عن الوالد وأخرى عن الولد عليهم السلام.

فمن المصنفات التي روتها عن أمير المؤمنين عليه السلام ما يأتي: - نهج البلاغة(1) - التذكرة الحمدونية(2) - ربيع الأبرار(3) - غرر الحكم ودرر الكلم(4) - أعيان الشيعة(5) ومن المصنفات التي روت الحكمة عن الأمام الحسن عليه السلام ما يأتي: - عيون الأخبار(6) - الكافي(7) - تأريخ بغداد(8) - تحف العقول عن آل الرسول(9) - البداية والنهاية(10) أما المصنّفات التي روتها عن الإمامين معاً فمنها:

- ميزان الحكمة، فقد وردت فيه مرّة عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام(11)، وأخرى

ص: 279

1- ينظر: نهج البلاغة 605 - 606

2- ينظر: التذكرة الحمدونية 1 / 397

3- ينظر: ربيع الأبرار 1 / 308

4- ينظر: غرر الحكم ودرر الكلم 540

5- ينظر: أعيان الشيعة 1 / 577

6- ينظر: عيون الأخبار 2 / 383

7- ينظر: الكافي 2 / 237

8- ينظر: تأريخ بغداد 12 / 311

9- ينظر: تحف العقول 262

10- ينظر: البداية النهاية 8 / 43

11- ينظر: ميزان الحكمة 2 / 264

عن الإمام الحسن عليه السلام(1).

- بحار الأنوار، وردت فيه مرّة عن أمير المؤمنين عليه السلام(2)، وأخرى عن الإمام الحسن عليه السلام(3).

والـذي يراه الباحث إنّ الحكمـة لأمير المؤمنين استشـهد بها من بعـدهِ ولده الحسن عليهم السـلام وهذا أمر طبيعي جداًء ولهذا منهم من سمعهـا عن الوالـد فرواها عنه، ومنهم من سـمعها عن الولـد ورواها عنه. وما جاء في كتاب مشـكاة الأنوار يؤيـد هـذا ويحلّ النزاع إذ ورد فيه:»من كلام أمير المؤمنين عليٍّ، خطبَ بهِ الحسنُ بن عليٍّ عليهم السلام فقال:

«أيّهـا النّـاس إنّما أُخبِرُكم عَنْ أخٍ لي، كانَ مِنْ أعظَمِ النّاس في عيني، وكانَ رأسُ ما عَظُمَ بهِ في عَيْني صِـغَرُ الـدُنيا في عينه، وكانَ خارجاً من سُلطان بِطْنهِ...»(4).

وعليه فهل يعقل ترك هذهِ الروايات والتي جاءت من مصادر مهمة في التراث الإسـلامي، ومنها ما هو سبق نهج البلاغة زمناً، ومنها معاصر له، ومنها متأخر عنه والأخذ بمجرد شكٍّ للمرحوم محمد كرد علي.

6- أما قوله: بأنّ اليتيمة اشتهرت قبل أن يؤلَّف النهج، فلم يعد حجة، لأنّها وإن جاءت قبل النهج، إلاّ أنّها تبقى متأخرة عن كلام الإمام عليه السلام بما يقارب المائة عام، وبعبارة أخرى إن إن كلام أمير المؤمنين عليه السلام سابق لكلِّ كلام ابن المقفع

1- ينظر: م 0 ن 1 / 47

2- ينظر بحار الأنوار 75 / 108

3- ينظر: م 0 ن 110 / 35

4- مشكاة الأنوار 421

زمناً، وبلاغةً، وتأثيراً.

7 – حاول المرحوم محمد كرد علي أن يدعم شكَّه في الحكمة العلوية وعدم عائديتها لأمير المؤمنين عليه السلام بتصريح ظاهرهُ صحيح وباطنه عليل، فقال: «وقد اعترف ابن أبي الحديد شارح نهج البلاغة بأنّ ما عزي إلى أمير المؤمنين عليه السلام هو من كلام غيره من الحكماء...»(1) وهنا أودُّ الحذر والنظر بدقة. فالحكمة التي هي مدار الحديث الآن مدوّنة في نهج البلاغة، وابن أبي الحديد أكد مِراراً وتكراراً وبطرق عدة بأنَّ ما جاء بين دفتيّ النهج قطعي الصدور عن أمير المؤمنين عليه السلام، ولا غبار على ذلك وحمل حملاتٍ على من شككّوا فيه ووصفهم بأنّهم «أقوام أعمتْ العصبيّة أعيُنَهم، فضلّوا عن النهج الواضح وركبوا بنيّاتِ الطريق، ضلالاً وقلة معرفة بأساليب الكلام...»(2). إذاً كيف يستدل محمد كرد علي على شكّه في هذهِ الحكمة بكلام ابن أبي الحديد وهو يخالفهُ جملةً وتفصيلاً.وهذا الرأي الذي تحدثَ فيه المرحوم هو موجود فعلاً في شرح نهج البلاغة، ولكن أنّى هي طريقة وجودهِ وأين؟ بعدَ أن فرغَ ابن أبي الحديد من شرح النهج تبرّع بجمع بعض كلام أمير المؤمنين عليه السلام وقال: «ونحنُ الآن ذاكرون ما لم يذكره الرّضي ممّا نسبه قوم إليه – يعني إلى الإمام – فبعضٌ مشهورٌ عنه، وبعضهُ ليس بذلك المشهور، لكنّه روي عنه، وعُزِيَ إليه..»(3).

فكلام المعتزلي هذا لا يقصد بهِ ما جاء في نهج البلاغة مطلقا، بل صرّح بملء

1- أمراء البيان 2 / 574
2- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 10 / 303
3- م. ن 20 / 420 - 421

فيه وأكـد على انّه قصد بهذا الحديث الحكم الألف التي جمعها هو »فوجدناه ألف كلمة«(1). ومن هذا يتضح أن محمد كرد علي إمّا وقعَ في لبسٍ واشـتباه، أو أراد أن يخلط الأوراق ليثبتَ ما يراه ولعل الأولى أقرب. وعلى كلِّ الأحوال لا يحق مطلقاً للأديب أن يستدل بقول ابن أبي الحديد هذا على أيّ نصٍّ من نصوص نهج البلاغة لما عرفتَ.

8 - هناك دليل قاطع ولا يحيـد على أنّ الحكمـة كانت موجودة قبل ابن المقفع، وهـذا الـدليل قائمٌ على التأثير والتأثر، فقول أمير المؤمنين عليه السـلام في الحكمـة المذكورة: «وَكانَ عَلى مَا يَسْمَعُ أَحْرَصَ مِنهُ عَلى أَنْ يَتَكَلَمَ» أخذهُ الحسن البصـري، فقال: «فكن على أن تسـمعَ أحرصَ منـك على أن تقول»(2). والبصـري متوفى سنة (110 ه)، وابن المقفع مولود سـنة (106 ه) بمعنى إنّ البصـري توفي وللأخير أربع سنوات مع العمر، وهو بالتأكيد في هذه المدَّة لم يسـمع بالبصـري، ولم يره، وعليه فلا شكَّ بوجود الحكمة قبل ابن المقفع، بل وإنّها كانت معروفة ومؤثِّرة، ولذا تأثر بها البصري. مع جدير التنبيه إلى أن هذا المقطع مما ضمنه ابن المقفع أيضًا، وأشرنا إليه سابقًا.

وبعـد هـذا تجدر الإشارة إلى أنَّ محمد كرد علي يقال عنه قد غيّر رأيه وتلاشت شـكوكه في نهج البلاغة(3). وهذا ما يراه الباحث مستدلا بقول الأسـتاذ في مقاله الذي يحمل عنوان» الإنشاء والمنشـئون«: »إذا أردنا أن نحكم على المنشئين بما انتهى إلينا من خطبهم، ورسائلهم، ومحاوراتهم، ومصنّفاتهم، وبدأنا بأهل

1- م. ن 20 / 421

2- البيان والتبيين 2 / 373

3- ينظر: مع المشككين في نهج البلاغة 97

القرن الأول للهجرة، نرى على رأسهم أمير المؤمنين عليّ ابن أبي طالب (كرم الله وجهه)، فأنه سيدُ البلغاء على الإطلاق وواضع البيان العربي... ونهج البلاغة الذي جمعه الشّريف الرّضي من كلامه وشرحه ابن أبي الحديد كتاب الدهر الخالد...»(1).

وقال: «وإذا طلبت البلاغة في أتمّ مظاهرها، والفصاحة التي لم تشبها عجمة، فعليك بنهج البلاغة الذّي فيه خطب أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام ورسائله إلى عمّاله...»(2).

2 – التضمين المحوّر:

لقد ورد هذا النوع من التضمين في أماكن عدّة من رسالة الأدب الكبير، وكان لعهد الإمام علي عليه السلام لمالك لأشتر (رضوان الله عليه) نصيبٌ وافر من هذا النوع من التضمين، فكان ممّا نهى عنه عليه السلام هو الاحتجاب عن النّاس وبيّن نتائج الاحتجاب(3) المهلكة، ثمّ بيّن إنّ لا مبرِّرَ للاحتجاب، فقال:

«وَإِنَّمَا أَنْتَ أَحَدُ رَجُلَيْنِ: إِمَّا امْرُؤٌ سَخَتْ نَفْسُكَ بِالْبَذْلِ فِي الْحَقِّ، فَفِيمَ احْتِجَابُكَ مِنْ وَاجِبِ حَقٍّ تُعْطِيهِ، أَوْ فِعْلٍ كَرِيمٍ تُسْدِيهِ، أَوْ مُبْتَلَىً بِالْمَنعِ، فَمَا أَسْرَعَ كَفَّ النَّاسِ عَنْ مَسْأَلَتِكَ إِذَا أَيِسُوا مِنْ بَذْلِكَ»(4).

أخذ ابن المقفع هذا بتقسيماتهِ، ولكن وظّفه في وصيته للوزير لمّا أوصاه بالرفق بنظرائه قائلاً: «فإنما أنت في ذلك أحدُ رجُلين: إمّا أن يكونَ عندك فضلٌ

1- مجلة تراثناع 1 / 34
2- م. ن ع 1 / 34
3- وهذا أيضاً ما أخذه ابن المقفع ولكنه جعله في مكان آخر سنوضحه في نقطة التلفيق
4- نهج البلاغة 517

على ما عند غيركَ، فسوف يبدوُ ذلك ويحتاجُ إليهِ ويلتمسُ منكَ وأنتَ مجملٌ.

و إمّا ألاّ يكون ذلك عندكَ»(1).

فالنصّان يتكونان من ثلاث فقرات هي:

الأولى: وفيها تضمين لم يزد فيه ابن المقفع على كلام أمير المؤمنين عليه السلام إلاّ اسم الإشارة «ذلك»:

«إنما أنت احد رجلين «أمير المؤمنين عليه السلام «إنما أنت في ذلك احد رجلين» ابن المقفع الثانية: الجود والعطاء وهنا ازداد التحوير:

«إما امرؤ سخت نفسُكَ بالبذل» عند أمير المؤمنين عليه السلام «إمّا أن يكونَ عندكَ فضلٌ.. على غيرك» عند ابن المقفع الثالثة: المنع:

«أو مبتلى بالمنع» عند أمير المؤمنين عليه السلام «وأمّا أن لا يكون ذلك عندك» عند ابن المقفع و »ذلك» إسم إشارة أشار بهِ ابن المقفع إلى الفضل أو الجود الذي يجود بهِ الرجل على غيرهِ - وهذهِ من طرق التمويه عند ابن المقفع على كلام الإمام عليه السلام - وعليه يكون الكلام: وإما أن لا يكون لكَ فضلٌ على غيرك، وعندها يكون كلامه أكثر شبهًا بكلام أمير المؤمنين عليه السلام «مبتلى بالمنع».

وبعمق نظرٍ من أمير المؤمنين عليه السلام ونتيجة لإهتمامه بالوالي والرعية على حدٍّ

1- الأدب الصغير والأدب الكبير 90

سواء وشدِّ أواصر المودة بينهم، وجّه واليه إلى مَا مِن شأنه أن يؤدي إلى ذلك ومنه حسن الظنّ «وذلك إنّ الوالي إذا أحسنَ إلى رعيتِهِ قويت رغبتهم فيه وأقْبَلوا بِطباعِهم على محبّتهِ وطاعتِهِ، وذلكَ يَسْتَلْزِمُ حُسنَ ظَنّهِ بهم»(1) فقال عليه السلام:

«فليكُن منكَ في ذلك أمرٌ يجْتَمعُ لَكَ بهِ حُسْنُ برعيّتَكَ، فإنَّ حُسْنَ الظّنِّ يقطَعُ عنكَ نصباً طويلاً»(2).

أتى ابن المقفع على هذا المعنى وبعض ألفاظه مع تحوير عليها، فقال: «لا يُولَعَنَّ الوالي بسوءِ الظنِّ لقولِ النّاس، وليجعلْ لحُسنِ الظّنِّ من نفسهِ نصيباً موفوراً يروِّحُ عن قلبه، ويُصدِرُ عنهُ في أعماله»(3).

أكدَّ أمير المؤمنين عليه السلام على حسن الظن من خلال لام الأمر المسبوقة بالفاء. لأن الفاء أو الواو إذا اقترنت أحداها بلام الأمر ينتجان أمراً ابلغ مما لو كانت اللام وحدها. وبتغير طفيف افتتح ابن المقفع فقرته بلا الناهية ناهياً عن سوء الظن.

وهذا بمفردِ ه لا .« حسن الظن » والنقطة الدالة التي يلتقي عندها الطرفان هي «حسن الظن». وهذا بمفردهِ لا يمكن لعاقل أن يدعي بأنه أثر علوي خالص إلاّ إذا عُزز بأدلة أخرى. فبعد أن أمر أمير المؤمنين عليه السلام بحسن الظن عللّ أن حسنَ الظن يجعلك في رَوح ويبعدُ

ص: 285

1- شرح نهج البلاغة لابن ميثم البحراني 5 / 339

2- نهج البلاغة 504

3- الأدب الصغير والأدب الكبير 71. والذي يجعلنا نؤكد بلا شك إنّ هذا مما أخذه ابن المقفع من كلام أمير المؤمنين عليه السلام المذكور هو تضمينه للفقرة العلوية التي وردت قبل هذهِ المذكورة تضميناً أشبه ما يكون نصيباً إلاّ انه أبعدها بعيداً جداً حيث وضعها في الأدب الصغير وليس هنا فيالأدب الكبير وستعرف في مكانها

عنك التعب الشديد «نصباً طويلاً». ولم يحِدْ ابن المقفع عن هذا بل سار عليه وبرّرَ دعوته عادّاً حسن الظنِّ يروّح عن القلب.

والباحث يرى في كلام ابن المقفع السالف شيئاً من الربكة. فما إن نهى عن سوء الظنِّ «لا يولعنَّ الوالي بسوء الظن» سرعان ما عاد وأمر بحسن الظن «وليجعلْ لحُسنِ الظّنِّ من نفسهِ نصيباً موفوراً «وهذا تكرار لا طائل منه لأنَّ المعنى واحدبين الجملتين تماماً.

وبهذه الطريقة نستجلي التحوير الذي أجراه ابن المقفع على فقرة العهد العلوي أكثر فقوله: «لا يولعنّ الوالي» من قوله عليه السلام: «فليكن منك» والكاف في قول أمير المؤمنين عليه السلام «منك» تدلُّ على «الوالي» الذي ذكره ابن المقفع صراحةً. وقوله «وليجعل لحسن الظن نصيبًا موفوراً» من قوله عليه السلام: «يجتمع لك به حسن الظن»، وقوله: «يروّح بهِ عن قلبه» من قوله عليه السلام: «يجتمع لك به حسن الظن»، وقوله: «يروّح بهِ عن قلبه» من قوله عليه السلام: «يقطع عنك نصيبًا طويلاً»؛ فالمعنى واحد بين كلّ هذه الفقرات، فضلا عن ألفاظ بنصها. ومن حكم أمير المؤمنين عليه السلام التي ضمنها ابن المقفع بهذهِ الطريقة قوله عليه السلام:

«صاحبُ السُّلطانِ كراكبِ الأسدِ يُغبَطُ بموقعهِ وهو اعلمُ بموقعِهِ»(1).

فقد شبه صاحب السلطان براكب الأسد، النّاس تتمنى منزلته التي هو عليها من القرب والتنعّم بأنعام السلطان، لكنَّه بقرارة نفسه متهيب من تلك المنزلة، لما يعلم من أنّ ليسَ للسلطان مودة دائمة.

ضمّن ابن المقفع هذهِ الحكمة، ولكنّه خاطب بها السلطان وليس صاحبه فقال: « تضبط أمورك وتصول على عدوِّك بقومٍ لست منهم على ثقةٍ

1- نهج البلاغة 520

من دين ولا رأي ولا حفاظ من نيَّةٍ... فإنما أنت في ذلك كراكبِ الأسدِ الذي يهابه من نظرَ إليه، وهو لمركبه أهيبُ»(1).

ثانياً: التلفيق

التلفيق لغة من اللَّفقِ بمعنى «خياطة شُقّتين تلفقُ إحداهما بالأخرى لفقاً والتلفيق أعم فإن انفصلت الشقتين يقال: انفصل لفقهما فلا يلزمه اسم اللفق قبل الخياطة»(2).

وهذا المعنى ما أقربه من المعنى الاصطلاحي، فبدل جمع شقتي قماش جمع نصين أدبيّين أو أكثر عندها يكون النص مُلفقا.

وعرفهُ أسامة بن منقذ (ت 584 ﻫ)، فقال: «هو أن يكون البيت مُلفّقاء من أبياتٍ قبله»(3) وعلى الأديب في هذا الفن أن يراعي مسألة تناسب النصوص فيما بينها تناسباً لا ـ فجوة فيه، وذلك بعد أن يضمَّ إلى ذكر الشيء ما يليق بهِ ويجري مجراه، لأنّ التلفيق يُقال عنه مراعاة النظير أيضاً(4). وللتلفيق أهمية واسعة، وبخاصة في ميدان النثر، فقد قال الحريري (ت 510 ﻫ) في المقامة الفراتية: إنَّ صناعة الإنشاء مبنيّةٌ على التلفيق(5). وهو بهذه الحالة يعتمد بالدرجة الأساس على ثقافة الأديب، فكلما كانت تلك الثقافة متنوعة ومتعددة المشارب كان النصُ

ص: 287

1- الأدب الصغير والأدب الكبير 75. وينظر: أدب ابن المقفع دراسة اسلوبية 51
2- العين 5 / 165
3- البديع في نقد الشعر 201
4- ينظر: نهاية الأرب في فنون الأدب 7 / 106
5- ينظر: مقامات الحريري 217، وينظر: صبح الأعشى 2 / 316

مُتّسمًا بالتلفيق أكثر، وهو مباح أيضاً من أي نص ولأي أديب، غير أنّ وجوده في الأدب الكبير يختلف نوعاً ما لأنَّ – وبدون مبالغة – جميع التلفيقـات التي عثر عليهـا الباحث في هـذا الأدب هي من كلام أمير المؤمنين عليه السـلام. ويرى الباحث إنّ هـذا الأمر يحمل في طيّاته دلالات عدّة منها:

1 – الغرام الشديد بكلام أمير المؤمنين عليه السـلام حتى انّه فرض هيمنةً ولم يترك مجالاً لأبن المقفع أن يسـتعين بحكمة أخرى يردف بها الحكمة العلوية.

2 – فعل ابن المقفع هذا لربما لإيمانه بأنّ كلام أمير المؤمنين عليه السلام يباين باقي الكلام، وبالتالي فإنّ تلفيق كلام غريب مع كلامهِ عليه السلام سيُكتشف، أو يكون شاذاً.

3 – إيمانه بأن الموضوع الذي يريد معالجته في أدبه لا يمكن استيفاء معناه، ورواجه، إلا بتلفيق كلام أمير المؤمنين عليه السلام.

4 – قد تكون ثقافة الأديب المُلفِّق بهذه الطريقة مُقتصرة ومأخوذة من الكلام المُلفَّق.

ولا يهمنا أيّ الطرق سـلك ابن المقفع وأي المقاصـد قصـد، لأنّ النتيجـة واحدة، وهي تأثره البالغ بكلام أمير المؤمنين عليه السـلام وبهذه الطريقـة التي جعلته يردف الحكمـة العلويـة بأختها والرسالـة بالرسالة والمعنى بالمعنى.. حتى يمكن عد هذا المظهر أكبر مظاهر تأثر ابن المقفع بكلام أمير البيان عليه السلام، سواء هنا في الأدب الكبير، أو ما سيأتي في الأدب الصغير.

وبدقّةٍ أكثر فإن تلفيق ابن المقفع لكلام الإمام عليه السلام قد وردَ مكوّن من:

1 – حكمتين علويّتين:

كتب ابن المقفع في الأدب الكبير موصيًّا الوالي: «لا يُضيعين الوالي التثبت

عندما يقولُ، وعندما يُعطي.. فإنّ الرجوعَ عن الصمتِ أحسنُ من الرجوعِ عن الكلامِ، وإن العطيةَ بعد المنعِ أجملُ من المنعِ بعد الإعطاء»(1).

فابن المقفع أوصى الوالي وصدره مطمئن لأنّ ما أوصى بهِ برّره بكلام أمير المؤمنين عليه السلام. فحكمته التي هي في القول ما هي إلاّ معنى، وصياغة، وأسلوباً من وصية أمير المؤمنين لولده الحسن عليهم السلام منها:

«وتلافيكَ ما فرط من صمتك أيسر من إدراكك ما فات من منطقك»(2).

فالمعنى واحد بين النصيّن ومفاده إن المتكلم قادر على أن يتكلم بعد صمتهِ، ولكن لا يستطيع أن يعيد ما تكلّم بهِ». لأنّ الكلام يُسمع وينقل؛ فلا يُستطاع إعادتهِ صمتًا... وليسَ الصمت بمنقولٍ ولا مسموع فيُتعَذّر استدراكه»(3).

وهكذا الصياغة فهي صياغة علوية بإمتياز، فقد جعل ابن المقفع حكمته تتكون من مقطعين يفصل بينهما اسم التفضيل: «فإن الرجوع عن الصمت أسهل من الرجوع عن الكلام».

وهكذا أمير المؤمنين عليه السلام:

«تلافيك ما فرط من صمتك أيسر من إدراكك ما فاتك من منطقك».

وحتى بعد أن غيّر ابن المقفع بعض الألفاظ إلاّ أن دلالتها هي هي لم تتغير.

فقد أبدل (صمتك) ب (الصمت).

1- الأدب الصغير والأدب الكبير 78 - 79

2- نهج البلاغة 468

3- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 16 / 268

و (أيسر) ب (أسهل).

و (منطقك) ب (الكلام).

و (تلافيك) ب (الرجوع).

وأمّا قوله الأخير والذي تحدّث فيه عن العطاء، فهو تضمين نصي لحكمة أمير المؤمنين عليه السلام:

«العطيّةُ بعد المنْعِ أجملُ من المنعِ بعد العطيّةِ»(1).

وقد قال ابن المقفع وهو يلفق أيضاً من حكمتين علويتين: «واعلم أن الصبر صبرانِ: صبرُ المرءِ على ما يكرهُ، وصبرهُ عما يحب. والصبرُ على المكروهِ أكبرهما وأشبههما أن يكون صاحبهُ مضطرّاً. واعلم أن اللئامَ أصبرُ أجساداً، وأنّ الكرامَ هم أصبرُ نفوساً»(2).

فأول كلامه من حكمة أمير المؤمنين عليه السلام:

«الصبر صبرانِ: صبرُ على ما تكره، وصبرٌ عما تُحب»(3).

وبعد أن عشق ابن المقفع كلام أمير المؤمنين عليه السلام عشق تأكيده أيضاً وما ابتدأ بهِ من فعل الأمر «اعلم» – الذي غالباً ما يقدم بهِ لقول الإمام – وما عزّزه ب – «إنّ» التوكيدية، إلاّ دلالة على ذلك.

ومن عشقه البالغ لهذا الكلام رغبته في التوسع بهِ، أو شرحه حتى إنّ قوله: «والصبرُ على المكروه أكبرهما». لا يكاد يختلف عن شرح ابن

1- غرر الحكم ودرر الكلم 79

2- الأدب الصغير والأدب الكبير 110

3- نهج البلاغة 561، وينظر: أدب ابن المقفع دراسة أسلوبية 52

أبي الحديد: «النوع الأول أشقُّ من الثاني»(1)، ولربما لهذا السبب قدّم أمير المؤمنين عليه السلام الصبرَ على الضّراء على الصبر عن السرّاء، أي لجسامة الأول.

أما قول ابن المقفع الأخير فهو تضمين لحكمة أمير المؤمنين عليه السلام: «اللّئامُ أصبرُ أجسادًا»(2).

غير أنّ ابن المقفع – كعادته ـ قدّمَ لها بفعل الأمر ثم توسع عليها كأختها.

2 – ثلاث حكم علوية:

تحدث أمير المؤمنين عليه السلام عن الصداقة والصديق في أقوالٍ كثيرة؛ فمرّة يعدّ الصديق أفضل عدّةٍ لنوب الزمان، وأخرى يعده زينة في أيام الأمان، مؤكداً على أنّ من يعجز عن اكتساب الصديق فهو أعجز الناس، فقال في هذهِ المعاني:

- «إخوانُ الصدقِ أفضَلُ عدَّةٍ»(3).
- «الأَخْوَانُ زينَةٌ في الرّخاء، وعدَّةٌ في البَلاَءِ»(4).
- «أَعْجَزُ اَلنَّاسِ مَنْ عَجَزَ عَنِ اِكْتِسَابِ اَلْإِخْوَانِ وَأَعْجَزُ مِنْهُ مَنْ ضَيَّعَ مَنْ ظَفِرَ بِهِ مِنْهُمْ»(5).

جمع ابن المقفع هذه الحكم الثلاث، فقال: «اعلم أنّ إخوانَ الصدقِ هم خيرُ مكاسبِ الدنيا، هم زينةٌ في الرخاء،وعدةٌ في الشدةِ، ومعونةٌ على

1- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 18 / 311
2- غرر الحكم ودرر الكلم 260
3- عيون الحكم والمواعظ 126، ميزان الحكمة 1 / 41
4- غرر الحكم ودرر الكلم 82
5- نهج البلاغة 522

خيرِ المعاشِ والمعادِ. فلا تفرطن في اكتسابهم وابتغاء الوُصلاتِ والأسبابِ إليهم»(1).

إذاً فهذه الحكم التي فرقها الإمام جمعها ابن المقفع في نصٍّ واحد، وكان قد ابتدأها بفعل الأمر «اعلم» وهذهِ الطريقة غالباً ما يستعملها مع كلام الإمام عليه السلام الذي يضمنه. ضمّنَ من الحكمة الأولى حرفيا «إخوان الصدق». ومن الثانية حرفيا أيضاً «هم زينة في الرخاء». والضمير «هم» هنا عائد على «الإخون» واستعمال الضمير بدلاً من الاسم الصريح طريقة شائعة جداً في تعامله مع كلام أمير المؤمنين عليه السلام.

أمّا تضمينه المحور فمن الحكمة الثانية والثالثة.

ففي الحكمة الثانية قال الإمام عليه السلام:

«وعدة في البلاء».

غير فيها ابن المقفع تغيرًا طفيفاً فقال: «وعدّة في الشدة». والمعنى وحد إذ لا فرق بين الشدّة والبلاء.

وأما قول الإمام عليه السلام في حكمته الثالثة:

«أعجز الناس من عجزَ عن اكتساب الأخوان».

جعله ابن المقفع آخراً «فلا تفرطن في اكتسابهم».

والضمير «هم» هنا أيضاً عائد على الأخوان أي لا تفرط في اكتساب الأخوان، وهنا يبرز الأثر العلوي أكثر جلاءً.

1- الأدب الصغير والدب الكبير 108

3 - حكمتين ووصية:

فمن هـذا النوع من التلفيق قول ابن المقفع في باب الاعتذار: «لا تعتذرنّ إلاّ إلى من يُحبُّ أن يجدَ لكَ عذراً، ولا تسـتعين إلا بمن يُحب أن يظفركَ بحاجتكَ، ولا تُحدثنَ إلا من يرى حديثكَ مغنماً، ما لـم يغلبكَ اضطرارٌ. وإذا اعتذر إليكَ معتذرٌ، فتلقهُ بوجهٍ مشرقٍ وبشرٍ ولسانٍ طلقٍ إلا أن يكونَ ممن قطيعتهُ غنيمةٌ»(1).

فكلامه هذا مكون من أربعة نصوص علوية: حكمتين، ثمّ مقطعين من وصية أمير المؤمنين لولده الحسن عليهم السلام.

أمّا بدايـة كلامهِ فهو تضـمين لحكمة علوية نهى فيها عليه السـلام عن الإعتذار إلاّ إلى مقابل يتقبله وفي نفس غرس لتلقيه، وإلاّ فالرغبة عنه أولى، فقال:

«لا تعتذرْ إلى من لا يُحبُ أنْ يجدَ لك عُذراً»(2).

وأما قوله: «ولا تحدِّثنَّ إلاّ مَن يرى حديثك مغنما». فهو يشبه ما جاء في وصية الإمام لولدهِ الحسن عليهم السلام:

«ولا ترغَبَنّ فيمَنْ زَهدَ فيكَ»(3).

ثمَّ عادَ مجدّداً إلى حديث عن الاعتذار: «وإذا اعتذرَ اليك مُعتذر فتلّقه بوجه مترف..».

وهذا كقول أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الباب:

1- الأدب الصغير والأدب الكبير 107
2- غرر الحكم ودرر الكلم 749
3- نهج البلاغة 470

«واقبَلْ عُذرَ مَنْ اعتذرَ إليك»(1).

وبالنسبة لما وردَ في ذيل كلامه: «إلاّ أن يكون ممّن قطيعته غنيمة».

فكان فيه صدى لقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«قطيعة الجاهل تعدل صلة العاقل»(2). و«هذا حقٌّ، لأنَّ الجاهل إذا قطعك انتفعت ببعدهِ، كما تنتفع بمواصلة الصديق العاقل لك»(3).

وبعبارة أخرى مثلما أنّ صلة العاقل غنيمة كذلك قطيعة الجاهل غنيمة أيضاً، لأنَّ في الجاهل شراً، وبجفائهِ يجفو ذلك الشر، وبالتالي فإنّ بعده غنيمة. وهنا يتضح بجلاء التطابق بين كلام أمير المؤمنين عليه السلام وكلام ابن المقفع.

ومثلما اتّضحَ فإنّ ابن المقفع تحدّثَ في مستهلِّ كلامهِ عن الاعتذار، ثمَّ انتقل إلى معنًى آخر عندما بيّنَ مَنْ تُفضّلُ الاستعانة بهم، ثم إلى معنًى ثالث تحدَّثَ فيه عمَّن تفضّل محادثته، ثمَّ عادَ رابعة إلى الاعتذار، وهو بهذا كلّهِ يلفِّق كلام أمير المؤمنين عليه السلام إلاّ أنّ هذا التلفيق – مثلما يراه الباحث – لم يكن ممدوحاً، لأنّه جمع بين معانٍ ليست هي بالمتقاربة، بينما التلفيق المحبَّب هو مثلما قال الدكتور إحسان عباس: «أنْ يأخذَ الشاعر المعاني المتقاربة ويستخرج منها معنًى مؤكّداً يكون له كالاختراع»(4).

4 – حكمة ومقطع من العهد:

فمن ذلك قول ابن المقفع: «حقُّ الوالي أن يتفقدَ لطيفَ أمورِ رعيتهِ، فضلاً

1- غرر الحكم ودرر الكلم 436
2- نهج البلاغة 471
3- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 16 / 284
4- تأريخ النقد الأدبي عند العرب 459

عن جسيمها، فإنّ للّطيفِ موضعاً ينتفعُ به، وللجسيم موضعاً لا يُستغنى عنهُ.

ليتفقد الوالي، في ما يتفقدُ من أمورِ رعيتهِ، فاقةَ الأخيارِ الأحرار منهم، فليعمل في سدِّها، وطغيانَ السّفلةِ منهم فليقمعهُ، وليستوحش من الكريمِ الجائعِ واللئيم الشبعانِ، فإنّما يصولُ الكريمُ إذا جاعَ، واللئيم إذا شبعَ»(1).

يرى ابن المقفع في أول كلامه إنّ من واجبات الوالي معرفة وتفقد ما تحتاجه الرعية في صغائر الءمور وكبارها. وهو بذلك اعتمد كلياً على ما جاء في عهد أمير المؤمنين عليه السلام لمالك الأشتر(رضوان الله عليه) في هذا الشأن: «ثُمّ تَفَقّدْ منْ أُمُورِهِمْ مَا يَتَفَقَّدُ الْوَالِدَانِ مِنْ وَلَدِهِمَا، وَلاَ يَتَفَاقَمَنّ فِي نَفْسِكَ شَيْءٌ قَوّيْتَهُمْ بِهِ، وَلاَ تَحْقِرَنّ لُطْفاً تَعَاهَدْتَهُمْ بِهِ وَإِنْ قَلَّ، فَإِنّهُ دَاعِيَةٌ لَهُمْ إِلَى بَذْلِ النَّصِيحَةِ لَكَ، وَحُسْنِ الظّنِّ بِكَ. وَلاَ تَدَعْ تَفَقُّدَ لَطِيفِ أُمُورِهِمُ اتِّكَالاً عَلَى جَسِيمِهَا، فَإِنّ لِلْيَسِيرِ مِنْ لُطْفِكَ مَوْضِعاً يَنْتَفِعُونَ بِهِ، وَلِلْجَسِيمِ مَوْقِعاً لاَ يَسْتَغْنُونَ عَنْهُ»(2).

فأغلب النصِّ العلوي ضمّنه ابن المقفع بنصّه، ولكن كعادتهِ؛ فهو يرغب في أن يغيّر شكليًا في فقرات كلام الإمام عليه السلام - هذا أو غيره - إذ نجد هذه الطريقة في مقاطع عدّة من أولِ نصّهِ المذكور، فقد أبدل: «ولا تدع تفقد لطيف أمورهم»ب «أن يتفقّد الوالي لطيف أمور رعيّته».

و«اتكالاً على جسيمها»ب «فضلاً عن جسيمها».

و«فإنّ لليسير من لفطك موضعاً»ب «فإنّ للطيف موضعًا».

و«ينتفعون بهِ»ب «ينتفع بهِ».

1- الأدب الصغير والأدب الكبير 77 - 78
2- نهج البلاغة 506 - 505

و«للجسيم موقعًا»ب « للجسيم موضعًا». و«لا يستغون عنه»ب « لا يستغنى عنه»(1).

ومثلما بيّنا سابقاً إنّ من مناورات ابن المقفع مع كلام أمير المؤمنين عليه السلام هي أن يعمد إلى الاسم الظاهر فيحوّله إلى ضمير، أو بالعكس، ونجد هذا هنا في قوله: «أن يتفقد الوالي لطيف أمور رعيته» ولفظة «رعيته» عائدة على الضمير الموجود في قول الإمام عليه السلام:

«ولا تدع تفقد لطيف أمورهم».

فالضمير «هم» هنا عائد على الرعيّة، لأنّه عليه السلام ذكرها سابقاً.

وأما الإسم «تفقد» في قول الإمام عليه السلام، فقد حوّله ابن المقفع إلى مصدر مؤول من أن والفعل فقال: «أن يتفقد» ولو أرجعنا المصدر لأصله لقلنا كما قال الإمام عليه السلام «تفقد».

ومن مناوراته العدّة هي التقديم والتأخير في كلام أمير المؤمنين عليه السلام، فما افتتح به الإمام المقطع المذكور: «ثمّ تفقد من أمورهم ما يتفقد الوالدان من

1- وهنا ومن النصوص التي تأتي نؤكد ثانية إن عهد أمير المؤمنين عليه السلام لمالك الأشتر كان موجوداً وكان مؤثراً وبالتالي بطلان الشكوك والاتهامات التي تقول بأن العهد لم يكن موجوداً في زمن الشريف الرضي ولو كان موجوداً لأثبته الطبري في تأريخه بينما هنا تبين أنه موجود قبل الطبري والرضي بمئات السنين

ولدهما» أخّره ابن المقفع إلى المقطع الثاني: «ليتفقد الوالي، ما يتفقد من أمور رعيته». غير إنّ ابن المقفع قصر كثيراً لمّا أبدل «الوالدان»ب «الوالي»، لأنّ في تعبير الإمام عليه السلام عليه السلام «كناية عن نهاية الشفقة»(1). وممّا زاد في نهاية الشفقة – مثلما يرى الباحث – هو إنّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يقل: ما تفقد الوالد، بل قال: «الوالدان»، لأنّ طبيعي لو اشتراك الوالدان معاً في رعاية أبنائهم وتفتيش أمورهم لكان ذلك أكثر إمعاناً والتفاتاً لصغار الأمور وكبارها، وأقدر على توفية احتياجاتهم، لما لكُلٍّ منهما – أي الوالدان – من نظرة خاصة ومجال عملٍ خاص مكلَّف به تجاه أولادهِ، وبالتالي تكون النتيجة هي تلبية جميع احتياجات الأبناء، وهكذا أراد أمير المؤمنين (صلوات الله عليه) للوالي أن يكون.

يذكر إن الإمام عليه السلام استعمل اسمي المكان: «موضع» مع اللطيف اليسير، و»موقع» للجسيم العظيم، وهذا لم يكن بمحض الصدفة، ولعل السبب الذي نراه في ذلك هو إنّ اللطيف اليسير بمعناهما الإيجابي، وبدلالتهما الهادئة يناسبهما كلمة «موضع»، في حين إن الجسيم وما فيه من دلالة الشدّة والمشقّة تخيّر لها عليه السلام ما يناسبها، لأنّ الموقع أو الواقعة أو الموقعة توحي إلى ذلك. ولهذا جعل (صلوات الله عليه) لكل أمرٍ ما يناسبه. ولكن أنّى لابن المقفع هذا، إذ جعل «الموضع» مع اللطيف والجسيم.

وفي نهاية كلامه المذكور استدل ابن المقفع على نصيحته التي وجهها بحكمة علوية ضمّنها حرفيًّا جاءَ فيها: «احذَرُوا صولَةَ الكريمِ إذا جاعَ، واللئيمِ إذا شَبِعَ»(2).

ص: 297

1- شرح نهج البلاغة لابن ميثم 5 / 346

2- نهج البلاغة 561. ولتوثيق الحكمة ينظر: حكم الإمام علي عليه السلام ومواعظه دراسة وتحقيق من شروح نهج البلاغة حتى نهاية القرن السابع الهجري 41. وأشار إلى تضمين ابن المقفع لهذه الحكمة الباحث عبد الحسين العمري في رسالته للماجستير (أدب ابن المقفع دراسة أسلوبية) 51

علّق الشيخ عباس القمي على هـذهِ الحكمة قائلاً: «يراد بالكريم شريف النفس، ذو الهمة العالية، وبجوعه ضيمه وامتهانه، وشدة حاجته. ذلك مستلزم لثوران غضبه وحميّتهِ عند التفات الناس إليه، وشبع اللئيم كناية عن غناه وعدم حاجته، وذلك يستلزم تمرّدهِ وأذيته لمن كان تحت يده.. فربَّما كان جوعه سبباً لتغيّر أخلاقه وتجويدها»(1).

5 – وصية وحديث:

لم تسلم حتى مقدمة الأدب الكبير من الأثر العلوي، وبالتحديد كان التأثر بوصية أمير المؤمنين لولدهِ الحسن عليهم السلام، وابن المقفع وفي هـذا المكان بالـذات كان مصيباً بهـذا التأثّر، لأنّه في تلك المقدمة أوصى بالتوجه نحو ثلّة متميزة والسير على هديها في كل شيءٍ، والوصية في جزءٍ منها توصي بالإقتداء بالصالحين، وأخذ ما توصَّلوا إليه من آراءٍ نخيلة. فمنها قوله عليه السلام:

«فَبَادَرْتُكَ بِالْأَدَبِ قَبْلَ أَنْ يَقْسُوَ قَلْبُكَ، وَيَشْتَغِلَ لُبُّكَ، لِتَسْتَقْبِلَ بِجِدِّ رَأْيِكَ مِنَ الْأَمْرِ مَا قَدْ كَفَاكَ أَهْلُ التَّجَارِبِ بُغْيَتَهُ وَتَجْرِبَتَهُ، فَتَكُونَ قَدْ كُفِيتَ مَؤونَةَ الطَّلَبِ، وَعُوفِيتَ مِنْ عِلاَجِ التَّجْرِبَةِ... أَيْ بُنَيَّ، إِنِّي وَإِنْ لَمْ أَكُنْ عُمِّرْتُ عُمُرَ مَنْ كَانَ قَبْلِي، فَقَدْ نَظَرْتُ فِي أَعْمَالِهِمْ، وَفكَّرْتُ فِي أَخْبَارِهِمْ، وَسِرْتُ فِي آثَارِهِمْ؛ حَتَّى عُدْتُ كَأَحَدِهِمْ؛ بَلْ كَأَنِّي بِمَا انْتَهَى إِلَيَّ مِنْ أُمُورِهِمْ قَدْ عُمِّرْتُ مَعَ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ، فَعَرَفْتُ صَفْوَ ذَلِكَ مِنْ كَدَرِهِ، وَنَفْعَهُ مِنْ

1- شرح حكم أمير المؤمنين عليه السلام 12 – 13

ضَرَرِهِ، فَاسْتَخْلَصْتُ لَكَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ نَخِيلَهُ... وَرَأَيْتُ حَيْثُ عَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِي اَلْوَالِدَ اَلشَّفِيق»(1).

إن من أهم ما يتمركز عليه النص وأكد عليه أمير المؤمنين هو انّه عليه السلام من أهم أهل التجارب، وأدّقهم نظراً للأحداث، وأبعدهم سبراً للواقع حتى كأنّه عمَّر مع آخرهم، وبالتالي استخلص «من كل أمرٍ نخيله» أي المختار منه(2)، ثمّ وظّف عليه السلام تلك المقدرة على استخلاص الصفوِ من الكدر، وهما كنايتان: الأولى عن الخير، والثانية عن الشر(3)، وبثَّ ما استخلصه من تلك التجارب لينتفع بها الإمام الحسن عليه السلام وكلّ من قرأها.

وقال عليه السلام في بيان ما يمتلكه من علم:

«علّمني رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم ألفَ بابٍ من العلمِ يُفتَحُ لي من كلِّ بابٍ ألفَ بابٍ»(4).

نظر ابن المقفع إلى المعاني المذكورة وتفاصيلها، وبعض العبارات بنصها، حتى قال في الأدب الكبير: «ووجدناهم لم يرضوا بما فازوا به من الفضلِ الذي قُسِمَ لأنفسهم حتى أشركونا معهم في ما أدركوا من علمِ الأولى والآخرةِ فكتبوا به الكتبَ الباقية، وضربوا الأمثالَ الشافيةَ، وكفونا به مؤونة التجارب والفطنِ.

وبلغَ من اهتمامهم بذلكَ أن الرجلَ منهم. كان يفتحُ له البابُ من العلم، أو الكلمة من الصوابِ... فكان صنيعهم في ذلك صنيع الوالدِ الشفيقِ على ولدهِ،

1- نهج البلاغة 459

2- ينظر: لسان العرب مادة (نخل)

3- ينظر: شرح نهج البلاغة لابن ميثم 5 / 263

4- نشأة التشيع والشيعة 112. وينظر: رسائل المرتضى 1 / 215

«الرحيمِ البر بهم»(1).

وبمقارنة بعض الفقرات ببعضها بين النصين يتضح كيف اعتمد ابن المقفع على كلام أمير المؤمنين عليه السلام المذكور.

فقد أبدل جملة الإمام «كفاك»ب «كفونا».

و«أهل التجارب بغيته وتجربته»ب «مؤونة التجارب».

و«وقد كفيت مؤونة الطلب»ب «إرادة ألاّ تكون عليهم مؤونة في الطلب».

و«وعناني ما يعني»ب «صنيعهم في ذلك صنيع».

و«الوالد الشفيق»ب «الوالد الشفيق».

فهنا ضمّن ابن المقفع عبارة الإمام الأخيرة بنصها، أمّا التي قبلها، وإن كان غيّر في الفاظها، إلاّ إنّه استعمل التكرار »صنيعهم.. صنيع» مثلما وجده عند الإمام: «عناني.. يعني».

والملفت إن ابن المقفع لم يمدح هؤلاء الناس الذين تأثر بهم ودوَّن كلامهم فحسب، بل اعتمد على كلامهم ووصفهم لمنزلتهم ليمدحهم به.

فقوله: «يُفتح له الباب من العلم» مشكّل كلمةً كلمة من حديث المرتضى عليه السلام:

«علمني... ألف بابٍ من العلم يُفتح لي من كلِّ باب..».

6 - نصين من العهد:

ومن هذا النوع من التلفيق قول ابن المقفع: «إن استطعتَ أن تجعل صحبتكَ لمن قد عرفك بصالحِ مروءتكَ وصحة دينكَ وسلامةِ أمورَكَ قبلَ

ص: 300

1- الأدب الصغير والأدب الكبير 63 - 64

ولايتهِ فافعل فإنّ الوالي لا علم لهُ بالناسِ إلا ما قد علم قبلَ ولايته. أما إذا ولي فكل الناسِ يلقاهُ بالتزينِ والتصنعِ وكلهم يحتالُ لان يثني عليه عندهُ بمال ليس فيهِ. غير أن الأنذال والأرذال هم أشدُ لذلكَ تصنعاً وأشد عليهِ مثابرةً وفيه تمحلاً. فلا يمتنعُ الوالي، وإن كان بليغَ الرأي والنظرِ، من أن ينزل عندهُ كثيرٌ من الأشرار بمنزلةِ الأخيارِ، وكثيرٌ من الخانةِ بمنزلةِ الأمناءِ، وكثيرٌ من الغدرة بمنزلةِ الأوفياء، ويغطى عليهِ أمرُ كثيرٍ من أهل الفضل الذينَ يصونونَ أنفسهم عنِ التمحل والتصنعِ»(1).

فكُلِّ هذهِ المعاني، وبعض الألفاظ قد وردت في مقطعين متباعدين من مقاطع عهد أمير المؤمنين عليه السلام لمالك الأَتر «رضوان الله عليه»، إلاّ أنّ ما قام بهِ ابن المقفع هو دمجهما معاً، وتداخلهما أيضاً من خلال التقديم والتأخير.

المقطع الأول:

كان أمير المؤمنين عليه السلام مهتمّاً اهتماماً بالغاً في تخيّر الكتاب، لما لهم من سلطة فاعلة وقوّة مقتدرة على التأثير في المجتمع، لا تقل عن سلطة الإعلام ودورهِ في وقتنا الراهن، لذا أعطى عليه السلام طريقة مُثلى تُتّبع من أجل تخيّر هذه الثلَّة المهمة، لا تقوم هذهِ الطريقة على أساس التفرس والتصنّع الذي يجيده عامة الناس، بل على وفق ضوابط وأسس فصّلها عليه السلام منها:

«لا يمُنِ اختيارِكَ إيّاهم على فِراستك، واستِنامَتِك، وحُسْنِ الظَّنِّ منكَ»(2).

الفراسة هي حسن النظر في الأمور وقوّة الظن، والاستقامة هي السكون

1- الأدب الصغير والأدب الكبير 81

2- نهج البلاغة 512

والثقـة، والمعنى لاـ يكون انتخابـك لكتابك نابعاً من ميلك الخاص(1)، لأـنّ ومثلمـا قال عليه السـلام: «الرّجالُ يَتعرّفونَ لفراساتِ الولاةِ بتصنُّعهم وحسن خدمتهم»(2).

وهذا ما وجدناه في قول ابن المقفع: «فكُلَّ الناس يلقاه بالتزين والتصنع».

وكان عليه السـلام قـد حذر من أنَّ كلّ هؤلاء المتصـنعين يكذبون، وتصـنعهم هذا ما هو إلاّ حُبالة لاصـطياد ودِّ الوالي فقال (صـلوات الله عليه): «وليس وراء ذلك - أي التصنع - من النصيحة والأمانة شيء»(3).

وعن هذا قال ابن المقفع لمَّا وصفَ المتصنعين: «وكُلّهم يحتال لأن يُثنيَ عليه عنده بما ليس فيه...».

وبعد هذه التحذيرات جاءَ المقياس الحقيقي عند أمير المؤمنين عليه السلام الذي يحدِّد تسنّم هذا المنصب فقال: «ولكن أختبرهم بما وُلُّوا للصالحين قبلك، فاعمد لأَحسنهم كانَ في العامّةِ أثراً، وأعرفهم بالأمانة وجهاً»(4).

وهـذا المقياس قـدّمه ابن المقفع إلى أول كلامه المـذكور. ولكن هـذهِ الإرشادات التي حـدَّدها أمير المؤمنين عليه السـلام لتخير الكتاب وضّفها ابن المقفع مع مَنْ يُصحب من الولاة.

المقطع الثاني:

وفيه نهى أمير المؤمنين عليه السلام واليَه عن الحتجاب منَ الرعيّة فقال: «وأما بعدُ، فلا تطوِّلَنَّ احتجابَكَ عن رعيّتك»(5).

ص: 302

1- ينظر شرح نهج البلاغة لمحمد عبده 3 / 468
2- نهج البلاغة 512
3- م. ن 512
4- م. ن 512
5- م. ن 516

وهـذا ما وجـدناه في قول ابن المقفع: «فلا يمتنع الوالي». وبإيضاح أكثر فإن لفظـة «احتجابك» مكونة من الاحتجاب، والضـمير «الكاف» الدال على الولي، وابن المقفع أبدل الاحتجاب ب «يمتنع» والمعنى واحد، وأبدل الضمير بالاسم الظاهر «الوالي».

والـذي نلحظه في دقـة كلام أمير المؤمنين عليه السلام هنـا انّه لم ينه عن الاحتجاب مطلقاً، لأنّه مـدرك بأنّ للوالي مشاغل تحتّم عليه الاحتجاب عن الرعية، ولكنه نهى عن طول الاحتجاب «لا تطوّلنّ»، ثم بعد ذلك برّر عليه السلام نهيه الوالي عن الاحتجاب بقوله:

«فَإِنَّ اِحْتِجَابَ اَلْوُلاَةِ عَنِ اَلرَّعِيَّةِ... يَقْطَعُ عَنْهُمْ عِلْمَ مَا اِحْتَجَبُوا دُونَهُ، فَيَصْغُرُ عِنْدَهُمُ اَلْكَبِيرُ، وَيَعْظُمُ اَلصَّغِيرُ، وَيَقْبُحُ اَلْحَسَنُ، وَيَحْسُنُ اَلْقَبِيحُ، وَيُشَابُ اَلْحَقُّ بِالْبَاطِلِ»(1). إذاً باحتجاب الوالي تقلت الموازين ويصبح عزيز القوم ذليلهم «ولا خير في قومٍ يـذلُّ كرامهُم»(2)... موصـلاً هـذا المعنى عن طريق تلـك المقابلات المؤثرة ذات الفقرة المتوازيـة، وهـذا النوع من التخاطب له القابليـة على أن «يكشّف دلالة المعنى، ويضاعف من الطاقة الشعورية بشعرية النسق الإيقاعي القائم على الضد... ليخلق جوًّا إيقاعيًّا... يوصلُ الفكرة»(3).

وعلى أية حال فابن المقفع وهو يحذو حذو أمير المؤمنين عليه السلام برَّرَ رفضه

1- نهج البلاغة 516
2- البيت لأبي هلال العسكري وتمامه: لا خير في قومٍ يذِلُّ كرامهم ويعظم فيهم نذلهم ويسود ينظر: معجم الأدباء 8 / 261 - 262
3- المستويات الجمالية في نهج البلاغة 74

لاحتجاب الوالي بما برّره الأمام عليه السـلام. وذلك في قوله: «من أن ينزل عنـده كثير من الأشـرار بمنزلـة الأخيار، وكثير من الخانـة منزلة الأُمناء، وكثير من الغدرة بمنزلة الأوفياء... إلى آخر قوله«.

ومثلما اتضح فإن هذا الأتِّباع لم يكن بالمعنى فحسب، بل نجد إنّ ابن المقفع يعمد إلى فن المقابلة عند أمير المؤمنين عليه السلام:

فيصغر عندهم الكبير – ويعظم الصغير.

يقبح الحسن – يحسن القبيح.

ليحوّله إلى ما يشبهه وهو الطباق:

الأشرار – بمنزلة الأخيار.

الخانة – بمنزلة الأمناء.

الغدرة – بمنزلة الأوفياء.

ثالثاً: البسط

البسط مثلما سلف آلية أو مظهر من مظاهر تأثر الأديب تقوم على التوسع والزيادة. ونرى أنّ هذا المظهر يقوم على أساسين:

الأول:

أن يتميّز الكلام الذي يُراد بسـطه بمضـمونٍ عالٍ، وصـياغة فنية متميّزة – لأنَّ بعض الصـياغات لها تأثير مباشر على المعنى سلباً أو إيجاباً – فإذا فقد النص هذهِ الخاصية تعسّر بسطه، وحتى إن أمكن يكون دون جدوى.

الثاني:

يخص الأديب المتأثر، إذ عليه أن يجعل البسط أمراً إيجابياً من خلال الإتيان بمعنى جديد، أو إظهار معنى موجودٍ لكنّه مبهم، أو يعرض الكلام الأصل بطريقة تفوق الأولى. إمّا إذا فقدنا هذهِ الأسس فإنّ البسط لا يكون، وإن كان فلربما يعد نفلاً من القول غير محموداً، ولربّما يُعد محاولة من الأديب المتأثر للتمويه على الكلام الذي تأثّره وقام ببسطهِ.

أمّا ورود البسط عند ابن المقفع فهذا مما عرفه عنه بعضهم فقيل عنه: «لا يتناول معنى من المعاني، إلاّ ويتتبعهُ حتى نهايته، وحتى يفيه حقّه من الوضوح.

وكثيرًا ما يفصّل، ويشرح حتى لا يدع للقارئ مجالاً لاعمال الذهن. ولقد انتقد بعض النقاد هذه الناحية، فقالوا إنّ ابن المقفع، إمّا أن لا يكون يثق بالقارئ، وإمّا أنه يخشى أن لا يكون مفهومًا، وكلا الحالتين سيء، لأنّه يوقع الكاتب في خطأ الاسهاب في بعض الأحيان»(1). وقيل أيضًا: «إنّه أفاد ممّا سمع، وزاد عليه من عنده، وتوسَّع في الكلمة الصغيرة، واللفتة القصيرة»(2).

ولكن أصحاب هذا الرأي لم يخبرونا قط عن هذهِ الكلمة الصغيرة التي توسع عليها ابن المقفع لمن هيَ.

وفي مقدمة أدبه المذكور أشار ابن المقفع صراحة إلى أنّه اعتمد هذهِ الآلية وقد بقيت أشياءُ من لطائفِ الأمورِ فيها مواضعُ لصغارِ الفطنِ، مشتقةٌ من جسام حكمِ الأولينَ وقولهم، فمن

1- دراسات في الأدب العربي 54

2- آثار ابن المقفع 30

ذلك بعضُ ما أنا كاتبٌ في كتابي هذا»(1). إذاً فهو كان يعتمد على حكم الأولين ويشـتق منها صغار الفطن وطبعاً هذا الاشتقاق لا يحدث إلاّ بعد أن يزيد ما يراه مناسباً على الحكمة التي يتأثر بها وهذا هو معنى البسط بعينه. أمّا من هم الذين اشتقَّ ابن المقفع من حكمهم؟ فبعد مقارنـة الأـدب الكبير ببعض كلاـم أمير المؤمنين عليه السـلام تمَّ تحديـد كثيراً من الحكم العلويـة قام ابن المقفع ببسـطها ومنها قوله عليه السلام:

«لا قُربَةَ بالنّوافِلِ إذا أضرّتْ بالفرائِضِ»(2).

النّفل هو الزيادة على الأصل(3). والنوافل جمع نافلة، وهي ما يُتطوَّعُ بِهِ من الأعمال الصالحات زيادةً على الفرائض المكتوبة(4).

وكلامه هـذا يمكن أن يحمل على الحقيقـة، وعلى المجاز أيضاً، فإن حُمِلَ على الحقيقـة فيعني أنّ التنفل لا يصـح ممّن عليه قضاء فريضـةٍ فاتته لا في الصلاة ولا في غيرها، أمّا لو حُمِلَ على المجاز فيعني وجوب الابتداء بالأهم(5).

وسواءً حُمِل على الحقيقة أم المجاز فإنّ صداهُ واضحٌ في قول ابن المقفع، لكن بتوسع وتفصيل كبير: «يا طالبَ الأدبِ [العلم] إن كنتَ نوعَ العلمِ تريـدُ فـاعرفِ الأصولَ والفصول. فإن كثيراً من الناسِ يطلبونً الفصول مع إضاعـةِ الأصول فلا يكونُ دركهم دركاً. ومن أحرز الأصول اكتفى بها عنِ الفصولِ. وإن أصابَ

ص: 306

1- الأدب الصغير والأدب الكبير 65

2- نهج البلاغة 559

3- ينظر: لسان العرب 11 / 671 مادة (نفَلَ)

4- نهج البلاغة 559 . (الهامش)

5- ينظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 18 / 294

الفصل بعد إحرازِ الأصلِ فهو أفضلُ. فأصل الأمرِ في الدينِ أن تعتقد الإيمان على الصواب، وتجتنبَ الكبائرَ، وتُؤدي الفريضةَ... وأصلُ الأمرِ في صلاح الجسد إلا تحمل عليه من المآكلِ والمشارب... إلا خُفاقاً، ثم إن قدرت على أن تعلم جميعَ منافعِ الجسد ومضارهِ والانتفاع بذلك كله فهو أفضلُ...»(1).

فابن المقفع هنا منطلقاً من المعنى العلوي في إحراز الأصل أولاً ثمَّ التنفّل عند الاستطاعة ثانيًا، إلاّ أنه أبدل «النوافل»ب» الفصول» وكلاهما فروع، أو مستحبات، أو ليس عملهن بالأولى. وأبدل «الفرائض»ب «الأصول». ثمّ قال: إنّ من عمل عملاً ما وهو متمسِّكُ بالفروع دون الأصول فإن إدراك ذلك لا يكون دركاً، وهذا ما وجدناه في قول أمير المؤمنين عليه السلام: «لا قربة بالنوافل».

ثم بعد ذلك أخذ ابن المقفع يفصل، ويضرب الأمثلة: ما هو الأصل في الدين، وما هو الأصل في إصلاح الجسد، وما هو الأصل في الشجاعة..... وهذه الطريقة من التوسع القائمة على ضرب الأمثلة استعملها ابن المقفع كثيرًا مع كلام الإمام عليه السلام، وسيتضح ذلك.

وبمثل هذه الطريقة تعامل ابن المقفع مع حكمة أمير المؤمنين عليه السلام التي تقول:

«إِنَّ لِلْقُلُوبِ شَهْوَةً وَإِقْبَالاً وَإِدْبَاراً، فَأْتُوهَا مِنْ قِبَلِ شَهْوَتِهَا وَإِقْبَالِهَا، فَإِنَّ اَلْقَلْبَ إِذَا أُكْرِهَ عَمِيَ»(2).

بيّن عليه السلام طريقة رائدة نتعاطى من خلالها مع القلب ومسايرته بإسلوب

1- الأدب الصغير والأدب الكبير 65 - 66

2- نهج البلاغة 586

رياضـي خوفاً من نفوره. وبما إنّ القلب هو المرتكز هنا فقـد أكـد عليه مرّتين ألأولى من خلال تقـديمه على إسم إنّ «إنّ للقلوبِ شـهوةً»، والثانية بإن المسبوقة بالفاء التعليلية «فإن للقلب»، ثـم استعارَ له لفظة العمى المعروفة العواقب والمؤثرة في استعمالها، وما صاحب ذلك من فنون بديعية كالسجع والطباق والتكرار.

محـذراً عليه السـلام :«إذا تواصل إكراه القلب على أمر لا يحبه و لا يؤثره تعب لأنّ فِعلَ غير المحبوب مُتعب. وإذا أُتعِبَ القلب وأعيا عجز عن إدراك مـا نكلِّفه إدراكه، لأنَّ فعله هو الإدراك... فإذا عجز القلب عن فعله الخاص به وهو العلم و الإدراك فـذاك هو عماه»(1). وطبيعي عنى الإمام عليه السلام بالشهوة والإقبال، الرغبة في الأمور التي يرتضيها الدين الحنيف لا كُلّ شهوةٍ يُقبل القلب عليها.

نظر ابن المقفع إلى هـذهِ الحكمة وبخاصة إلى ما ورد في آخرها فقال مؤكدًا: «اعلم أنّكَ إن جاوزتَ الغايةَ في العبادةِ صـرتَ إلى التقصـيرِ، وإن جاوزتهـا في حمـلِ العلـمِ لحقتَ بالجُهّـالِ، وإن جاوزتهـا في تكلّفِ رضـى النـاسِ والخفّـةِ معهـم في حاجـاتهم كُنـتَ المحشـود المصنع»(2).

والمعنى مشترك غير إنّ ابن المقفع لم يـذكر القلب الذي ورد ذكره بالحكمة العلوية، لكنّه ذكر ما هو نابعٌ من القلب والقلب وعاءُ له كذكرهِ للعلم والعبادة. كما إنّه لم يـذكر الإكراه، بل ذكر ما يعطي دلالته «جاوزت الغاية». وهذا الإكراه أو مجاوزة الغاية يولدان «عمي» القلب عند أمير المؤمنين عليه السلام، والتقصير عند ابن المقفع.

وبهذا الأسلوب أيضاً نظر ابن المقفع إلى حكمة أمير المؤمنين عليه السلام التي تقول:

1- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 19 / 7 - 8

2- الأدب الصغير والأدب الكبير 121

«لسان العاقل وراء قلبه، وقلب الأحمق وراء لسانه»(1).

وقد علق الرضيّ على الحكمة بقوله: «وهذا من المعاني العجيبة الشريفة، والمرادُ به إنّ العاقل لا يطلق لسانه، إلاّ بعد مشاورة الرّويّة ومؤامرة الفكرة.

والأحمق سبق حذقات لسانِه وفلتات كلامه مُراجعة فكره، ومما خصّه رأيه فكأنّ لسان العاقل تابع لقلبهِ، وكأنَّ قلب الأحمق تابعٌ للسانهِ»(2).

أخذ ابن المقفع هذه الحكمة وتوسع فيها فقال: «اعلم أن لسانك أداةٌ مُصلتةٌ، يتغالبُ عليهِ عقلكَ، وغضبكَ وهواك وجهلكَ. فكُل غالبٍ مستمتعٌ به وصارفهُ في محبتهِ، فإذا غلبَ عليهِ عقلكَ فهو لكَ، وإن غلبَ عليه شيءٌ من أشباهِ ما سميتُ لك فهو لعدوِّكَ»(3).

وبنظرة على مقدمة كلامه يتبين إنّه متَحفّزٌ لترسيخ هذا المعنى من خلال المقدمة التي غالباً ما يقدم بها لكلام أمير المؤمنين عليه السلام والمتمثلة بفعل الأمر وإنّ التوكيدية، أو ما يدل دلالتهما، ثم بعد ذلك ذكر لفظة اللسان، ومثلما وجدها عند أمير المؤمنين عليه السلام، وهذهِ اللفظة هنا مجازية ذات علاقة آلية(4)، لأنّه ذكر اللسان وأراد ما يجري عليه من كلمات بالخير أو الشرِّ. أمّا لفظة «وراءِ» في كلام أمير المؤمنين عليه السلام والتي هي استعارة لما يعقل، من تأخّر لفظ العاقل عن رويته ومن تأخر روية الأحمق وفكره عند قوله من غير مراجعته لعقله(5)، فقد

1- نهج البلاغة 559

2- م. ن 559

3- الأدب الصغير والأدب الكبير 106

4- ينظر: الأثر القرآني في نهج البلاغة 137

5- ينظر: شرح نهج البلاغة لابن ميثم 5 / 405

عبر عنهـا ابن المقفع بقوله: «يتغالبُ عليهِ عقلكَ وغضـبكَ وهواكَ وجهلكَ». فإذا جعل المرء لسانه وراء قلبه، أي مكنّ القلب من أن يغلب اللسان فهذا هو «لسان العاقل» بحسب الحكمة العلوية، وبحسب قول ابن المقفع: «غلبَ عليه عقلك».

وإذا جعل المرء «قلبه وراء لسانه» أي جعل اللسان ينطق دون الرجوع إلى الروية والتفكر القلبي، فهذا هو «لسان الأحمق» بحسب الحكمة العلويـة، وبحسب قول ابن المقفع: غلبة «غضـبك وهواك وجهلك» وعلى الرغم من إنّ روح كلام ابن المقفع ومحرِّك نصِّه هذا هو الحكمة العلويـة المـذكورة، إلاّ أنها عند مبتدعها لها رونق خاص ووقع متميّز تمثّل بمعناها العظيم، وإيجازها الوسـيم، وسـبكها الملتحم، وفنونها البلاغيـة التي جاءت على غير تكلف كالتكرار فقـد كرّر عليه السـلام لفظـة «اللسان» مرّتين: الأولى افتتح بها الحكمة، وبالثانية ختمها فهو بهـذا جعـل اللسـان أوّلاـً وآخرًا، لأنّ الحكمـة جاءت من أجله، ومن أجل القلب، لـذا كرّره مرتين أيضاً. والسـجع «قلبه – لسانه» والطباق «العاقل – الأحمق». فضلاً عن إنّها جاءت مكوّنة جميعها من أسماء بدون أي فعلٍ أو حرف.

ومن كلام أمير المؤمنين عليه السـلام الذي كان له بالغ الأثر في أدب ابن المقفع لاسيما في الأدب الكبير عهده لمالك الأشتر (رضوان الله عليه)، وممّا جاء فيه:

.»وأمضِ لكلِّ يومٍ عمله، فإنّ لكلِّ يومٍ ما فيه»(1).

وهذا جدول عمل منظَّم، ودستور متقدّم، حريٌّ به أن يطّبق في كُلِّ مرافئ

1- نهج البلاغة 516

الحياة؛ فهو ينهانا عن الـذهاب إلى اليوم القابل ونحن محمَّلين بأعمال اليوم الماضـي، لأنَّ اليوم الجديد له عمل جديد أيضاً، والتقصـير في عمل اليوم الماضي سيؤثر على اللاحق، وهكذا حتى تتراكم الأعمال وبالتالي تُصاب نتيجة العمل بخللٍ جرّاء ذلك التقصير.

ورد هـذا المعنى في الأدب الكبير وبطريقـة البسط: «إذا تراكمت عليكَ الأعمالُ فلا تلتمسِ الروح في مدافعتها بالروغانِ منها. فإنهُ لا راحة لكَ إلا في إصدارها، وإن الصبر عليها هو الذي يخففها عنكَ، والضجر هو الذي يُراكمُها عليكَ»(1).

فهو ينهى عن مدافعة الأعمال أي تأخيرها إلى الغد، وهذا من أول كلام الإمام عليه السلام. ثم توسع ابن المقفع لمّا رغب بأن «لا راحة» إلا في إصـدار الأعمـال بيومهـا والطريقـة المثلى لإصـدارها في يومها هو «الصبر عليها» لأنهُ «يخفِفها» والضـجر «يراكمها». وكلُّ هـذا روحه الكلام العلوي السالف.

وفي بعض مقاطعه كان عليه السلام يعطي منهاجاً دقيقاً لتوخي الأصدقاء، ومن ذلك قوله عليه السلام:

«والصَقْ بأهلِ الوَرَعِ والصِّدْقِ»(2).

وعلى هـذا سـار ابن المقفع متوسِّعاً فقال: «اعرف الفضل في أهل الـدينِ والمروءةَ في كل كورةٍ وقريـةٍ وقبيلـةٍ. فيكونوا هم إخوانكَ وأعوانك وأخدانكَ وأصفياءك وبطانتك وثقاتكَ وخلطاءكَ»(3).

فلفظة «الصق» التي وصفها ابن أبي الحديد بأنها لفظة فصيحة والتي تعني

1- الأدب الصغير والأدب الكبير 120
2- نهج البلاغة 504
3- الأدب الصغير والأدب الكبير 70

اجعل أهل الورع خاصّتك، وخلصاءك(1). توسع عليها ابن المقفع كثيراً في قوله: «فليكونوا هم إخوانكَ وأعوانك وأخـدانكَ وأصـفياءك...» والأهم إنّ ما جاء في الأدب الكبير هنا أكثر تفصيلاً حتى من شرح ابن أبي الحديد السالف لكلام أمير المؤمنين عليه السلام.

وبعدما أمر أمير المؤمنين عليه السلام بملاصقة أهل الورع والصدق قال بعد ذلك مباشرة:

ثُمَّ رُضْهُمْ عَلَى أَلاَّ يُطْرُوكَ وَلاَ يَبْجَحُوكَ بِبَاطِلٍ لَمْ تَفْعَلْهُ، فَإِنّ كَثْرَةَ اَلْإِطْرَاءِ تُحْدِثُ اَلزَّهْوَ، وَتُدْنِي مِنَ اَلْعِزَّةِ»(2).

أي «عودهم ألاّ يمـدحوك في وجهك و لا يجعلوك ممن يبجح أي يفخر بباطل لم يفعله كما يُبجّح أصـحاب الأمراء الأمراء بأن يقولوا لهم: ما رأينا أعدل منكم و لا أسمح»(3).

وهـذا أيضاً نجـده بتوسع عنـد ابن المقفع، لكنّه قـدّمه على فقرته السابقـة بمعنى انه عمل عكس ماعمل أمير المؤمنين عليه السـلام لمّا أمرَ بملاصـقة أهل الورع، ثم أمر بتعويـدهم على الإبتعاد عن المـدح الزائـد، فقال في الأدب الكبير: «وإياكَ إذا كُنتَ والياً، أن يكونَ من شأنك حبّ المـدحِ والتزكيـة وأن يعرفَ النـاسُ ذلـك منـكَ، فتكونَ ثلمـة من الثلم يتقحمونَ عليك منها، وباباً يفتتحونك منهُ، وغيبـةً يغتابونك بها ويضحكون منك لها. واعلم أن قابل المدحِ كمادحِ نفسهِ. والمرءُ جديرٌ أن يكونَ حبهُ المدحَ هو الذي يحملهُ على ردهِ. فإن الرادّ لهُ محمودٌ، والقابل

ص: 312

1- ينظر: شرح نهج البلاغة لأبن أبي الحديد 17 / 32

2- نهج البلاغة 504

3- شرح نهج البلاغة لأبن أبي الحديد 17 / 32

«له معيبٌ»(1).

وبعـد هـذا التقـديم والتـأخير الـذي عمله ابن المقفع على كلام أمير المؤمنين عليه السـلام جعل في أثر كلِّ مقطع من المقطعين السابقين حكمة علوية، وبطريقة التوسع، فقال بعد أن نهى الوالي عن حب المدح: «لتكن حاجتُكَ في الولاية إلى ثلاثة خصالٍ: رضـى ربكَ ورضـى سلطانٍ، إن كانَ فوقك، ورضى صالحِ من تلي عليهِ»(2).

ففي هذا بسط لبعض ما جاءَ في الحكمة العلوية:

«من الحكمة طاعتُكَ لَمنْ فوقَكَ، وإجلالُك مَنْ هو في طبقتِك، وإنصافُك لَمنْ هو دونَك»(3).

فهنا جعل أمير المؤمنين عليه السـلام جانباً من الحكمـة يتحقق في ثلاث أمور هي طاعـة من هو أعلى منزلة، واحترام وإجلال من هو مساوٍ في المنزلـة، وإنصاف مَن هو دون فيها. مسـتعملاً أسـلوب التقـديم والتأخير إذ قـدم الجار والمجرور» من الحكمة» وجعل لها الصدارة في الكلام، لأنه أراد لها صدارة المعنى. وبطريقة مشابهة عمل ابن المقفع لمّا افتتح كلامه مؤكّداً بلام الأمر.

وأما بؤرة البسِط هنا فتكمن في قول ابن المقفع: «ورضـى ربّك ورضـى سـلطانٍ إن كان فوقك» فقـد يراه الباحث بسـطاً لما وردَ في الحكمة العلوية: «طاعتك لمن فوقك»، لإنّ لفظة «فوق» في حكمة الإمام عليه السلام مفتوحة الدلالة، فيمكن

1- الأدب الصغير والأدب الكبير 69

2- الأدب الصغير والأدب الكبير 69

3- غرر الحكم ودرر الكلم 112

أن تنطبق على الله تعالى، ويمكن أن تنطبق على السلطان الشرعي، بل على كُلِّ من هو أعلى منزلة، ومن ثم فإنّ بوسعها اختزال ما قاله ابن المقفع في هذا الصدد، ولكن توسعه هذا كان على حساب القسم الثاني الذي أمر فيه أمير المؤمنين عليه السلام ب «إجلال من في طبقتك».

وهذا ما يؤاخذ عليه ابن المقفع، لأنّه أوصى بمن هو فوق «ربّكَ، سُلطان»، ومن هو دون «من تلي عليه»، وأهمل من هو مساوٍ في المنزلة.

أمّا قوله الذي وجه فيه إلى مصاحبة أهل الدين والمروءة والالتصاق بهم فقد قال بعده: «إنك إن تلتمس رضى جميع الناس تلتمس ما لا يدركُ. وكيف يتفقُ لك رأي المختلفينَ، وما حاجتكَ إلى رضى من رضاهُ الجورُ، وإلى موافقةِ من موافقتهُ الضلالةُ والجهالةُ؟ فعليك بالتماسِ رضى الأخيارِ منهم وذوي العقلِ. فإنّك متى تصب ذلك تضع عنكَ مؤونة ما سواهُ»(1).

وما هذا إلاّ بسطاً لحكمة أمير المؤمنين عليه السلام التي عدَّ فيها رضى الناس غايةً بعيدة المنال، لأنّ كثيراً من الناس يقيسون بمقياسٍ منحرف، وعليه سيفترقون في حكمهم على شخصٍ ما. ولكن هذا لا ينبغي أن يكون حاجزاً ومثبّطاً عن فعل الخير، فقال عليه السلام:

«رضى النّاسِ غايةٌ لا تُدرَكُ فتَحَرّ الخيْرَ بجُهْدِكَ و لا تُبالِ بسخَط مَنْ يُرضيه الباطلُ»(2).

فنجد ابن المقفع قد قام بتغيرات شكلية على الحكمة وذلك لما أبدل قول الإمام عليه السلام «رضى الناس»ب «رضى جميع الناس»

1- الأدب الصغير والأدب الكبير 70
2- شرح نهج البلاغة لأبن أبي الحديد 20 / 459

و«غاية لاتدرك»ب «تلتمس ما لا يدرك».

ونجده أيضًا لم يكتف بالبسط الذي أجراه على باقي الحكمة، بل أخّرَ وقدّم فيه، فقوله: عليه السلام الذي أمر فيه بتحرِّ الخير وجعله هدفًا منشوداً «فتحرِّ الخير بجهدك» أخّره ابن المقفع، ثمَّ بسطه لمّا قال: «ولا تبال بسخط من يرضيه الباطل» قدّمه ابن المقفع، ثم بسطه أيضًا بقوله: «وما حاجتك إلى رضى من رضاه الجور وإلى موافقة مَن موافقته الضلالة والجهالة».

وبالطريقة نفسها تأثر ابن المقفع بحكمة علوية أمر فيها أمير المؤمنين عليه السلام بالإتّكال على الباري - سبحانه وتعالى - واليأس عمّا في أيدي الخلق، وهذا اليأس عن الخلق والتوجيه للخالق يمثل قمة الإيمان، فقال عليه السلام:

«الغنى الأكبرُ اليأسُ عمّا في أيدي النّاسِ»(1).

ضّمن ابن المقفع هذه الحكمة متوسعاً فيها، فقال: «عوّد نفسكَ السخاءَ واعلم أنه سخاءان: سخاوةُ نفسِ الرجلِ بما في يديه، وسخاوتهُ عما في أيدي الناسِ. وسخاوةُ نفسِ الرجلِ بما في يديهِ أكثرهما وأقربهما من أن تدخل فيه المفاخرةُ. وتركهُ ما في أيدي الناسِ أمحضُ في التكرمِ وأبرأ من الدنسِ وأنزهُ. فإن هو جمعهما فبذلَ وعف فقدِ استكمل الجودَ والكرمَ»(2).

فافتتاحية ابن المقفع هذه عبارة عن تركيب أشبه ما يكون جاهزاً يقدِّم به لكلام أمير المؤمنين عليه السلام الذي يتأثر بهِ، ويكون أيضاً بمثابة مدخلية. وابن المقفع

1- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 19 / 144

2- الأدب الصغير والأدب الكبير 111 - 112

هنا يقدِّم قبل أن يضمن الحكمة تقديماً من صلب الموضوع لما يريد أن يقوله، فقبل تضمين الحكمة أمر بتعويد النفس على السخاء، ثمّ فرّع السخاء إلى فرعين:

الأول أن يجود الرجل بما يملكه، والثاني أن يرغب عمّا في أيدي الناس، وهنا في الثاني تجلت الحكمة العلوية، إذ أبدل ابن المقفع «اليأس»ب «سخاوته»، بينما باقي الحكمة «عمّا في أيدي الناس» ضمنه ابن المقفع بنصّهِ «عمّا في أيدي الناس».

ثم اخذ بعد التفريع يقارن بين السخاءين، إذ بالأول تدخل المفاخرة «أكثرهما من أن تدخل فيه المفاخرة»، وبالثاني يصان ماء الوجه «أمحض في التكرّم، وأبرأ من الدنس»، والأفضل عنده الجمع بينهما.

ولا يختلف تعامل ابن المقفع عن تعامله السابق مع حكمة أمير المؤمنين عليه السلام التي تقول:

«الحسد خُلُقٌ دنيءٌ ومن دناءتِهِ أنّه موكّلٌ بالأقربِ فالأقربِ»(1).

يخبرنا عليه السلام بأنّ الحسد من الأخلاق الذميمة الدنيئة، ومما زاد في دناءته هذه وقوعه بين الأقرب فالأقرب.

اعتمد ابن المقفع هذه الحكمة اعتماداً كلياً، مع تقديم لها وشرحٍ وتفصيل طويل عليها فقال: «ليكن مما تصرفُ به الأذى والعذابَ عن نفسكَ ألا ـ تكونَ حسوداً. فإن الحسد خلقٌ لئيمٌ. ومن لؤمِهِ أنهُ موكَلٌ بالأدنى فالأدنى من الأقاربِ والأكفاء والمعارفِ والخُلطاء والإخوانِ فليكن ما تُعاملُ به الحسد أن تعلم أن خير ما تكونُ حينَ تكونُ مع من هو خيرٌ منكَ، وأن غنماً ما حسناً لكَ أن يكونَ عشيرُكَ، وخليطُكَ أفضل منكَ في العلمِ، فتقتبسَ من علمهِ، وأفضلَ

1- شرح نهج البلاغة لأبن أبي الحديد 20 / 455

منكَ في القوة، فيـدفع عنكَ بقوتهِ، وأفضلَ منكَ في المالِ، فتفيد من مالهِ، وأفضل منكَ في الجاهِ، فتصـيبَ حاجتكَ بجاههِ، وأفضلَ منكَ في الدينِ، فتزداد صلاحاً بصلاحهِ»(1).

فكُلُّ هـذا الكلام منبته ونواته الحكمة السالفة، وقبل أن يضـمنها ابن المقفع قدّم لها بجملة عدَّ فيها الحسد يجلب النصب والعذاب للنفس، مفتتحاً هذا التقديم بطريقته التي باتت معروفة إمّا بفعل الأمر أو بلام الأمر، ثـم حوّرَ طفيفاً في الحكمة حيث أبدل قول الإمام عليه السلام:

«الحسد خلق دنيء»ب «الحسد خلق لئيم». و«أنه موكلّ» أوردها بنصِّها «أنّه موكّل».

و«الأقرب فالأقرب»ب «الأدنى فالأدنى».

و«الأقرب» هذا في كلام الإمام قابل للبسط والشـرح، فهو يمكن أن يكون الأقرب من ناحية النسب، أو الأقرب من ناحية العمل، أو الأقرب من ناحيـة الأفكار... وفي هـذه العبارة المكتنزة بمدلولاتها وجد ابن المقفع ضالته فبسـطها بقوله: «بالأدنى فالأدنى من الأقارب، والأكفاء، والمعارف والخلطاء والإخوان».

ثم بعـد ذلك اتّخـذَ هـذه الحكمـة... منطلقاً ليبث إرشادتهِ حول خصـلة الحسـد، مبيّناً إنّ أفضل من ينبغي أن تكون على مقربة منه منْ هو أفضل منك، وإنّ عشـيرتك إذا كانوا أعلى منك منزلة فذلك الغنم بعينه،.. وبكلٍّ هذا ينبغي تجنّب حسد هؤلاء بل الإفادة منهم ماديّاً «فتفيد من ماله»، ومعنويّاً فتفيد من جاههِ

1- الأدب الصغير والأدب الكبير 112

«فتصيب حاجتك «به، ومن دينه «فتزداد صلاحاً بصلاحِهِ».

وبعـد هذا انتقل ابن المقفع إلى كيفية معاملة العدو قائلاً: «ليكن مما تنظرُ فيه من أمرِ عدوكَ وحاسدكَ أن تعلمَ أنهُ لا ينفعكَ أن تخبر عدوكَ وحاسدكَ أنكَ لهُ عدو، فتنذرهُ بنفسك وتؤذنهُ بحربكَ قبل الإعداد والفرصةِ»(1).

وصفوة كلامه هذا لا تواجه أعداءَك قبل إعدادك، وبالتالي فهذا أشبه ما يكون بسطاً للحكمة العلوية التي تقول:

«لا تُوقعْ بالعَدوِّ قبلَ القدرةِ»(2).

أمّا حكمته عليه السلام التي قال فيها:

«أَقِيلُوا ذَوِي اَلْمُرُوءَاتِ عَثَرَاتِهِمْ، فَمَا يَعْثُرُ مِنْهُمْ عَاثِرٌ إِلاَّ وَيَدُهُ بِيَدِ اَللهِ يَدُ اَللهّ بِيَدِهِ يَرْفَعُهُ»(3).

والتي من خلالها «رغّب في إقالة ذوي المروءات عثراتهم التي وقوعها نادراً كبيعهم لما يلحقهم الندم عليه... واستعار لفظ العثرات لما يقع منهم خطأًومن غير تثبّت»(4).

فقـد اعتمـدها ابن المقفع – لمـّا رغّب أيضاً في إقالـة هؤلاء عثراتهم – اعتماداً كليّاً وبالتحديـد الفقرة الأولى منها، فقال: «واعلم أنكَ واجدٌ رغبتكَ من الإخاء عند أقوامٍ قد حالت بينكَ وبينهم بعضُ الأبهةِ التي قد تعتري بعض أهلِ لمروءاتِ

1- الأدب الصغير والأدب الكبير 112 - 113

2- غرر الحكم ودرر الكلم 119

3- نهج البلاغة 553

4- شرح نهج البلاغة لابن ميثم 5 / 396 - 397

فتحجزُ عنهم كثيراً ممن يرغبُ في أمثالهم. فإذا رأيتَ أحداً من أولكَ قد عثر بهِ الدهرُ فأقله»(1).

فهو إذاً ضمّن كلمات الحكمة الأربع الأُول، ووزّعها في قولهِ المذكور جاعلاً منها ركائز لقولهِ، مع التقديم لها، والتوسع عليها، والتحوير فيها تحويراً أقل من القليل، إذ أبـدل «اقيلوا»ب «فأقله» و«ذوي المروءات»ب «أهل المروءات» و«عثراتهم»ب «عثر به الـدهر» وبطريقـة مماثلة تعامل مع حكمةٍ لأمير المؤمنين عليه السلام، قال فيها: «أُحيُوا الْمعرُوفَ بإماتَتِهِ، فإنَّ المنَّةَ تهْدِمُ الصّنيعةَ»(2).

والمعنى إذ أردت لمعروفك أن يحيا ويـدوم فعليك بإماتته، وهـذه كناية عن عدم ذكره؛ لأنَّ ذكره أشـبه ما يكون بالمنّة، وهذهِ المنّة تهدم ما بُنيَ من معروف.

ضمّن ابن المقفع هذه الكلمات بتمامها وكمالها جاعلاً منها عماداً لمقالٍ طويل ألفه في هذا المعنى، فقال: «إذا كانت لكَ عند أحدٍ صنيعةٌ، أو كـان لـك عليه طول فـالتمس إحياءَ ذلك بإماتتهِ، وتعظيمهُ بالتصـغيرِ لهُ. ولا تقتصـرنّ في قلّـةِ المنّ بهِ على أن تقولَ: لا أذكرهُ ولا أصـغي بسـمعي إلى من يذكرهُ، فإنّ هذا قد يستحيي منهُ بعضُ من لا يوصفُ بعقلٍ ولا كرمٍ. ولكن احذر أن يكونَ في مُجالستكَ إيّاهُ، وما تكلمهُ به، أو تستعينهُ عليهِ، أو تجاريه فيه، شيءٌ من الاستطالة، فإن

ص: 319

1- الأدب الصغير والأدب الكبير 102

2- غرر الحكم ودرر الكلم 154

«الاستطالةَ تهدمُ الصنيعةَ وتكدرُ المعروفَ»(1).

ولعل هـذه المرة الأولى التي لم يفتتح فيها ابن المقفع حديثه المتأثر بكلام أمير المؤمنين عليه السـلام بفعل أو لام الأمر، ولكنه سـرعان ما عـاد إلى ذلك بعـد أن شـرع في تضـمين الحكمـة، ومن جانب البسط فقبل أن يضـمنها أيضاً قـدّم حـديثاً عامًا عن موضوعها، ثم شـرع في تضمينها، ولكن لم يجعلها في مكانٍ واحدٍ بل افتتح ببعضها، ثم عادَ ليختتم ببعضها الأخر. وما ذلك إلاّ لتكون عنده حريّة واسعة للحديث عن هـذا الموضوع من خلال الربط بين كلمات الحكمة والتعليق على مقاطعها، وحتى تكون هذهِ الكلمات بمثابة ركائز يرتكز عليها وعظه، مجريـاً عليهـا بعض التحويرات الشـكلية تمامًا. فأوّل الحكمـة: «أحيو المعروف بإماتتِه» ووجـدناها في أول كلام ابن المقفع: «إحياء ذلك بإماتتهِ». و«ذلك» اسم إشارة أشارَ به ابن المقفع إلى «الصـنيعة»و «الطول» الذين ذكرهما في مقدمة كلامه، وعليه يكون كلامه إحياء الطول بإماتته وبالتالي لا يوجد اختلاف يذكر عن كلام الإمام عليه السـلام. ولفظة «المعروف» التي أبدلها ابن المقفع بما ذكر عاد وذكرها في آخر كلامه المذكور مثلما وجدها عند الإمام عليه السـلام. أمّا باقي الحكمة: «فإنّ المنّة تهدم الصنيعة». فقد ألفيناها آخراً عند ابن المقفع: «فإنّ الاستطالة تهدم الصنيعة». وهو ما بين هذين المقطعين تحدّث بما شاء عن إسداء المعروف وفضل تناسيه.

وعلى هذا الأساس بُنيت كثيرُ من موضوعات الأدب الكبير، إذ كان ابن المقفع يعمد إلى حكمة أمير المؤمنين عليه السـلام الموجزة فيبسط القول فيها،

1- الأدب الصغير والأدب الكبير 108 - 109

ويفرّع منها فروعاً، ويوظفها في المكان الـذي يراه مناسـباً، فمرّةً مع السـلطان، وأخرى مع الوالي، وثالثة مع الصديق وهكذا. وفي هذهِ المرّة نجد ابن المقفع يأتي على حكمة أمير المؤمنين عليه السلام التي تقول:

«مَا أَضْمَرَ أَحَدٌ شَيْئاً إِلاَّ ظَهَرَ فِي فَلَتَاتِ لِسَانِهِ، وَصَفَحَاتِ وَجْهِهِ»(1).

الفلتة: الأمر الذي يقع من غير تروٍّ، وصـفحة الوجه: بشرته أي أنَّ المرء لم يتمكن من حفظ ما أضمره كلياًّ، لأنّ مراعاة الحفظ يكون للعقل، فإذا انشغل العقل في مهم آخر يغفل عمّا أضمره، فينفلت ذلك في فلتات القول(2).

اسـتعار ابن المقفع هـذه الحكمـة ليضـمِّنها في باب تحـذيره من احتقان القلب على الوالي، فقال: «إياك يقع في قلبك تعتبٌ على الوالي أو استزراءٌ لهُ. فـإنهُ إن وقعَ في قلبـك بـدا في وجهـكَ، إن كنت حليمـاً، وبـدا على لسانكَ، إن كنتَ سـفيهاً. فإن لم يزد ذلكّ على أن يظهر في وجهكَ لآمنِ الناس عندك فلا تأمنن أن يظهرّ ذلك للوالي. فإنّ الناس إلى السلطان بعوراتِ الإخوانِ سراعٌ»(3).

فهو ينهى من وقوع التعتب والإستزراء على الوالي – ملجئاً ظهره تماماً إلى الحكمـة العلوية – لأنّ ذلك التعتب وإن خفي لا بدَّ من ظهوره، إمّا على صـفحات الوجه من خلال تلوّنها، وإمّا على اللسان من خلال فلتاته. إلاّ إنّ ابن المقفع لم يذكر لفظة الإضـمار صـراحة بل ذكر آلة الإضمار أو مكمنها وهو القلب لمّا قال: «إياك أن يقع في قلبك تعتبٌ على الوالي أو استزراءٌ لهُ».

1- نهج البلاغة 554
2- ينظر: شرح نهج البلاغة لابن ميثم 5 / 398
3- الأدب الصغير والأدب الكبير 84

وكُلُّ هذا بسط لأول الحكمة: «ما أضمر أحد».

وبعد هذا لا فرق مطلقاً بين قول الإمام عليه السلام: «ظهر في لسانه» وبين قول ابن المقفع: «بدا على لسانك» فقد كان الأخير هنا دقيقاً في تحويراته حيث جعل:

الفعل مقابل الفعل: ظهر بدا والحرف مقابل الحرف: في – على والاسم مقابل الاسم: لسان – لسان والضمير مقابل الضمير: الهاء – الكاف ومثلها العبارة التي قبلها «بدا في وجهك»، إلاّ أنّه زاد على الأولى «إن كنت حليماً»، وعلى الثانية «إن كنت سفيها». واستمر ابن المقفع بالتفصيل عن هذا الموضوع محذِّراً من إنّ هذه الفلتة حتى وإن لم يكتشفها إنسان تأمنه، ولم تظهر هي أمامه، فلا تأمن ظهورها أمام الوالي.

وتجدر الإشارة إلى إنّ هذه الحكمة وجلّ حكم أمير المؤمنين عليه السلام لم يوجِّهها إلى فئة أو طائفة بعينها، بل يجعلها مفتوحة بحيث كل من يقرؤها يجدها تنطبق عليه سواء كان مولى أو عبداً، وهذا ممّا زاد في تأثيرها وفاعليتها «ما أضمر أحد» أيًّا كان هذا الأحد، بينما ابن المقفع يضيّق كثيراً من دلالة هذهِ الحكم لمّا يجعلها مختصة بجهة ما، ومثل ذلك ما فعله في قولهِ المذكور لمّا نهى عن هذا الأمر أمام الوالي «إياك أن يقع في قلبك تعتبٌ على الوالي».

ومثلما سلف فإنّ ابن المقفع كان قد اتخذَ كلام أمير المؤمنين عليه السلام شعاراً يعظ به كُلَّ الجهات التي كان يخاطبها دون استثناء، فإن كان وظّف الحكمة السابقة مع

الوالي وطريقة معاملته القلبية، فقد وظّفَ في باب منع التطاول على الأصحاب حكمة علوية أيضاً، جاء فيها:

«ليسَ يضرُّكَ أن ترى صديقك عندَ عدوِّك، فإنّه إنْ لم ينفعْك لم يضُرَّكَ»(1).

فإنَّ الصديق قد يتكدّر إذا رأى صديقه عند عدوّه إشفاقاً من العدوِّ على الصديق، أو تهيّباً من قطع حبل الوصل بسبب وشاية من ذلك العدو، ولكنّ أمير المؤمنين عليه السلام نهى عن ذلك وعدَّ هذهِ المقاربة أمراً ايجابياً.

اعتمد ابن المقفع هذه الحكمة كسابقاتها من التغير الطفيف على بعضها، ثم البسط عليها، والتفريع منها، فقال: «إن رأيتَ صاحبكَ مع عدوكَ فلا يغضبنّكَ ذلك، فإنّما هو أحدُ رجلين: إنْ كان رجلاً من أخوانِ الثقةِ فأنفعُ مواطنهِ لك أقربها من عدوكَ لشرٍ يكفّهُ عنكَ، أو لعورةٍ يسترها منكَ، أو غائبةٍ يطلعُ عليها لكَ، فأمّا صديقكَ فما أغناكَ أن يحضرهُ ذو ثقتك. وإن كان رجلاً من غيرِ خاصةِ إخوانكَ فبأي حقٍ تقطعهُ عنِ الناسِ وتكلفهُ ألا يتصاحبَ ولا يُجالسَ إلا من تهوى»(2).

فهو نهى عمّا نهى عنه أمير المؤمنين عليه السلام وبرّر بما برّر به عليه السلام، فأول كلامه: «إن رأيت صاحبك مع عدوِّك فلا يغضبك ذلك» من أوّل الحكمة «ليس يضرّك أن ترى صديقكَ عندَ عدوِّك» بلا زيادة ولا نقصان عدا تحويرات شكلية للغاية فقد أبدل «صديقك»ب «صاحبك»، و»يضرّك»ب «يغضبك»، «وعندَ عدوك»ب «مع عدوّك».

ولمّا عدَّ أمير المؤمنين عليه السلام تلك المقاربة أمراً إيجابياً برّرها بأنها لا تخلو من

1- موسوعة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام 5 / 272
2- الأدب الصغير والأدب الكبير 100 - 101

أمرين: إمّا أن تعود تلك المقاربة بنفع على ذلك الصديق الغاضب ولكنه عليه السلام لم يحدد ما هو النفع وأين يكمن حتى لا تكون دلالة هذهِ الكلمة «النفع» محدودة بجانب ما وهذهِ سمة واضحة في حكمه عليه السلام. أمّا ابن المقفع فقد أخذ هذه التفريع من الحكمة وبسطه بأنّ بيّن بعض مواطن النفع تلك وذلك لما قال: «فإنما هو أحد رجلين: إن كان رجلاً من إخوان الثقة فأنفع مواطنهِ لك أقربها من عدوِّك إلى قولهِ يطّلع عليها لك».

وإمّا أن لا تعود تلك المقاربة بنفع ولكنها خالية من الضرر، لأنّ الصديق الصدوق وإن جالس العدوّ لم يفرط بصديقه. ولكن هذا أجرى عليهِ ابن المقفع تغيراً بيِّنًا في فقرتهِ الأخيرة. وأرى في ذلك تحايلاً عميقاً للخروج عمّا تبقى من تسلسل حكمة أمير المؤمنين عليه السلام وهذهالمحاولة التمويهية مهدّ لها لما قسم الأصدقاء على «إخوان الثقة»و» رجالاً من غير خاصة إخوانك» وهذا لربما لا يتفق مع مقدمة كلامه التي تحدّثَ فيها عن الصاحب، ومطالبته بعدم الاكتراث منه إذا جالس العدو، أما إذا كان ذلك الصاحب بعيد الصلة بصاحبه، وهو ليس من الخاصة فلا يهم إذاً إن اقترب أو ابتعد عن العدو، ولا يوجد داعي من أن ينهى ابن المقفع عن الغضب من هذا الفعل.

أمّا موعظته عليه السلام لمعسكره وقد سمع بعضهم يسبون أهل الشام أيام حرب صفين، والتي قال فيها:

«إِنِّي أَكْرَهُ لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا سَبَّابِينَ، وَلَكِنَّكُمْ لَوْ وَصَفْتُمْ أَعْمَالَهُمْ، وَذَكَرْتُمْ حَالَهُمْ، كَانَ أَصْوَبَ فِي اَلْقَوْلِ، وَأَبْلَغَ فِي اَلْعُذْرِ»(1).

أمر أتباعه باجتناب السب، لأنه لغة المفلسين من الدليل، لكنّه وجّههم

1- نهج البلاغة 374

إلى وصف أعمال الشاميين وما هم عليه من ضلال؛ ففي ذلك الحجّة البالغة، والقول الصائب.

فأخذ ابن المقفع هذا لما تحدّث عن كيفية معاملة العدو، فقال: «لا تدعْ، مع السكوتِ عن شتم عدوكَ، إحصاءَ مثالبهِ ومعايبهِ واتّباعَ عوراتهِ، حتى لا ـ يشذ عنكَ من ذلك صغيرٌ ولا ـ كبيرٌ، من غيرِ أن تشيعَ ذلك عليه في فيتّقيكَ بهِ، ويستعدّ لهُ، أو تذكرهُ في غيرِ موضعهِ فتكونَ كمستعرضِ الهواء بنبلهِ قبل إمكانِ الرمي. ولا تتخذن اللعنَ والشتمَ على عدوكَ سلاحاً، فإنهُ لا يجرحُ في نفسٍ ولا منزلةٍ ولا مالٍ ولا دينٍ»(1).

فكل هذا يدور في فلك المعنى العلوي بدقة. فقول الإمام عليه السلام:

«أكره لكم أن تكونوا سبابين».

كرّره ابن المقفع مرتين وذلك لما أفتتح حديثه بِ «السكوت عن شتم عدوِّك»، ولما ختمه بِ أيضاً «لا تتخذن اللعن والشتم على عدوِّك سلاحاً» مبدلاً السب بالشتم.

أما قوله: «لا تدع... إحصاء مثالبه ومعايبه وإتباع عوراته» فهو من قول الإمام عليه السلام:

«لكنكم لو وصفتم أعمالهم، وذكرتم حالهم».

أي قولوا: «إنهم فُسّاق، وإنّهم أهل ضلالٍ وباطل»(2) وبشرح ابن أبي الحديد هذا يتضح إنّ ابن المقفع يتحول في أحايين كثيرة إلى شارحٍ لكلام أمير

1- الأدب الصغير والأدب الكبير 114
2- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 11 / 18

المؤمنين عليه السلام.

ومن طرفٍ خفي يلحظ إنّ ابن المقفع حاول التمويه على كلام الإمام عليه السـلام لمّا جعل الشـقّة تبعد بين الفعل «تدع» وبين المفعول بهِ «إحصاء».

وللنسـاء نصـيبٌ من الحـديث في الأدب الكبير، فقـد ذكرهنّ فيه مرّتين وفي مقطعين متتالين، وفي المقطعين كليهما أثر واضـح لكلام أمير المؤمنين عليه السلام.

فقد روي عنه أنّه حذّرَ جنوده من الغرام بالنساء - لما شيّعهم في إحدى الغزوات - قائلاً: «أعذِبُوا عنِ النِّساءِ ما استطعتُم»(1).

شرح الشـريف الرضـي هذهِ الكلمات بقوله: «ومعناه أصدفوا عن ذكر النساء، وشغل القلوب بهن، وامتنعوا من المقاربة لهن، لأنَّ ذلك يفت في عضـد الحميـة، ويقـدح في معاقـد العزيمة، ويكسـر عن العدو، ويلفت عن الإبعاد في الغزو، فكل من امتنع من شـيء فقد أعزب عنه، والعازب والعزوب الممتنع من الأكل والشرب»(2).

ففي نهيه عن الغرام بالنساء ونتائج هذا الغرام، نظر ابن المقفع باسـطا - حتى كأنّه سـبق الرضـي إلى شرح هذا المعنى - فقال: «اعلم أن من أوقعِ الأمورِ في الدينِ وأنهكها للجسدِ وأتلفها للمالِ وأقتلها للعقلِ وأزراها للمروءةِ وأسرعها في ذهابِ الجلالةِ والوقارِ الغرامِ بالنساء»(3).

وفي حديث ذي صلة قال أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته المعروفة بالوسيلة:

«إذا رَأى أَحَدُكُم إمَرأَةً تُعجِبُهُ فَلْيَلْقَ أَهْلَه فإنّ عندها مثلُ الذي رأى، ولا

1- نهج البلاغة 598
2- م. ن 598
3- الأدب الصغير والأدب الكبير 117

يَجْعَلَ للشيطانِ على قلبهِ سبيلاً، ولْيَصرِفْ بَصَرَهُ عنها».

وورد عنه عليه السلام بإختلاف يسير، وذلك قوله لما كان جالسًا ومعه أصحابه فمرّت بهم أمرأة جميلة، فرمقها القوم بأبصارهم:

«إِنَّ أَبْصَارَ هَذِهِ الْفُحُولِ طَوَمِحُ؛... فَإِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَى اِمْرَأَةٍ تُعْجِبُهُ فَلْيُلاَمِسْ أَهْلَهُ، فَإِنَّمَا هِيَ اِمْرَأَةٌ كَامْرَأَتِهِ».

أكّد أمير المؤمنين عليه السلام على أنّ النساء أشباه النساء، ومادام الأمر هكذا فعَلى الرجل إذا رأى امرأة تعجبه فليلاقِ أهله حتى لا يجعل للشيطان على نفسه سبيلاً. جعل ابن المقفع هذا المعنى في إثر كلامه السابق، ولكن ببسطٍ كبير جداً فقال: «ومن البلاء على المغرمِ بهن أنهُ لا ينفكّ يأجمُ ما عنـدهُ وتطمـحُ عيناهُ إلى ما ليسَ عنـدهُ منهن. إنما النساء أشـباهٌ، وما يتزينُ في العيونِ والقلوبِ من فضلِ مجهولاتهن على معروفاتهن باطلٌ وخدعةٌ، بل كثيرٌ مما يرغبِ عنهُ الراغبُ ممّا عندهُ أفضلُ ممّا تتوقُ إليهِ نفسهُ منهنّ، وإنّما المرتغبُ عمّا في رحلهِ منهنّ إلى مـا في رحـالِ النـاسِ كـالمرتغبِ عن طعامِ بيتهِ إلى ما في بيوتٍ الناسِ: بل النساءُ بالنساء أشـبهُ من الطعامِ بالطعامِ، وما في رحالِ الناسِ من الأطعمةِ أشد تفاضلاً وتفاوتاً مما في رحالهم من النساء». ولو أطال ما أطال فإن الجذوة التي كان منطلقاً منها هي ذلك السطر من الخطبة أو الحكمـة العلويـة. فقوله: «ومن البلاء إلى قوله عنـده منهن» بسط لكلام الإمام عليه السـلام: «إذا رأى احدكم امرأة تعجبه». وبعد ذلك عدّ أمير المؤمنين عليه السلام . 1) تحف العقول 148) . 2) نهج البلاغة 629) . 3) الأدب الصغير والأدب الكبير 117)

النساء «مثل» النساء، وهـذه «المثل» حولها ابن المقفع إلى شـبه لما قال: «إنما النّساء أشـباه»، وكلامه هذا لا يختلف مطلقاً عن شـرح ابن ميثم للنصالعلوي الثاني، «فإنّما أهل الرجل امرأة تشبه المرأة المرئية»(1).

ثم زاد كلامه بسـطاً لما أدخل طَرَفاً آخر في تقريب صورة التشبيه هذه وهو الطعام، وذلك في قوله: «النّساء بالنساء أشبه من الطعام بالطعام» وكأنه يقول: «والنساء يشبهن النساء أكثر مما يشبه الطعامُ بالطعامَ»(2).

وقد عُدّ هذا التركيب والتشبيه من طرائف ابن المقفع اللطيفة(3)، والأهم فيه – التشبيه – إنّهُ من توسـعات ابن المقفع الكثيرة على كلام أمير المؤمنين عليه السـلام. لقد لحظنا – في النص الأخير – إنّ ابن المقفع تأثّر بخطبة علوية وليس بحكمة ولا رسالة وهذه حالة نادرة جداً عنده – أي تأثره بالخطب العلويـة – فهو لم يتأثر إلاّ بخطبتين فقط. الأولى مرّت سـلفاً. وتأثر بخطبة ثانية صـنّف فيها أمير المؤمنين عليه السـلام الناس إلى أربعة أصناف قال في الرابع منها:

«وَمِنْهُمْ مَنْ أَبْعَدَهُ عَنْ طَلَبِ اَلْمُلْكِ ضُؤولَةُ نَفْسِهِ، وَاِنْقِطَاعُ سَبَبِهِ، فَقَصرَتْهُ اَلْحَالُ عَلَى حَالِهِ، فَتَحَلّى بِاسْمِ اَلْقَنَاعَةِ، وَتَزَيّنَ بِلِبَاسِ أَهْلِ اَلزّهَادَةِ، وَلَيْسَ مِنْ ذَلِكَ فِي مَرَاحٍ وَلاَ مَغْدًى»(4).

الضؤولة: من ضأل الشيء إذا صغر وضعف(5).

ص: 328

1- شرح نهج البلاغة لابن ميثم 5 / 500

2- بنية الجملة ودلالتها البلاغية في الأدب الكبير دراسة تركيبية تطبيقية 26

3- م 0 ن 26

4- نهج البلاغة 64

5- ينظر: لسان العرب 11 / 388 مادة (ضأل)

ومعناه: «إنّ الإنسان قد تنقطع أمامه سبُل الوصول إلى الملك والثروة فيخلد إلى القناعة، ويتحلى بحلية الزهاد في اللذّات الدنيوية... وليس بزاهدٍ في الحقيقة»(1).

أخذ ابن المقفع هذا وتوسع عليه، فقال: «إنْ رأيتَ نفسك تصاغرت إليها الدنيا، أودعتكَ إلى الزهادةِ فيها على حالِ تعذرٍ من الدنيا عليكَ فلا يغرنّكَ ذلك من نفسكَ على تلكَ الحال، فإنها ليست بزهادةٍ، ولكنها ضجرٌ واستخذاءٌ وتغيرُ نفسٍ عندما أعجزكَ من الدنيا وغضبٌ منكَ عليها مما التوى عليكَ منها. ولو تمت على رفضها وأمسكتَ عن طلبها أوشكتَ أن ترى من نفسكَ من الضجرِ والجزعِ أشد من ضجركَ الأولِ بأضعافِ. ولكن إذا دعتكَ نفسكَ إلى رفضِ الدنيا وهي مقبلةٌ عليكَ، فأسرع إلى رفضِ الدنيا وهي مقبلةٌ عليكَ، فأسرع إلى إجابتها»(2).

والمعنى واحد بين النصين فابن المقفع يقول: إذا أدبرت عنك الدنيا وأنت أقبلت على الزهادة فيها، فهذه ليست بزهادة حقيقية، وعند أمير المؤمنين عليه السلام: «ليس من ذلك في مراحٍ ولا مغدى» و«ذلك» أسم إشارة إلى ما سبق من كلامه: «تحلى باسم القناعة وتزين بلباس أهل الزهادة»، والمعنى: ليس من القناعة والزهادة في شيء وعليه تبين القرب القريب بين الجملتين، ولكنها - هذهِ الزهادة - جاءت نتيجة «تعذر من الدنيا عليك» ونتيجة «ضجر واستخذاء وتغيّر نفس عندما أعجزك من الدنيا وغضبُ منك عليها مما التوى عليك منها» ولا شك إن هذا بسط لقول الإمام عليه السلام: «أبعد عن طلب لملك ضؤولة نفسه وانقطاع سببه». ثم توسع ابن لامقفع أكثر في آخر كلامه لمّا بين

1- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 2 / 381
2- الأدب الصغير والأدب الكبير 130

إنّ الزاهـد الحقيقي هو من يرغب عن الـدنيا في وقتٍ الدنيا راغبة فيه، وهذا لم يذكره أمير المؤمنين عليه السـلام لأنه كان في وصف صـنف معيّن من الناس صفاتهم التي ذكرها لا معالجة هذهِ الحالة بدقائقها.

وفي ختام البسط في الأدب الكبير نعود إلى ما قـدمناه من حديث ابن المقفع عن البسط لما قال: إنه كان يعمد إلى حكم «الأولين» ويشـتق منها ما شاء، إذاً فالبسط الـذي اسـماه ابن المقفع بالاشـتقاق لا ينفصل عنـده عن حكم الأولين، لأنّه معتمـد عليها كلياً، ولمّا عرفنا إنّ هذه الحكم التي بُسـطت تتصـدرها حكم أمير المؤمنين عليه السـلام سـنعرف - بهذه الطريقة - إنّ أمير المؤمنين عليه السـلام - على الأقل - يتصدر هؤلاء الذين اسماهم ابن المقفع ب«الأولين».

رابعاً: الإيجاز

لما عرفنا أنّ الإيجاز هو اداء المقصود من المعاني بأقل كلمات، كان من الأهميـة الإشارة إلى أنّ هـذا المظهر شـكل أرضيـة خصـبة لآلية التكثيف الذي يعني: «إيجاز النص وتكثيف بنيته»(1). فإنّ آلية التناص هذه تقترب بشدّة من دائرة الاختزال.

و لمّا عرفنا فيما سبق الإيجاز هو نقض البسط، فكذلك ورد عند ابن المقفع في الأدب الكبير بالنسبة لكلام الإمام عليه السلام نقيض البسط أيضاً، إذ لم يرد إلاّ في مواطن قليلة جداً ومن ذلك قوله: «فإنّ المعاتبة مقطعةٌ للودّ»(2). فهو ينهى عن عتاب الصديق لأنّه يرى العتاب قاطعاً للمودة، وهذا يشبه بشدة بعض ما جاء في وصية أمير المؤمنين لولده الحسن عليهم السلام: «ولا تكثر العتاب فإنّه يورث الضغينة

1- التناص في الشعر الأندلسي 56

2- الأدب الصغير والأدب الكبير 123

ويجرُّ إلى البغضة»(1). فأبدل «العتاب»ب «المعاتبة» وأوجز «يورث الضغينة ويجر البغضة»ب «مقطعة للودِّ».

وبحسب ظن البـاحث إنّ ابن المقفع جـانب الصواب لمّا نهى عن كلِّ العتاب وجعله صارماً لحبل المودّة، لأنّ في العتاب حلاوة لا توجد إلاّ فيه، وهو محبـذ وله وقع خاص في النفوس الطيبـة، ولكن الصواب ما نهى عنه المُصـيب أمير المؤمنين عليه السـلام لما عدّ المذموم من العتاب كثرته «لا تكثر العتاب».

ومما ورد في الوصية أيضاً قول الإمام عليه السلام:

«قَطِيعَةُ الجاهلِ تعدِلُ صِلةَ العاقِلِ»(2).

و «هذا حقٌّ، لأنّ الجاهِلَ إذا قطعَكَ انتفعت ببعده عنك كما تنتفع بمواصلة الصديق العاقل لك»(3).

وبعبارة أخرى كما أن صلة العاقل غنيمة فإنّ قطيعة الجاهل غنيمة أيضاً.

ورد هـذا المعنى في الأدب الكبير بطريقـة مكثفة وذلك في حديث ابن المقفع الذي وجّه فيه إلى ملاقاة المعتذر بوجه مشـرق ولسان طلق، مستثنيا: «إلا أن يكون ممّن قطيعته غنيمة»(4). فقول ابن المقفع «قطيعتهُ» إختزال لقول أمير المؤمنين عليه السلام: «قطيعة الجاهل»، فذكر لفظة، «قطيعـة» بنصـها وأبـدل الاسم الظاهر «الجاهل» بالضـمير «الهاء». وأما قوله «غنيمة» اختزال ل «صـلة العاقل» التي هي بلا شـكٌ غنيمة.

ص: 331

1- تحف العقول 107
2- نهج البلاغة 471
3- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 16 / 284
4- الأدب الصغير والأدب الكبير 107

ولكنّ اختزال ابن المقفع هـذا ضـيّع جـلّ محـاسن هـذهِ الفقرة من الوصـية التي تمثلت بالتشبيه والمقابلـة والسـجع، ثم كيف جاءت كلمة «تعـدل» في هـذا المكـان بالـذات بطريقـة ملفتـة حينما عادلت المعنى بين قطيعـة الجاهل وصـلة العاقل. وحينما عادلت أيضاً تماماً بين مقطعي الحكمة: «قطيعة الجاهل تعدل صلة العاقل». ولو كانت بدلها كلمة أخرى مثل تشبه أو حرف كالكاف لذهب كثير من وقعها.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام في عهده لملك الأشتر:

«ثُمّ اَللهَ اَللهَ فِي اَلطَّبَقَـةِ اَلسُّـفْلَى مِنَ اَلَّذِينَ لاَ حِيلَـةَ لَهُمْ مِنَ اَلْمَسَـاكِينِ، وَاَلْمُحْتَاجِينَ، وَأَهْلِ اَلْبُؤْسَـى، وَاَلزَّمْنَى، فَإِنَّ فِي هَـذِهِ اَلطَّبَقَـةِ قَانِعاً وَمُعْتَرّاً... وَاِجْعَلْ لَهُمْ قِسْـماً مِنْ بَيْتِ مَالِكِ... فَإِنَّ لِلْأَقْصَـى مِنْهُمْ مِثْلَ اَلَّذِي لِلْأَدْنَى، وَكُلٌّ قَدِ اِسْتُرْعِيتَ حَقَّهُ، وَلاَ يَشْغَلَنَّكَ عَنْهُمْ بَطَرٌ، فَإِنَّكَ لاَ تُعْذَرُ بِتَضْيِيعِكَ اَلتَّافِهَ لِإِحْكَامِكَ اَلْكَثِيرَ اَلْمُهِمَّ»(1).

أمرُ أمير المؤمنين عليه السلام هذا يدور حول معنيين:

الأول:

والذي أفتتحه بتكرار لفظ الجلالة رغبةً منه في التوكيد اللفظي المشدد على إعطاء ذوي الحقوق حقوقهم وهم: المساكين...، وأهل البؤسـى وهم الذين مسّهم الفقر بشدّة، والزَّمنى أي المصابون بالعاهة، والقانع وهو السائل، وأخيرا المعترِّ وهو المتعرض للعطاء بلا سؤال(2).

1- نهج البلاغة 513 - 514

2- ينظر: شرح نهج البلاغة لمحمد عبده 3 / 470

الثاني:

أمرَ واليه بإحكام الأمور وأن لا يهتم بالجليل المهم دون الحقير التافه، لأنّه وإن احكم المهم لا يعذر بتضييع التافه.

وليس من الصدفة مطلقاً أن يجتمع هـذان المعنيان أو قريب منهما عند ابن لا تتركن مُباشـرة جسـيمِ أمركَ فيعودَ شأنكَ صـغيراً، ولا تُلزمن نفسكَ مباشرةَ الصغيراً، في الكبيرُ ضائعاً. وأعلم أنّ مالكَ لا يغني الناسِ كلهم فاخصص به أهل الحق»(1).

والفرق إنّ ابن المقفع أوصـى السـلطان مباشـرة الجسـيم مزرياً بصـغائر الأمور مُكرّراً هـذا المعنى بجملتين وهـذا التكرار لا طائل منه لأنّه أوضـحهُ في الجملـة لاـ الأولى. بينما أمير المؤمنين عليه السـلام لا يعـذر واليه إذا أضاع التافه حتى بإتقانهِ المهم. وأمّا «أهل الحق» الـذين طلب ابن المقفع إعطاءهم حقوقهم، فهو اختزال لما عدّده الإمام عليه السلام من البؤسى، والزَّمنى والمحتاجين، ولكن على ابن المقفع هنا أن يذكرهم – وإن كان أهل الحق معروفين – لأنّ ذكرهم وتذكير الناس بهم يعد حسنة بحد ذاته.

1- الأدب الصغير والأدب لكبير 71

المبحث الثاني: في رسالة الأدب الصغير

اشارة

الأدب الصغير عبارة عن رسالة تتضمن طائفةً من الحكم والوصايا في أغراض شتى منها: الدينية، والسياسية، والعسكرية وغيرها حرصَ ابن المقفع فيها على إرشاد الناس إلى معاشهم ومعادهم وما بين ذلك من أعمال. وتعد هذهِ الرسالة «من بدائع ابن المقفّع أملاها عقله الفيّاض على قلمه السيّال فجاءت كالماء الزلال بل كالسحر الحلال»(1). والحقيقة لولا كلام أمير المؤمنين عليه السلام لم تكن هذه الرسالة بهذه المنزلة الأدبية.

لا تختلف هذه الرسالة عن رسالة الأدب الكبير في الهدف والمضمون والمنهج، بل ما هي إلاّ صورة مصغّرة لها. ومن أهم ما في الأدب الصغير تلك المقدمة

ص: 335

1- الأدب الصغير 23

التي جاءت كمقدمة الأدب الكبير من الاعتراف بأنّ جانباً كبيراً من الرسالة نُقِل عن أولئك الأشخاص الذين اكتفى ابن المقفع بوصفهم وذكر بعض محامدهم.

وفي هذهِ المرّة لم يصفهم بالقدماء بمعنى أنَّ الحجة الدّاحضة – مثلما عرف في الأدب الكبير – التي أعتمد عليها من اعتمد في أنّ ابن المقفع كان يقصدُ القدماء الفرسَ لم تكن موجودة هنا.

قال ابن المقفع في الأدب الصغير مؤكداً على تأثرهِ بالصالحين، وتضمين كلامهم: «وقد وضعتُ في هذا الكتاب من كلام الناسِ المحفوظِ حروفاً فيها عونٌ على عمارةِ القلوبِ وصقالها وتجليةِ أبصارها، وإحياءٌ للتفكيرِ وإقامةٌ للتدبير، ودليلٌ على محامدِ الأمور ومكارمِ الأخلاقِ إن شاء اللهُ»(1). وكان لا يرى في الأخذ من هؤلاء والسير على هديهم ضيرا، لأنّهم مصيبون وصالحون وكلامهم حسن مثلهم، بل ذهب إلى ابعد من هذا لمّا عدَّ الأخذ عنهم وحفظ كلامهم يحتاج إلى توفيق وعون وهداية، وبهذا الأخذ يبلغ الأديب الغاية، ومن أخذ كلامًا حَسَنًا من غيرهِ فتكلَّم به في موضعهِ وعلى وجههِ، فلا تَرَيَنَّ عليه في ذلك ضؤولةً. فإنّ من أُعين على حفظِ كلام المصيبين، و هُديَ للإقتداء بالصّالحين، وَوُفِّق للأخذِ الحكماء، ولا عليهِ أنْ لا يزداد، فقد بلغ الغاية»(2).

فابن المقفع يصرح بأنّه أخذ عن أولئك الحكماء. ويؤكد على أنّ هذا الأخذ تضمينٌ حرفي «من أخذ كلاماً.. فتكلَّم بهِ.. على وجه» أي دون تغيير، مشجّعاً على أخذِ المزيد من هذا الكلام، لأنّ فيه بلوغ الغاية «ولا عليه أن لا يزداد،

1- الأدب الصغير والأدب الكبير 15

2- م 0 ن 13

فقد بلغَ الغاية». وعنده أيضًا ومهما بلغ الأديب من الفضل والمنزلة فلا يزال مديناً لهم، ملتجئاً إلى كلامهم؛ لأنّهم مبدعون مخترعون، ومن جاء بعدهم واصفون ناظمون كمنْ يجدُ فصوصاً من الجواهر مُعَدَّة فينظمها ويضعُ كلَّ فصٍّ موضعه(1).

ومثلما هو موجود لم يصرِّح ابن المقفع بذكر اسم الشخص أو الأشخاص الذين تأثّرَ بهم، بل اكتفى بتعداد بعض صفاتهم ومنها: - كلامهم حسن. - صالحون. - مصيبون. - حكماء. - مخترعون. - مبدعون. - في كلامهم عمارةُ القلوب وصقالها وتجلية أبصارها. - فيه إحياءٌ للتفكير. - فيه إقامة التدبير. - فيه محامد الأمور. - فيه مكارم الأخلاق.

وهذهِ الصفات هي صفاتٌ إسلامية كانت متوفّرة عند الصفوة من الإسلاميين وأميرُ المؤمنين عليه السلام من أهمِّ مصاديقها.

هذه هي فحورى مقدمة الأدب الصغير. ولكن الغريب عنها ما صرّحَ بهِ الدكتور محمد مهدي البصير بعد أن عرّفها لنا، إذ قال: «مجموعة عظات ونصائح نقلها المترجم عن الفارسية كما ينصُّ على ذلك هو في مقدمتها»(2).

ويرى الباحث أنَّ في هذا الكلام تقوّلاً واضحاً على ابن المقفع، إذ إنه لم ينص مطلقاً على أنهُ نقل عن الفارسية ولم يلمح إلى ذلك أيضاً لا من قريب ولا من بعيد، بل كل الذي قاله الرجل ما ذكرناه عنه. ولا أدري من أين جاء المرحوم الدكتور بهذا التصريح.

وعلى أية حال وبعد عرض ما جاء في رسالة الأدب الصغير على مجموعة

ص: 337

1- ينظر: الأدب الصغير والأدب الكبير 12 - 13
2- في الأدب العباسي 16

واسعة من كلام أمير المؤمنين عليه السلام وجد الباحث نصيباً كبيراً من تلك الحروف التي تحدث عنها ابن المقفع للإمام علي عليه السلام، الذي توكّأ ابن المقفع كثيراً على كلامه. وبدون مغالاة فإني لم أجد ولا صفحة واحدة من صفحات الأدب الصغير تخلو من اثر لكلام أمير المؤمنين عليه السلام ولكن سأقتصر على بعضها وبالمظاهر الآتية:

أولاً: التضمين

ضمن ابن المقفع حكماً كثيرة جداً لأمير المؤمنين عليه السلام ولكن هذهِ الحكم العلوية لم يوردها ابن المقفع بمفردها دون أُختٍ لها، أو دون توسع عليها. إلاّ من الندرة النادرة. ومن هذهِ الندرة في الأدب الصغير قول ابن المقفع في باب توصية الملك بالحزم: «الظفر بالحزمِ، والحزمُ بإجالة الرأي بتحصينِ الأسرارِ»(1).

وهذا بنصّه من حكمة أمير المؤمنين عليه السلام:

«اَلظَّفَرُ بِالْحَزْمِ، وَاَلْحَزْمُ بِإِجَالَةِ اَلرَّأْيِ، وَاَلرَّأْيُ بِتَحْصِينِ اَلْأَسْرَارِ»(2).

إجالة الرأي إعماله(3)، والباءات للإلصاق والاستعانة(4). وفي الحكمة «يشير الإمام عليه السلام بهذا إلى أن التخطيط شرط أساسي للظفر و النجاح، و إنَّ أيَّ عمل من غير تصميم و تخطيط يذهب سدى، وربّما كان ضرراً محضًا. وهذه الحقيقة سمة العصر الحديث...

1- الأدب الصغير والأدب الكبير 53
2- نهج البلاغة 561. وينظر: أدب ابن المقفع دراسة اسلوبية 50
3- ينظر: شرح ابن ميثم 5 / 408
4- ينظر: منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة 21 / 87

إنهم يخططون لكل شـيء... حتى الكذب... له عندهم تخطيط ودراسة. والشـرط الأساسي في التخطيط الحزم، و فسّره الإمام بإجالة الرأي أي بالدراسة العلمية على أن تبقى هذه الدراسة طي الكتمان»(1).

وبفعل تلك الموسوعية الهائلة التي يحملها أمير المؤمنين عليه السـلام فهو لـم يغفل شـيئاً لـم يوصِ به، حتى المسافة التي ينبغي الإلتزام بها والوقوف عنـدها بين الجيشـين. فمن حكمـةٍ له يأمر فيها صاحب الجند بعدم الإبتعاد المفرط، كما أمره بعدم الإقتراب المفرط من معسـكر العـدو، فقال: «قارب عـدوك بعض المقاربـة تنل حاجتك و لا تفرط في مقاربته فتـذل نفسك و ناصـرك و تأمل حال الخشـبة المنصوبة في الشمس التي إن أملتها زاد ظلها و إن أفرطت في الإمالة نقص الظل»(2).

اسـتعمل أمير المؤمنين عليه السـلام هذا التشبيه الضمني الرائع في توضيح ما أراد، فقد شبّه المعسكر بالخشبة الشاخصة إن أملتها قليلاً زاد ظلّها؛ لأنّ الشمس تضرب بأشعتها على جانب هذه الخشبة فيصبح ظلّها مديداً.

ووجه الشـبه من هذا هو إذا التزم الجند بالبعد المطلوب من المسافة عن العدو كان لهم ظلاًّ أكثر ويترتّب على هذا هيبة ووقع أكثر للجيش بسبب عدم معرفة العدو بالعدة والعدد الفعلي لذلك الجيش.

أما لو أفرطت في إمالتها فإنَّ طولها سيتلاشى على الأرض، لأنّ الشمس تكون عمودية عليها، وبالتالي فإنّ ظلّها سيكون تحتها لا يستبين منه إلاّ القليل، ولربما يختفي تماماً وستكون الخشبة على حقيقتها فلا تزداد

1- في ظلال نهج البلاغة 4 / 247

2- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 20 / 487

من الظلِّ أي طولٍ وهذا هو وجه الشبه إذ إنّ الجند لو اقتربوا أكثر من معسكر عدِّوهم ستُعرف مقدرتهم الحقيقية، ولربّما تزول هيبتهم في نفوس عدوِّهم بفعل هذه المعرفة.

ضمَّن ابن المقفع هذه الحكمة في الأدب الصغير مبيِّنًا أنّها ليست له، فقال: «وكان يقالُ: قاربْ عدوكَ بعض المقاربة، تنل حاجتك، ولا تقاربهُ كل المقاربةِ، فيجترئ عليك عدوك وتذل نفسك ويرغب عنك ناصركَ. ومثلذلك مثل العود المنصوبِ في الشمسِ، إن أملتهُ قليلاً زاد ظلهُ، وإن جاوزتهُ الحد في إمالتهِ، نقص الظل»(1).

ومن قبيل هذا الإعتراف قال ابن المقفع أيضاً: «وكان يقال: عمل الرجلِ فيما يعلم أنه خطأ هوى، والهوى آفةُ العِفافِ. وتركهُ العمل بما يعلم أنه صوابٌ تهاونٌ، والتهاونُ آفةُ الدين. وإقدامُهُ على ما لا يدري أصوابٌ هو أم خطأ جماح، والجماح آفة العقلِ»(2).

وهذا الذي قال هو أمير المؤمنين عليه السلام:

«عَمَلُ الرّجُلِ بِمَا يَعْلمُ أنَّه خَطَأ هَوًى، والهَوَى آفَـةُ العَفَافِ، وَتركُ العَمَل بمَا يَعْلم أنَّهُ صَوَابُ تَهاوُنِ، والتّهاوُنُ آفـةُ الـدِّينِ، وإقْدَامَهُ على مَا لا يَدْري أصَوابٌ هوَ أمْ خَطَأ لجِاجٌ، واللِّجَاجُ آفةُ العَقْلِ»(3).

وقال ابن المقفع في أدبه الصغير: «قال رجلٌ لحكيمٍ: ما خيرُ ما يؤتى المرء؟ قال: غريزةُ عقلٍ. قال: فإن لم يكن؟ قال: فتعلمُ علمٍ. قال: فإن حرمهُ؟ قال:

ص: 340

1- الأدب الصغير والأدب الكبير 52

2- الأدب الصغير والأدب الكبير 43

3- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 20 / 451 - 452

صدقُ اللسانِ قال: فإن حرمهُ؟ قال: سكوتٌ طويلٌ. قال: فإن حرمه؟ قال:

ميتةٌ عاجلةٌ»(1).

وهذا الحكيم هو حكيم الإسلام أمير المؤمنين عليه السلام وذلك هو جوابه، فقد سُئل:

«ما أفضل ما أعطي الإنسان؟ قال غَريزَةُ في عَقْلٍ، فإنْ لمْ يَكُنْ؟ قال فأخٌ مستشيرٌ، قيلَ فإنْ لمْ يَكُنْ؟ قال: فصَمْتٌ في المَجالِسِ، قيل، فإنْ لمْ يَكُنْ؟ قال: فموتٌ عاجلٌ»(2).

ومثلما هو واضح، فإنّ ابن المقفع ضمّن هنا النص العلوي بطريقة التحوير، فقد أبدل قول الإمام عليه السلام:

«ما أفضل ما أعطي الإنسان».

ب«ما خيرُ ما يؤتى المرء».

وأبدل «ميتة عاجلة».

ب«موت عاجل».

وأبدل «فصمت في المجالس».

ب«سكوت طويل».

وبطريقتهِ التي يأبى مفارقتها إلاّ نادرًا مع النص العلوي، تلك الطريق القائمـة على الزيادة، فهو ها قد زاد على الحكمة «فتعلم علم»و «صدق لسان».

ومن التضمين الذي ورد في الأدب الصغير: «أصل العقل التثبت وثمرته

1- الأدب الصغير والأدب الكبير 49
2- جامع الأحاديث 194

السلامة»(1).

فهذا تضمين لحكمة أمير المؤمنين عليه السلام:

«أصلُ العقل الفِكْرُ وَثَمَرَتُهُ السّلامة»(2).

فلم يبدل ابن المقفع سوى «الفكر»ب «التثبت» والأولى خاصة بالعقل وأكثر مواءمة له من الثانية، وعليه فإنّ إبدال ابن المقفع هذا لم يكن في محلِّهِ.

ثانياً: التلفيق

كان ابن المقفع كاتبًا حكيمًا تغلب عليهِ الحكمة في كلِّ شيء(3)، وبما إنّ أمير المؤمنين عليه السلام مثلما قال البروفسور فيليب يقوم في التراث الإسلامي مقام سليمان الحكيم... وله من الحكم والمواعظ عددٌ لا يحصى(4)، فقد وجد ابن المقفع ضالته في كلمات أمير المؤمنين عليه السلام الحكيمة تلك، فلفق كثيرا منها. وقد ورد التلفيق في الأدب الصغير مكون من:

1 - حكمتين علويتين:

ومن هذا قول ابن المقفع في الأدب الصغير: «أحقُّ النّاسِ.. بالفضل أعودَهم على النّاس بفضله.. وأحقُّهم بالنِّعمِ أشكرهم لما أوتي منها»(5).

فأول كلامه الذي أكدّ فيه على أنّ المتفضل على الناس هو أجدرهم بأن يدومَ

1- الأدب الصغير والأدب الكبير 45

2- غرر الحكم ودرر الكلم 198

3- ينظر: ابن المقفع 62

4- ينظر: وعَّاظ السلاطين 183

5- الأدب الصغير والأدب الكبير 33 - 34

له ذلك الفضل. وعلة دوام ذلك الفضل هو التفضّل على الناس من السعي في قضاء حوائجهم، والاهتمام بأمورهم لهُ شبه بليغ بجانبَ من حكمةٍ لأمير المؤمنين عليه السلام بيّن فيها لجابر بن عبد الله الأنصاري أنّ الله سبحانه وتعالى قد أسبغ نعمه على خلقه، فمن أراد لهذهِ النعم الدوام والبقاء عليه أن يقوم بها بما يرضي الله، ويقضي حوائج الناس، وَمنْ لم يفعل هذا عرّض نعمته للزوال فقال:

«يَا جَابِرُ، مَنْ كَثُرَتْ نِعَمُ اَللهّ عَلَيْهِ كَثُرَتْ حَوَائِجُ اَلنَّاسِ إِلَيْهِ، فَمَنْ قَامَ بِمَا يَجِبُ للهّ فِيهَا عَرّضَ نِعْمَةَ اَللهَّ لِدَوَامِهَا، وَمَنْ ضَيّعَ مَا يَجِبُ للهّ فِيهَا عَرّضَ نِعْمَتَهُ لِزَوَالِهَا للهَّ فِيهَا بِمَا يَجِبُ فيهَا عَرّضَهَا لِلدَّوَامِ وَاَلْبَقَاءِ، وَمَنْ لَمْ يَقُمْ فِيهَا بِمَا يَجِبُ عَرّضَهَا لِلزّوَالِ وَاَلْفَنَاءِ»(1).

أمّاَ قول ابن المقفع الأخير: «وأحقهم بالنعم أشكرهم لما أوتي منها» فيكاد يكون بنصه عن حكمة أمير المؤمنين عليه السلام التي تقول:

وأحقُّ النَّاس بِزِيادَةِ النِّعمةِ أَشْكَرُهُمْ لَما أُعْطيَ مِنْها»(2).

فقوله «وأحقهم» أي «أحقُّ النّاسَ» مثلما ذكر هو في بداية حديثه، وهذا بنصه من أوّل الحكمة «وأحق الناس»، والباقي بنصهِ سوى أنّ ابن المقفع حذف لفظة «بزيادة»، وأبدل الفعل الماضي المبني للمجهول «أُعطيَ» بآخر مثله معنى وصياغة «أُوتيَ».

وبطريقة مماثلة تعامل ابن المقفع مع حكمتين لأمير المؤمنين عليه السلام فرّق بهما بين مودّة الأخيار وبين مودة الأشرار من حيث الديمومة والرسوخ.

فالأولى ثابت أصلها وارف فرعها، والثانية سريع إنقطاعها، فقال في ذلك:

1- نهج البلاغة 620

2- غرر الحكم ودرر الكلم 359

«مودَّة ذوي الدِّين بطيئةُ الإنْقِطَاعِ دائِمةُ الثَبَاتُ والبَقَاءُ»(1).

«مودَّة الحمقى تزول كما يزول السَّرابُ وتَقَشَعُ كَما يَقْشَعُ السَّحاب»(2).

لفق ابن المقفع بين الحكمتين، فقال: «والمودة بين الأخيار سريع اتصالها بطئ الانكسار هين الإصلاح. والمودة بين الأشرار سريع انقطاعها بطئ اتصالها، كالكوز من الفخار يكسره أدنى عبث ثم لا وصل له أبداً»(3).

فأبدل ابن المقفع «مودّة ذوي الدين»ب «المودة بين الأخيار».

وأبدل «موّدة الحمقى»ب «المودة بين الأشرار».

وقوله عليه السلام: «بطيئة الإنقطاع» فمثله التام في قول ابن المقفع: «بطيءُ إنقطاعها» أمّا تشبيه أمير المؤمنين عليه السلام لمودة الحمقى وزوالها بالسراب وتقشع السحاب فقد أراد من ذلك وجه الشبه المتمثل بسرعة زوال هذهِ الموّدة وتصرّمها، وابن المقفع اقتنص وجه الشبه هذا لمّا قال: «سريعٌ إنقطاعها». وبطريقته التي لا يكاد يقارقها مع كلام أمير المؤمنين عليه السلام وهي التوسع بطرق شتى وهو هنا ضرب مثالاً بعدء كلِّ من الحكمتين اللتين لفقهما.

ومن نحو هذا أيضاً قول ابن المقفع: «... ومن لا إخوانَ لهُ فلا أهلَ لهُ...، ومن نحو لا عقلَ لهُ فلا دنيا لهُ ولا آخرة»(4).

ص: 344

1- عيون الحكم والمواعظ 489

2- م. ن 487

3- الأدب الصغير والأدب الكبير 54

4- م. ن 55

فمقطعهُ الأول الذي بيّن فيه منزلة الأخوان بنصّهِ من قول الإمام علي عليه السلام: «مَنْ لا إخوانَ له لا أهْلَ لَهُ»(1).

وأما الثاني فلا يعدو تقديماً وتأخيراً بين كلمات حكمة الإمام علي عليه السلام التي تقول: «مَنْ لم يؤْثِر الآخرةَ على الدُنْيَا فَلاَ عَقْلَ لَهُ»(2).

وبمثل هذه الطريقة تعامل ابن المقفع مع حكمتين آخرتين لأمير المؤمنين عليه السـلام قال في الأولى مشـفقاً على ولدهِ محمد بن الحنفية من الفقر:

«يَا بُنَيَّ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ اَلْفَقْرَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنْهُ، فَإِنَّ اَلْفَقْرَ مَنْقَصَةٌ لِلدِّينِ، مَدْهَشَةٌ لِلْعَقْلِ، دَاعِيَةٌ لِلْمَقْتِ»(3).

قال ابن ميثم: «أمّا كونه منقصةً للدين فللإشتغالِ بهمّةِ وتحصيل قوام البدن عن العبادة، وكونه مدهشةً للعقل: أي محل دهشة العقل وحيرته وضيق الصدر به ظاهر، وكذلك كونه داعية مقت الخلق لصاحبة»(4).

وقال عليه السلام في الثانية:

«..وَمَنْ كَثُرَ كَلاَمُهُ كَثُرَ خَطَؤُهُ، وَمَنْ كَثُرَ خَطَؤُهُ قَلَّ حَيَاؤُهُ، وَمَنْ قَلَّ وَرَعُهُ، وَمَنْ قَلَّ وَرَعُهُ مَاتَ قَلْبُهُ دَخَلَ اَلنَّارَ..»(5).

لفّقَ ابن المقفع الحكمتين وذلـك في حـديثه عن الفقر، فقال: «والفقرُ داعيـةٌ إلى صاحبهِ مقتَ الناسِ، وهو مسـلبةٌ للعقلِ والمروءةِ، مـذهبةٌ للعلمِ والأدبِ،

1- غرر الحكم ودرر الكلم 636
2- م. ن 651
3- نهج البلاغة 610
4- شرح نهج البلاغة لابن ميثم 50 / 4770
5- نهج البلاغة 614

ومعـدنٌ للتهمـةِ، ومجمعةٌ للبلايا. ومن نزل به الفقرُ والفاقةُ لم يجد بُدّاً من ترْكِ الحياءِ، ومَنْ ذَهبَ حياؤهُ ذهبَ سـرورهُ، ومن ذهبَ سـرورهُ مقتَ، ومن مقتَ أو ذي، ومن أوذي حزنَ، ومن حزنَ فقد ذهبَ عقلهُ»(1).

فالحكمة التي أمر فيها أمير المؤمنين عليه السـلام ولَدِهِ بالإسـتعاذة من الفقرِ بالله العزيز نجد منها عبارات واضـحة في كلام ابن المقفع مع تقديم وتأخير، فقول الإمام عليه السلام:

«فإنّ الفقر.. داعية للمقت» جعله ابن المقفع في مقدّمة كلامه: «والفقر داعية إلى صاحبه مقتَ النّاس».

وقوله عليه السلام: «مدهشة» أدقُّ في وصف عقل الفقير من «مسلبة»، فالذي يصيبه الفقر يُدهش فكره، ويصابيِحَيرَةٍ من أمرهِ لا يُسلب عقله.

ومثلما عرفنا سـلفاً - وكما نعرف لاحقاً - لا تكاد تمرّ حكمـة واحدة من حكم أمير المؤمنين عليه السـلام عند ابن المقفع - إلاّ نادراً جدًّا - دون أن يتوسع عليها، أو يقـدم لها، أو يفرّع منها، أو يضـرب مثالاً عليها. وهو هنا بعـد أن ذكر ما قاله الإمام توسع عليه بقوله: «مذهبةٌ للعلم ومعدن للتهمة، ومجمعة للبلايا».

أمّا حكمة الإمام الثانية لا يَقل أثرها عن الأولى من حيث المفردات، والمعاني والتركيب، فقوله عليه السلام:

«.. وَمَنْ قلَّ حياؤه قلَّ ورعه».

لهـا صـدى بيّن في قول ابن المقفع: «ومَنْ ذهَبَ حيـاؤه ذهب سـروره» وهو في اسـتعماله الفعـل «ذهب» بـدلاً من الفعـل «قلّ» عادَ إلى المبالغة غير المحمودة

1- الأدب الصغير والأدب الكبير 55 - 56

لأنَّ مَنْ يفتقر لا يعني أنّ حياءَه قد ذهب، ومثلما أكدّ على ذلك هو «لم يجد بدّاً من ترك الحياء»، بل الحياء لربَّما يقلَّ إذا افتقر حامله، وعليه لو استعمل الفعل «قلّ» مثلما وجده عند أمير البيان عليه السلام لكانَ أصوب.

أما صياغة الجملة وتركيبها القائم على افتتاحها ب «مَنْ» واتباعها بفعلٍ ماضٍ ثمّ اختتامها بنتيجةٍ معيّنه كقوله عليه السلام.

«... ومَنْ قلَّ وَرعُه ماتَ قلبُه».

فالجملة مكوّنّه من:

من الشرطية + فعل الشرط الماضي مع فاعله + جواب الشرط وفاعله وهو ماضٍ أيضاً.

فكل هذا نجده تماماً في قول ابن المقفع «ومَنْ ذهبَ حياؤه ذَهَبَ سروره». الاّ أنّه وفي بعض الجمل تخلَّصَ من الفاعلين لأنه جاء بالفعل الماضي مبنيّاً للمجهول كقوله: «وَمَنْ مَقُتَ فقد أُذي».

وتجدر الإشارة إلى أنّ التشابه بين كلام ابن المقفع «ومَنْ نَزَلَ بِهِ الفقر إلى قولِهِ ذهبَ عقله» وبين حكمة الإمام الثانية أشار إليه – أيضاً – الدكتور محمد مهدي البصير في قوله: «يخيلُ إليَّ أنّ ابن المقفّع يجاري بكلامه هذا كلاماً بليغاً للإمام علي – ثم ذكر الدكتور الحكمة – ولكن كم بين كلام الإمام علي وهذر ابن المقفع من فرق»(1).

وفي حكم عدة كان أمير المؤمنين عليه السلام ينهى عن الإستهانة بالخير واستقلال الصغير والقليل منه، ومن ذلك قوله:

1- في الأدب العباسي 20 (الهامش)

«اِفْعَلُوا اَلْخَيْرَ وَلاَ تَحْقِرُوا مِنْهُ شَيْئاً، فَإِنَّ صَغِيرَهُ كَبِيرٌ وَقَلِيلَهُ كَثِيرٌ»(1).

وفي حكمةٍ أخرى نهى عن تحقير الخير والشـرِّ معاً؛ لإنّ الخيرَ وإنْ كان صـغيراً فصغيره يسرُّ، والشر وإن كان ضؤولاً فضآلته تضرُّ، فقال في ذلك:

«لا تُحَقِّرَنّ شّيْئاً مِنَ الخيرِ وإنْ صَغُرَ، فإنَّكَ إذا رَأيْتَهُ سَرَّكَ مَكانُه، وَلا تُحَقِّرَنَّ شَيْئًا مِنَ الشَّرِّ وإنْ صَغُرَ، فإنَّكَ إذا رأيتَهُ سَاءَكَ مَكانُه»(2).

نجـد مضـمون الحكمتين معاً وبعضاً من تراكيبهما في قول ابن المقفع «وعلى العاقل أن لا يستصـغر شـيئاً من الخطأ في الرأي، والزللِ في العلمِ، والإغفال في الأمور، فإنهُ من استصـغر الصغير أوشكَ أن يجمعَ إليه صغيراً وصغيراً، فإن الصغير كبيرٌ.. ولم نر شيئاً قط إلا قد أتي من قبلِ الصـغير المتهاونِ به، قد رأينا الملكَ يؤتى من العدو المحتقر به، ورأينا الصحة تؤتى من الداء الذي لا يحفلُ به، ورأينا الأنهار تنبشقُ من الجدول الذي يستخف بهِ»(3).

فنهي الإمام علي عليه السـلام عن تحقير الشر: «و لا تَحَقِّرَنّ شَيْئًا مِنَ الشَّرِّ». لا يختلف عنه رفض ابن المقفع لإستصغار الخطأ والزلل: «لا يستصغر شيئاً من الخطأ».

أمّا قول الإمام علي عليه السلام: «فإنَّ صغيره كبير».

ضمّنه ابن المقفع بتحوير طفيف لما قال: «فإنَّ الصغير كبير».

1- نهج البلاغة 629
2- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 20 / 420
3- الأدب الكبير والأدب الصغير 23

وكعادته التي يأبى ابن المقفع مفارقتها مع كلام الإمام علي عليه السلام إلاّ نادراً. فهو لم يكتفِ بالتضمين، ولا التلفيق وحدهما، بل عمدَ إلى التوسع أيضاً على الحكمة العلوية. ومن طرقه بالتوسع ضرب الأمثال وهي هنا ثلاثة، لكنّها بمعنى واحد تماماً، ومنها قوله: «ورأينا الأنهار تنبثق من الجدول الذي يستخفُّ به». ومعنى امثل: لا تحقروا ولا تستصغروا الصغير النافع لأنّ فيه نتيجة تسرُّ. وبالتالي فإن ابن المقفع قد استوحى هذا المثل تماماً ممّا لاجاء في الحكمة الثانية: «لا تُحَقِّرَنَّ شّيْئاً مِنَ الخَيرِ وإِنْ صَغُرَ، فإنّكَ إذا رَأَيْتَهُ سَرّكَ مَكَانُه».

2 – وصية وحكمة:

فمّما جاء في وصية أمير المؤمنين لولدهِ الحسن عليهم السلام:

«يَا بُنَيَّ اِجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَاناً فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ، فَأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَاِكْرَهْ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَهَا، وَلاَ تَظْلِمْ كَمَا لاَ تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ، وَأَحْسِنْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ، وَاِسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبِحُهُ مِنْ غَيْرِكَ، وَاِرْضَ مِنَ اَلنَّاسِ بِمَا تَرْضَاهُ لَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ، وَلاَ تَقُلْ مَا تَعْلَمُ، وَلاَ تَقُلْ مَا لاَ تُحِبُّ أَنْ يُقَالَ لَكَ»(1).

فهو يريد من ولدهِ الحسن عليه السلام أن يكون عادلاً بينهُ وبين غيره كما الميزان عادل لا يفضّل إحدى كفّتيهِ على الكفة الأخرى إلاّ بوزنٍ حقٍّ. وقال عليه السلام في هذا المعنى:

«أعْدلُ السيرَةِ أنْ تُعامِلَ النّاسَ بما تُحِبُّ أنْ يُعامِلوكَ به»(2)

ص: 349

1- نهج البلاغة 462 – 463

2- غرر الحكم ودرر الكلم 203

لا يخرجُ قول ابن المقفع: «أعْدلُ السّيرِ أنْ تقيسَ النّاسَ بنفسكَ، فلا تأتي إليهم إلا ما ترضى أنْ يؤتى إليكَ»(1) عن دائرة النصيين العلويين، فأول قوله: «أعْدلُ السّيرِ أنْ تقيسَ النّاسَ» عن كلام الإمام عليه السلام:

«أعْدلُ السيرَةِ أنْ تُعامِلَ النّاسَ».

فقد أبدل ابن المقفع «تعامل»ب «تقيس». إلاّ أنّ التحوير الذي أجراه ابن المقفع على مفردة «السيرة» وحولها إلى «السير» لم يكن محموداً بنظر الباحث، كون هناك فرق شاسعٌ بين السيرة التي هي السُّنّة والطريقة(2)، وبين السير الذي هو الذهاب(3).

وبالتالي فإنَّ المعنى عند الطرفين لا تستقيم معه مفردة «السير» بقدر مفردة «السيرة».

وباقي كلامه أخذه من الوصية إلاّ أنّهُ حذف منها «الميزان» الذي أعطى لوصية الإمام بعداً تصويريّاً جميلا إلاّ بوزنٍ حقٍّ. وكذلك لم نجد في كلام ابن المقفع طرق ومقاييس العدل تلك التي وجدناها في كلام الإمام علي عليه السلام:

- أن تُحب لغيرك ما تحبُّ لنفسك أن لاتَظْلِم كما تحب أن لاتُظلَم أن تستقبح من نفسك ما تستقبحه من غيرك وتنبغي الإشارة بعد هذا إلى أن ما جاء في نهاية المقطع المذكور من الوصية:

«ولا تقل ما لا تعلم وإن قلَّ ما تعلم». لم يذكره ابن المقفع مع كلامه السابق، بل

1- الأدب الصغير والأدب الكبير 40
2- ينظر: تاج العروس 6 / 559 مادة (سير)
3- ينظر: لسان العرب 1 / 393 مادة (سير)

أخره قليلاً، فقال: «ومن ورع الرجل أنْ لا يقول ما لا يعلم»(1).

3 - حكمتين ورسالة:

قال أمير المؤمنين في إحدى حكمه:

«وَمَنِ اِقْتَصَرَ عَلَى بُلْغَةِ اَلْكَفَافِ فَقَدِ اِنْتَظَمَ اَلرَّاحَةَ، وَتَبَوَّأَ خَفْضَ اَلدَّعَةِ. وَاَلرَّغْبَةُ مِفْتَاحُ اَلنَّصَبِ، وَمَطِيَّةُ اَلتَّعَبِ»(2).

وقال في أخرى: «مَنْ سألَ فوقَ قَدْرِهِ استَحَقَّ الحِرْمانَ»(3).

وقال في رسالة كتبها على عبد الله بن عباس:

«اَلدُّنْيَا دَارُ دُوَلٍ، فَمَا كَانَ مِنْهَا لَكَ أَتَاكَ عَلَى ضَعفِكَ، وَمَا كَانَ مِنْهَا عَلَيْكَ لَمْ تَدْفَعْهُ بِقُوَّتِكَ»(4).

أتى ابن المقفع على هذه النصوص الثلاثة بتمامها ونظمها في عقد واحد، فقال: «اقتصارُ السعي إبقاءٌ للجمامِ، وفي بعد الهمةِ يكون النصب، ومن سأل فوق قدرتهِ استحق الحرمانَ، وسوءُ حملِ الغنى أن يكونَ عند الفرحِ مرحاً، وسوءُ حملِ الفاقةِ أن يكون عند الطلبِ شرهاً، وعارُ الفقر أهونُ من عار الغنى، والحاجةُ مع المحبةِ خيرٌ من الغنى مع البغضةِ. الدنيا دولٌ، فما كان لك منها أتاكَ على ضعفكَ، وما كان عليك لم تدفعهُ بقُوتكَ»(5).

1- الأدب الصغير والأدب الكبير 43
2- نهج البلاغة 619
3- غرر الحكم ودرر الكلم 624
4- نهج البلاغة 542
5- الأدب الصغير والأدب الكبير 26

فالحكمة الأولى ضـمنها ابن المقفع وجعلها في أوّلِ كلامه مع تحويرات طفيفة فقد أبدل «من اقتصـر»ب «اقتصار السـعي»، وأبدل «أنتظم الراحة» ب «إبقاء الجمام» والمعنى واحد تماماً في النصـيين بخاصّة إذا عرفنا إبقاء الجمام بمعنى الراحة(1)، إلا أنّ ابن المقفع لم يبيِّن إلى أيِّ حدّ ينبغي معه الاقتصارفي السـعي، لأنّ الاقتصار قد يصل إلى التقصـير، وهذه الدرجة سـلبية وليست إيجابية، وابن المقفع بهذا يكون حـذف محوراً من حكمـة الإمام لا غنى عنه لمن أراد الإجاة في هذا المعنى، وهو وقله «الكفاف». وعلى أية حال فالذي اقتصـر واكتفى بما يكفيه من كـدٍّ يـده ولم يجعل نفسه وجسده يلهثان خلف الدنيا أورث «الراحة» بحسب تحوير ابن المقفع. أو «الجمام» بحسب تحوير ابن المقفع.

وفي حال لم يقتصـر الساعي على ما يكفيه وانتقاد إلى «الرغبة» بحسب تعبير الإمام عليه السـلام والتي حولها ابن المقفع إلى «بعد الهمة»، فحينئذ تكون النتيجة بإتفاق الطرفين هي «النصب» أي التعب الشديد.

وبطبيعة الإمام لم يترك معناه بدون فنٍّ بلاغيٍّ جميل وهو هنا «اسـتعار للرغبة في الدنيا لفظ المفتاح باعتبار فتحه لباب التعب على الرّاغب، وكذلك لفظ المطية باعتبار استلزامها كالمطيّة المُتعِب ركوبها»(2).

أما حكمة الإمام الثانية «مَنْ سأَلَ فَئِقَ قَدْرِهِ استَحَقَ الحِرْمانَ»، فقد ضمّنها ابن المقفع لما قال: «من سأل فوق قدرته استحقَّ الحرمان»، وليته لم ينله النصب لمّا أبدل «قدره»ب «قدرتِهِ». وبالنسبة للنص الثالث فقد ضمنه ابن المقفع بنصِّه في آخر كلامه المذكور.

1- ينظر: لسان العرب 12 / 105 مادة (لجم

2- شرح نهج البلاغة لابن ميثم 5 / 490

4 - نصوص عدّة متفرقة من العهد:

خصَّ ابن المقفع السلطان بنصيبٍ كبير من المواعظ في الأدب الصغير، وكان إنّ هناك خصال أربع ينبغي على السلطان إحرازها والتوثّق منها كيما تدول دولته، وتنفذ كلمته، فقال: «ولايةُ الناسِ بلاءٌ عظيمٌ، وعلى الوالي أربعُ خصالٍ هي أعمدةُ السلطانِ، وأركانهُ التي بها يقومُ وعليها يثبتُ: الاجتهادُ في التخيرِ، والمبالغةُ في التقدمِ، والتعهد الشديدُ، والجزاءُ العتيد»(1).

وبعد أن عدد هذه الأركان الأربعة بدأ بتفصيل كُلٍّ منها. وهذه عن بكرة أبيها من عهد أمير المؤمنين عليه السلام لمالك الأشتر (رضوان الله عليه) بالنص أو بالمعنى.

فقال ابن المقفع عن التخيّر: «فأما التخيُر للعمالِ والوزراء فإنهُ نظامُ الأمرِ ووضعُ مؤونةِ البعيد المنتشر... ولعل عُمّالَ العاملِ وعمّالَ عُمّالهِ يبلغونَ عدداً كثيراً، فمن تبيّن التّخيّرَ فقد أخذ بسببٍ وثيقٍ، ومن أسَّس أمرهُ على غيرِ ذلك لم يجدِ لبنائه قواماً»(2).

فالعمال كثيرون، ولا يمكن استعمالهم بأجمعهم ولكن السبب الوثيق هو تخيّرهم، وهذا كقول أمير المؤمنين عليه السلام في عهدهِ للأشتر:

«ثُمَّ انْظُرْ فِي أُمُورِ عُمّالِكَ فَاسْتَعْمِلْهُمُ [اِخْتِيَاراً] اِخْتِبَاراً، وَلاَ تُوَلِّهِمْ مُحَابَاةً وَأَثَرَةً»(3).

وهذا التَّخيّر يحتاج إلى توكيد حتى يتم بنجاح، قال ابن المقفع: «وأما التقديم

1- الأدب الصغير والأدب الكبير 25

2- م. ن 25

3- نهج البلاغة 509

.والتّوكيدُ، فإنّهُ ليس كُلَّ ذي لُبٍّ أو ذي أمانةٍ يعرفُ وجوهَ الأمورِ والأعمالِ»(1).

فهو يرى هنا أنّ العقل والأمانة غير كافيتين للتعّرف على وجوه الأمور الصحيحة وتأدية الأعمال بشكلها الحسن. وكأنه هنا أراد أن يقول ما قاله أمير المؤمنين عليه السلام بعد أن أمر بتخيّر العمال أيضًا:

«وَتَوَخَّ مِنْهُمْ أَهْلَ التَّجْرِبَةِ، وَالْحَيَاءِ، مِنْ أَهْلِ الْبُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ، وَالْقَدَمِ فِي الْإِسْلاَمِ الْمُتَقَدِّمَةِ، فَإِنَّهُمْ أَكْرَمُ أَخْلاَقاً، وَأَصَحُّ أَعْرَاضاً، وَأَقَلُّ فِي الْمَطَامِعِ إِشْرَاقاً، وَأَبْلَغُ فِي عَوَاقِبِ الْأُمُورِ نَظَراً»(2).

وبعد التوكيد قال ابن المقفع عن التّعهُّدِ: «وأما التعهدُ، فإن الوالي إذا فعلَ ذلكَ كان سميعاً بصيراً، وإن العامل إذا فُعل ذلك به كان متحصناً حريزاً»(3).

وبعد أسطرٍ معدودات كرّرَ القول مجدداً في التعهَد قائلاً: «ثم على الملوكِ.. تعاهدُ عمالهم وتفقد أمورِهِمْ»(4).

وهذا الكلام نظيره قول أمير المؤمنين عليه السلام:

«ثُمّ تَفَقّدْ من أُمُورِهم ما يتفقّدُ الوَلَدانِ مِنْ وَلَدِهِما... ولا تحقرَنّ لطفًا تعاهدتم به وإن قلَّ»(5).

فالمعنى واحد بين الكلامين وهو التأكيد على تعهُّد وتفقُّد الولاة لما في التعهد

1- الأدب الصغير والأدب الكبير 25

2- نهج البلاغة 509

3- الأدب الصغير والأدب الكبير 25

4- م. ن 26

5- نهج البلاغة 506 - 507

والمحاسبة من مردود إيجابي على إدارة الدولة ونجاح أعمالها. وليس المعنى هو نقطة الأشتراك الوحيد بين النصوص، بل ثمة هناك جمل علوية نجدها في حديث ابن المقفع، كقول الإمام: «تفقّدْ من أُمُورِهم» وعند ابن المقفع: «وتفقد أمورِهِمْ» والفرق أنّ التفقد جاءَ في كلام الإمام عليه السلام فعلُ أمرٍ لزيادة التأكيد عليه، بينما جاء عندَ ابن المقفع اسم وهو مبتدأ مؤخر وخبره شبه الجملة «على الملوك». ولعله فعل هذا التقديم والتأخير طمعاً في التأكيد أيضاً.

وكقوله عليه السلام: «تعاهدتهم» فالضمير «الهاء» هنا عائدٌ على العُمّال أو الأصحاب والميم علامة الجمع، أي تعاهدْتَ عمالك أو اصحابك، وبالتالي لا فرق فيه عن قول ابن المقفع: «تعاهُدُ عُمّالِهم». فتراه عمد إلى الضمير الذي ورد في كلام الإمام وأرجعه إلى الإسم الصريح، وما أكثر تعامل ابن المقفع بهذه الطريقة مع كلام أمير المؤمنين عليه السلام.

أمّا رابع الأركان السلطانية فهو الجزاء وإعطاء كلِّ ذي حقٍّ حقّه، فجاء في الأدب الصغير: «وأما الجزاء فإنهُ تثبيتُ المحسنِ والراحةُ من المسيء»(1). ثم بعد أسطرٍ قليلة عاد ابن المقفع وكرّر هذا المعنى بتفصيلٍ أكثر، قائلاً: «ثم عليهم، بعد ذلكَ، أن لا يتركوا محسناً بغيرِ جزاءٍ، ولا يقروا مسيئاً، ولا عاجزاً على الإساءةِ والعجزِ، فإنهم إن تركوا ذلك، تهاونَ المحسنُ، واجترأ المسيءُ، وفسد الأمرُ، وضاعَ العملُ»(2).

ومن دون أدنى شكّ فإن هذا الكلام علوي المنبع والأصل، إذ وردنا عن الدوحة العلوية بطريقين:

ص: 355

1- الأدب الصغير والأدب الكبير 25

2- م. ن 26

الأول:

ما رواه أبو هلال العسكري (ت 395) في كتابه الصناعتين وبسندٍ متصل إلى أمير المؤمنين عليه السلام – سبق أن تحدّث عنه الباحث – فقال: «ومن حسن الإتباع أيضاً قول إبراهيم بن العباس حيث كتب: إذا كان للمحسن من الثواب ما يقنعه، وللمسيئ من العقاب ما يقمعه، ازداد المحسن في الإحسان رغبة، وانقاد المسئ للحق رهبة. أخذه من قول عليّ بن أبي طالب (رضى الله عنه) أخبرنا به أبو أحمد، قال أخبرنا أبو بكر الجوهري، قال: أخبرنا أبو يعلى المنقري، قال: أخبرنا العلاء بن الفضل بن جرير قال: قال علي بن أبي طالب رضى الله عنه: يجب على الوالي أن يتعهّد أموره، ويتفقّد أعوانه، حتى لا يخفى عليه إحسان محسن، ولا إساءة مسيء. ثم لا يترك واحداً منهما بغير جزاء، فإنْ ترك ذلك تهاون المحسن، واجترأ المسيء، وفسد الأمر، وضاع العمل»(1).

وعليه فإن ما جاء في قولِ ابن المقفع الأخير معتمدٌ اعتماداً كليّاً على قول الإمام المذكور.

الثاني:

ما رواه الرضي (رضي الله عنه) في نهج البلاغة. فقد ورَدَ في العهد:

«وَلاَ يَكُونَنَّ اَلْمُحْسِنُ وَاَلْمُسِيءُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلَةٍ سَوَاءٍ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ تَزْهِيداً لِأَهْلِ اَلْإِحْسَانِ فِي اَلْإِحْسَانِ، وَتَدْرِيباً لِأَهْلِ اَلْإِسَاءَةِ، وَأَلْزِمْ كُلاً مِنْهُمْ مَا أَلْزَمَ نَفْسَهُ»(2).

1- الصناعتين 220

2- نهج البلاغة 504

نهى عليه السلام واليه أن يكون المحسن والمسيء بمنزلةٍ سواء، وسِرُّ ذلك إنَّ أكثرَ فعلِ الإحسان إنّما يكون طلبًا للمجازاة خصوصًا من الولاة. فإن رأى المُحسِنُ مساواة منزلته بمنزلة المسيء انصرف عن الإحسان والجد والإجتهاد إلى الراحة، وكذلك أكثر التاركين للإساءة إنّما يتركونها خوفاً من الولاة(1). لا ـ بدافع ذاتي وإيمان باطني بالفضيلة. وابن المقفع حينما إجترحَ أن لا يتركَ المحسن ولا المسيء من دون جزاءٍ يستحقّه سارَ تماماً على نصيحة أمير المؤمنين عليه السلام في ذلك.

ثالثاً: البسط

لقد كان ابن المقفع مولعاً ببسط كلام أمير المؤمنين عليه السلام حتى يمكن عدّ هذا المظهر من أبين مظاهر تأثر ابن المقفع بكلام الإمام عليه السلام، حيث كان يأتي على الحكمة العلوية فيجعلها في مقدمة كلامه، ثمَّ يتوسَّع فيها كثيراً وكأنه يشرحها، أو يجعلها منطلقاً لتفرعات عدّة، أو يضرب عليها أمثلة توضيحية. وشواهد هذا كثيرة جدّاً منها قوله:

«أفضلُ ما يُورثُ الآباءُ الأبناء، الثناءُ الحسنُ والأدبُ النافعُ والإخوانُ الصالحون»(2).

فصدر كلامه تضمين لحكمة أمير المؤمنين عليه السلام:

«خَيْرَ مَا وَرّثَ الآباءُ الأبْنَاءَ الأَدَبُ»(3).

وأول ما فعله ابن المقفع أبدل اسم التفضيل «خير» في حكمة الإمام بإسم

1- ينظر: شرح نهج البلاغة لابن ميثم 5 / 339

2- الأدب الصغير والدب الكبير 34

3- غرر الحكم ودرر الكلم 359

تفضـيل أيضـاً «أفضل»، وهـذا الـذي هو أفضل إرث يقـدمه الأب لابنه، وهو «الأدب» بحسب تعبير الإمام توسَّع عليه ابن المقفع لما قال: «الثناءُ الحسنُ والأدبُ النافعُ والإخوانُ الصالحون».

وبطريقـة مماثلـة تعامل ابن المقفع مع حكمة لأمير المؤمنين عليه السـلام نهى فيها عن عيب معيب متمثِّل بخفاء عيوب المرء على نفسه، فقال:

«مِنْ أشدِّ عُيُوبِ المَرْءِ أنْ تخفَى عَلَيْهِ عُيُوبُه»(1).

ضمن ابن المقفع هـذه الحكمـة، ثمَّ توسَّع عليهـا، فقـال: «من أشـد عيوبِ الإنسـانِ خفـاءً عيوبهُ عليه. فإن من خفي عليه عيبه خفيت عليه محاسنُ غيره، ومن خفي عليه عيبُ نفسه ومحاسنُ غيرهِ فلن يقلعَ عن عيبهِ الذي لا يعرفُ، ولن ينال محاسنَ غيرهِ التي لا يبصرُ أبداً»(2).

فعسى أن لا يكون ابن المقفع قد تكلّف في تغييراته التي أجراها على جانب من الحكمة وبخاصة لمّا أبْدَلَ «المرء»ب «الإنسان»، ولما أبدلَ المصـدر المؤول في كلام الإمام «أن تخفى» والـذي هو في محل تقـدير خفاء ب «خفاءً». ثمّ ما أجراه من تقديم وتأخير على ذيل الحكمة «عليه عيوبه» ليجعله «عيوبه عليه» أمّا قوله عليه السـلام: «من أشـد عيوب» فقـد أبقاه ابن المقفع على حاله «من أشد عيوب»، ثمّ بعد ذلك انطلق ابن المقفع من الحكمة المذكورة ليبيّن إنّ مَنْ لا يسـتطيع تحديد عيبه لا يتمكن من معرفة محاسن غيره، و مَنْ كان هكذا لا إصـلاح ذاتي ولا تأثر خارجي، فسيكون بؤرة للعيوب.

ومن شدّة تأثرهِ بكلام أمير المؤمنين عليه السلام فعل كما فعل في الأدب الكبير، إذ

1- م. ن 673

2- الأدب الصغير والأدب الكبير 50

جعل ابن المقفع مسكَ ختام الأدب الصـغير حكمةً علوية جاءَ فيها: «لا يَزَالُ المَرْءُ مُستَ تَمِراً مَا لَمْ يَعْثِرْ فإذا عَثَرَ مَرّة لجّ به العِثَارُ وَلوْ كانَ في جَدَدٍ»(1). الجدد يعني الأرض المستوية(2).

فإن كان ابن المقفع قد ضـمّن الحكمتين السالفتين دون الإشارة إلى أنَّها ليست له، فهو هنا ضمن الحكمة المذكورة، ثم توسّعَ عليها، مشيراً إلى أنّها ليست له فقال: «لا يزال الرجلُ مسـتمراً ما لم يعثر، فإذا عثر مرة واحـدةً في أرضِ الخبارِ لج بهِ العثارُ، وإن مشـى في جدد لأن هذا الإنسان موكلٌ به البلاءُ، فلا يزالُ في تصـرفٍ وفي تقلبٍ لا يـدومُ له شـيءٌ ولا يثبت معهُ، كما لا يـدومُ لطالعِ النجومِ طلوعُهُ ولا لآفلها أفولهُ. ولكنها في تقلبٍ وتعاقُبٍ: فلا يزال الطالعُ يكُونَ آفلاً طالعاً»(3).

وبعـد أن ضـمن الحكمة علل ابن المقفع ما ورد فيها، وذلك لما أكّدَ على أنّ الإنسان غرض للبلاء، ومن البلاء أنّه لا يقرُّ على حالةٍ واحدة، بـل هو في انقضـاء وتقلب من حالٍ إلى آخر مثل النجوم: فلا طالعها يبقى طالعاً ولا آفلها يبقى آفلاً. وبهـذا التعليل - الـذي يفوق الحكمة حجماً - يكمن البسط الذي أجراه ابن المقفع على حكمة أمير المؤمنين عليه السلام.

ومن تلك المواعظ العلوية التي تردد صداها عند ابن المقفع وبطريقة البسط أيضًا ما جاء في كتابٍ لأمير المؤمنين عليه السلام بعثه إلى عبد الله بن عبّاس، قال فيه:

ص: 359

1- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 20 / 446

2- ينظر: لسان العرب 3 / 107 مادة (جدد)

3- الأدب الصغير والأدب الكبير 60

«أَمّا بَعْدُ، فَإِنَّ اَلْمَرْءَ قَدْ يَسُرُّهُ دَرْكُ مَا لَمْ يَكُنْ لِيَفُوتَهُ، وَيَسُوؤُهُ فَوْتُ مَا لَمْ يَكُنْ لِيُدْرِكَهُ، فَلْيَكُنْ سُرُورُكَ بِمَا نِلْتَ مِنْ آخِرَتِكَ، وَلْيَكُنْ أَسَفُكَ عَلَى مَا فَاتَكَ مِنْهَا؛ وَمَا نِلْتَ مِنْ دُنْيَاكَ فَلاَ تُكْثِرْ بِهِ فَرَحاً، وَمَا فَاتَكَ مِن دُنْيَاكَ فَلاَ تُكْثِرْ بِهِ فَرَحاً، وَمَا فَاتَكَ مِنْهَا فَلاَ تَأْسَ عَلَيْهِ جَزَعاً، وَلْيَكُنْ هَمُّكَ فِيمَا بَعْدَ اَلْمَوْتِ»(1).

وكان ابن عبّاس يقول عن هذه الحكمة: «ما انتفعت بكلامٍ بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كانتفاعي بهذا الكلام»(2).

وحاصل كلامه عليه السلام النهي عن شدّة الفرح بما يحصل من المطالب الدنيوية وأشار إلى هذا بقوله: «إنّ المرء إلى قوله ليدركه» وهو خبر في معنى النهي، كما نهى أيضاً عن شدة الأسف على ما يفوت من تلك المطالب، ولفظ «ما» في الموضعين يراد به المطالب الدنيوية(3).

اعتمد ابن المقفع على هذا المعنى وبعض ألفاظه، فقال: «وعلى العاقلِ أن لا يحزن على شيءٍ فاتهُ من الدنيا أو تولى، وأن ينزلَ ما أصابهُ من ذلك ثم انقطعَ عنهُ منزلةَ ما لم يصب، وينزل ما طلبَ من ذلك ثم لم يدركهُ منزلة ما لم يطلب، ولا يدع حظهُ من السرورِ بما أقبل منها، ولا يبلغنّ ذلك سُكراً ولا طغياناً، فإن مع السكر النسيانَ، ومع الطغيانِ التهاونَ، ومن نسي وتهاون خسر»(4).

أجرى ابن المقفع عدّة تحويرات على رسالة أمير المؤمنين عليه السلام المذكورة، وأولها التقديم والتأخير. فما ختم به الإمام رسالته:

1- نهج البلاغة 441
2- نهج البلاغة 441
3- ينظر: شرح نهج البلاغة لابن ميثم 4 / 223 - 224
4- الأدب الصغير والأدب الكبير 21

«وَمَا فَاتَكَ مِنْهَا فَلاَ تَأْسَ عَلَيْهِ جَزَعاً».

جعله ابن المقفع أولاً: «أن لا يحزن على شيء فاته من الدنيا أو تولى».

ولم يكتفِ ابن المقفع بأن قدم وأخر بل عمد – في الفقرة المذكورة – إلى المقطع نفسه وقدم وآخّر فيه أيضاً، فقول الإمام: «وما فاتك منها» أي الدنيا أخّره ابن المقطع، فقال: «فاته من الدنيا». وأمّا قوله عليه السلام: «فلا تأس» قدّمه ابن المقفع وأبدله ب«لا تحزن».

ثم زاد على المقطع العلوي لفظة واحدة وهي» تولّى» ولعلها تشير إلى ما كان بحيازة الفرد ثم فُقِدَ، أما «فات» فمعناه ما يمّر على الإنسان من خيرات الدنيا دونما يدرك منه الإنسان شيئاً.

وقبل هذا المقطع وجدنا الإمام قد قال: «وَمَا نِلْتَ مِنْ دُنْيَاكَ فَلاَ تُكْثِرْ بِهِ فَرَحاً» ومعناه واضح: لا تكثروا السرور بما أقبل عليكم من دنياكم. وهذا لم يقدمه ابن المقفع بل بسطه بسطاً واضحاً لما قال: «ولا يدع حظهُ من السرورِ بما أقبل منها، ولا يبلغن ذلك سُكراً ولا طغياناً، فإنَّ مع السكر النسيانَ، ومع الطغيانِ التهاونَ، ومن نسي وتهاون خسر». فقبل أن يتوسع على المقطع العلوي المذكور ضمّن ابن المقفع كلماته – أي المقطع – كلمة كلمة ولكن بتغيير ترتيبها وثوبها فقط، إذ حافظ على أصل المعنى تماما كمحافظته على الصياغة أيضا وذلك لما أبدل:

الاسم «الفرح»ب الاسم «سرور».

وما الموصولة والفعل »ما نلت» بما الموصولة والفعل »ما أقبل».

وشبه الجملة «من دنياك» بشبه الجملة «منها».

ص: 361

وهنا انكشف تلاعب ابن المقفع أكثر فقبل قليل – في هـذهِ الحكمة – لما وجد الإمام عليه السـلام قال: «منها» قال هو: «من الدنيا»، وهنا قال الإمام عليه السلام: «من دنياك» قال هو: «منها».

والحرف ولا الناهية والفعل المضارع «فلا تكثر» بالحرف ولا الناهية والفعل المضارع «ولا يبلغنّ».

و «به»ب «ذلك» وهما معاً إشارة إلى ما أقبل من خيرات الدنيا.

وبعد هذه التغيرات الشـكلية توسع ابن المقفع بما هو مذكور، وذلك لما نهى عن وصول الفرح إلى درجة شديدة أسـماها بالسكر والطغيان، عادًّا الأوّل يجرُّ إلى النسيان والثاني يجرُّ إلى الطغيان، وهما معاً يورثان الخسران.

ويبدو أنّ ابن المقفع قد أطال النظر في رسالة أمير المؤمنين عليه السـلام هذه، إذ لم يهمل منها جانباً، وفي الوقت نفسه لم يترك ما أخذه من دون تغيير شـكلي بحت، ففضـلاً عمّا ذكر بقيت تراكيب وألفاظ في الرسالـة لم يفرط ابن المقفع بها، بل غيّر ثوبها، فقد أبدل «ليدركه» وهو بمعنى يصـيبه ب«أصـابه»، وأبـدل «ليفوته» ب«إنقطع عنه». ومثلما وجـد أميرَ المؤمنين عليه السـلام قـد اسـتعمل التركيب «ما لم + فعل مضارع» مرتين استعمله هو مرتين أيضا وذلك لما قال: «ما لم يصب» و « ما لم يطلب».

وما أن انتهى ابن المقفع من الرسالة العلوية السالفة، اتجه بعدها إلى جانب من وصية أمير المؤمنين عليه السلام – رواها الطوسي (ت 450 ه) بسندٍ تام – لولدهِ الحسن عليهم السلام، منها:

«يا بنيّ لِلْمؤْمِنِ ثَلاَثُ سَاعَاتٍ: سَاعَةٌ يُنَاجِي فِيهَا رَبَّهُ، وَسَاعَةٌ يُحاسِبُ

فِيها نَفْسَه، وَسَاعَـةٌ يُخَلو فيهَا بَيْنَ نَفْسِهِ وَلَـذَّتِها فِيمَا يَحِلُّ وَيَجْمُلُ، وَلَيْسَ لِلْمؤمنِ بُـدٌّ من أنْ يَكُون شَاخِصاً فِي ثَلاثٍ: مَرَمَّةٍ لِمَعَاشٍ أَوْ خُطْوَةٍ فِي مَعَادٍ أَوْ لَذَّةٍ فِي غَيْرِ مُحَرَّمٍ»(1).

وهـذا التقسـيم الجامع بين الـدين والـدنيا، والمانع من تشتيت الوقت الذي يمّكن عدّه أفضل منهاج عملٍ للمرء العاقل، ضـمّنه ابن المقفع بطريقته المفضـلة القائمـة على التوسع، فقال: «على العاقل، ما لم يكن مغلوباً على نفسه، أن لا يشـغلهُ شـغلٌ عن أربعِ ساعاتٍ: ساعةٍ يرفعُ فيها حاجتهُ إلى ربهِ، وساعـةٍ يحاسبُ فيها نفسهُ، وساعـةٍ يفضـي فيها إلى إخوانهِ وثقاته الـذين يصـدقونه عن غيوبهِ ويصونوهُ في أمرهِ، وساعةٍ يُخلي فيها بين نفسهِ وبين لذتها مما يحل ويجملُ، فإن هذه الساعةَ عونٌ على الساعات الأخرِ، وإنّ اسـتجمام القلوبِ وتوديعها زيادةُ قوةٍ لها وفضل ثلاثٍ: تزودٍ لمعادٍ، أو مرمـةٍ بلغـةٍ. وعلى العاقلِ أن لا يكونَ راغباً إلا في إحـدى ثلاثٍ: تزود لمعادٍ، أو مرمةٍ لمعاش، أو لذّةٍ في غير محرمٍ»(2).

فأول الزيادات إن ابن المقفع جعل الساعات أربعاً بدلاً من ثلاث مع تغيير على الأولى فقط.

أمّا الساعـة الأولى التي وجه الإمام علي عليه السـلام إلى أن تكون لمناجاة الله - سـبحانه وتعالى - حوّرَ فيها ابن المقفع تحويراً لـم يكن ممـدوحاً وذلك لما عـدها لرفع الحاجـة؛ فكأنّه إذا لـم تكن حاجة إلى الله - تعالى - فإنّ ساعة الإتصال بهِ سـتنتفي أي بإنتفاء سـببها، وهذا النوع من العبادة أسماها أمير المؤمنين عليه السلام بعبادة التّجار، لما قال:

1- أمالي الطوسي 147

2- الأدب الصغير والأدب الكبير 22

«إنّ قوماً عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجّار..»(1).

أما الساعـة الثانية عند ابن المقفع فهي ساعة الإمام علي عليه السـلام الثانية بنصّ ها، وهنا ابن المقفع وجد مجالاً ليزيد الساعة التي دعا فيها إلى الإفضاء إلى الإخوان والأصدقاء. وبالنسبة للساعة الرابعة فهي تضمين لساعة أمير المؤمنين عليه السلام الثالثة، وفيها أيضاً يكمن التوسع الآخر الذي قام بِهِ ابن المقفع وذلك لما عدّ هذه الساعة مميّزة، فهي عنده عون على الساعات الآخر لما فيها من راحة للقلوب واطمئنان لها.

وبهذه الطريقة المميزة والغريبة – القائمة على تجزئة الحكمة والتوسع عليها – تعامل ابن المقفع مع الحكمة العلوية التي تقول:

«مَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلنّاسِ إِمَاماً فَلْيَبْدَأْ بِتَعْلِيمِ نَفْسِهِ قَبْلَ تَعْلِيمِ غَيْرِه، وَلْيَكُنْ تَأْدِيبُهُ بِسِ يرَتِهِ قَبْلَ تَأْدِيبِهِ بِلِسَانِهِ؛ وَمُعَلّمُ نَفْسِهِ وَمُؤَدّبُهَا أَحَقُّ بِالْإِجْلاَلِ مِنْ مُعَلِّمِ اَلنَّاسِ وَمُؤَدِّبِهِمْ»(2).

فقد أوردها بتمامها في الأدب الصـغير، فقال: «ومن نصبَ للناسِ إماماً في الدينِ، فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه وتقويمها في السـيرة، والطعمةِ، والرأي، واللفظ، والأخدانِ، فيكن تعليمهُ بسيرته أبلغَ من تعليمه بلسانه، فإنه كما أن كلام الحكمةِ يونقُ الأسماعَ، فكذلكَ عملُ الحكمةِ يروقُ العيونَ والقلوبَ. ومعلمُ نفسه ومؤدبها أحق بالإجلالِ والتفضيلِ من معلمِ الناسِ ومؤدبهم»(3).

ص: 364

1- نهج البلاغة 592

2- نهج البلاغة 562

3- الأدب الصغير والأدب الكبير 24

ومثلما بانَ فإنّ ابن المقفع قد جعل الحكمة ثلاثة مقاطع يفصل المقطع عن أخيه بزيادة معينة.

فـأوّل كلامه: «من نصبَ نفسهُ للناسِ إماماً في الـدين» بنصه عن الحكمـة: «مَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلنَّاسِ إمَاماً» غير إنّ ابن المقفع زاد على مقطع الحكمـة شـبه الجملـة «في الدين»، وهذه الزيادة لم تكن موفّقة؛ لأنّها ضـيّقت دلالة هذا المعنى الجميل وحصـرته بأئمة الدين فقط. فإمام الدين في نظر ابن المقفع هو وحده من يبدأ بتعليم نفسه ثمّ يعلّم الآخرين، بينما أمير المؤمنين عليه السلام ذكر كلمة «إماماً» دون أن يقرنها بعمـل معيّن، أو بتخصّـص مـا، بل جعلها مفتوحـة الدلالـة؛ لأنّه أراد لكلِّ إمام – في أيّ مكانٍ حلّ وأيّ عملٍ عمل في الـدين أو غيره – أنْ يكون قـدوةً يُقتـدى بهِ من خلال تعليم نفسه أوّلاً، ثمّ تعليم غيرهِ تعليماً صائباً ثانياً. ومن البسط أيضاً على هذه الفقرة من الحكمة أنْ بيّن ابن المقفع بعض الطرق التي يمكن للإمام أنْ يكون قدوة فيها كتقويم النفس «في السيرة، والطّعمة، والرأي، واللفظ، والأخدان».

وبعد هذا البسط عادَ للحكمة ثانيةً ليضمن منها قول الإمام عليه السلام:

«وَلْيَكُنْ تَأْدِيبُهُ بِسِيرَتِهِ قَبْلَ تَأْدِيبِهِ بِلِسَانِهِ».

وبتحوير أقل من القليل: «فيكون تعليمه بسيرته أبلغ من تعليمه بلسانه».

ثم بسط هذا أيضاً، وذلك لمّا ضـرب مثلاً توضـيحيّاً على أنَّ التعليم بالفعل أبلغ أثراً من التعليم بالقول: «فإنّه كما أنّ كلام الحكمة مفاده إذا كان قول الحكمة يعجب الأسماع؛ فإنّ فعلها يستهوي القلوب.

ثم عادَ ثالثة إلى الحكمة ليضمِّن ما تبقى منها حرفيّاً، ويختم به كلامه.

ص: 365

وهكذا كان ابن المقفع يتخيّر ما شاء من حكم أمير البيان عليه السلام، ويتوسّع عليها بما شاء. وهذهِ المرّة أتى على جانب من حكمة للإمام علي عليه السلام – أوصى بها كميل بن زياد – جاء فيه:

«يَا كُمَيْلُ اَلْعِلْمُ خَيْرٌ مِنَ اَلْمَالِ، اَلْعِلمُ يَحْرُسُكَ وَأَنْتَ تَحْرُسُ اَلْمَالَ. وَاَلْمَالُ تَنْقُصُهُ اَلنَّفَقَةُ، وَاَلْعِلْمُ يَزْكُوا عَلَى اَلْإِنْفَاقِ، وَصَنِيعُ اَلْمَالِ يَزُولُ بِزَوَالِهِ. يَا كُمَيْلَ بْنَ زِيَادٍ مَعْرِفَةُ اَلْعِلْمِ دِينٌ يُدَانُ بِهِ، بِهِ يَكْسِبُ اَلْإِنْسَانُ اَلطَّاعَةَ فِي حَيَاتِهِ، وَجَمِيلَ اَلْأُحْدُوثَةِ بَعْدَ وَفَاتِهِ. وَاَلْعِلْمُ حَاكِمٌ وَاَلْمَالُ مَحْكُومٌ عَلَيْهِ»(1).

فَضّلَ الإمام علي عليه السلام العلم على المال، وقد برّر ذلك بتبريرات عدة: فالعلم يحرس حامله في حياته ويطيب ذكره بعد وفاته، بينما المال عاجز عن حراسة نفسه فيحتاج إلى مَنْ يحرسه، والعلم يزداد نماءً وسعة إذا أُنفق، بينما المال ينقص بقدر الإنفاق منه.

فهذه المعاني وبعض ألفاظها وإن كان ابن المقفع قد قدّم وأخر وحوّر فيها إلاّ أنّها تبقى روح قوله: «القسم الذي يقسمُ للناس ويمتعونَ به نحوان: فمنهُ حارسٌ ومنهُ محروس، فالحارسُ العقلُ، والمحروس المالُ، والعقلُ، بإذن اللهِ، هو الذي يحرزُ الحظ، ويؤنسُ الغربةَ، وينفي الفاقةَ، ويعرفُ النكرة، ويثمرُ المسبكبة، ويطيبُ الثمرةَ، ويوجهُ السوقةَ عند السلطانِ، ويستنزلُ للسلطانِ نصيحةَ السوقةِ، ويكسبُ الصديقَ، ويكفي العدو»(2).

فالقَسْم مصدر قَسَمَ الشيءَ يقسمه قسّما، وقسّمه جزّأه، والقَسْم النصيب

1- نهج البلاغة 579

2- الأدب الصغير والأدب الكبير 28

والحظ(1)، وهو مثلما رآه ابن المقفع قسمان: منهُ «حارس» يحرُسُ غيره وهو العقل «فالحارسُ العقلُ»> وهذا عن كلام أمير المؤمنين عليه السلام:

«العلم يحرسك».

ومنه «محروس» وهو المال «والمحروس المال» بمعنى المال يحتاج إلى من يحرسه وهذا عن كلام أمير المؤمنين عليه السلام:

«وأنت تحرس المال».

غير أنّ ابن المقفع عمل تغيَرا طفيفاً حين أبدل الأفعال التي جاءت في كلام أمير المؤمنين عليه السلام بالمفاعيل:

يحرُس – حارس «اسم فاعل».

تحرُس – محروس «اسم مفعول».

ولمّا أبدل أيضاً «العلم»ب «العقل» بإعتبار العقل وعاء العلم، ثم أخذ يعدد محامد العقل، وقد جعل لها نصيباً يِمثل أكثر من نصف كلامهِ: «والعقل بإذن الله، هو الذي يحرز الحظ ويؤنس الغربة، ويفني الفاقة ويثمر المكسبة.. إلى آخر قوله».

وهذا هو مكمن التوسع الذي أجراه ابن المقفع على ما ذكره الإمام علي عليه السلام من محامد العلم:

«مَعْرِفَةُ اَلْعِلْمِ دِينٌ يُدَانُ بِهِ، بِهِ يَكْسِبُ اَلْإِنْسَانُ اَلطَّاعَةَ فِي حَيَاتِهِ، وَجَمِيلَ اَلْأُحْدُوثَةِ بَعْدَ وَفَاتِهِ».

وأما ما جاء في آخر حكمة الإمام عليه السلام:

1- ينظر: لسان العرب 12 / 478 مادة (قَسَمَ)

«وَالْعِلْمُ حَاكِمٌ، وَالْمَالُ مَحْكُومٌ عَلَيْهِ».

فقد قدمّه ابن المقفع إلى صدر حديثه لما قال: «فمنه حارِس، ومنه محروس».

رابعًا - الإيجاز

لقد وردت بعض الحكم العلوية بشكل موجزٍ في الأدب الصغير كورودها في الأدب الكبير، أي قليلة جدّاً، ومنها قوله عليه السلام:

«اِعْقِلُوا اَلْخَبَرَ إِذَا سَمِعْتُمُوهُ عَقْلَ رِعَايَةٍ لاَ عَقْلَ رِوَايَةٍ، فَإِنَّ رُوَاةَ اَلْعِلْمِ كَثِيرٌ، وَرُعَاتَهُ قَلِيلٌ»(1).

فهو ينهى عن كثرة رواية الكلام بدون هضمه، ويأمر بعقل الخبر عقل معرفة، مؤكِّداً على أنّ من يُراعي العلم ويتدبره قليل(2).

نظر ابن المقفع إلى الفقرة الثانية من الحكمة وأوجزها بصدر قوله:

«الواصفون أكثرُ من العارفين، والعارفون أكثرُ من الفاعلينَ»(3).

فقول ابن المقفع: «الواصفون» وهم مكثروا الكلام(4) إيجاز لكلام الإمام عليه السلام: «رواة العلم». وهؤلاء استعمل لهم الإمام صيغة المبالغة «كثير» للدلالة على كثرتهم، وهكذا ابن المقفع فقد استعمل لهم اسم التفضيل «أكثر» للدلالة على كثرتهم أيضاً. أمّا «العارفون» وهم الذين عرفوا وهضموا ما يتكلمون، ففيه إيجاز لكلام الإمام عليه السلام: «رعاة

1- نهج البلاغة 567
2- ينظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 18 / 344 - 345
3- الأدب الصغير والأدب الكبير 16
4- ينظر: الأدب الصغير والأدب الكبير 16 (الهامش)

العلم» وهم الذين حملوا العلم حمل معرفة وتفكر وهؤلاء «قليل» بحسب وصف الإمام عليه السلام لهم، وبحسب وصف ابن المقفع هم أقل على اعتبار إنّ الواصفين أكثر منهم، فهم إذاً أقلُّ من الواصفين.

وقال الإمام علي في وصيته لولدهِ الحسن عليهم السلام:

«اِعْلَمْ أَنَّ اَلْإِعْجَابَ ضِدُّ اَلصَّوَابِ وَآفَةُ اَلْأَلْبَابِ»(1).

فنهي الإمام علي عليه السلام هذا عن الإعجاب والذي يعني استحسان الفرد لعمله مطلقاً، وهو من أعظم الأخلاق مصيبة ومن اشد الآفات ضرراً على معتقدهِ(2) ضمّنه ابن المقفع بشكل موجز، فقال: «العُجبُ آفةُ العقلِ»(3).

فابن المقفع هنا - كعادتهِ مع كلام أمير المؤمنين عليه السلام - غيّر شكليّاً لما أبدل «الإعجاب»ب «العجب» ولمّا حوّل «الألباب» إلى مرادفها «العقل». وعلى الرغم من إنّ المعنى واحد والكلمات هي هيَ إلاّ أنّ ابن المقفع بإيجازه هذا ضيّع ذلك التناغم الصوتي والوقع المحبّب المتأتّي من سجع الألفاظ في الحكمة العلوية «الإعجاب - الصواب - الألباب».

وللمودّةِ نصيبٌ في وصايا الوصيِّ عليه السلام، فقد عدّها أي المودّة غنيّةً عن القرابة والقرابة فقيرةُ إليها. وأكد هذا في غير ما حكمةٍ

1- نهج البلاغة 463
2- ينظر: شرح نهج البلاغة لمحمد عبده 3 / 427
3- الأدب الصغير والأدب الكبير 34

من حكمه، ومنها قوله:

«...وَالْقَرَابَةُ إِلَى الْمَوَدَّةِ أَحْوَجُ مِنَ الْمَوَدَّةِ إِلَى الْقَرَابَةِ»(1) أوجز ابن المقفع هـذهِ الحكمـة بوضوح فقال: «والقرابةُ تَبعٌ للمودّة»(2) ولكن لا أرى في حكمة ابن المقفع تلك الدقة العلوية.

نعم فالقرابـة تحتـاج إلى الموّدة – مثلما قال أمير المؤمنين عليه السـلام – كي تثمر وتترسـخ، ولكن ليست القرابـة تبع للموّدة مثلما قال ابن المقفع، فالمودة لا تؤثر بالقرابة، لأن القرابة تبع للنسب، بل تأثيرها ينحصر على العلاقة ودوامها.

هذا ما عثرنا عليه من إيجاز لكلام أمير المؤمنين عليه السـلام في الأدب الصـغير، وهو بهذا قد ورد تماماً كورودهِ في الأدب الكبير أي قليل جـدّاً، بينما البسط على العكس من ذلك إذ ورد في الأدبين بكثرة حتى إنَّ ابن المقفع بنفسه قـد أشار إلى ذلك. ونرى إنّ السـبب الذي يقف وراء هـذه الظاهرة عائدٌ لكلام أمير المؤمنين عليه السـلام، فهو كلام مكتنز على صـعيد المعنى، ومنظوم نظّما خاصّاً، وعليه فإنّ إيجازه غير ممكن لأنّ الأخير – الإيجاز –يستوجب الحذف، ولا يوجد في كلام أمير المؤمنين عليه السلام ما يمكن حذفه دون أن يحدث خللاً ما في النص. ولكن غزارة المعنى ودقّة الصـياغة هذهِ في كلامهِ عليه السـلام استوجبت – من اجل أن يفهم النص العلوي أكثر – الزيادة، وهذا ما أدركه ابن المقفع، فتوسع في كلـم الإمـام علي عليه السـلام كثيراً. ولهـذا السـبب أيضاً كثُر شـرح كلام الإمام علي عليه السـلام، لا سـيما ماجُمِع منه في كتاب (نهج البلاغة).

ص: 370

1- نهج البلاغة 608

2- الأدب الصغير والأدب الكبير 45

وبعد هذه نعود للأدب الصغير لنبيّن – تبياناً هاماً – إنَّ من هذه الحروف أو كلام الصالحين الذي تحدّث عنه ابن المقفع وأقرَّ بتأثرِهِ بهِ عائد للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم فمن وصية له أوصى بها الإمام علي عليه السلام منها:

«يا عليُّ إنّه.. لا عَقْلَ كالتّدْبِيرِ، وَلاَ حَسَبَ كَحُسنِ الخُلُق..»(1).

ضمّن ابن المقفع هذهِ المقطع من الوصية قائلاً: «وسمعت العلماء قالوا: لا عقل كالتدبير، ولا ورع كالكف، ولا حسبَ كحسنِ الخلقِ»(2).

ومن هذه الحروف عائد للإمام السجاد، فوصّيتهِ التي أوصى بها هشام بن الحكم:

يا هِشامُ إنَّ العاقِلَ لا يُحدِّثَ مَنْ يخافُ تكذيبَهُ، ولا يسألُ من يخافُ مَنَعَهُ، ولا يَعِدُ ما لا يَقْدِرَ عَلَيهِ، ولا يرجو ما يُعنّفَ برجائهِ، ولا يَقدُمُ على ما يخافُ فوتَهُ بالعجزِ عَنْهُ»(3) نجد لها حيّزاً في الأدب الصغير: «لا تجدُ العاقلَ يحدثُ من يخافُ تكذيبهُ، ولا يسألُ من يخافُ منعهُ، ولا يعدُ بما لا يجدُ إنجازهُ، ولا يرجو ما يعنفُ برجائهِ، ولا يقدُمُ على يخافُ العجزَ عنهُ...»(4) ومنها عائد للإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، فحكمته:

«العاقل لا يستخف بأحد. وأحق من لا يستخف به ثلاثة: العلماء، والسلطان

ص: 371

1- تحف العقول 27. وينظر: البصائر والذخائر 13

2- الأدب الصغير والأدب الكبير 57

3- الكافي 1 / 21. وينظر: بحار الأنوار 75 / 304. وهذا الحديث يرويه ابن أبي الحديد عن الصادق عليه السلام، ينظر: شرح نهج البلاغة 18 / 310

4- الأدب الصغير والأدب الكبير 47

والإخوان، لأنه من استخف بالعلماء أفسد دينه، ومن استخف بالسلطان أفسد دنياه، ومن استخف بالاخوان أفسد مروته»(1) نجدها في الأدب الصغير بتحوير طفيف: «لا يستخفُ ذو العقلِ بأحدٍ. وأحق من لم يستخف به ثلاثةٌ: الأتقياءُ والولاةُ والإخوانُ، فإنهُ من استخف بالأتقياء أهلك دينهُ، ومن استخف بالولاةِ أهلك دنياهُ، ومن استخف بالإخوانِ أفسد مروءتهُ»(2) وفي حكمة أخرى قال الصادق عليه السلام:

«إذا هَمَمْتَ بِخيْرٍ فَبَادِر، فإنَّكَ لا تدري»(3).

فهذا الكلام الذي ءعُدّ جامعاً لوجوه المبادرة إلى فعل الخير قبل أن يحول حائل دون ذلك كالهرم المستلزم لضعف العقل والنية، والمرض، وفجأة الموت، ووسوسة الشيطان وغيرها(4)، ضمّنه ابن المقفع بنصّه، ثمَّ توسّع عليه، فقال: «إذا هممت بخيرٍ فبادر هواكَ، لا يغلبك، وإذا هممتَ بشرٍ فسوف هواك لعلك تظفرُ. فإن ما مضى من الأيامِ والساعاتِ على ذلك هو الغنمُ»(5) ومن شدة تأثر ابن المقفع بهذا الكلام عاد وكرّرهُ بمعناه، فقال: «اغتنم من الخير ما تعجلت، ومن الأهواء ما سوفت»(6).

ص: 372

1- تحف العقول 352

2- الأدب الصغير والدب الكبير 46

3- الكافي 2 / 142

4- ينظر: شرح أصول الكافي 8 / 416

5- الأدب الصغير والأدب الكبير 35

6- م 0 ن 46

وما دام ورد ذكر إمامنا الصادق عليه السـلام فلا بُدّ من معرفة إنّ ابن المقفع كان يجّلهُ ويقدسّهُ عليه السلام ففي خبر طويل – وبسند متّصل – ذكرهُ الشيخان الكليني، والصادق منه:» إنّ ابن المقفع رأي الصادق عليه السلام في الكعبة وهي مزدحمة بالحجاج فقال: ترون هذا الخلق – وأومأ بيدهِ إلى موضع الطواف – ما منهم أحد أوجب له إسم الإنسانية إلاّ ذلك الشـيخ الجالس – يعني أبا عبد الله جعفر بن محمد عليهم السلام – فأمّا الباقون فرعاع وبهائم»(1).

وعلى أيّـةِ حال، فإنّ الذي يهمنا هنا أكثر من غيره هو أنّ في هذه التأثرات بأئمة الهدى وبجدهم المصـطفى، دليل تأكيد آخر على إسـلامية الأشخاص الذين تأثر بهم ابن المقفع وأطرى عليهم في مقدمتي الأدبين الكبير والصغير لا على أنّهم فرس أو يونانيّون.

1- الكافي 1 / 75. وينظر التوحيد 126

المبحث الثالث: في رسالتي الصحابة

اشارة

ورسائل أخرى

أولاً: أثره في رسالة الصحابة

رسالة الصّحابة، وسمِّيتْ بالهاشمية في بعض المصادر نسبةً لبني هاشم أجداد بني العباس(1)، رسالة ألّفها ابن المقفع وأرسلها إلى المنصور الدوانيقي. وتَعَدُّ هذه الرِّسالة - مثلما يراها الفاخوري - «من أروع ما كتبه ابن المقفّع في الحقلين الفكري والإجتماعي، وأنَّها من أجمل الدساتير المكتوبة باللّغةِ العربيّة»(2) وكان موقف الكاتب فيها «موقف المصلح الّذي لا تفوته شاردة ولا

ص: 375

1- ينظر ابن المقفع بين ناقديه قديًما وحديثاً 53

2- ابن المقفع 26

واردة، المُصلح الّذي يعلّل أسباب الداء و يُقدِّم الدواء، وذلك كلّه في تقيَّةٍ ولينٍ وتحفظ»(1).

ولعلَّ كلمات ابن المقفّع التّي سطّرها في هذه الرسالة مع ما تحمله من إصلاحاتٍ جذريّة، أسهمت في توسيع هوّة الخلاف بينه وبين السلطة العباسية، وأنتجت التفكير في تصفيته جسدياً، وإلى هذا ذهب طه حسين بقوله: «لإبن المقفّعِ رِسالَةٌ أخشى أن تكون هي الّتي قتلته لأنها توشِكُ أنْ تكون برنامج ثورة، وهي موجّهةً إلى المنصور»(2).

تعرّضَ ابن المقفع في رسالته هذه إلى موضوعاتٍ عدة منها دينية إذ كان ينهى عن استعمال القياس والرأي في الدين، مشدّدًا في ذلك ومؤكداً على أتّباع الإمام الذي كان يراه منصّبًا إلهيًا، ومنها اقتصادية كالإهتمام بالخراج ومنبع الخراج الذي هو الأرض، ومنها عسكرية كالإهتمام بأمر الجند وتوفير ما يستحقونه، وغيرها من الأفكار العميقة والآراء الجريئة التي كان يمني نفسه بأن يأخذ الخليفة بها، لكن الخليفة فضّلَ التخلّص من منشئِها دون الأخذ بإصلاحاتِهِ الجذرية.

وابن المقفع – مثلما يرى الباحث – سارَ في مواطن كثيرة جدّاً من هذه الرسالة مقتَفياً أثر العهد الخالد الذي كتبه أمير المؤمنين عليه السلام إلى مالك الأشتر، وغير العهد، وأمامنا في هذا دليلان:

الأول: التشابهات الكبيرة والكثيرة في الأفكار العميقة وغير المبتذلة.

1- الجامع في تأريخ الأدب العربي 1 / 535

2- من حديث الشعر والنثر 46 – 47

الثاني: اعتراف ابن المقفع بأنّه لم يبقَ أمامه وأمام غيرهِ من الكتاب «في جليلِ الأمر ولا صغيرهِ لقائلٍ بعدهم مقالٌ. وقد بقيت أشياءُ من لطائفِ الأمورِ فيها مواضعُ لصغارِ الفطنِ، مشتقةٌ من جسام حكمِ الأولينَ وقولهم»(1).

وكان على رأس هؤلاء الأولين أمير المؤمنين عليه السلام مثلما عرفنا ذلك في الأدبين الكبير والصغير وما سنعرفه لا حقاً في اليتيمة وغيرها. ومن تأثر بهذهِ الرتبة ويعترف بتلك الإعترافات طبيعي أن لا يكون تأثُّره في نتاج دون آخر، أوفي رسالة دون أُخرى.

ورسالة الصحابة إحدى رسائله التي برزت بينهما وبين كلام الإمام علي عليه السلام تشابهات جمة. فمن حكمةٍ له عليه السلام بيّنَ فيها مَنْ هلكَ فيه من الناس، فقال:

«يهلِكُ فيّ رجُلانِ: مُحِبٌّ مُفْرِطٌ، وباهِتٌ مُفترٍ»(2).

فقد شكا عليه السلام من الذين أفرطوا في حبّهِ حتى ألّهوه، ثمّ الذين بهتوه أي قالوا عليه ما لم يفعل(3) وكلاهما هالكان.

قال الرضي: «وهذا مثلُ قوله عليه السلام:

هَلَكَ فيّ رجُلانِ: مُحِبٌّ غالٍ، ومبغضٌ قالٍ»(4).

أخذَ ابن المقفّع هذا، فقال: «فإنّ في ذلك اليومِ أخلاطاً: من

1- الأدب الصغير والأدب الكبير 65
2- نهج البلاغة 636
3- ينظر: شرح نهج البلاغة لمحمد عبده 4 / 597
4- نهج البلاغة 636

رأسٍ مفرطٍ غالٍ، وتابعٍ متحيِّرٍ شاكٍّ»(1).

فما ابتدأ بهِ ابن المقفع «.. مفرطٍ غالٍ» تضمين من بداية حكمتي الإمام عليه السلام «محبٌّ غالٍ»، لكن ابن المقفع أهمل لفظة (محب) وهي ضرورية هنا، لأنّها توضِّح طبيعة هذهِ المغالاة والإفراط هل هي بإتجاه الحبِّ أم البغض؟ ثم بعد ذلك أبدل قول الإمام عليه السلام: «مبغضٍ قال» ب«متحيِّر شاكٍ» ولكن حتى وإن غير في الشق الثاني من كلامه إلاّ إنّ صياغة الحكمة العلوية مسيطرة تماماً على كلام ابن المقفع المذكور وذلك لمّا شكّله من ستَة أسماء منوّنة لا غير، وعند الإمام أربعة أسماء منوّنة لا غير وطبيعي هذا من دون المقدّمة التي قدم بها كلٌّ منهما لكلامه.

وتبقى أغلب التأثّرات في رسالة الصحابة هيَ بعهد الإمام عليه السلام لمالك الأشتر، فمّما جاء فيه:

«فَالْجُنودُ بِإِذْنِ اَللهِ، حُصُونُ اَلرَّعِيّةِ، وَزَيْنُ اَلْوُلاَةِ، وَعِزُّ اَلدِّينِ، وَسُبُلُ اَلْأَمْنِ، وَلَيْسَ تَقُومُ اَلرَّعِيّةُ إِلاَّ بِهِمْ. ثُمّ لاَ قِوَامَ لِلْجُنُودِ إِلاَّ بِمَا يُخْرِجُ لَهُمْ مِنَ اَلْخَرَاجِ اَلَّذِي يَقْوَوْنَ بِهِ عَلَى جِهَادِ عَدُوِّهِمْ، وَيَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ فِيمَا يُصْلِحُهُمْ، وَيَكُونُ مِنْ وَرَاءِ حَاجَتِهِمْ»(2).

فقد نبّه عليه السلام إلى أهمية الجنود، وأهميتهم تكمن في ما عدد لهم

1- جمهرة رسائل العرب 3 / 33

2- نهج البلاغة 505

من أعمال فهم «حصون الرعية» مستعيراً لهم لفظ الحصون باعتبار حياطتهم وحفظهم للرعية بمثابة الحصن(1)، وهم «عِزُّ الدّين» لولاهم لم يكن للدين عِزٌّ ولا منعة، وهؤلاء الجنود هُم الآخرون يحتاجون إلى قوام حتى يؤدّوا واجِباتهم بصورة ناصعة، وقوامهم هذا يأتي من الخراج، والخراج لا يكون وفيراً - مثلما قال الإمام عليه السلام في مواطن أُخرى من العهد ستتضح لا حقاً - إذا لم يكن للأرض إصلاحٌ وعِمارةٌ.

ورَدَ في رسالة الصحابة ما يشبه هذا كثيراً، إذ قال ابن المقفع: «وأنّ لكلِّ شيءٍ دِرَّةً وغزارةً، وإنَّما دُرُورُ خراج العراقِ بارتفاع الأسعار، وإنّما يحتاجُ الجندُ اليومَ إلى ما يحتاجونَ إليه من كثرةِ الرِّزقِ، لغلاءِ السعر، فمن حُسنِ التقدير إن شاء الله أنْ لا يدخلَ على الأرض ضرَرٌ.. إلاّ دخلَ ذلك عليهم في أرزاقهم»(2).

فابن المقفع لا يختلف عموماً مع ركائز نص الإمام عليه السلام، إذ رأى فيما رآه أنّ للجنود نصيباً مفروضاً من المال، فإذا دخل (على الأرض ضرر) سيصيب بيت المال النقصانُ، ومن ثمَّ سيدخل ذلك النقص على مستحقات الجند. وهذا ما عبّر عنه الإمام عليه السلام بقوله:

«ثمَّ لا قوام للجنود إلاّ بما يُخرِجُ الله لهم من الخَرَاج».

ومن وصاياه البالغة التي وردت في العهد قوله عليه السلام الذي شدَّدَ فيه على تخيّر الوزراء:

1- ينظر شرح نهج البلاغة لإبن ميثم 5 / 344
2- جمهرة رسائل العرب 3 / 37

«ثُمّ لاَ يَكُنِ اِخْتِيَارُكَ إِيّاهُم عَلَى فِرَاسَتِكَ، وَاُسْتِنَامَتِكَ، وَحُسْنِ اَلظّنِّ مِنْكَ، فَإِنّ اَلرِّجَالَ [يَتَعَرّضُونَ] يَتَعَرّفُونَ لِفِرَاسَاتِ اَلْوُلاَةِ بِتَصَنُّعِهِمْ وَحُسْنِ [حَدِيثِهِمْ] خِدْمَتِهِمْ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ اَلنّصِيحَةِ وَاَلْأَمَانَةِ شَيْءٌ، وَلَكِنِ اِخْتَبِرْهُمْ بِمَا وُلُّوا لِلصّالِحِينَ قَبْلَكَ، فَاعْمِدْ لِأَحْسَنِهِمْ كَانَ فِي اَلْعَامّةِ أَثَراً، وَأَعْرَفِهِمْ بِالْأَمَانَةِ وَجْهاً»(1).

فأمير المؤمنين عليه السلام ينهى عن الإختيار القائم على التفرّس وحسن الظنّ والثّقة، مبرّراً هذا بأنَّ الرجال يخدعون فراسة الوالي بتصنعهم الـذي يجيدونه وحسن خدمتهم له، بينما هم في الحقيقة لا في مراحٍ ولا مغدى من تلك النصـيحة التي الحقيقي القائم على ما عدده الإمام عليه السلام من توليتهم من قبل الصالحين، وهذا غير كافٍ أيضاً، بل ينبغي توظيف أحسنهم أثراً في العامة، وأعرفهم وجهاً بالأمانة.

ولا يخفى اسـتعمال الإمام عليه السـلام لإسـمي التفضيل (أحسن، أعرف) مِن أنّه يريد تسنيم المناصب للأحسن لا المحسن، والأعرف لا العارف.

أخذَ ابن المقفع هذا المعنى بشقيهِ، مقدِّماً الأخير على الأول، فقال: «وإنْ كان صاحب السُّلطانِ مِمَّن لم يعرف النّاسَ قبل ان يَلِيَهم، ثمَّ لم يزل يسـألُ عنهم من يعرفَهم، ولم يسـتثبتْ في اسـتقضائهم، زالت الأـمور عن مراكزها، وتَركت الرِّجالُ عن منازِلها، لأنّ النّاس لا يلقونه إلاّ متصنِّعين بأحسن ما يقدرون عليه من الصمت والكلام، غير أنّ أهل النقص هم أشدُّ تصنّعاً..»(2).

وحاصل كلامه إنّ على صاحب السلطان أن لا يولِّي من الناس قبل معرفتهم

1- نهج البلاغة 512

2- جمهرة رسائل العرب 3 / 39

والسؤال عنهم. متخوّفاً من التصنع المقـدور عليه من الناس. ومن ثم وقوع الوالي في حبالة هذا التصـنع. وهذا بدقائقه موجود في نص أمير المؤمنين عليه السلام المذكور.

ومن توجيهات الإمام علي عليه السلام التي وردت في العهد قوله:

«فَافْسَحْ فِي آمالِهِمْ، وَوَاصِلْ فِي حُسْنِ اَلثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ، وَتَعْدِيدِ مَا أَبْلَى ذَوُو اَلْبَلاَءِ مِنْهُمْ، فَإِنَّ كَثْرَةَ اَلذِّكْرِ لِحُسْنِ أَفْعَالِهِمْ تَهُزُّ اَلشُّجَاعَ، وَتُحَرِّضُ اَلنَّاكِلَ إِنْ شَاءَ اَللهُ. ثُمّ اِعْرِفْ لِكُلِّ اِمْرِئٍ مِنْهُمْ مَا أَبْلَى، وَلاَ تَضُمَّنَّ بَلاَءَ اِمْرِئٍ إِلَى غَيْرِهِ، وَلاَ تُقَصِّرَنَّ بِهِ دُونَ غَايَةِ بَلاَئِهِ..»(1).

فمن باب العدل أن يُلصق بكلِّ أمرىءٍ ما أبلاه من عمل، حسنٍ أو قبيح، لأنّ ذلك من شأنِهِ ترغيب المحسن وتشجيعه في أن يزداد ويبدع في عمله من جهة. وتحريض المتأخِّر وحثّه على التقدم من جهة أخرى.

لم يغفل ابن المقفع هـذا المعنى وبعض ألفاظه، إذ كان بيّناً في قوله: «فإن في إذن الخليفـةِ والمدخلِ عليه والمجلسِ عنده، وما يجري على صحابته من الرزق والمعونةِ، وتفضـيل بعضهم على بعض في ذلك حُكماً عظيماً على النّاس في أنسابهم وأخطارهم وبلاءِ أهل البلاء منهم وليس ذلك كخواصِّ المعروف ولطيف المنازل.. ولكنّهُ بابٌ من القضاءِ جسـيم عامٌّ يُقضـى فيه للماضـين من أهل السوابق والمآثر من أهل الباقين، وأهل البلاءِ والغناء بالعدل..»(2).

فابن المقفع يرى ما رآه الإمام عليه السـلام قبله، من تفضيل بعض الصحابة أو الجنود على أساس مآثرهم، وسبقهم للفضيلة، وما عمله أهل البلاء

1- نهج البلاغة 507 - 508

2- جمهرة رسائل العرب 3 / 44

منهم. وليس المعنى هو سيد الموقف بيَن النّصين، بل نجد إنّ ابن المقفع ضمّن قول الإمام علي عليه السلام:

«وَتَعْدِيدِ مَا أَبْلَى ذَوُو الْبَلاَءِ مِنْهُمْ» مع تحوير طفيف لمّا قال: «وبلاء أهل البلاء منهم».

ويبدو أنّ ابن المقفع متأثراً بهذهِ المعاني كثيراً ولذا كرّرها في موطن آخر من رسالة الصحابة موصياً مَنْ سماه الإمام بأن «يأخذ أهل القوّة والغناء.. ولا يفضّل أحدًا منهم على أحد، إلاّ على خاصّة معلومة..»(1).

وهو بهذا يدعوا أميره أن لا يفضل أحداً من الجنود على غيره «إلاّ على خاصّةٍ معلومة» أي ما عُلم عنه وما عُرف به من بلاء أبلاه. وهذا كقول أمير المؤمنين عليه السلام السابق:

«ثُمّ اِعْرِفْ لِكُلِّ اِمْرِئٍ مِنْهُمْ مَا أَبْلَى، وَلاَ تَضُمَّنَّ بَلاَءَ اِمْرِئٍ إِلَى غَيْرِهِ».

وبعد أن تعرَّضَ الإمام علي عليه السلام لأمر الّذين هم قوام الدولة، عادَ ليؤسس نظرية مثلى شأنها صلاح الخراج ووفرته، فقال:

«وَتَفَقَّدْ أَمْرَ اَلْخَرَاجِ بِمَا يُصْلِحُ أَهْلَهُ، فَإِنَّ فِي صَلاَحِهِ وَصَلاَحِهِمْ صَلاَحاً لِمَنْ سِوَاهُمْ، وَلاَ صَلاَحَ لِمَنْ سِوَاهُمْ إِلاَّ بِهِمْ، لِأَنَّ اَلنَّاسَ كُلَّهُمْ عِيَالٌ عَلَى اَلْخَرَاجِ وَأَهْلِهِ، وَلْيَكُنْ نَظَرُكَ فِي عِمَارَةِ اَلْأَرْضِ أَبْلَغَ مِنْ نَظَرِكَ فِي اِسْتِجْلاَبِ اَلْخَرَاجِ، لِأَنَّ ذَلِكَ لاَ يُدْرَكُ إِلاَّ بِالْعِمَارَةِ؛ وَمَنْ طَلَبَ اَلْخَرَاجَ بِغَيْرِ عِمَارَةٍ أَخْرَبَ اَلْبِلاَدَ،

ص: 382

1- م. ن 3 / 43

وَأَهْلَكَ اَلْعِبَادَ»(1).

ففي زمنٍ لم يكن فيه للصناعة مقدرة اقتصادية تُذْكر أكّد عليه السلام على أمر الخراج، وعدّه المحرّك الإقتصادي الأكبر في البلاد، إذ بدونه تهلك العباد وتخرب البلاد. وكلّما أراد الوالي وفرة الخراج فلا عليه إلاّ بزيادة إعمار الأرض، لأنّها سبيله الوحيد. وعرفت هذهِ القاعدة في عصرنا الحديث بقاعدة «ليس للخراج أن يعرقلَ الإنتاج»(2). ومعناها: لا يجدر بالحكومة وضع العراقيل كالضرائب المجحفة أمام الفلاّح لِتَحولَ دون السعي والإنتاج وتنقص ثَمَرات المساعي الشعبية بتخريب وإهمال الأراضي الزراعية(3).

وقول الإمام عليه السلام في هذا الصدد لم يغفله ابن المقفع، بل نجد شبيهاً له في قوله: « وممّا يُذّكر به أمير المؤمنين، أمرُ الأرضِ والخراج فإنّ أجسمَ ذلك وأعظمه خَطَراً، وأشدَّه مؤونةً وأقربه من الضياع، ما بين سهله وجبله.. فليس للعمّالِ أمرٌ ينتهون إليه، ولا يحاسبون عليه، ويحول بينهم وبين الحكم على أهل الأرض بعدما يتأنّقون لها في العمارةِ، ويرجونَ لها فضلَ ما تعملُ أيديهم.. حتى لا يؤخذَ رجلٌ إلاّ بوَظيفةٍ قدْ عرفَها وضمنها، ولا يجتهد في عمارةٍ إلاّ كان له فضلُها ونفعها، رجونا أنْ يكون في ذلك صلاحٌ للرَّعية، وعمارةٌ للأرض..»(4).

وخلاصة كلامه إنّ للأرض والخراج أمراً جسيماً، لأن الأخير ينتج فيما ينتج «صلاح الرعية» وهذا ما عبّر عنه الإمام علي عليه السلام بقوله:

1- نهج البلاغة 510

2- الراعي والرعية 296

3- ينظر: م. ن 296

4- جمهرة رسائل العرب 3 / 45 - 46

«فَإِنَّ فِي صَلاَحِهِ - أي الخراج - وَصَلاَحِهِمْ صَلاَحاً لِمَنْ سِوَاهُمْ»> وسواهم هنا تعود على الخراج وأهله. أي صلاحاً لعامة الرعية.

ولا يكونُ خراجٌ، ولا صلاح رعيّة إلاّ ب«عمارة الأرض»، وهذا ما نجده في قول الإمام عليه السلام السالف:

«وَلْيَكُنْ نَظَرُكَ فِي عِمَارَةِ اَلْأَرْضِ أَبْلَغَ مِنْ نَظَرِكَ فِي اِسْتِجْلاَبِ اَلْخَرَاجِ، لِأَنَّ ذَلِكَ لاَ يُدْرَكُ إلاّ بِالْعِمَارَةِ».

وبعد تشديده على الخراج، عادَ ابن المقفع إلى تخيّر العمال وتفقدهم، وهي وصية طالما كرّرها في الأدب الصغير، وأكّدها في رسالة الصحابة في غير ما موطن، منها قوله: «وليس بعد هذا في أمرِ الخراج إلاّ رأيٌ قد رأينا أمير المؤمنين أخذ به، ولم نَرَه من أحدٍ قبله، من تخيُّرِ العُمَّالِ وتفقُّدِهم والاستعتابِ لهم، والإستبدالِ بهم»(1).

والجدير بالذكر هنا قول ابن المقفع عن تخيّر العمال وتفقدهم إنّه لم يرَ من فعل ذلك قبل أميره: «لم نره من أحدٍ قبله «.

فهذا إن دلَّ على شيءٍ فإنّه يدلُّ على أنّ باقي ركائز رسالة الصحابة كانَ قد رآها ابن المقفع عند حكامٍ سبقوا أميره فتأثّر بها ونقلها، وإلاّ لماذا هذهِ الفقرة بالذّات قال عنها إنّه لم يرها من قبل، ولم يقل هذا الكلام في مكان آخر من رسالة الصحابة الطويلة والغنيّة بالموضوعات والأفكار، ولا في غيرها من رسائلهِ المتعددة؟ علماً إنّ وصيته في تخيّر العمال وتفقدهم ذكرها بالتفصيل في رسالة الأدب الصغير.

ومهما يكن من شيءٍ فإنّ تخيُّر العمال من أهم وأشد ما كان يأمر به الإمام

ص: 384

1- جمهرة رسائل العرب 3 / 46

علي عليه السلام ويفعله أيضا، ومن ذلك قوله:

«ثُمَّ أَنْظُرْ فِي أُمُورِ عُمّالِكَ فَاسْتَعْمِلْهُمُ [اِخْتِيَاراً] اِخْتِبَاراً، وَلاَ تُوَلِّهِمْ مُحابَاةً وَأَثَرَةً»(1).

وكذلك التفقّد إذ قال فيه:

«ثُمَّ تَفَقَّدْ مِنْ أُمُورِهِمْ مَا يَتَفَقَّدُ اَلْوَالِدَانِ مِنْ وَلَدِهِمَا»(2).

أمّا استبدال العمال والوزراء فهو الآخر من أوليات أمير المؤمنين عليه السلام فعلاً وقولاً. ومنه ما وَرَدَ في العهد:

«إِنَّ شَرَّ وُزَرَائِكَ مَنْ كَانَ لِلْأَشْرَارِ قَبْلَكَ وَزِيراً.. وَأَنْتَ وَاجِدٌ مِنْهُمْ خَيْرَ اَلْخَلَفِ..»(3).

ولم يكتف الإمام علي عليه السلام بحسن الإختيار وإن شرطها الخطوة الأولى في تقريب العامل من العمل لـدى الدولة، إذ بعد الإختيار القائم على الإختبار أوصى عليه السلام بمنْ يجتازون هذه العقبة، فقال:

«ثُمَّ أَسْبِغْ عَلَيْهِمُ اَلْأَرْزَاقَ، فَإِنَّ ذَلِكَ قُوَّةٌ لَهُمْ عَلَى اِسْتِصْلاَحِ أَنْفُسِهِمْ، وَغِنىً لَهُمْ عَنْ تَنَاوُلِ مَا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ، وَحُجَّةٌ عَلَيْهِمْ إِنْ خَالَفُوا أَمْرَكَ أَوْ ثَلَمُوا أَمَانَتَكَ. ثُمَّ تَفَقَّدْ أَعْمَالَهُمْ، وَاِبْعَثِ اَلْعُيُونَ مِنْ أَهْلِ اَلصِّدْقِ وَاَلْوَفَاءِ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ تَعَاهُدَكَ فِي اَلسِّرِّ لِأُمُورِهِمْ حَدْوَةٌ لَهُمْ عَلَى اِسْتِعْمَالِ اَلْأَمَانَةِ، وَاَلرِّفْقِ بِالرَّعِيَّةِ»(4).

1- نهج البلاغة 509

2- م. ن 506 - 507

3- م. ن 503

4- نهج البلاغة 509 - 510

وهذه القوانين من أجلِّ الدساتير وأروعها لو طُبِقّت بالشكل الذي أراده الإمام عليه السلام، فهو يطلب توسيع الأرزاق على موظّفي الدولة، لأنّ في تلك التوسعة الماديّة عوناً للموظف أو العامل على استصلاح نفسه أولاً، وغنىً له عن التطاول على الذي أُتُمِن عليه من أموال وغيرها ثانيا، ثمَّ إنَّ الوالي إذا فعل هذا يكون في حلّ إذا أقام الحدّ على مَنْ يثلم الأمانة ثالثاً.

وبعد هذه نلمس في كلامه عليه السلام فكرة متقدمة أخرى وذلك لما أمر بأن يكون للمراقب السِّري الصادق الوفي «وابعث العيون من أهل الصدق والوفاء» دورٌ فاعل لأنّ العامل «حين يعلمُ أنّ ثمّةَ عيناً ترقبُ أفعاله يحذر من الخروج عن لجادّة، ويحرصُ على اتِّباع ما يصلح بلاده، وهذا التدبير الّذي نهجه الإمام هو نظام التفتيش المعمول به الآن في الدُّولِ المعاصرة»(1).

وليس من الصدفة، أو من باب توارد الخواطر أن تجتمع تلك المعاني العميقة وبعض ألفاظها في قول ابن المقفّع: «وفي كلِّ قومٍ خواصُّ رجالٍ عندهم.. معُونةٌ، إذا صُنعوا لذلك، و تُلُطِّفَ لَهمْ، وأُعينوا على رأيهم، وقُوُّوا على معاشِهم ببعضِ ما يُفرِّغُهم لذلك ويبسطُهم له، وخطرُ هذا جسيمٌ في أمرين: أحدهما رجوع أهلِ الفسادِ إلى الصلاحِ، وأهلِ الفُرقةِ إلى الألفة 0 والأمر الآخر أنْ لا يتحرّك متحرّك في أمرٍ من أمورِ العامَّةِ إلاّ وعينٌ ناصِحَةُ ترمُقُه.. وإذا كان ذلك لم يقدِرْ أهلُ الفسادِ على تربيضِ الأمور وتلقيحها، وإذا لم تُلَقَّحْ كان نِتاجُها بإذن الله مأمونا»(2).

فابن المقفّع هنا يطلب برفد بعض العمّال بأمور منها: تقويتهم على

1- دراسات في نهج البلاغة 97

2- جمهرة رسائل العرب 3 / 46 - 47

معاشـهـم «وقوّوا على معاشـهـم». وهـذا ما نجده في قول الإمام علي عليه السـلام «وأسبغ عليهم الأرزاق». وخطر هذا مثلما رآه ابن المقفع جسيم في أمرين:

الأول: «رجوع أهل الفساد إلى الصلاح «وهذا من قول ألإمام علي عليه السلام «فإنّ ذلك قوّةً لهم على استصلاح أنفسهم».

الثاني: «لا يتحرّك متحرّك.. إلاّ وعين ترمقُه «وهذا من قول ألإمام علي عليه السلام «فإنّ ذلك قوّةً لهم على استصلاح أنفسهم».

الثاني: «لا يتحرّك.. إلاّ وعين ترمقُه «ولا اختلاف في هذا عن قول الإمام علي عليه السلام:

«وابعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم».

فأمير المؤمنين عليه السـلام وبعمق نظر ولحساسـيّة هذا المَنْصَب شـرط في العيون» الصدق والوفاء»، وابن المقفع لم يذهب بعيداً عن هذا عندما اشترط فيهم النصيحة، ولا فرقَ إذ لا نصيحةَ بدون صدق ووفاء.

هذهِ بعض آثار العهد التي تلمستها الدّراسة في رسالة الصحابة.

لم يكن العهـد وحده من أثّر في هذه الرسالة، بل هناك خطبة للإمام علي عليه السـلام ذكر فيها فضلـه، وفضل عترة النبي الأكرم صـلى الله عليه وآله وسـلم مشدّداً على التمسك بهم والسير على هديهم. ثمّ بعدَ أنْ بيّنَ بعض هذهِ الفضائل نهى عليه السلام عن استعمال الرأي، لأنّ كثيرا من الأمور وبخاصة الجسمية منها لا يصلها المرء برأيه مهما أوتي من بصيرة نافذة، فقال في ذلك:

«.. فَأَيْنَ يُتَاهُ بِكُمْ؟! وَكَيْفَ تَعْمَهُونَ وَبَيْنَكُمْ عِتْرَةُ نَبِيِّكُمْ؟! وَهُمْ أَزِمَّةُ اَلْحَقِّ، وَأَعْلاَمُ اَلدِّينِ، وَأَلْسِنَةُ اَلصِّدْقِ! فَأَنْزِلُوهُمْ بِأَحْسَنِ مَنَازِلِ اَلْقُرآنِ، وَرِدُوهُمْ وُرُودَ اَلْهِيمِ اَلْعِطَاشِ. أَيُّهَا اَلنَّاسُ... فَلاَ تَقُولُوا بِمَا لاَ تَعْرِفُونَ، فَإِنَّ أَكْثَرَ اَلْحَقِّ فِيمَا تُنْكِرُونَ، وَأَعْذِرُوا مَنْ لاَ حُجَّةَ لَكُمْ عَلَيْهِ وَهُوَ أَنَا، أَلَمْ أَعْمَلْ فِيكُمْ بِالثَّقَلِ اَلْأَكْبَرِ!

ص: 387

وَأَتْرُكْ فِيكُمْ اَلثَّقَلَ اَلْأَصْغَرَ! قَدْ رَكَزْتُ فِيكُمْ رَايَةَ اَلْإِيمَانِ، وَوَقَفْتُكُمْ عَلَى حُدُودِ اَلْحَلاَلِ وَاَلْحَرَامِ، وَأَلْبَسْتُكُمُ اَلْعَافِيَةَ مِنْ عَدْلِي، وَفَرَشْتُكُمُ اَلْمَعْرُوفَ مِنْ قَوْلِي وَفِعْلِي، وَأَرَيْتُكُمْ كَرَائِمَ اَلْأَخْلاَقِ مِنْ نَفْسِي، فَلاَ تَسْتَعْمِلُوا اَلرَّأْيَ فِيمَا لاَ يُدْرِكُ قَعْرَهُ اَلْبَصَرُ، وَلاَ تَتَغَلْغَلُ إِلَيْهِ اَلْفِكَرُ»(1).

في الخطبة معانٍ غزيرةٍ، وفنون بلاغية ممتعة منها: قوله عليه السلام «وهم أزمة الحق». فقد جعل للحق زمام، وعروة هذا الزمام بيد العترة الطاهرة. وقال ابن أبي الحديد: «وقد نبّه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم على صدق هذه القضيّة بقوله: وأدِرْ الحقَّ معهُ حيث دار»(2).

أمّا قوله: «فأنزِلوهم منازل القرآن» ف «تحتهُ سرٌّ عظيم وذلك أنّه أمرَ المُكلّفين بأن يُجرْوا العترةَ في إجلالها وإعظامها و الانقياد لها والطاعة لأوامرها مجرى القرآن»(3).

ثمّ أمرَ الناس أن تُسرعَ إلى بحار علومهم كما تُسرعَ الهيم العطاش إلى الماء(4).

وعلى كلِّ الأحوال فإننا نجد هاتين الركيزتين من التمسك والإقتداء بالأئمة، والإبتعاد عن استعمال الرأي قبال أمرهم في قول ابن المقفع: «وقد علمنا علماً لا يخالطهُ شكُّ أنّ عامّةً قط لم تصلُح من قِبَلَ أنفسِها، وأنّها لمْ ولم يأتها الصَّلاحُ إلاّ مِن قبل خاصَّتها، وأنَّ خاصّةً قط لم تصلحْ مِن قِبَلَ أنفسِها، وأنَّها لمْ يأتيها الصلاحُ إلاّ من قبلِ إمامها، وذلك لأنَّ عددَ النّاس في ضَعفتِهم

1- نهج البلاغة 130
2- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 6 / 430
3- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 6 / 430 - 431
4- م. ن 1 / 137

وجُهَّالتهم الّـذين لاـ يستغنونَ برأي أنفُسـهم، ولاـ يحملونَ العلمَ، ولاـ يتقـدَّمون في الأـمور، فإذا جعلَ الله فيهم خواصَّ من أهلِ الـدينِ والعقولِ.. جعلَ اللهُ ذلك صـلاحاً لجماعتهم.. وحاجةُ الخاصَّةِ إلى الإمام الّذي يُصـلِحُهم اللهُ بهِ كحاجةِ العَامَّةِ إلى خواصـهم وأعظم من ذلك، فبالإمام يجمع اللهُ أمرهم، ويكبتُ أهل الطعنِ عليهم، ويجمع رأيَهم وكلمتَهُم..»(1).

فكلام ابن المقفع يدور حول أمرين غاية في الأهمية، روحهما كلام الإمام علي عليه السلام السالف:

الأول:

في حديثه عن الإمام اتضح بأنّه يؤيد فكرة الإمامة، فإذا أُريد صـلاح المجتمع فينبغي إصلاح العامة وال«عامة قط لم تصلح من قبل أنفسها» بل صـلاحها يأتي من «صلاح خاصّـتها»، والخاصة هذه لم تستطع أيضًا إصـلاح نفسـها ولا غيرها إلاّ إذا كان هنالك إمامٌ يسـيِّرها بالسيرة الصـحيحة «إلاـ من قبـل إمامها». إذاً فالإمام ينبغي أن يكون على قمّـة الهرم، ولا غنًى للخاصّـة، والعامـة عنه مطلقاً لأنهما - أي الخاصـة والعامّـة - «لاـ يحملون العلم ولاـ يتقـدمون في الأمور» وهـذا يعني - بوضوح - إنّ هاتين الصـفتين يحملهما الإمام لـذا رأى ابن المقفع الرجوع إليهِ، والإمام وسيلة ربّانيّة بينه تعالى وبين خلقه، إذ وبهِ «يجمع الله أمرهم»، وبهِ يكون اجتماع «رأيهم» وبهِ يكون توحيد «كلمتهم». وهذا كلّه كقول الإمام علي عليه السلام في بداية خطبته حينما أمرَ بالإقتداء بالأئمة الأطهار عليه السلام:

«فَأَيْنَ يُتَاهُ بِكُمْ؟! وَكَيْفَ تَعْمَهُونَ، وَبَيْنُكُمْ عِتْرَةُ نَبِيِّكُمْ، وُهمْ أَزِمَّةُ

ص: 389

1- جمهرة رسائل العرب 3 / 47

اَلْحَقِّ، وَأَعْلاَمُ اَلدِّينِ، وَأَلْسِنَةُ اَلصِّدْقِ».

الثاني:

ما دام الإمام موجوداً فقد نهى ابن المقفع عامة النّاس عن الإستغناء برأيهم «لا يستغنونَ برأي أنفسهم». وهذا يشبه بشدة بالغة ما أمر به الإمام علي عليه السلام فبعد أن بيّنَ منزلته العظمى ومقامه السامي، نهى عامة الناس عن استعمال الرأي «فلا تستعملوا الرأيَ فيما لا يُدرِكُ قعرَه البصرُ، ولا تتغلغلُ إليه الفِكرُ»، لأنّ ما يدركه الإمام عليه السلامببصيرته الثاقبة لا يدركه الناس بآرائهم.

وتجدر الإشارة إلى أنَّ للفاخوري تعليقاً على نصِّ ابن المقفع المذكور يتلاءم مع ما يثبته الباحث، قال فيه: «وأخيراً يصلُ ابن المقفّع إلى موضوعٍ يستقيه من فكرةٍ شيعيّة، ويقدِّمه في لباقةٍ عجيبة. فالناس في حاجةٍ إلى من يهديهم سوّيَ السبيل، إلى إمامٍ يُنير،..»(1). أمّا يوسف أبو حلقة فيرى في حديث ابن المقفع عن الإمام حديثاً غامضاً، كونه يعمد إلى اللفِّ والدّوران خوفاً من الاحكام المتسلِّح بالحكم المطلق(2).

ولم يكن حديث ابن المقفع هذا الوحيد عن الإمام ووجوب طاعته، بل أكد على ذلك مراراً وتكراراً، ففي نصٍّ آخر يذهب إلى أنّ ما يتمتع بِهِ الأئمة من نفاذ الأمر والرأي هو منصب أو جعل إلهي وليسَ لأحدٍ غيرهم أن يأمر و يُطاع، فقال في ذلك: «فأمّا إثباتُنا

1- الجامع في تأريخ الأدب العربي 1 / 535

2- ينظر: عبد الله ابن المقفع دراسة وتحليل 20

للإمام الطاعـةِ فيما لا يُطاعُ فيه غيره، فإنّ ذلك في الرأي والتـدبير والأمر الـذي جعلَ الله أزمّته و عُراه بأيـدي الأئمّة، وليس لأحدٍ فيه أمرٌ ولا طاعة»(1).

وبرأي ابن المقفع هذا الذي أكّد فيه إنّ للأئمة مقاماً سامياً «ليس لأحدٍ فيه أمرٌ ولا طاعة» غيرهم، وبرأيه إنّ هذاالأمر والصـلاحيات التي من خلالها يدبّرون أمور الرعية ليست هيّ منّة من أحد، بل هي جعلٌ إلهي بصريح عبارته: «جعل الله أزمتّه وعُراه بأيدي الأئمة». فبآرائه هذه قد دخل في صـميم معتقـدات طائفة الشـيعة الإمامية، وحجتهم في ذلك القرآن الكريم، إذ لـم ترد لفظة «الإمام» ومشـتقاتها، إلاّ ومعها كلمة «جعل» ومشتقاتها، ومنه قوله تعالى:

«وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ»(2).

إذاً فهذا «الجعل ليس بأمرٍ من البشر، بل بأمر الله (بأمرنا)»(3). وقال الدكتور الوائلي:

«تظافرت الأدلة من الكتاب والسنّة على أنّ الإمامة بجعل من الله»(4).

وهكذا تطفوا أفكار ابن المقفع الحقيقية شـيئاً فشـيئاً، بتصريحات تدل على أنّ عقيدته بالإمامة عقيدة متكاملة ابتداءً من أدوارهم عليه السلام في عصرهِ وإنتهاءاً

1- جمهرة رسائل العرب / 34 - 35

2- الأنبياء 73

3- بنور فاطمة اهتديت 123

4- هوية التشيع 110

بخاتمهم، فابن المقفع – فضلاً عمّا سبق – لم يتغافل حتمية خاتم الأئمة عجل الله تعالى فرجه الشريف، ففي موطن آخر من مواطن حديثه عن الإمام وبعد أن حثّ من أسـماه أمير المؤمنين على النظر في ما وقع من اختلاف السّنن في زمانه، واختلاف الأحكام، فمنهم من يحكم بالخطأ، ومنهم بالصواب، وتوحيد أهلها على الصواب، قال:

«ثمَّ يكون ذلك من إمام آخَرَ آخِرَ الدهر إن شاء الله»(1).

وهـذا تصـريح واضـح بإيمان ابن المقفع بدولـة العـدل الإلهي التي تكون في آخر الزّمان بقيادة الإمام الثاني عشـر الحجة بن الحسن عليه السـلام. وهـذا الإمام برأي ابن المقفع يوحـد السـنن، ويجمع الأمر، ويبدل الحكم المتخبط والمتذبذب بين الصواب والخطأ بحكمٍ واحدٍ مصيب. ونرى أيضاً إنّ رأيه هذا مشتقٌّ من حديث رسول الله صلى الله عليه وآله في الإمام المهدي عليه السلام:

«لَوْ لَمْ يبقَ من الدنيا إلاّ يوم واحدٌ لطوّلَ الله ذلك اليوم حتّى يَبْعَثَ اللهُ فيه رَجُلاً من أهلِ بَيْتي يملؤهُا عدلاً كما مُلِئَت ظلما»(2).

ومن أفكار ابن المقفع هذهِ نستنتج أمرين:

الأول:

إن أفكاره هذهِ تؤيد بشدة تأثره السابق بكلام أمير المؤمنين عليه السلام وتأثره بكلام أمير المؤمنين يشهد ويؤكد على إيمان ابن المقفع بدور الإمام ونهجه في معالجة الأمور كافة. وبعبارة أخرى إنّ العلاقة بين أفكار ابن المقفع هذهِ وبين تأثره

1- جمهرة رسائل العرب 3 / 40

2- مناقب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام 2 / 173، وينظر: مسند أحمد 18 / 62، وينظر: المستدرك على الصحيحين:4 / 488

بكلام أمير المؤمنين وباقي الأئمة عليه السلام علاقة تلازم، وعلاقة تأكيد، وعلاقة شاهد ومشهود.

الثاني:

إنّ ابن المقفع بفكره هـذا ركب مركبا صـعبا، وذلك لمّا دعا إلى تفعيل فكرة الإمامـة، على الرغم من إنّه يعيش بين أروقة الخلافة المناهضـة لهذه الفكرة. وهذا المركب هو الذي كلّف ابن المقفع حياته، بخاصة إذا علمنا أنّ هذه الرسالة (رسالة الصـحابة) موجّهةللمنصور العباسي، وهـذا الأخير كان قـد أدرك جسامـة هـذه الأفكار التي وجهت له - تقريبا - من عقر داره، ولـذا رأيكمن بالتخلص من حاملي هذهِ الأفكار، ومنهم ابن المقفع، وبعده إمامه الصادق عليه السلام.

ثانياً: أثر في الرِّسالة اليتيمة:

تُعـدُّ اليتيمـة من أهم رسائل ابن المقفع، وتتكون هـذهِ الرسالـة من مقدمة، ومجموعة من الأسـئلة. ولكن مما يؤسف له إنّ هذهِ الرسالة لم تصـلنا كاملةً، بل الذي وصـلَنا منها الجزء الأقل والمتمثَّل بمقدمتها، وجواب ابن المقفع عن سؤال النّاس عن الزّمان، أي الإجابة عن سؤالٍ واحدٍ فقط.

أما منزلتها الأدبيـة، فإنّ الذي قيلَ في هذه الرِّسالة لم يقل في جميع ما كتبه ابن المقفع غيرها، ومن ذلك قول ابن طيفور (ت 280 ه) - وهو ناقلها وِ من الرّسائل المفردات اللَّواتي لا نظيرَ لها ولا أشـباه، وهي أركان البلاغـة، ومنها اسـتقى البُلغاءُ، لأنّها نهايـة في المختار من كلام، وحسن التأليف والنِّظام،.. فإنّ النّاسَ جميعاً مجمعون أنّهَ لم يعبِّرْ أحدٌ عن مثلها، ولا تقدِّمها من الكلامِ شيءٌ قبلها، ولم نكتبها على تمامها لشهرتها وكثرتها في أيدي الرُّواة لها فمن

ص: 393

«فصولها..»(1).

والباحث يرى في كلام ابن طيفور شيئاً من المبالغة غير الممدوحة لوجوه منها: إذا كانت الرّسالة بهذهِ المنزلة الأدبية الّتيلا تُدانى، لماذا اقتطع منها جزءاً قليلاً ودونه دون باقي أجزائها؟ بل كان عليه أن ينقلها كاملةً لما ذكرَ لها من قيمة في الأوساط الأدبية.

أما حجته بأنّه لم يكتبها «على تمامها لشهرتها وكثرتها في أيدي الرّواة» مردود لأن الرسالة لا توجد في كتابٍ قديم غير كتابه «المنثور والمنظوم»(2) إذاً أين كثرة رواتها؟ هذا من جهة، ومن جهةٍ أخرى فإنّ قوامَ الرسالةِ - بمقدمتها وجواب ابن المقفع فيها للسائل - حكمٌ وفقراتٌ من خطبٍ للإمام علي عليه السلام بالنص، أو بتحوير طفيف، إذاً كيف «الناس جميعاً مجمعون أنّه لم يعبر أحد عن مثلها، ولا تقدّمها من الكلام شيءٌ قبلها»؟.

فمن حكمِ أمير المؤمنين عليه السلام التي ضُمّنتْ بالكامل في هذهِ الرسالة قوله:

«اَلْأَقَاوِيلُ مَحْفُوظَةٌ، وَالسَّرَائِرُ مَبْلُوَّةٌ... وَالنَّاسُ مَنْقُوصُونَ مَدْخُولُونَ إِلاّ مَنْ عَصَمَ اَللهُ؛ سَائِلُهُمْ مُتَعَنِّتٌ، وَمُجِيبُهُمْ مُتَكَلِّفٌ، يَكَادُ أَفْضَلُهُمْ رَأْياً يَرُدُّهُ عَنْ فَضْلِ رَأْيِهِ اَلرِّضَى وَالسُّخْطُ، وَيَكَادُ أَصْلَبُهُمْ عُودا تَنْكَؤُهُ اَللَّحْظَةُ، وَتَسْتَحِيلُهُ اَلْكَلِمَةُ اَلْوَاحِدَةُ»(3).

1- جمهرة رسائل العرب 3 / 48
2- كتاب يقع في أربعة عشّر مجلداً لم يبق منه إلّا جزآن هما الحادي عشر وقد طبعت قطعة منه باسم (بلاغات النساء)، والآخر الثاني عشر، مخطوط ينظر: الأعلام / 141، والدّرة اليتيمة منقولة عن المخطوط
3- نهج البلاغة 613

السرائر: ما أَسِرَّ في القلوب مما يخفى من أعمال الجوارح، وبلاؤها تعرُّفها(1).

المدخول: من أصيب بالدخل وهو مرض العقل والقلب(2).

و«أصلبهم عوداً» كناية عن تمسكه بدينه وعلى الرغم من هذا «تنكؤه اللحظة» يقال نكأ القُرحة وينكؤها إذا قشّرها قبل أن تبرأ(3)، أراد الإمام إنّ النظرة تكشف مكنون ذلك الرجل.

و«تستحيله الكلمة» تحوِّلُه عمّا هو عليه(4) من عودٍ صلب.

ضَمّنَ ابن المقفع هذهِ الحكمة برمتها بين النص والتحوير والتوسيع والتقديم والتأخير، ثمَّ عزّزها بفقرات من خطب وحكم علوية أخرى وجعل ذلك مقدّمة لرسالتِهِ التي لم يتقدمها «من الكلام شيء»!، فقال: «وقد أصبح النّاس – إلاّ مَنْ عصمَ الله – مدخولين منقوصين، فقائِلُهم باغٍ، وسامعُهم عيَّابُ سائِلُهم متعنِّتٌ، ومجيبهُم متكلِّف، وواعظُهم غيرُ محقِّقٍ لقولِه بالفعل.. يتقارضونَ الثّناء، ويترقبون الدّوُلَ، ويعيبونَ بالهمزِ، يكادُ أحزَمُهم رأياً يلفِتُهُ عن رأيه أدنى الرِّضا وأدنى السُّخطِ، ويكادُ أمتنُهم عوداً أن تسحَرُه الكلمةُ، وتُسكرُه اللّحظةُ، وقد ابتُليتُ أنْ أكون قائلاً، وابتُليتُم أنْ تكونوا سامعين، ولا خير في القول إلاّ ما أنتُفِعَ بهِ..»(5).

فقوله: «سائلهم متعنت، ومجيبهم متكلّف» هو قول الإمام عليه السلام:

1- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 19 / 150
2- شرح نهج البلاغة لمحمد عبده 2 / 334
3- ينظر: لسان العرب 1 / 174 مادة (نكأ)
4- شرح نهج البلاغة لمحمد عبده 4 / 573
5- جمهرة رسائل العرب 3 / 48 – 49

«سَائِلُهُمْ مُتَعَنِّتٌ، وَمُجِيبُهُمْ مُتَكَلِّفٌ» بنصّه> أما قوله عليه السلام:

«وَاَلنَّاسُ مَنْقُوصُونَ مَدْخُولُونَ إِلاَّ مَنْ عَصَمَ اَللهُ».

قدم وأخر فيه ابن المقفع لما قال: »وقد أصبح النّاس – إلاّ مَنْ عصمَ الله – مدخولين منقوصين».

وهكـذا بقيـة الحكمـة تجدها منتشـرة في كلام ابن المقفع مع تحوير طفيف مشوبٌ بحذرٍ شديد إذ نجده يحوّرُبعض الألفاظ دون أن يمس ميزان اللفظة، ولا معناها.

فأنظر إلى هذه المقارنة:

أمير المؤمنين عليه السلام: «يكاد أفضلهم رأياً».

ابن المقفع: «يكاد أحزمهم رأياً».

فالجملتان تتكونان من فعل مضارع ناقص + اسم الفعل بصيغة اسم تفضيل + خبر الفعل وهكذا قولاهما:

أمير المؤمنين عليه السلام: «ويكاد أصلبهم عوداً».

ابن المقفع: «ويكاد أمتنهم عوداً».

أمير المؤمنين عليه السلام: «يردّه عن رأيه».

ابن المقفع: «يلفته عن رأيه».

وهـذه سـمة تسـجّلها الدراسـة على ابن المقفع، إذ ورد من قبيـل هـذا التحوير كثيرٌ جـدا أمّـا لو عـدنا إلى تأثر ابن المقفع في غير الحكمة المذكورة

ص: 396

فسنجد قوله: «يتقارضونَ الثناء، ويترقبون الدّوُلَ». من خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام يصف فيها المنافقين منها:

«يتقارضونَ الثّناءَ، ويتراقبونَ الجزاء»(1).

ومعناهُ: كلٌّ منهم يثني على صاحبه ليثني صاحبه عليه كأنّ كلَّ واحدٍ منهم يقرض صاحبه دين ينتظر إرجاعه إليه، والجزاء عليه(2).

وبالنسبة لقوله: «وواعظُهم غيرُ محقِّقٍ لقولِه بالفعل» فهو يشبه كلام أمير المؤمنين عليه السلام:

«فهو بالقولِ مُدِلٌّ، منِنَ العَمَلِ مُقِلٌّ»(3).

وهكذا قوله: «ولا في القول إلاّ ما أنتُفِعَ به» فإنّه لا يختلف عمّا جاء في وصية الإمام لولدِهِ الحسن عليه السلام:

«وتَفَّهم وصيّتي.. فإنَّ خيرَ القَوْلَ مَا نَفَعَ»(4).

هـذا بالنسـبة لمقدّمة الرسالة اليتيمة. أمّا ما جاء بعدها من جواب ابن المقفع عن سؤالٍ وُجِّه له: «أمّا سؤالكم عن الزّمانَ، فإنّ الزّمان النّاسُ، والنّاسُ رجُلان: وَالٍ ومُوَلّى عليه، والأزمنةُ أربعةُ على اختلاف حالات الناس..»(5). فإنّهُ من دونِ أدنى شكٍّ إعادة صياغةٍ لخطبةٍ علويّةٍ قسّم فيها الإمام علي عليه السلام الراعي والرعية

1- نهج البلاغة 356

2- ينظر: شرح نهج البلاغة لمحمد عبده 2 / 334

3- نهج البلاغة 581

4- م 0 ن 458

5- جمهرة رسائل العرب 3 / 50

من حيث الصلاح والفساد على ثلاثة أقسام:

القسم الأول:

وفيه يصلح الراعي والرعية معا. قال عليه السلام:

«ثُمَّ جَعَلَ - سُبْحَانَهُ - مِنْ حُقُوقِهِ حُقُوقاً اِفْتَرَضَهَا لِبَعْضِ اَلنَّاسِ عَلَى بعضٍ، وَأَعْظَمُ مَا اِفْتَرَضَ - سُبْحَانَهُ - مِنْ تِلْكَ اَلْحُقُوقِ حَقُّ اَلْوَالِي عَلَى اَلرَّعِيَّةِ، وَحَقُّ اَلرَّعِيَّةِ عَلَى اَلْوَالِي، فَرِيضَةٌ فَرَضَهَا اَللهُ - سُبْحَانَهُ - لِكُلٍّ عَلَى كُلٍّ، فَجَعَلَهَا نِظَاماً لِأُلْفَتِهِمْ وَعِزّاً لِدِينِهِمْ، فَلَيْسَتْ تَصْلُحُ اَلرَّعِيَّةُ إِلاَّ بِصَلاَحِ اَلْوُلاَةِ، وَلاَ تَصْلُحُ اَلْوُلاَةُ إِلاَّ بِاسْتِقَامَةِ اَلرَّعِيَّةِ؛ فَإِذَا أَدَّتْ اَلرَّعِيَّةُ إِلَى اَلْوَالِي حَقَّهُ، وَأَدَّى اَلْوَالِي إِلَيْهَا حَقَّهَا عَزَّ اَلْحَقُّ بَيْنَهُمْ، وَقَامَتْ مَنَاهِجُ اَلدِّينِ وَاِعْتَدَلَتْ مَعَالِمُ اَلْعَدْلِ.. فَصَلَحَ بِذَلِكَ اَلزَّمَانُ، وَطُمِعَ فِي بَقَاءِ اَلدَّوْلَةِ، وَيَئِسَتْ مَطَامِعُ اَلْأَعْدَاءِ»(1).

فأمير المؤمنين عليه السلام يرى أنّ أيّدَ الدولةِ وهيبتها تكمن في صلاح الراعي والرعيّة معاً، وأن يؤدي كلُّ منهما ما عليه من حقوق تجاه الآخر.

نظر ابن المقفع إلى هذا وجعله الزّمان الأول قائلاً: «فخيارُ الأزمنةِ» ما اجتمعَ فيه صلاحُ الرّاعي والرّعية، فكان الإمام مؤديةً إلى الإمامِ حقّه في المودّةِ والمناصَحَةِ.. وتركِ المنازعة في أمرِهِ، والصبر عندَ مكروهِ طاعتهِ.. فإذا اجتمعَ ذلك في الإمام والرعيّةِ، تمّ صلاحُ الزّمان»(2).

1- نهج البلاغة 386

2- جمهرة رسائل العرب / 49 - 50

فابن المقفع سارَ خطوة بخطوة في كلامه مقتفيًّا أثر كلام أمير المؤمنين عليه السـلام حتى خَتَمَ حـديثهُ بنتيجـة علوية أيضًا، إذ أنّه عدَّ صـلاح الرّاعي والرعيّة ينتجان «صلاح الزمان» وهذا من قول أمير المؤمنين عليه السلام:

«فصلح بذلك الزّمان».

ونسـبةُ الصـلاح إلى الزّمان عن طريق المجاز، لأنَّ الصـلاح في الحقيقة يعود إلى حال أهل الزّمان، وإنّما يوصف بالصَّلاح والفساد باعتبار وقوعهما فيه(1).

القسم الثاني:

فساد الرعية أو عصيانهم. قال عليه السلام:

«وإذا غلبَتِ الرَّعيّةُ والَيها..»(2).

أشارَ هنا إلى عصيان الرعيّة للإمام(3).

وهذا القسم جعله ابن المقفع الزّمان الثاني فقال: «ثمَّ إنّ الزّمان الّذي يليه:

«أنْ يَصلُحَ الإمام ويَفْسُدُ النّاسُ..»(4).

القسم الثالث:

فساد الوالي. قال عليه السلام:

«أو أجحفَ الوالي برعيّتِهِ..»(5) أي ظلمهم(6).

1- ينظر: شرح نهج البلاغة لابن ميثم 4 / 30
2- نهج البلاغة 386
3- ينظر: شرح نهج البلاغة لابن ميثم 4 / 30
4- جمهرة رسائل العرب 3 / 50
5- نهج البلاغة 386
6- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 12 / 65

أخذ ابن المقفع هذا جاعلاً منه الزمان الثالث. فقال: «والزّمانُ الثالثُ صلاحُ النّاسِ وفسادُ الوالي..»(1).

أمّا الزّمان الرابع عنـد ابن المقفع والـذي قال عنه: «وشـرُّ الأزمان: ما اجتمع فيه فسادُ الوالي والرّعيّة، وتلكَ كارثةٌ لم يتقادم عهدُ كونها، ولم تعفُ عنكم آثارُها»(2). فهذا لم يوجد صـراحة في خطبة الإمام عليه السـلام، لكنّ ثمرةَ هذا الزمان من كونهِ كارثة تحلُّ بالأمة نجد نظيرها عند الإمام بعدَ أن ذكر إجحاف الوالي، أو غلبة الرعية، فقال:

«اِخْتَلَفَتْ هُنَالِكَ اَلْكَلِمَةُ، وَظَهَرَتْ مَعَالِمُ اَلْجَوْرِ، وَكَثُرَ اَلْإِدْغَالُ فِي اَلدِّينِ، وَتَرَكَتْ مَحَاجُّ اَلسُّنَنِ فَعُمِلَ بِالْهَوَى، وَعُطِّلَتِ اَلْأَحْكَامُ...»(3)
ولعل هـذا الزمان الرابع عند ابن المقفع يدخل ضـمن طريقته التي يتعامل بها مع كلام أمير المؤمنين عليه السـلام - ولا يفارقها إلاّ نادراً - وهي تلك الطريقة القائمة على التوسع والزيادة.

ثالثاً: في رسائل أدبية أخرى لابن المقفّع

ورَدت لابن المقفع رسائل أدبية متعدِّدة، كان يراسلُ بها بعض أصدقائه وإخوانه، معزِّيًا ذي المُصـيبة ومهنِّئًا ذي النعمة، وكان الطابع الغالب على هـذه الرسائل - كسابقتها - طابع الوعظ والإرشاد. أما حجمها فقـد تميزت بالقصـر. أمّا تأثُّر بكلام أمير المؤمنين فقـد كان جليًا. فمن حكمةٍ لهُ عليه السلام حثّ فيها على تعلُّم العلم ممّنْ هم أعلى مرتبة، ثم تعليم مَنْ هم أدنى مرتبة، فقال:

1- جمهرة رسائل العرب 3 / 50
2- م. ن 3
3- نهج البلاغة 386

«تعلّم عِلْمَ مَنْ يعلَمُ، وعَلِّمْ عِلْمَك مَنْ يجْهلُ، فإذا فَعَلْتَ ذَلِكَ عَلِمْتَ ما جَهِلْتَ وانْتَفَعْتَ بِمَا عَلِمْتَ»(1).

كتبَ ابن المقفع هذا، وأرسله إلى بعض إخوانه:

«أمّا بعدُ، فتعلّم العلمَ ممّنْ هو أعلمُ بِهِ منكَ، وعلِّمهُ مَنْ أنتَ أعلَمُ بِهِ منه، فإنّكَ إذا فعلتَ علمتَ ما جهلْتَ، وحفظتَ ما عملتَ»(2).

ومن كلامٍ للإمام عليه السلام عزّى فيه الأشعث بن قيس بعدَ أن رُزِئ بأحد أولاده، قال فيه:

«يَا أَشْعَثُ، إِنْ تَحْزَنْ عَلَى ابْنِكَ فَقَدِ اسْتَحَقَّتْ ذَلِكَ مِنْكَ الرَّحِمُ، وَإِنْ تَصْبِرْ فَفِي اللهِ مِنْ كُلِّ مُصِيبَةٍ خَلَفٌ. يَا أَشْعَثُ إِنْ صَبَرْتَ جَرَى عَلَيْكَ الْقَدَرُ وَأَنْتَ مَأْجُورٌ، وَإِنْ جَزِعْتَ جَرَى عَلَيْكَ الْقَدَرُ وَأَنْتَ مَأْزُورٌ»(3).

يقول عليه السلام تدعوك صلة الرحم إلى الحزن على ولدك، ولكن عليكَ بالصبر حتى يقول تنال الأجر، ولا تجزع فيصيبك الوزر، فإنّ القدَر جارٍ في الحالتين كلتيهما أصبرت أم جزعتْ. فكان هذا المعنى مهيمنًا تماماً على رسالةٍ كتبها ابن المقفع يعزّي فيها عن ولد» «إنما يستوجب على اللهِ وعدُه، مَنْ صبَر للهِ بحقِّه، فلا تَجمَعَنَّ إلى ما فُجعتَ بهِ من ولدِك، الفجيعة بالأجرِ عليه والعِوَضِ منه، فإنها أعظمُ المصيبتين عليك، وأنكى المرْزِئتينِ لك..»(4) وهكذا كان ابن المقفع يأتي على المعنى العلوي ويكتبه إلى من يشاء من إخوانه.

ص: 401

1- غرر الحكم ودرر الكلم 324 - 325

2- جمهرة رسائل العرب 3 / 54

3- نهج البلاغة 606

4- جمهرة رسائل العرب 3 / 56

ففي حكمةٍ لأمير المؤمنين عليه السلام عليه السلام نهى فيها عن الزهد بالمعروف لقلّةِ شاكريه، إذ لا بُدّ لمن يفعل المعروفِ من تحصّ له على شكرٍ وفير، ولو من طرفٍ غير مستفيد من ذلك المعروف، فقال:

«لاَ يُزَهِّدَنَّكَ فِي اَلْمَعْرُوفِ مَنْ لاَ يَشْكُرُهُ لَكَ، فَقَدْ يَشْكُرُكَ عَلَيْهِ مَنْ لاَ يَسْتَمْتِعُ بِشَيْءٍ مِنْهُ، وَقَدْ تُدْرِكُ مِنْ شُكْرِ اَلشَّاكِرِ أَكْثَرَ مِمّا أَضَاعَ اَلْكَافِرُ»(1).

كتب ابن المقفع بهـذا المعنى كتاباً إلى بعض إخوانه جاءَ فيه: «أمّا بعـدُ، فإنّ مَنْ قضـى الحوائـجَ لإخوانه، واسـتوجبَ بذلك الشـكرَ عليهم فلنفسهِ عَمِل لا لهم، والمعروفُ إذا وُضِعَ عِندَ منْ لا يشكره فهو زرعٌ لا بُدَّ لزارعه من حصادهِ، أو لِعَقِبه من بعده»(2).

وما دمنا في رسائل ابن المقفع فينبغي ذكر رسالةً له متوسطة من حيث الطول صاغها على شكل مجموعة من الحكم والمواعظ القصار. كان لأثر كلام الإمام عليه السلام نصيبٌ موفورٌ فيها سواءً على صعيد التضمين الحرفي، أو المحور، أو المعنى.

فمثلاً حكمته عليه السلام:

«مَنْ عَذُبَ لسانُهُ كثُرَ إخوانُهُ»(3).

أوردها ابن المقفع بنصِّها في رسالته، فقال: «مَنْ عَذُبَ لسانُهُ كثُرَ إخوانُهُ»(4).

1- نهج البلاغة 587
2- جمهرة رسائل العرب 3 / 58
3- غرر الحكم ودرر الكلم 578
4- آثار ابن المقفع 341

أمّا حكمته عليه السلام:

«أحسَنُ العفوِ ما كانَ عن مقدرة»(1).

فلم يغير ابن المقفع إلاّ في ذيلها: «أحسَنُ العفوِ ما كانَ عن عظيمِ الجرُمِ»(2).

بينما الشق الثاني من حكمة الإمام عليه السلام:

«ثمرَةُ القَنَاعَةِ الرّاحَةُ، و ثَمَرَةُ التّوَاضُعِ المَحَبَّةُ»(3).

فلا- يختلف عنه ما ورد في رسالة ابن المقفع تلك: «التّواضُعُ يورث المحبَّةَ»(4) سوى أنّ الإمام عليه السلام جعل التواضع يثمر محبةً، وعند ابن المقفع يورث محبة!.

وبالنسبة لحكمة أمير المؤمنين عليه السلام:

«اَلظَّفَرُ بِالْحَزْمِ، وَاَلْحَزْمُ بِإِجَالَةِ اَلرَّأْيِ، وَاَلرَّأْيُ بِتَحْصِينِ اَلْأَسْرَارِ»(5).

فقد ذكرناها عندما ضمَّنها ابن المقفع حرفيًّا في الأدب الصغير. أمّا في هذهِ الرِّسالة فقد أعادَ ترتيب ما أخذه منها لا غير: «بالحزم يتمُّ الظّفرُ، بإجالةِ الرّأيِ تظفرُ بالحزمِ»(6).

أمّا حكمته عليه السلام التي قال فيها:

1- غرر الحكم ودرر الكلم 204
2- آثار ابن المقفع 341
3- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 20 / 452
4- آثار ابن المقفع 341
5- نهج البلاغة 561
6- آثار ابن المقفع 342

«أحبِبْ حبيبكَ هوناً مَا، عَسى أنْ يكونَ بغيضَكَ يَوماً مَا، وأبغِضْ بغيضَكَ هَوْنًا مَا، عَسَى أنْ يكُونَ حَبيبَكَ يومًا مَا»(1).

فنجد جانباً من معناها القائم على احتمال تحوّل الحبيب بغيضاً، والبغيضُ حبيباً في قول ابن المقفع: «ربُما تحولت البغضاءُ مودة، والمودة بغضاء»(2).

وقال عليه السلام:

«مَنْ أُعْطِيَ أَرْبَعًا لَمْ يُحْرَمْ أَرْبَعًا: مَنْ أُعْطِيَ الدُّعَاءَ لَمْ يُحْرَمِ الْإِجَابَةَ، وَمَنْ أُعْطِيَ التَّوْبَةَ لَمْ يُحْرَمِ الْقَبُولَ، وَمَنْ أُعْطِيَ الاِسْتِغْفَارَ لَمْ يُحْرَمِ الْمَغْفِرَةَ، وَمَنْ أُعْطِيَ الشُّكْرَ لَمْ يُحْرَمِ الزِّيَادَةَ»(3).

أخذ ابن المقفع هذا بتمامه، فقال: «من رزق أربعاً لم يحرم أربعاً: من رزق الشكر لم يحرم الزيادة، من رزق الإستغفار لم يحرم المغفرة، ومن رزق الدعاء لم يحرم الإجابة، ومن رزق التوبة لو يحرم القبول»(4).

وتجدر الإشارة إلى أنَّ الشائع والمتداول إنّ ابن المقفع ورث هذه الطريقة من التقسيم في الكلام - كقوله المذكور، وقوله: إنما أنت أحد رجلين، وقوله:

العلم علمان - ورثها من اليونان(5)، ولكن الدراسة بينت إن ابن المقفع اعتمدها - التقسيمات - بنصها عن أمير المؤمنين عليه السلام.

1- جمهرة الأمثال 1 / 183، وينظر: نهج البلاغة 602

2- آثار ابن المقفع 342

3- نهج البلاغة 577

4- بلاغة الكتاب في العصر العباسي 219

5- ينظر: دراسات في الأدب العباسي 54

ونختِمُ هذا الأثر العلوي العميق في ابن المقفع بنصين كليهما من وصية أمير المؤمنين لولده الإمام الحسن عليه السلام، فكان ممّا جاء فيها قوله:

«أَيْ بُنَيّ، إِنِّي وَإِنْ لَمْ أَكُنْ عُمِّرْتُ عُمُرَ مَنْ كَانَ قَبْلِي، فَقَدْ نَظَرْتُ فِي أَعْمَالِهِمْ، وَفكَّرْتُ فِي أَخْبَارِهِمْ.. فَعَرَفْتُ صَفْوَ ذلِكَ مِنْ كَدَرِهِ، وَنَفْعَهُ مِنْ ضَرَرِهِ، فَاسْتَخْلَصْتُ لَكَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ نَخِيلَهُ..»(1).

قدّم الإمام عليه السلام مجموعةَ صفاتٍ أمتاز بها حتى يؤكد لولده إنّك لا تسمع ولم يأتك، إلاّ المنتخل من الآراء، والنخل هو التصفية، ويقال نخلتُ له النصيحة بمعنى أخلصتها(2). وقد وردَ مثل هذا في قول ابن المقفع: «أخذتُ من كل شيءٍ أحسنَ ما فيه حتى من الخنزير والكلب والفهد»(3).

وفي نهاية الوصية المذكورة قال عليه السلام:

«وَإِيَّاكَ وَمُشَاوَرَةَ النِّسَاءِ فَإِنَّ رَأْيَهُنَّ إِلَى أَفْنٍ، وَعَزْمَهُنَّ إِلَى وَهْنٍ. وَاكْفُفْ عَلَيْهِنَّ مِنْ أَبْصَارِهِنّ بِحِجَابِكَ إِيَّاهُنّ، فَإِنَّ شِدَّةَ الْحِجَابِ أَبْقَى عَلَيْهِنّ، وَلَيْسَ خُرُوجُهُنّ بِأَشَدَّ مِنْ إِدْخَالِكَ مَنْ لاَ يُوثَقُ بِهِ عَلَيْهِنّ، وَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَلاَّ يَعْرِفْنَ غَيْرَكَ فَافْعَلْ وَلاَ تُمَلِّكِ الْمَرْأَةَ مِنْ أَمْرِهَا مَا جَاوَزَ نَفْسَهَا، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ رَيْحَانَةٌ، وَلَيْسَتْ بِقَهْرَمَانَةٍ، وَلاَ تَعْدُ بِكَرَامَتِهَا نَفْسَهَا، وَلاَ تُطْمِعْهَا فِي أَنْ تَشْفَعَ لِغَيْرِهَا. وَإِيَّاكَ وَالتَّغَايُرَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِ غَيْرَةٍ، فَإِنَّ ذلِكَ يَدْعُو الصَّحِيحَةَ إِلَى السَّقَمِ، وَالْبَرِيئَةَ إِلَى الرِّيَبِ»(4).

1- نهج البلاغة 459

2- لسان العرب 11 / 651 مادة (نخل)

3- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب 2 / 59

4- نهج البلاغة 471 - 472

اقتطع ابن المقفع هـذا المقطع من الوصـية، فقال: «إياك ومشاوَرَةَ النساءِ فإنّ رأيهنَّ إلى أفنٍ وعزمهنَّ إِلَى وهنٍ. وَ أُكفف علَيهنَّ مِنْ أَبصَارِهِنّ بِحِجَابِكَ إِيّاهنَّ، فَإِنَّ شـدَّةَ اَلْحجابِ خيرٌ لكَ منْ الإرتِيابِ، و لَيسَ خروجهنّ بِأَشدّ مِنْ دخول مَنْ لاَ تَثِقُ بِهِ عَلَيْهِنّ، فإِنِ اِسـتطعت أَلاَ يعرفن غيركَ فافعلْ. وَلاَ تمُلكَّنَّ امرأَةَ مِنْ الأَمر مَا جَاوَزَ نَفْسَـهَا فَإِنّ ذلك أنعمُ لحالها، وأرخى لبالها، وأدومُ لجمالها؛ تشفعَ لغيرها، ولا تطل الخلوةَ مع النساء فيمللنكَ وتملّهُنّ، واسـتبقِ من نفسكَ بقيـةً، فإنّ إمساكك عنهنّ وهنّ يردنك باقتدار خيرٌ من أن يهجمنَ عليك على إنكسار. وَإِيّاكَ وَاَلتغايرَ في غيرِ موضعِ غيرَةٍ، فَإِنّ ذَلِكَ يدعو اَلصّحيحَةَ منهنّ إِلَى اَلسّقَمِ»(1).

وتجـدر الإشارة هنا إلى إنّ قول ابن المقفع: «لا تطل الخلوةَ إلى قوله على انكسار» لم يرد في الوصـية التي أثبتها الشـريف الرضـي في نهج البلاغة، لكنه وردَ في كتبٍ أخرى روت الوصية هذه، وكانت سابقة للنهج زماناً(2).

ص: 406

1- أمراء البيان 1 / 138

2- ينظر: تحف العقول 110

المبحث الرابع: تكرار ابن المقفع

لكلام الإمام علي عليه السلام التكرار هو الإعادة، والتكرار مظهر مهم جدّاً من مظاهر التأثر لأنّهُ «يكشف تسليط الضوء على نقطة حساسة... ويكشف عن اهتمام المتكلم بها، وهو بهذا المعنى ذو دلالة نفسية قيّمة تفيد الناقد الأدبي الذي يدرس الأثر ويحلل نفسية كاتبة»(1). وإذا كان تكرار لفظة واحدة أو اثنتين يكشف عن عناية المنشئ بأمرٍ ما ومن أجل تلك العناية لجأ إلى تكرار هذه أو تلك(2)؛ فإنّ من يعمد إلى تكرار العشرات من اللفظة واللفظتين، بل مقاطع بأكملها لا بدّ وأنّه تأثر بها غاية التأثر، وهذا بعينه ما صنعه ابن المقفع مع كلام أمير المؤمنين عليه السلام، فبدون مغالاة إن أغلب كلام ابن المقفع السابق - إنْ لم نقل جميعه، بل وأكثر من السابق لأنّ منه متأثر ولم ندونه - الذي أخذه عن كلام أمير المؤمنين عليه السلام قام بتكراره، وكان قد اتبع طرقاً

ص: 407

1- قضايا الشعر المعاصر 242

2- ينظر: قضايا الشعر المعاصر 242

عـدة لهذا التكرار، فمرة يكرر النص العلوي في الرسالة نفسـها، وثانية بين رسالة وأخرى(1)، وهو في هـذا يكرر الحكمة حرفيًا مرّة، وأخرى بالمعنى، وثالثة يكرر الحكمة نفسها حرفيًا مرّة، ومرّة المعنى، وغير ذلك من الطرق الملتوية.

قد عرفنا فيما سبق إنّ ابن المقفع اعتمد اعتماداً واضحاً على عهد أمير لمالك الأشتر. والأهـم من هذا إنّ النصوص التي اعتمدها من العهد قام بتكرارها عن بكرة أبيها، سواء في الرسالة الواحدة، أو بين رسالةٍ وأخرى.

فممّا قاله الإمام عليه السلام في العهد:

«ولا تدع تفقد لطيف أمورهم اتكالاً على جسيمها»(2).

ذكر ابن المقفع هذا في ثلاثة مواطن، إذ ضمّنه في أدبه الكبير، فقال: «حق الوالي أن يتفقد لطيفَ أمورِ رعيتهِ، فضلاً عن جسيمها»(3).

وفي موطن آخر ذكر ذلـك بمعنـاه وبعض ألفاظه مقـدِّماً الشقِّ الثاني على الأول، فقال: «لا عيبَ على الملكِ... إذا تعهـد الجسـيم من أمرهِ بنفسهِ، وأحكمَ المهم، وفوض ما دون ذلك إلى الكفاةِ»(4).

وهكذا تماماً فعل في موطنٍ ثالث، فقال: «لا تتركن مُباشرة جسيمِ أمركَ فيعودَ شأنكَ صغيراً، ولا تُلزمن نفسكَ مباشرةَ الصغيرِ، فيصيرَ الكبيرُ ضائعاً»(5)

1- وهذا السبب - أي تكرار ابن المقفع النص العلوي في رسائل عدّة - جعلنا نؤخر هذا المظهر من التأثر في آخر هذه الرسائل

2- نهج البلاغة 507

3- الأدب الصغير والأدب الكبير 77

4- الأدب الصغير والأدب الكبير 76

5- م. ن 71

فالتغير يكمن في قولي ابن المقفع الأخيرين، إذ ما جاء في آخر قول الإمام عليه السلام لما نهى عن الإتّكال على جسام الأمور «اتكالاً على جسيمها» جعله ابن المقفع أوّلاً لما قال: «تعهد الجسيم من أمرِ«و «لا تتركنَّ مباشرة جسيم أمرك».

أمّا قوله عليه السلام:

«لا تدع تفقد لطيف أمورهم».

أخذه ابن المقفع بمعناه وجعله آخراَ لما قال: «وفوض ما دون ذلك إلى الكفاةِ«و أشار ب» ذلك» إلى الجسـيم و» دون» الجسام من الأمور هي صغائرها ولطائفها، ثم ذكر هذا المعنى بلفظ آخر لمّا قال: «ولا تلزمنّ نفسكَ مباشرة الصغير» أي لا تهتم بصغائر الأمور فقط.

وفي العهد أيضاً شدّد أمير المؤمنين عليه السلام على تخير الوزراء، فقال:

«لا يَكُنْ اِخْتِيَارُكَ إِيّاهُمْ عَلَى فِرَاسَـتِكَ وَاِسْـتِنَامَتِكَ، وَحُسْنِ اَلظَّنِّ مِنْكَ، فَإِنَّ اَلرِّجَالَ يَتَعَرَّضُونَ [يَتَعَرَّفُونَ] لِفِرَاسَاتِ اَلْوُلاَةِ بِتَصَـنُّعِهِمْ، وَحُسْنِ حَدِيثِهِمْ خِدْمَتِهِمْ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ اَلنَّصِيحَةِ وَاَلْأَمَانَةِ شَيْءٌ، وَلَكِنِ اِخْتَبِرْهُمْ بِمَا وُلُّوا لِلصَّالِحِينَ قَبْلَكَ...»(1).

فنهي أمير المؤمنين عليه السـلام عن اعتماد التفرس في اختيار الوزراء، وتحذيره من التصـنع الذي يخدع الفراسة، ثم وضـعهِ شروط القياس والحكم الصائب لهذا المنصب، فكلُّ هذا ذكرهُ ابن المقفع في الأدب الكبير، فقال: «إن استطعتَ أن تجعل صحبتكَ لمن قد عرفك بصالحِ مروءتكَ... فإن الوالي لا علم لهُ بالناسِ إلا ما قد

1- نهج البلاغة 512

علم قبلَ ولايته. أما إذا ولي فكل الناسِ يلقاهُ بالتزينِ والتصـنعِ وكلهم يحتالُ لان يثني عليه عنـدهُ بمال ليس فيهِ. غير أن الأنذال والأرذال هم أشدُّ لذلكَ تصنعاً».

ثم كرّر ذلك في رسالة الصـحابة، فقال قبل أن يَلِيَهم، ثم لم يزل يسألُ عنهم مَنْ يعرِفهم رفهم ولم يستثبت في استقضائِهم، زالت الأمور عن مراكزها، وَنَزَلت الرجالُ عن منازِلها، لأنّ الناس لايَلقونه إلا متصنِّعين بأحسن ما يقدرون عليه من الصمت والكلام، غير أن أهل النقص هم أشدُّ تصنعاً»(1).

فقول الإمام عليه السلام:

«فَإِنَّ اَلرِّجَالَ يَتَعَرَّفُونَ لِفِرَاسَاتِ اَلْوُلاَةِ بِتَصَنُّعِهِمْ، وَحُسْنِ خِدْمَتِهِمْ».

ذكره ابن المقفع في الأدب الكبير بين اللفظ والمعنى لمّا قال: «فكل الناس يلقاه بالتزيين والتصـنع«. وكرر هذه في رسالة الصحابة لمّا قال: «الناس لا يلقونه إلاّ متصنِّعين«.

وبطريقته، لابُدّ من أن يزيـد على كلاـم أمير المـؤمنين عليه السـلام، وزيـادته في أدبه الكـبير هي قـوله: «غير أن الأنـذال هم أشـدُّ لـذلك تصنّعاً»(2).

ومن إرشادات أمير المؤمنين عليه السـلام التي وردت في عهدِهِ للأشتر تلك المفاضلة ومن إرشادات أمير المؤمنين التي أجراها بين خوّاص السلطان، وبين العامة من الشعب. مرجّحَا كفَّة العامة لأسباب بيّنها في قوله:

ص: 410

1- الأدب الصغير والأدب الكبير 81

2- جمهرة رسائل العرب 3 / 39

«فَإِنَّ سُخْطَ اَلْعَامَّةِ يُجْحِفُ بِرِضَى اَلْخَاصَّةِ، وَإِنَّ سُخْطَ اَلْخَاصَّةِ يُغْتَفَرُ مَعَ رِضَى اَلْعَامَّةِ. وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ اَلرَّعِيَّةِ أَثْقَلَ عَلَى اَلْوَالِي مَؤُونَةً فِي اَلرَّخَاءِ، وَأَقَلَّ مَعُونَةً لَهُ فِي اَلْبَلاَءِ، وَأَكْرَهَ لِلْإِنْصَافِ، وَأَسْأَلَ بِالْإِلْحَافِ، وَأَقَلَّ شُكْراً عِنْدَ اَلْإِعْطَاءِ، وَأَبْطَأَ عُذْراً عِنْدَ اَلْمَنْعِ، وَأَضْعَفَ صَبْراً عِنْدَ مُلِمَّاتِ اَلدَّهْرِ مِنْ أَهْلِ اَلْخَاصَّةِ، وَإِنَّمَا عَمُودُ اَلدِّينِ، وَجِمَاعُ اَلْمُسْلِمِينَ، وَاَلْعُدَّةُ لِلْأَعْدَاءِ اَلْعَامَّةِ، فَلْيَكُنْ صِغْوُكَ لَهُمْ، وَمَيْلُكَ مَعَهُمْ»(1).

بين الإمام عليه السلام لواليه: «إنّ قانون الإمارة الاجتهاد في رضى العامة فإنه لا مبالاة بسخط خاصة الأمير مع رضى العامة فإما إذا سخطت العامة لم ينفعه رضى الخاصة... لأنهم يثقلون عليه بالحاجات و المسائل و الشفاعات فإذا عُزِل هجروه و رفضوه حتى لو لقوه في الطريق لم يسلموا عليه»(2). أمّا العامة فهم العدّةَ للأعداء، وهم السواد الأعظم. وهم عمود الدين، واستعارة لفظ العمود لهم لأنّ قيام الدين بهم كقيام البيت بالعمود(3)، ولذا فضّلهم، وأمر أن يكون صغو الوالي لهم. والصِّغو بالكسر والفتح: الميل(4).

قال ابن المقفع في الأدب الكبير ما يشبه هذا بشدّة: «البس للناسِ لباسينِ ليس للعاقلِ بدٌّ منهما، ولا عيشَ ولا مروءةَ إلا بهما: لباسَ انقباضٍ واحتجازٍ من الناسِ، تلبسهُ للعامةِ فلا يلقونكَ إلا متحفظاً متشدداً متحرزاً مستعداً، ولباسَ انبساطٍ واستئناسٍ، تلبسهُ للخاصةِ الثقاتِ من أصدقائك فتلقاهمُ

1- نهج البلاغة 502
2- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 17 / 26
3- ينظر: شرح نهج البلاغة لابن ميثم 5 / 337
4- ينظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد 17 / 26

بذاتِ صدركَ وتفضي إليهم بمصونِ حديثكَ وتضعُ عنكَ مؤونةَ الحذرِ والتحفظِ في ما بينكَ وبينهم»(1).

وكان ابن المقفع قد أورد هذا في أدبه الصـغير، فقال: «وعلى العاقلِ أن يجعل الناسَ طبقتينِ متباينتين، ويلبس لهم لباسـينِ مختلفينِ، فطبقةٌ من العامـة يلبسُ لهم لباسَ انقباضٍ وإنحجاز وتحفظٍ في كل كلمـةٍ وخطوةٍ، وطبقـةٌ من الخاصـة يخلعُ عنـدهم لباسَ ويلبسُ التشدد لباس الأنسة واللطف والبذلة والمفاوضة»(2).

وعلى أيَّة حال فإنّ التقسيم بين كلام الإمام نفسه، والمعنى نفسه أيضاً، فضلاً عن تكرار بعض الألفاظ في النصوص الثلاثة.

إلاّ أنّ ابن المقفع أوصـى بالعامة ما أوصاه أمير المؤمنين عليه السـلام للعامة. ولعلَّ السبب في ذلك عائدٌ إلى توظيف ابن المقفع هذهِ الفقرة المذكورة من العهد مع الصديق، والصداقة تبتغي تقريب الخواص، والتحرُّز من العوام.

أمّا تكراره لحكم أمير المؤمنين عليه السـلام فكان قد شكّل علامة بارزة جدّاً في رسائله. ومن هذا إن لأمير المؤمنين عليه السلام حكمةً بيّن فيها حسن الفعل إذا رجح على القول، وقبح القول إذا قصر عن الفعل، فقال:

«إنَّ فَضْلَ القَوْلِ على الفعْلِ لُهجْنَةٍ، وإنَّ فضْلَ الفِعْلِ على القوْلِ لَجمالٌ وزينةٌ»(3).

ص: 412

1- الأدب الصغير والأدب الكبير 106

2- م. ن 22

3- غرر الحكم ودرر الكلم 137. وينظر: ميزان الحكمة 3 / 463

ضمّن ابن المقفع هذهِ الحكمة في أدبه الكبير، فقال:» فإن فضل القولِ على الفعلِ عارٌ وهُجنةٌ، وفضلَ الفعلِ على القولِ زينةٌ»(1).

والملفت هنا إنّ ابن المقفع قـد زاد لفظة «عار» على حكمة الحكيم أمير المؤمنين عليه السـلام، لكنّه لما كرها حذف هذهِ اللفظة، مع قلبه للحكمة، فقال: «واعلم أن فضلَ الفعلِ على القولِ زينةٌ، وفضل القولِ على الفعلِ هُجنةٌ»(2).

وقال أمير المؤمنين في وصيته لولدهِ الحسن عليه السلام:

قطيعة الجاهل تعدلُ صلة العاقل»(3).

فكما أنّ من يواصل العاقل يغتنم من عقله فكذلك من يقاطع الجاهل يغتنم السلامة من جهله.

فكَّكَ ابن المقفع هذا المعنى وأورده في موضـعين، مرّةً في الأدب الكبير، فقال موصِـيًا بقبول عذر المعتذر، ومسـتثنياً: «إلاّ أن يكون قطيعته غنيمة»(4). وهذه هي «قطيعة الجاهل» في حكمة الإمام عليه السلام.

والأخرى في الأدب الصـغير حيث قال: «ولقاء الأخوان، وإن كان يسـيراً، غنم حسن»(5). وهذه هي «صـلة العاقل» في حكمة الإمام عليه السلام.

وقال عليه السلام مشبِّهاً صاحب السلطان براكب الأسد، لما في هذا المنصبّ من خوف واضطراب:

1- الأدب الصغير والأدب الكبير 103
2- م. ن 120
3- نهج البلاغة 471
4- الأدب الصغير والأدب الكبير 107
5- م. ن 29

«صَاحِبُ اَلسُّلْطَانِ كَرَاكِبِ اَلْأَسَدِ: يُغْبَطُ بِمَوْقِعِهِ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَوْضِعِهِ»(1).

كرّر ابن المقفع هذهِ الحكمة ثلاث مرات، فقال في الأدب الكبير مخاطباً السلطان الذي لم يضبط أمور جنوده:» فإنما أنت في ذلك كراكبِ الأسدِ الذي يهابهُ من نظر إليه، وهو لمركبهِ أهيبُ»(2).

ثمّ كرّر هذا في الأدب الكبير أيضاً، ولكن بالمعنى، فقال: «اعلم أنّ أكثرَ الناسِ عدواً جاهداً حاضراً جريئاً واشياً وزيرُ السلطانِ ذو المكانةِ عندهُ. لأنهُ منفوسٌ عليه مكانهُ بما ينفسُ على صاحبِ السلطانِ، ومحسود كما يُحسَدُ. غير أنّهُ يُجْتَرأُ عليه، ولا يجترأ على السلطان»(3).

ثمّ عاد ثالثةً، ولكن عدل عن المعنى ليعود إلى التضمين، فقال في رسالة الصحابة: «... فهو كراكب الأسد الذي يُوجَل من رآه، والرّاكبُ أشدُّ وجلاً»(4).

وفي حكمة له عليه السلام نهى فيها عن المنِّ بعد إسداد معروف لأحدٍ، فقال:

«أحْيُوا المعروفَ بإماتَتِهِ، فإنّ المنّةَ تَهدِمُ الصّنيعةَ».

ضمّن ابن المقفع هذه الحكمة بتمامها في أدبه الكبير لكنّه نثرها بمقطع نثري

1- نهج البلاغة 601
2- الأدب الصغير والأدب الكبير 601
3- م. ن 85
4- جمهرة رسائل العرب 3 / 33

طويل، منه موطن الشاهد: «إذا كانت لكَ عند أحدٍ صنيعةٌ... فالتمس إحياءَ ذلك بإماتتهِ...، فإن الاستطالةَ تهدمُ الصنيعةَ»(1).

وفي أدبه الصغير ذكر هذا ولكن بإيجاز، فقال: «لا يرى العاقلُ معروفاً صنعهُ، وإن كن كثيراً»(2).

وقال أمير المؤمنين عليه السلام:

«مَا أَضْمَرَ أَحَدٌ شَيْئاً إِلاَّ ظَهَرَ فِي فَلَتَاتِ لِسَانِهِ، وَصَفَحَاتِ وَجْهِهِ»(3).

أخذ ابن المقفع هذا المعنى وبعض ألفاظه، فقال في أدبه الكبير: «إياك أن يقع في قلبك تعتبٌ على الوالي أو استزراءٌ لهُ. فإنهُ إن وقعَ في قلبك بدا في وجهكَ، إن كنت حليماً، وبدا على لسانكَ، إن كنتَ سفيهاً»(4).

ثمّ كرّر هذا في أدبه الكبير أيضّـًا، فقال يعرفهُ من نفسهِ، وقد كان يطمعُ في إخفائهِ عن الناسِ، فيعيرهُ به معيرٌ عند السلطانِ أو غيرهِ، إلا كاد يشهدُ بهِ عليهِ وجههُ وعيناهُ ولسانُهُ، للذي يبدو منهُ عندَ ذلكَ»(5).

فالمعنى بين حكمتي ابن المقفع وأمهما حكمة أمير المؤمنين عليه السلام واحد تماماً، وهو لا يستطيع أحدٌ أن يبقي ما أضمره مضمراً، لأنّ ما يضمره القلب يتبيّن على

ص: 415

1- الأدب الصغير والأدب الكبير 108 - 109

2- الأدب الصغير والأدب الكبير 59

3- نهج البلاغة 554

4- الأدب الصغير والأدب الكبير 84

5- م. ن 116

صفحـات الوجه بتلوّنهـا، وعلى اللســان بفلتـاته، فضـلاً عن تكرارهِ ألفاظٍ علويـة بنصـها من نحوِ: «وجهك، ولسانك «في حكمته الأولى. و «أحد، وجهه، لسانه «في حكمته الثانية. وألفاظ أخرى حوّر في ثوبها دون معناها، فقد أبدل «ظهر» «وقع في قلبك» في الأولى وب«إخفائه» في الثانية.

ومن طرق ابن المقفع الملتويـة بالتكرار هي أنّه كان يأتي على الحكمة العلوية فيضـمّنها، ثمَّ يذكرها ثانية بالمعنى، وثالثةً يقرُّ بأنها ليست لهُ فيقول: كان يُقال. وما أظنّ ذلك إلاّ ليضيّع مصدرها الأصل الذي لم يكن محبّبًا لدى أسياد ابن المقفع.

فمن الحكم العلوية التي فعل ابن المقفع هذا معها قوله عليه السلام:

«وَكَانَ إِذَا بَدَهَهُ أَمْرَانِ يَنظَرَ أَيُّهُمَا أَقْرَبُ إِلَى اَلْهَوَى فَيُخَالِفُهُ»(1).

ضمّن ابن المقفع هذا في أدبه الكبير، فقال: «إذا بدهكَ أمرانِ لا تدري أيهما أصوبُ فانظر أيُهما أقربُ إلى هواكَ فخالفهُ»(2).

ثم كرّر هذهِ في أدبه الصغير، فقال: «العاقل إذا اشتبه عليه أمرانِ فلم يدرِ في أيهما الصوابُ أن ينظر أهواهما عندهُ، فيحذرهُ»(3).

وثالثةً ذكر هذا لكن بمعناه، فقال: «وكان يقالُ: إذا تخالجتك الأمور فاشتغل بأعظمها خطراً»(4).

1- نهج البلاغة 605
2- الأدب الصغير والأدب الكبير 126
3- م. ن 24
4- م. ن 42

وبطريقة مماثلة تعامل ابن المقفع مع حكمة أمير المؤمنين عليه السلام التي تقول:

«من الحِكْمةِ طاعتُك مَنْ فوقَك، و إجلالُكَ مَنْ في طبقتك، و إنصافُكَ لَمنْ دونك»(1).

فضمّنها في أدبه الصغير مع تحوير جزئي وشكلي، فضلاً عن التأخير والتقديم بين فقرتيها الأخيرتين، فقال: «وكان يقالُ: وقّر من فوقك، ولن لمن دونك، وأحسن مؤاتاة أكفائك»(2).

أمّا في الأدب الكبير فقد أخذ المعنى المذكور، فقال: «لتكن حاجتُكَ في الولاية إلى ثلاثة خصالٍ: رضي ربكَ ورضى سلطانٍ، إن كانَ فوقك، ورضى صالحِ من تلي عليهِ»(3).

ومن طرقه الأخرى بالتكرار هي تقديمه وتأخيره في ألفاظ الحكمة العلوية، فمن حكمة لأمير المؤمنين عليه السلام، قال فيها:

«اَلظَّفَرُ بِالْحَزْمِ، وَاَلْحَزْمِ بِإِجَالَةِ اَلرَّأْيِ، وَاَلرَّأْيُ بِتَحْصِينِ اَلْأَسْرَارِ»(4).

ضمّن ابن المقفع هذهِ الحكمة في ادبه الصغير بنصها، فقال: «الظفر بالحزم، والحزم بإجالة الرأي، والرأي بتحصين الأسرار»(5).

ثمّ عاد في رسالة أخرى وكأنه بعثر كلمات الحكمة لما قال: «بالحزم يتمُّ الظفر،

ص: 417

1- عيون الحكم والمواعظ 473
2- الأدب الصغير والأدب الكبير 43
3- م. ن 69
4- نهج البلاغة 561
5- الأدب الصغير والدب الكبير 53

بإجالة الرأي تظفر بالحزم»(1) وكان ابن المقفع في بعض الأحيان يعمد إلى نصـيين علويين أو أكثر فيلفقهما ويوردهما في رسالة، ثمّ يكرر هذا التلفيق في رسالة أخرى. فمن ذلك إنّه أتى على حكمة أمير المؤمنين عليه السلام التي تقول:

«اَلْأَقَاوِيلُ مَحْفُوظَةٌ، وَاَلسَّرَائِرُ مَبْلُوَّةٌ «وَكُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ»، وَاَلنَّاسُ مَنْقُوصُونَ مَدْخُولُونَ إِلاَّ مَنْ عَصَمَ اَللهُ، سَائِلُهُمْ مُتَعَنِّتٌ، وَمُجِيبُهُمْ مُتَكَلِّفٌ، يَكَادُ أَفْضَلُهُمْ رَأْياً يَرُدُّهُ عَنْ فَضْلِ رَأْيِهِ اَلرِّضَى وَاَلسُّخْطُ، وَيَكَادُ أَصْلَبُهُمْ عُوداً تَنْكَؤُهُ اَللَّحْظَةُ، وَتَسْتَحِيلُهُ اَلْكَلِمَةُ اَلْوَاحِدَةُ»(2).

وعلى خطبة طويلة لأمير المؤمنين عليه السلام وصف فيها المنافقين منها:

«وَصْفُهُمْ دَوَاءٌ، وَقَوْلهُم شِفَاءٌ... يَتَقَارَضُونَ اَلثَّنَاءَ، وَيَتَرَاقَبُونَ اَلْجَزَاءَ»(3).

فلفّقهما في الأدب الصغير قائلاً: «الناسُ، إلا قليلاً ممن عصم اللهُ، مدخولونَ في أمورهم: فقائلهم باغٍ، وسامعهم عيابٌ، وسائلهم متعنتٌ، ومجيبهم متكلفٌ، وواعظُهمُ غيرُ محققٍ لقولهِ بالفعلِ، ... والحازم منهم غير تارك لتوقعُ الدوائر يتناقضُون الأنباء، ويتراقبون الدول»(4).

أدّخر ابن المقفع تلفيقه هذا وجعله مقدّمة لرسالتِهِ الدرّة اليتيمة فقال: «وقد أصبح الناس – إلا قليلا ممن عصم الله – مدخولين منقوصين، فقائلهم باغٍ،

1- آثار ابن المقفع 342

2- نهج البلاغة 613

3- م. ن 355 – 356

4- الأدب الصغير والأدب الكبير 29 – 30

وسـامعُهم عيَّاب؛ سـائلُهم متعنِّت ومُجيبهم متكلِّف، وواعظُهم غير محقِّقٍ لقوله بالفعـل،... يتقـارضون الثنـاء، ويترقبون الـدُّول، ويعيبون بالهمز، يكاد أحزمهم رأياً يلفتهُ عن رأيه أدنى الرضا وأدنى السُّخْط»(1).

ونلاحظ هنا – كما لاحظنا سابقاً – إنَّ ابن المقفع قد ضمّن النص العلوي تعديلاً شكلياً على بعضهِ الآخر، ثم يأتي على نصهِ الذي حوّر فيه ويحور فيه ثانيـةً، فمثلاً قول الإمام عليه السـلام: «يكاد أفضـلهم رأياً يردّه عن رأيه الرِّضـى والسـخط». حوّر فيهِ ابن المقفع طفيفاً لما قال في الدّرة اليتيمة: «يكاد أحزمهم رأياً يلفته عن رأيه أدنى السخط». ولكن في الأدب الكبير ذكر الفكرة بمعناها لمّا قال: «والحازم منهم غير تارك لتوقع الدوائر».

هـذا هو فيضٌ من غيض من تكرارات ابن المقفع لكلام الإمام علي عليه السـلام، لأنّ القائمـة تطول جـدّاً بهـذهِ التكرارات، ولولاها لذهب جانب كبير من كمية نتاجات ابن المقفع.

ولهذا دلالات على الرغم من إنّها كاشفة عن نفسها إلا أنّ منها:

1 – إنّ هذا التكرار دليل لا يضلُّ على الكشف بوضوح إنّ ابن المقفع كان وإسـتحضارهِ لهذا الكلام في جميع رسائلهِ المشهورة بلا استثناء
2 – إنّ هـذا التكرار يكشف إنّ ابن المقفع كـان يرى في كلام أمير المؤنين عليه السـلام زينـةً يزدان بها الكلام، وركيزة يرتكز عليها القول – بفنونه وأغراضه المتعددة – ولذا رغب في أن يزين كلامَه بهذه الزينة إذا أنَّ «من عادة النفس سرعة الالتفات

1- جمهرة رسائل العرب 3 / 48 – 49

إلى ما أنسته وعرفته»(1).

3 - يستجلي هـذا التكرار عمق إيمان ابن المقفع بأنّ في كلام أمير المؤمنين وأفكارهِ عليه السلام الطريقة المثلى في تحديد المشكلات، وتقديم الحلول الناجحة لها.

4 - إنّ تكرار ابن المقفع لهـذهِ الحكم العلويـة دليـلٌ آخر على أنّ هـذهِ الحكم هي ليست لابن المقفع، وإلاّ لو كانت له لما حوّرَ فيها هنا، وأعادها بنصِّها هناك، ثمَّ نسبها للحكيم في مكانٍ ثالث.

ص: 420

1- معايير الحكم الجمالي 234

الخاتمة و النتائج

ص: 421

الخاتمة والنتائج

كانت هذه رحلة شاقة وشيّقة استجلينا من خلالها الأثر المهيب الذي تركه كلام أمير الكلام عليه السلام على كلٍّ من الحسن البصري وابن المقفع، ومن خلال هذه الرحلة توصلنا إلى حقائق عدّة غُطيّت - طوعًا أو كرها - مئات السنين، منها:

1 - تبيّن بوضوح أنّ كلام أمير المؤمنين عليه السلام كان مدوّنًا ومحفوظًا ومشهوراً منذ القرن الأوّل الهجري، ولهذا سلكت الدراسة طريقين يدعم بعضهما بعضًا:

الأول:

الاعترافات الصريحة بذلك من نحو شهادة الجاحظ وغيره، وكذلك أسماء الكتب التي ذكرها ابن نديم والطوسي وغيرهم، والتي اختصت بجمع كلامه عليه السلام.

الثاني:

التأثير المهيب الذي تركه كلامه عليه السلام على النثر العربي في ذلك القرن والقرن

الذي بعده بطريقةٍ تدلّل على أنّ الكتاب كانوا يقرؤُون كلامهيشاؤون من جملةٍ، أو مقطع، ولربما رسالة أو خطبة كاملة.

2 – تبيّن إبطال الشك في عهد أمير المؤمنين عليه السلام لمالك الأشتر، ذلك الشك القائم على الطول، وعلى أنّ العهد لم يكن موجودًا في زمن الطبري، ولو كان موجودًا في زمنه لدّونه في تأريخهِ، في حين إنّ الدراسة أثبتت أنَّ ابن المقفع معتمدٌ اعتمادًا مباشرًا على وصايا العهد، فقد أخذ منه عشرات النصوص بين التضمين الحرفي، والمحوّر، والأخذ بالمعنى وغير ذلك، وعلى هذا فإنّ العهد كان موجودًا ومقروءًا ومؤثّرًا قبل الطبري بأكثر من مائتي عام.

3 – من آثار كلام أمير المؤمنين عليه السلام على الأديبين المذكورين، هو ذلك التفاوت في حجم النص النثري، من الطول المهيب، بحيث وصل إلى درجة – التشكيك – إلى الطول، إلى التوسط، إلى الإيجاز الشديد بحيث لا تتجاوز الرسالة السطر الواحد أو بعضه، وهذه هي طريقة علوية بامتياز سارَ عليها الأديبان سيرًا واضحًا لا لبس فيه، فقد وجدنا عند البصري رسالة تربو على المائة سطر، وأخر لا تتجاوز سطرًا واحدًا، وكذلك الأمر عند ابن المقفع.

4 – بطلان الشكوك التي أثيرت حول علم الكلام أو علم التوحيد، ذلك العلم الذي برع بهِ أمير المؤمنين عليه السلام، وذلك لمّا رأينا أنّ هذا الفن من الكلام كانَ هناك من أخذه عنه عليه السلام وتأثَّر بهِ في القرن الأول الهجري كالإمام زين العبدين عليه السلام.

5 – وجدنا أنّ أصحاب المعجمات اللغوية قد وثقوا الخطبة الشقشقية، وذلك

لمـا استشـهدوا بألفـاظٍ ومقاطع كثيرة منها، و صـرّحوا بمبـدعها، وهـذا الاستشـهاد دليلٌ جازم على صـدورها من المنبع العربي الأصـيل والمؤسس للكلام العربي.

6 - من التهم التي وجهت لكلام أمير المؤمنين عليه السـلام وجود التقسـيمات العددية فيه، وهذا تبيّن بطلانه من خلال أثر هذا الإسلوب الحرفي على الحسن البصري وابن المقفع وغيرهما.

والغريب إنّ هـذا الأمر تعامل معه بعض الأدباء بمعايير فيها ازدواجيـة، عدوه أمرًا مكذوبًا عليه، بينما عند البصـري - وبحكمهم - ميزة من ميزات نثره، ولا ننسـى أنّ الجميع - إلى درجة لا يختلف فيها اثنان - متفق على كون البصـري ذي ثقافة إسلامية عربية محضة، و لمّا وصلوا إلى إبن المقفع رأوا بأنّ هذا الأخير أتى بهذا الفن النثري من اليونان.

هذا كلّه أمر مجانب للصواب جملةً وتفصـيلاً، لأنّ هذه التقسـيمات أخذها الأديبان بالنص أو المعنى عن أمير المؤمنين، وسنذكّر ببعضها هنا.

من نحو قول: البصري «... وإنّما إذا فكرت فيها الدنيا ثلاثة أيام...» الذي أخذه من الحكمة العلوية: «وإلا إنَّ الأيام ثلاثة...».

ومن نحو قول ابن المقفع «.. إنما أنت أحد رجلين»، فقد أخذه من عهد الإمام لمالك: «.. إنما أنت أحد رجلين».

ومن نحو قول ابن المقفع أيضًا: «من ذهب حياؤه ذهب سـروره، ومن ذهب سـروره مقت، ومن مقت أوذي...»، فكان قد استوحى هذا مما ورد في حكمة أمير المؤمنين «.. ومن كثر كلامه فقد كثر خطؤه، ومن كثر خطؤه قلَّ حياؤه، ومن

قلَّ حياؤه قلَّ ورعه..».

أمّا قوله عليه السلام: «الصبر صبران: صبرٌ على ما تكره، وصبر على ما تُحب»، فقد أخذه الأديبان كلاهما، حيث قال البصري: « الصبر صبران: صبر عند المصيبة، وصبر عن المعصية»، وقال ابن المقفع: «واعلم أنَّ الصبر صبران: صبر المرء على ما يكره، وصبره عما يحب».

وغير هذا كثير أشرنا له في طيّات الرسالة.

7 – لم تخلُ أيّ رسالة أو خطبة عند البصري من أثر علوي بالغ، وكذلك رسائل ابن المقفع الأربع المشهورة (الأدب الكبير، الأدب الصغير، رسالة الصحابة، الدّرة اليتيمة) وأكثر من هذا إذ لم أجد ولا صفحة واحدة من صفحات الأدب الصغير تخلوا من أثرٍ لكلام الإمام عليه السلام.

8 – إنّ هذا الأثر الذي تركه كلامه عليه السلام يوضح دون ريب واقعيّة المقولة التي دونها الشيخ المفيد (لولا كلام علي بن أبي طالب وخطبه وبلاغته في منطقه ما أحسن أحد أن يكتب إلى أمير جند ولا إلى رعيّة). فهذه الشهادة وما شابهها من شهادة كثيرة جدًّا من قِبَل النقاد والأدباء تبيَّن الآن وبالدليل أنها لم تكن من باب المبالغة، بل هي حقيقة ملموسة كان قد تُنُبِّه إليها قديًما، فجاءت هذهِ الدراسة تؤيد تلك الشهادات، والشهادات تشهد من جانها على صحة هكذا دراسات.

ولا مغالاة فلولا كلامه عليه السلام لم يصلنا نتاج البصري وابن المقفع – لا كمًّا ولا نوعاً – كما وصلنا في هذهِ الحلة.

9 – ثبت أنّ جميع كلام البصري أو جلّه من كلام أمير المؤمنين عليه السلام بالحرف أو

المعنى أو بينهما، وعليه لم يثبت من الآراء القديمة حول مرجعية ثقافة البصري الأدبية إلاّ رأي الشريف المرتضى، الذي عدَّ كلَّ كلام البصري أو غالبيته من كلام مولانا أمير المؤمنين عليه السلام.

10 - كان البصري عندما يتحدّث يُسأل عن بعض الأحاديث لمن هي، فينهر السائل ولم يُجبه، فأثبتت الدراسة أنّ تلك الأحاديث تعود لأمير المؤمنين عليه السلام.

11 - من المؤسف أسفًا شديدًا إنّ البصري وعلى الرغم من تأثره الكامل بأمير المؤمنين عليه السلام لم يذكر اسمه ولا مرّة واحدة، في حين يذكر أسماء الآخرين الذين يستشهد بكلامهم، إبتداءً من لقمان الحكيم، وانتهاءً بالخلفاء الراشدين الثلاثة الأوائل.

12 - لم يكن للحسن البصري أي أسلوب مميّز مقارنة بكلام أمير المؤمنين عليه السلام، إذ كان الأسلوب العلوي مهيمنًا هيمنة تامة على نثر البصري، سواء من ناحية الشكل أم المضمون.

13 - وجدنا إنّ من النصوص العلوية هي نصوص قرآنية، أجر بعض التغيرات، فكان البصري قد تأثر ببعض هذهِ دون أن يتأثر بالنص الأصل.

14 - إنّ الأديبين وعلى الرغم من كونهما يكتبون مدّة حياتهم لسلطات تخالف مشروع أمير المؤمنين عليه السلام الفكري إلاّ أنّهم بقوا مأسورين لكلامهِ عليه السلام.

15 - إنّ الأديبين عاشا في العصر الذهبي للنثر العربي، وكانا يتطلعان إلى جلب أسماع متلقيهم، فعمدوا إلى التفتيش عن لباب الحكم وأبكار المعاني، فوجدوها في كلام أمير المؤمنين عليه السلام.

16 – إنّ اغلب – ولربما جميع – تأثر الأديبين الـذي شخصتـه الدراسة هو يا، بمعنى إنّهما لم يبدلا اسـتبدالات جريئة في النص العلوي – وإن أقدموا على هذه الخطوة يقصِّرون – وهذا عائدٌ إلى إيمانهم بأنّ النص العلوي نصٌّ متكامل لا يمكن التجديد فيه تجديدًا حسنًا.

17 – من الطرق التي اشترك فيها الأديبان هي التقديم والتأخير بين مكوِّنات النص العلوي الذي يوردانهِ.

18 – كان البصـري يجمع نصوصًا علويـة عـدّة ويسـكبها في نصٍّ واحـد، ولكن هذا النص الواحد – لأنّه ملفّق من نصوص عدة – بانَ عليه عدم الانسجام، وفي محاولةٍ من البصري لتذليل عدم الانسجام هذا جعل يربط بين المقطع والآخر بعبارة يخترعها هو من نحو تكرار (يا ابن آدم)، أو تكرار (احذرها) مخاطبًا الدنيا، أو تكرار اسم صـريح بعينه وغير ذلك، ولكن هذا الرابط لم يشفع للبصري فقد بقيت نصوصه الطوال ينتابها عدم الانسجام، والسبب هو ما بيّنّاه لا غير.

19 – كثيرًا مـا كـان الأديبـان يكرِّران بعض كلاـم أمير المؤمنين عليه السـلام، وليس مرّة واحـدة فحسب، بل لربما يكرِّران المقطع العلوي الواحـد أكثر من خمس مرات، وهـذا التكرار أو حضور النص العلوي الواحـد في نصوص عـدة – وبفنون مختلفة – للأديبين عائد بالدرجة الأساس إلى كثرة قراءة ذلك النص وترديـده وحضوره في ذهن الأديب أولاً، وثانيًا إيمان الأديب الـذي قام بهـذهِ العمليـة بأنَّ هذا الكلام – المُكرَّر – هو زينـة يزدان بها النص الإبـداعي، وذي قابليـة على التأثير على المتلقي ولـذا قاما بتكرارهِ، أي طمعًا بنفعهِ الـذي سـيعود بهِ على النص المتأثِّر.

20 –تبعا الأديبان – وهما يكرران كلام أمير المؤمنين عليه السـلام – طرقاً عدّة فمرّة يضـمّنان النص العلوي حرفيًّا ويكرِّرانه حرفيًا أيضًا، أو يكرِّرانه بتحوير طفيف،

ص: 428

أو يكرّرانه بالمعنى، وفي مرّات عدّة كان قد اتّبعا هذا كله، مع النص العلوي الواحد، بمعنى إنهما يضـمّنانه بنصه، ثم يكرّرانه بنصّه أيضًا، ثم بتحوير طفيف، ثم بالمعنى... وهكذا.

21 – من طرق الحسن البصـري في تكرارهِ كلام الإمام عليه السـلام هي أخـذه للعبارة العلويـة وتكرارها في مكانٍ واحدٍ، وفي أحيانٍ كثيرة بدون أي فاصل يذكر بين النص الأصل وتكراره، وهكذا تكرار يذمّه النقاد لخلوّه من الجدّة.

22 – من طرق ابن المقفع التي كان يكرر بها كلام أمير المؤمنين عليه السـلام هي ذكره لذلك الكلام منسوبًا لمن أسـماه بالحكيم، ويكرّره ثانية – مع تغيير جزئي وطفيف – ولكن دون أن ينسبه لذلك الحكيم.

23 – صـرح ابن المقفع مرارًا وتكرارًا بتـأثّرهِ الكبير، فقـال: إنّ جميع كلامـه – إلاّ اشـتقاقاتٍ صـغار – مأخوذ من أُناسٍ لم يـذكر أسـماءهم الصريحة، بل أسهب في ذكر صفاتهم الخلقيّة والخُلُقيّة، والآن بيّنت الدّراسة بالدليل تصدر أمير المؤمنين عليه السلام لهؤلاء الموصوفين.

24 – وجـدت الدراسـة أيضًا إنّ ابن المقفع كان قد تأثر تأثّرًا نصّيًا بالرسول الأكرم صـلى الله عليه وآله وببعض أئمة أهل بيت النبوة كالإمام زين العابدين، والإمام الصادق عليه السلام.

ومن هـذهِ النتائج انكشف بطلان النظريات التي اتهمت ابن المقفع – بسـبب مدحهِ للقدماء وتأثّرهِ بهم – وعدّته لا أخلاقيًا، ويريد الجمود، ويجلّ الفرس ويعلّي من شأنهم، وينكلّ بالعرب، فبعـد أمـد طويل تبيّن إنّ ابن المقفع لم يكن يقصد إلاّ أناسًا عربًا أقحاحًا، بل من سادات العرب وأشرفهم في الجاهلية والإسلام.

25 – كان ابن المقفع يورد الحكمـة وينسـبها للحكيم، هـذا الحكيـم فُسِّر – من غير دليل – بالفارسـي، والآن بينت الدراسة إنّ الحكيم هو أمير المؤمنين عليه السلام.

26 – كان ابن المقفع يورد الحكمة ويقدّم لها بقوله «كان يقال»، أو «سـمعت العلماء قالوا»، فوجدت الدراسة إن غالبية هذهِ الحكم للإمام علي عليه السلام.

27 – صـرح ابن المقفع باشـتقاقه أفكارًا من كلام الذين أسـماهم ب»الأولين»، وهذا الاشـتقاق – أو ما أسميناه بالبسط – هو من كلام أمير المؤمنين عليه السـلام، فقد كان ابن المقفع يأتي على الحكمة العلوية الموجزة فيتوسع عليها توسـعًا كبيرًا حتى وجدنا بعض الزيادات التي يجريها ابن المقفع على النص العلوي مطابقة تمامًا لشرح ذلك النص من قِبل شرّاح (نهج البلاغة).

و لمّا عرفنا بأنّ ذلك الكلام المشـتق منه هو لأمير المؤمنين عليه السـلام، كان من العدل والرشاد أن نقول: إنّ عليّ بن أبي طالب يقف على رأس هؤلاء «الأولين» لا على أنّهم من الفرس أو اليونان.

28 – قلّل ابن المقفع من إيراد الحكمة العلوية بطريقة الإيجاز إلى درجة لا تكاد تكون هنالك نسـبة عددية بين الحكم التي أوجزها والأخر التي بسـطها، وما ذلك إلاّ لأنّه كان على يقين بأنّ كلام أمير المؤمنين عليه السـلام مسـبوك سـبكًا خاصًا على صعيدي الشكل والمضمون، وعليه فإنّ أيّ شيءٍ يحذف منه سيهدّ جزءًا لا يُستغنى عنه، بمعنى أنّ تأثيرًا سلبيًا – حتميًّا أو شبه حتميٍّ – سيكون من جرّاء عملية الإيجاز لو حصلت، لذا ابتعد ابن المقفع عنها.

29 – كثيرًا ما كان ابن المقفع يقدم للمقطع العلوي الذي يضمنه بفعل الأمر أو لام الأمر، وما ذلك إلاّ رغبةً منه للتأكيد أو للفت الإنتباه إلى ما سيورده.

ص: 430

30 – كثيرًا ما كان ابن المقفع يحوّر شكليًّا في كلام أمير المؤمنين عليه السلام، ومن ذلك استعماله الضمير بدلاً من الإسم الصريح، أو بالعكس.

31 – إنّ من بواعث التأثير العلوي على ابن المقفع هو تلك الموسوعية الهائلة التي اتصف بها أمير المؤمنين عليه السلام قولاً وفعلاً، فهو المحارب العظيم، وهو المنظم العسكري، وهو الفيلسوف، وهو العابد الزاهد، وهو الاقتصادي، وهو السياسي.... فهذه الموسوعية وظّف ابن المقفع جانبًا كبيرًا منها فوجدناه - بشهادة كلامهِ - واعظاً، وسياسيًا، واقتصاديًا، وداعيًّا إلى الزهد، فكان في هذا كلهِ منظمًا دقيقًا يذكر المشكلة ويعطي دواءها، ونحن والكلّ يعرف إنّ ابن المقفع لم يمارس هذه الأمور والمهمّات الجسام حتى تكون له تلك المقدرة والموسوعية الواسعة على تشخيص الداء ووصف ما يناسبه من دواء، ولكن العلة الكامنة وراء ذلك هي جمعه لكلام أمير المؤمنين عليه السلام ونظرياته الخالدة في هذه الموضوعات المتعددة.

32 – كان ابن المقفع يشدد على النهي عن استعمال الرأي إذا كان الإمام موجودًا، لأن الإمام - بنظر ابن المقفع - له المقدرة العلمية التي تعينه على استنباط الحل الأمثل لكل معضلة، في حين لم يصل إلى هذه الدرجة عامة الناس بآرائهم، ولذا نصحهم ابن المقفع بالتخلي عن آرائهم والامتثال لأوامر الإمام.

ص: 431

المصادر و المراجع

ص: 433

المصادر والمراجع

1 – القرآن الكريم.

2 – الإبداع في الفن، أ. د. قاسم حسين صالح، دار دجلة، المملكة الأردنية، ط 1، 2007 م.

3 – ابن المقفع، حنا الفاخوري، دار المعارف، مصر، د. ت.

4 – الإتجاه الأسلوبي في النقد الأدبي، د. شفيع السيد، دار الفكر العربي، الكويت، 1986 م.

5 – الإتجاهات الفكرية عند الإمام علي عليه السلام، د. رحيم محمد سالم، مركز الشهيدين الصدرين للدراسات والبحوث، ط 1، 2007 م.

6 – الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي (ت 911 ه)، تحقيق سعيد المندوب، دار الفكر، لبنان، ط 1، 1996 م.

7 – الأثر العربي في أدب سعدي (دراسة أدبية نقدية مقارنة)، د. أمل إبراهيم دار

ص: 435

الفكر العربي، 2003.

8 – أثر القرآن الكريم في اللغة العربية، أحمد حسين الباقوري، دار المعارف، مصر، ط 4، 1987 م.

9 – أثر القرآن في الأدب العربي في القرن الأول الهجري، د. ابتسام مرهون الصفار، مطبعة اليرموك، بغداد، ط 1، 1974 م.

10 – الأثر القرآني في نهج البلاغة (دراسة في الشكل والمضمون)، د. عباس علي حسين الفحّام، من إصدارات العتبة العلوية المقدّسة، 2011 م.

11 – الاحتجاج، العالم الفقيه أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي (من أعلام القرن السادس الهجري)، تعليق محمد باقر الموسوي الخرساني، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت – لبنان، ط 1، 2004 م.

12 – الإختصاص، الشيخ الإمام أبو عبد الله محمد بن النعمان العكبري المشهور بالمفيد (ت 413 ه)، تحقيق علي أكبر الغفاري، السيد محمود الزرندي، دار المفيد، بيروت – لبنان، ط 2، 1993 م.

13 – الأدب الإسلامي في عهد النبوة وخلافة الراشدين، د. نايف معروف، معروف، دار النفائس، بيروت – لبنان، ط 3، 2005 م.

14 – الأدب الصغير، ابن المقفع، شرح وتحقيق الأستاذ أحمد زكي باشا، دار ابن حزم، بيروت – لبنان، ط 1994، 1 م.

15 – الأدب الصغير والأدب الكبير، ابن المقفع (ت 142 ه) دار صادر، بيروت، ط 2، 2005 م.

16 – أدب العرب، مارون عبود، دار الثقافة، بيروت، 1960 م.

17 – الأدب المقارن، مجدي وهبة، الشركة المصرية العالمية للنشر (لونغمان)، 1991 م.

18 – الأدب المقارن د. محمد غنيمي هلال، دار العودة، بيروت – لبنان، ط 5، د. ت.

19 – الأدب المقارن فان تيجم، دار الفكر العربي، د. ت.

20 – الأدب وفنونه دراسة ونقد، د. عز الدين إسماعيل، دار الفكر العربي، ط 2، 1958 م.

21 – الأساليب الأدبية في النثر العربي القديم من عصر علي بن أبي طالب عليه السلام إلى عصر ابن خلدون، د. كمال اليازجي، دار الجيل، بيروت – لبنان، ط 1، 1986 م.

23 – الأسس الجمالية في النقد الأدبي، د. عز الدين إسماعيل، دار الفكر العربي، القاهرة، ط 2، 1968 م.

24 – إشكاليات القراءة والتأويل، نصر حامد أبو زيد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط 4، 1996 م.

25 – الإعجاز العلمي عند الإمام علي عليه السلام، د. لبيب بيضون، مؤسسة الأعلمي، بيروت – لبنان، ط 1، 2005 م.

26 – الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، ط 5، 1980 م.

27 – أعيان الشيعة، السيد محسن الأمين (ت 1371 ه) تحقيق وتخريج حسن الأمين، دار التعارف، بيروت – لبنان، د. ت.

ص: 437

28 - الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني (ت 357 ه)، تحقيق سمير جابر، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط 2، د. ت.

29 - الإغتراب وأنواعه، عبد اللطيف محمد خليفة، دار غريب، القاهرة، 2005 م.

30 - الإقتباس والتضمين في نهج البلاغة (دراسة أسلوبية)، د. كاظم عبد فريح المولى الموسوي، 2006 م.

31 - أمالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد)، علي بن الحسين الملقب بالشريف المرتضى (ت 436 ه)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ذوي القربى، قم - إيران، ط 2 ، 32 - الأمالي، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت 450 ه)، تحقيق قسم الدراسات الإسلامية، دار الثقافة، قم، ط 1، 1414 م.

33 - الأمالي، الإمام أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان الملقب بالشيخ المفيد (ت 413 ه)، تحقيق حسين الإستادولي، علي أكبر غفاري، بيروت - لبنان، ط 2، 1993 م.

34 - الإمام علي أسد الإسلام وقدِّيسه، روكس بن زائد العزيزي، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، 1967 م.

35 - الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، جورج جرداق، ذوي القربى، قم، ط 1، 1381 ه.

36 - الإمام علي في الفكر المسيحي المعاصر، راجي أنور هيفا، دار العلوم، ط 1، 2005 م.

37 – آثار ابن المقفع (كليلة ودمنة، الأدب الصغير، الأدب الكبير، الدرة اليتيمة، رسالة الصحابة، الآثار الأخرى)، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط 1، 1989 م.

38 – آداب الحسن البصري وزهده ومواعظه، جمال الدين أبو الفرج ابن الجوزي (ت 597 ه)، تحقيق سليمان الحرش، دار النور، دمشق – سورية، ط 3، 2007 م.

39 – أمراء البيان، محمد كرد علي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1937 م.

40 – بحار الأنوار، العلامة محمد باقر المجلسي (ت 1111 ه)، تحقيق علي أكبر غفاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ط 3، 1983 م.

41 –البخلاء، أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ (ت 255 ه)، علق عليه إحسان الطيبي، دار المعرفة، بيروت – لبنان، ط 2، 2008 م.

42 – البداية والنهاية، الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت 774 ه)، حققه ودّقق أصوله وعلق على حواشيه علي شيري، دار إحياء التراث العربي، ط 1، 1988 م.

43 – البديع في ضوء أساليب القرآن، د. عبد الفتاح لاشين، دار المعارف، القاهرة، ط 1979، 1 م.

44 – البديع في النقد الشعر، أسامة بن منقذ (ت 584 ه)، تحقيق د. أحمد بدوي، د. حامد عبد المجيد، مراجعة الأستاذ إبراهيم مصطفى، مطبعة مصطفى البابي، مصر، 1960 م.

45 – البصائر والذخائر، أبو حيّان التوحيدي (ت 400 ه)، تحقيق وتعليق احمد أمين، السيد أحمد صقر، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ط 1، 1953 م.

46 – البعد الفكري والتربوي في نهج البلاغة، العلامة الدكتور عبد الرسول الغفاري، مؤسسة أنصاريان، قم – إيران، ط 1، 2010 م.

47 – البلاغة العربية، أسسها وعلومها وفنونها، عبد الرحمن الميداني، دار القلم، دمشق، ط 1، 1996 م.

48 – البلاغة الفنية، علي الجندي، مكتبة الإنجلومصرية، ط 1966، 2 م.

49 – بلاغة الكتاب في العصر العباسي (دراسة تحليلية نقدية لتطور الأساليب)، د. محمد نبيه حجاب، مكتبة الطالب الجامعي، ط 1986، 2 م.

50 – بنور فاطمة اهتديت، عبد المنعم حسن، دار المعروف، قم، ط 1، 1998 م.

51 – بنية الجملة ودلالتها البلاغية في الأدب الصغير دراسة تركيبية تطبيقية، أ. د. محمد كراكبي، علم الكتاب الحديث، أربد، الأردن، 2008 م.

52 – بيان إعجاز القرآن. حمد بن محمد الخطابي (ت 388 ه)، ضمن (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، تحقيق: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، ط 2، 1968 م.

53 – البيان في تفسير القرآن، آية الله العظمى أبو القاسم الخوئي الموسوي (ت 1411 ه)، دار الزهراء، بيروت – لبنان، ط 4، 1975 م.

54 – البيان والتبيين، أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ (ت 255 ه)، تحقيق د.

درويش جويدي، المكتبة العصرية، بيروت – لبنان، ط 1، 2010 م.

55 – تاج العروس من جواهر القاموس، السيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، دراسة وتحقيق علي شيري، دار الفكر، بيروت، 1994 م.

56 – تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرّافعي، راجعه واعتنى به د.درويش الجويدي، المكتبة العصرية، بيروت – لبنان، 2005 م.

57 – تاريخ الأدب الإسلامي، د. عباس الترجمان، دار التبليغ الإسلامي، ط 2011، 1 م.

58 – تاريخ الأدب العربي، أحمد حسن الزيات، ضبطه وخرّج نصوصه وصحّحه يوسف علي بدوي، مكتبة الصفاء، الإمارات العربية، ط 2، 2008 م.

59 – تاريخ الأدب العربي، بروكلمان، نقله إلى العربية د. عبد الحليم النجار، دار الكتاب الإسلامي، ميدان العلم، قم، ط 2، 2008 م.

60 – تاريخ الأدب العربي (العصر الإسلامي)، د. شوقي ضيف، ذوي القربى، قم، ط 2، 1427 ه.

61 – تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول)، د. شوقي ضيف، ذوي القربى، قم، ط 2، 1427 ه.

62 – تاريخ الأدب العربي (العصر الأموي)، د. قصي الحسيني، دار ومكتبة الهلال، بيروت – لبنان ن 2002 م.

63 – تاريخ بغداد، الحافظ أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي (ت 463 ه)،دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 1997 م.

64 – تاريخ التمدّن الإسلامي، جرجي زيدان، مراجعة وتعليق د. حسين مؤنس،

دار الهلال 1958 م.

65 – تاريخ الطبري (تاريخ الملوك والأمم)، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت 310 ه)، مراجعة وتصحيح لجنة من العلماء، مؤسسة الأعلمي، بيروت – لبنان، د. ت.

66 – تاريخ مدينة دمشق، أبو القاسم علي بن الحسين بن هبة الله المعروف بابن، عساكر (ت 571 ه)، تحقيق علي شيري، دار الفكر، بيروت – لبنان، ط 1، 1998 م.

67 – تاريخ النقد الأدبي عند العرب، د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت – لبنان، ط 4، 1983 م.

68 – التبيان في تفسير القرآن، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت 460 ه)، تحقيق وتصحيح أحمد حبيب قصير، د. ت.

69 – تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، ابن أبي الأصبع المصري (ت 654 ه)، تقديم وتحقيق د. حفني محمد شرف، القاهرة، 1963 م.

70 – التحرير والتنوير، الأستاذ محمد الطاهر بن عاشور، دار سخنون للنشر، تونس، 1997 م.

71 – تحف العقول عن آل الرسول الشيخ الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة الحراني (من أعلام القرن الرابع)، عنى بتصحيحه علي أكبر الغفاري، مؤسسة الفكر الإسلامي، لبنان، ط 1، 2004 م.

72 – تذكرة الحفّاظ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي (ت 748 ه)، تحقيق محمد

البجاوي، دار المعرفة، بيروت – لبنان، د. ت.

73 – التذكرة الحمدونية، محمد بن الحسن بن محمد بن علي بن حمودن، تحقيق د.

إحسان عباس، بكر عباس، دار صادرة، بيروت، ط 1، 1996 م.

74 – تذكرة الخواص، العلامة سبط بن الجوزي (ت 654 ه)، منشورات الشريف الرضي، قم، 1418 ه.

75 – تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، أنيس المقدسي، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، ط 1، 1960 م.

76 – التعازي والمراثي، أبو العباس محمد بن يزيد المبرد (ت 286 ه)، حققه وقدم له محمد الديباجي، مطبعة زيد بن ثابت، دمشق، 1976 م.

77 – التعاريف (التوقيف على مهمات التعاريف)، محمد عبد الرؤوف المناوي، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الفكر، بيروت، ط 1، 1410 ه.

78 – التعريفات، علي بن محمد الجرجاني (ت 826 ه)، حققه وعلق عليه نصر الدين التونسي، شركة القدس، القاهرة، ط 1، 2007 م.

79 – تفسير القرآن العظيم،الإمام أبو الفداء إسماعيل بن كثير (ت 774 ه)، تحقيق سامي بن محمد، دار طيبة، ط 2، 1999 م.

80 – التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، (ت 852 ه)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1989 م.

81 – التوحيد، محمد بن علي بن بابويه القمي المعروف بالصدوق (ت 381 ه)، تحقيق وتعليق السيد هاشم الحسيني الطهراني، منشورات جماعة المدرسين

في حوزة قم، د. ت.

82 – الثقات، ابن حبّان، (ت 354 ه)، دار المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند، ط 1، 1393 ه.

83 – ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي (ت 429 ه)، شرح وتعليق خالد عبد الغني محفوظ، دار الكتاب العلمية، بيروت – لبنان، 1997 م.

84 – جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو حعفر بن جرير الطبري (ت 310 ه)، مطبعة مصطفى البابي، مصر، ط 2، 1954 م.

85 – الجامع في تاريخ الأدب العربي، حنّا الفاخوري، منشورات ذوي القربى، ط 3، 1427 ه.

86 – الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت 671 ه)، اعتنى به وصححه الشيخ هشام سمير البخاري، دار الأصمعي، الرياض، ط 1، 2002 م.

87 – جدلية الإفراد والتركيب في النقد العربي القديم، محمد عبد المطلب، الشراكة المصرية العالمية للنشر (لونجمان)، ط 1، 1995 م.

88 – جمهرة الأمثال، أبو هلال العسكري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، ط 2، 1988 م.

89 – جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت، المكتبة العلمية، بيروت – لبنان، د. ت.

90 – جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة أحمد زكي صفوت، المكتبة

العلمية، بيروت – لبنان، 1937 م.

91 – حقائق التأويل في متشابه التنزيل، الشريف الرضي محمد بن الحسين الموسوي، شرح العلامة الأستاذ محمد رضا آل كاشف الغطاء، دار المهاجر، بيروت – لبنان، د. ت.

92 – حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني (ت 430 ه)، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، ط 4، 1405 ه.

93 – الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام، محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة الحسين التجارية، ط 1، 1949 م.

94 – الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام، د. محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب، بيروت – لبنان، ط 2، 1980 م.

95 – حياة الحسن البصري ومسيرته العلمية، د. روضة جمال الحصري، دار الكلم الطيب، دمشق، ط 1، 2002 م.

96 – خزانة الأدب، ابو بكر بن علي بن عبد الله (ت 837 ه)، تحقيق محمد نبيل، أصيل بديع، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1998 م.

97 – خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، أبو الحسن محمد بن الحسين الموسوي (ت 406 ه)، مؤسسة الأعلمي، بيروت – لبنان، ط 1، 1986 م.

98 – خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي (ت 303 ه)، تحقيق أ. د.حمزة النشرتي وآخرون، ط 2، د. ت.

99 – خصام ونقد، د. طه حسين، دار العلم للملايين، بيروت، ط 3، 1963 م.

100 – الخطابة العربية في عصرها الذهبي، إحسان النص، دار المعارف، القاهرة، 1963 م.

101 – ذخائر العقبى، أحمد عبد الله الطبري (ت 694 ه)، مكتبة القدسي، القاهرة، 1356 ه.

102 – دراسات في الأدب العربي، أنعام الجندي، دار الأندلس، بيروت، ط 2، 1967 م.

103 – دراسات في الأدب المقارن التطبيقي، د. داوود سلوم، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1984 م.

104 – دراسات في النحو، صلاح الدين الزعبلاوي، المعارف، القاهرة، د. ت.

105 – دراسات في نهج البلاغة، آية الله الشيخ محمد مهدي شمس الدين، وثّق أصوله وحققه وعلّق عليه الأستاذ سامي الغريري، مطبعة ستار، قم، ط 1، 2007 م.

106 – الدر المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت 911 ه)، دار المعرفة، بيروت – لبنان، د. ت.

107 – دستور معالم الحكم ومأثور مكارم الشيم، الإمام القاضي أبو عبد الله محمد بن سلامة (ت 454 ه)، شرح محمد سعيد الرافع، مكتبة المفيد، قم، د. ت.

108 – دفاتر عباسية في الشعر والنثر والحضارة والأعلام، د. يوسف عيد، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس – لبنان، 2008 م.

109 – دلائل الإعجاز في علم المعاني، الإمام عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (ت 471 ه)، تحقيق د. عبد الحميد هنداوي، دار الكتاب العلمية، بيروت

ص: 446

- لبنان، ط 1، 2001 م.

110 – ديوان الأعشى الكبير (ميمون بن قيس)، شرح وتعليق د. محمد محمد حسين، مكتبة الآداب بالجماميز،د. ت. 111 – ديوان البحتري، شرح وتعليق د. يحيى شامي، دار الفكر العربي، بيروت – لبنان، 2005 م.

112 – ديوان زهير بن أبي سلمى، شرحه وقدم له الأستاذ علي حسين فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1988 م.

113 – ديوان صفي الدين الحلي، شرحه وضبط نصوصه د. عمر فاروق الطباع، دار الأرقم للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، ط 1، 1429 م.

114 ديوان معروف ال-رصافي، مكتبة النهضة، بغداد، 1972 م.

115 – الراعي والرّعية، توفيق العكيكي، صححه وضبط متونه سيد آباد الحسيني، مطبعة الغدير، ط 1، 2006 م.

116 – ربيع الأبرار وفصوص الأخيار، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت 538 ه)، تحقيق طارق فتحي السيد، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط 1، 2006 م.

117 – رسائل البلغاء، محمد كرد علي، دار الكتب العربية الكبرى، القاهرة، 1912 م.

118 – الرسائل الفنية في العصر الإسلامي حتى نهاية العصر الأموي، غانم جواد رضا، دار التربية، بغداد، 1976 م.

ص: 447

119 - رسائل المرتضى، الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي (ت 436 ه)، تقديم السيد أحمد الحسيني، إعداد السيد مهدي الرجائي، مطبعة سيد الشهداء، قم، 1405 ه.

120 - روائع البيان في خطاب الإمام، د. رمضان عبد الهادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط 1، 2002 م.

121 - روائع نهج البلاغة، جورج جرداق، مركز الغدير، مطبعة باقري، ط 2، 1997 م.

122 - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبو الفضل شهاب الدين محمود الآلوسي (ت 1270 ه)، ضبطه وصححه علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط 1، 2001 م.

123 - الروض المعطار في خبر الأقطار محمد بن عبد المنعم الحميري (عاش في النصف الثاني من القرن السابع الهجري)، تحقيق د. إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، ط 2، 1980 م.

124 - زهر الآداب وثمر الألباب، أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري (ت 453 ه)، ضبط وشرح د. زكي مبارك، دار الجيل، بيروت - لبنان، ط 4، 1972 م.

125 - سبيل الهدى والرّشاد في سيرة خير العباد، محمد بن يوسف الصالحي الشامي (ت 942 ه)، تحقيق وتعليق عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط 1، 1993 م.

126 - السرقات الأدبية دراسة في ابتكار الأعمال الأدبية وتطبيقها، د. بدوي

ص: 448

طبانة، مكتبة الإنجلوا مصرية، ط 4، د. ت.

127 – سـنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (ت 279 ه)، تحقيق عبـد الرحمن محمد عثمان، دار الفكر، بيروت – لبنان، ط 2، 1983 م.

128 – السـنن الكبرى، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، تحقيق د. عبد الغفار سليمان، سيد كسروي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط 1، 1991 م.

129 – سـير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت 748 ه)، تحقيق شعيب الأرنؤوط، حسين الأسد، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، ط 9، 1993 م.

130 – السيرة الحلبية، علي بن ابراهيم بن احمد الحلبي (ت 1044 ه)، دار المعرفة، بيروت، 1400 ه.

131 – سـيكولوجية الفروق الفرديـة في الـذكاء، أ. د. سـليمان الحضـري، دار المسـيرة للنشـر والتوزيع، جامعة عين شـمس – القاهرة، ط 2008، 1 م.

132 – الشافي في الإمامة، علي بن الحسين الموسوي الملقب بالشريف المرتضى (ت 436 ه)، تحقيق عبد الزهرة الخطيب، راجعه السيد فاضل الميلاني، مؤسسة الصادق، طهران، ط 2، 1986 م.

133 – شـذرات الذهب في أخبار من ذهب، الفقيه الأديب أبو فلاح عبد الحي الحنبلي (ت 1089 ه)، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان ن د. ت.

134 – شرح أصول الكافي، المولى محمد صالح المازندراني (ت 1081 ه)، ضبط وتصحيح السيد علي عاشور، تعليق الميرزا أبو الحسن الشعراني ن دار

التراث العربي، بيروت – لبنان، ط 2000، 1 م.

135 – شرح حكم أمير المؤمنين عليه السلام، الشيخ عباس القمي، العتبة العلوية المقدسة، 2012 م.

136 – شرح ديوان المتنبي، وضعه عبد الرحمن البرقوقي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 2001 م.

137 – شرح المائة كلمة للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، شرح العالم الربّاني ميثم بن علي بن ميثم البحراني (ت 679 ه)، تقديم جلال الدين الحسيني الأرموي، مؤسسة العروة الوثقى، ط 1، 2010 م.

138 – شرح نهج البلاغة، الشيخ محمد عبده، خرّج مصادره فاتن محمد خليل اللبون، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ط 1، 2001 م.

139 – شرح نهج البلاغة، عز الدين أبو حامد عبد الحميد بن هبة الله المدائني الشهير بابن أبي الحديد (ت 656 ه)، قدّم له وعلّق عليه الشيخ حسين الأعلمي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت – لبنان، ط 2009، 3 م.

140 – شرح نهج البلاغة، عز الدين أبو حامد عبد الحميد بن هبة الله المدائني (ت 656 ه)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط 1، 1959 م.

141 – شرح نهج البلاغة، كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم البحراني (ت 679 ه)، مؤسسة الآداب الشرقية، النجف الأشرف – العراق، ط 1، 2009 م.

142 – الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي أبو الفضل عياض اليحصبي (ت 544 ه)، دار الفكر العربي، بيروت – لبنان، 1988 م.

143 - صبح الأعشى في صناعة الإنشا، أحمد بن علي القلقشندي (ت 821 ه)، تحقيق د. علي يوسف الطويـل، دار الفكر، دمشق، ط 1، 1987 م.

144 - صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت 261 ه)، دار الجيل، بيروت، د. ت.

145 - الصـحيفة السـجّادية الكاملـة، الإمام زين العابـدين عليُّ بن الحسـين بن علي بن أبي طالب عليه السـلام (ت 95 ه)، تقديم السيد محمد باقر الصدر، دار العلوم، لبنان، ط 1، 2008 م.

146 - الصـناعتين (الكتابة والشـعر) أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري(ت 395 ه)، تحقيق علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضـل إبراهيم، دار الفكر العربي، ط 2، د. ت.

147 - ضحى الإسلام، أحمد أمين مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط 7، د. ت.

148 - طبقات الفقهاء، محمـد بن جلال الـدين المكرم (ت 230 ه)، تحقيق د.إحسـان عبـاس، دار الرائـد العربي، بيروت - لبنان، ط 1، 1968 م.

150 - الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلوي (ت 749 ه)، مطبعة المقتطف، مصر، 1914 م.

151 - طرائق المقال في معرفـة طبقات الرجال، العلامـة السـيد علي أصـغر بن السـيد محمد البروجردي، تحقيق السـيد مهدي الرجائي، تقديم آية الله العظمى المرعشي النجفي، مكتبة المرعشي، قم، ط 1، 1410 ه.

152 - عبد الله بن المقفع (الأدب الكبير، الأدب الصغير، رسالة الصحابة)، دراسة وتحليل، تقديم يوسف أبو حلقة، مكتبة دار البيان، بيروت - لبنان، د. ت.

153 - عبد الله بن المقفع، جورج غريب، دار الثقافة، بيروت - لبنان، د.ت.

154 - عبقرية الشريف الرضي، زكي مبارك، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، د. ت.

155 - العبقريات الإسلامية، عباس محمود العقاد، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط 1، 2009 م.

156 - العقد الفريد، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (ت 328 ه)، تحقيق محمد عبد القادر شاهين، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، 2009 م.

157 - علماء في رضوان الله، محمد أمين نجف، منشورات الإمام الحسين عليه السلام، بهمن، ط 2، 2009 م.

158 - علم الأدب، الأب لويس شيخو اليسوعي، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت - لبنان، ط 2، 1926 م.

159 - علوم نهج البلاغة، د. محسن باقر القزويني، دار العلوم، بيروت - لبنان، ط 1، 2003 م.

160 - علي إمام البررة، آية الله العظمى أبو القاسم الخوئي، قدّم له آية الله العظمى علي الحسيني البهشتي، شرح السيد محمد مهدي الخرسان، دار الهادي للطباعة والنشر، ط 1، 2003 م.

161 - علي سلطة الحق، عزيز السيد جاسم، تحقيق وتعليق صادق جعفر

الروازق، الغدير، قم، ط 1، 2000 م.

162 - علي كما وصف نفسه، السيد طاهر عيسى درويش، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط 1، 2004 م.

163 - علي من المهد إلى اللحد، العلامة السيد كاظم القزويني، مؤسسة النشر الإسلامي، بيروت.

164 - العمدة في محاسن الشعر وآدابه، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني (ت 456 ه)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت - لبنان، ط 4، 1972 م.

165 - عيار الشعر، محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي (ت 322 ه)، تحقيق د. طه الحاجري، محمد زغلول سلام، المكتبة التجارية الكبرى عيون الأخبار، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت 276 ه)، شرحه وضبطه ورتب فهارسه د. يوسف علي الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، د.ت.

167 - عيون الحكم والمواعظ، علي بن محمد الليثي الواسطي (من أعلام القرن ، السادس الهجري)، تحقيق الشيخ حسين الحسيني، دار الحديث، ط 1، 1376 ه.

168 - الغارات، إبراهيم بن محمد الكوفي (ت 283 ه)، تحقيق السيد جلال الدين الحسيني، بهمن، د. ت.

169 - غريب الحديث، أبو عبد القاسم بن سلام (ت 224 ه)، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد، ط 1، 1965 م.

ص: 453

170 - غرر الحكم ودرر الكلم، عبد الواحد الآمدي التميمي (ت 550 ه)، تحقيق السيد مهدي الرجائي، مؤسسة الكتاب الإسلامي، مطبعة ستار، ط 3، 2008 م.

171 - الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي (ت 638 ه)، دار صادر، بيروت - لبنان، د. ت.

172 - الفتنة الكبرى، د. طه حسين، دار المعارف، القاهرة - مصر، 1959 م.

173 - فجر الإسلام، احمد أمين، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، ط 1، 1969 م.

174 - فحولة الشعراء، أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي (ت 216 ه)، تحقيق ستارلس توري، دار الكتاب الجديد، 1971 م.

175 - فضائل الإمام علي عليه السلام محمد جواد مغنية، منشورات دار ومكتبة الحياة، بيروت، 1962 م.

176 - فن الأدب، توفيق الحكيم، مكتبة الدب ومطبعتها، المطبعة النموذجية، سكة الشابوري، د. ت.

177 - الفن ومذاهبه في النثر العربي، د. شوقي ضيف، دار المعارف، كورنيش النيل، القاهرة، ط 1971، 6 م.

178 - فنون الأدب، تشارلتن، ترجمة زكي نجيب محمود، القاهرة، 1945 م.

179 - الفهرست، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت 460 ه)، تحقيق الشيخ جواد القيومي، مؤسسة النشر الإسلامي، ط 1، 1417 ه.

180 - الفهرست، أبو الفرج محمد إسحاق النديم (ت 438 ه)، دار المعرفة، بيروت - لبنان، 1978 م.

181 - فوات الوفيات محمد بن شاكر الكتبي (ت 764 ه)، تحقيق علي محمد بن يعوض، عادل احمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 200 م.

182 - في الأدب العباسي، د. محمد مهدي البصير، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، ط 3، 1970 م.

183 - في الأدب المقارن مقدمات للتطبيق، د. نجم عبد الله كاظم، عالم الكتاب الحديث، إربد - الأردن، ط 1، 2008 م.

184 - في رحاب نهج البلاغة، مرتضى المطهري، العتبة العلوية المقدّسة، 2011 م.

185 - في النقد الأدبي، د. شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، 1962 م.

186 - القاموس المحيط، القاضي مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (ت 817 ه)، دار العلم، بيروت - لبنان، د. ت.

187 - قضايا بالحداثة، عبد القاهر الجرجاني، د. محمد عبد المطلب، مطابع المكتب المصري، القاهرة، ط 2، 1995 م.

188 - قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة، مكتبة النهضة، بغداد، ط 2، 1965 م.

189 - الكافي، الشيخ محمد بن يعقوب الكليني (ت 329 ه)، تحقيق علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية، طهران، ط 3، 1367 ه.

190 - كتاب العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 175 ه)، تحقيق د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرّائي، دار الهجرة، إيران، 1409 ه.

191 - الكنى والألقاب، المحقق الشيخ عباس القمي، تقديم محمد هادي الأميني، مكتبة الصدر، طهران، د. ت.

192 - كنز الفؤاد، أبو الفتح محمد بن علي الكراجكي (ت 449 ه)، الغدير، قم، ط 2، 1369 ه. ش.

193 - لباب النقول، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت 911 ه)، تحقيق أحمد عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت.

194 - لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور (ت 711 ه)، أدب الحوزة، قم، 1405 ه.

195 - لغة الشعر بين جليين، د. إبراهيم السامرّائي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط 2، 1980 م.

196 - ما هو نهج البلاغة، العلامة اليسد هبة الدين الشهرستاني، مطبعة النعمان، النجف الشرف، ط 3، 1400 ه.

197 - المجازات النبوية، الشريف الرضي محمد بن الحسين (ت 406 ه)، تحقيق وشرح د. طه محمد الزيني، مؤسسة الحلبي، القاهرة، 1967 م.

198 - مجمع البيان في تفسير القرآن، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (من أعلام القرن السادس الهجري)، تحقيق لجنة من العلماء، قدّم له السيد محسن الأميني العاملي، مؤسسة الأعلمي، بيروت - لبنان، ط 1995،1 م.

199 - المجموعة الكاملة للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، عبد الفاتح، عبد المقصود، مؤسسة المختار، القاهرة، ط 1، 2006 م.

200 - محاضرات الأدباء ومحاورات والبلغاء، أبو القاسم حسين بن محمد الراغب الأصبهاني (ت 502 ه)، منشورات مكتبة الحياة، بيروت - لبنان، د. ت.

201 - المحرقة الكبرى لكتب البشرية، الفكر الإسلامي د. نجاح الطائي، دار الهدى لإحياء التراث، ط 2009، 1 م.

202 - مختصر تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي، د. محمود السيتاني، مشهد، إيران، 1381 ه. ش.

203 - مروج الذهب ومعان الجوهر، أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي (ت 346 ه)، تقديم يوسف أسعد داغر، قم - إيران، ط 2، 1984 م.

204 - المسبار النقدي (دراسة في نقد النقد للأدب القديم والتناص)، أ. د. حسين جمعة، اتحاد الكتاب، دمشق، 2003 م.

205 - المستدرك على الصحيحين ن محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري (ت 405 ه)، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت - لبنان، ط 1، 1990 م.

206 - المستطرف في كلّ فنٍ مستظرف، شهاب الدين محمد الأبشيهي(ت 850 ه)، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، شركة الأرقم، د. ت.

207 - المستويات الجمالية في نهج البلاغة (دراسة في شعرية النثر)، د. نوفل أبو رغيف، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 2008 م.

208 - مسند أحمد، الإمام أحمد بن حنبل (ت 241 ه)، تحقيق شعيب الأرنؤوط

ص: 457

وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط 1999، 2 م.

209 – مشاكلة الناس لزمانهم، أحمد ن إسحاق اليعقوبي (ت 292 ه)، تحقيق وليم ملوَرد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط 1، 1962 م.

210 – مشكاة الأنوار في غرر الأخبار، أبو علي الفضل بن حسن الطبرسي، تحقيق مهدي خوشمند، دار الحديث، ط 1، د. ت.

211 – المشككون بنهج البلاغة والرد عليهم، علي الفتال، دار المحجة البيضاء، بيروت، ط 1، 2005 م.

212 – مصادر نهج البلاغة وأسانيده، عبد الزهراء الحسيني الخطيب، مطبعة القضاء، النجف الأشرف، ط 1، 1966 م.

213 – المصنف، عبد الرزاق الصنعاني (ت 211 ه)، تحقيق وتخريج حبيب الرحمن الأعظمي، منشورات المجلس العلمي، د. ت.

214 – المصنف، عبد الله بن محمد أبي شيبة (ت 235 ه)، ضبطه وعلق عليه الأستاذ سعيد اللحام، دار الفكر، بيروت، ط 1، 1989 م.

215 – مطالب السؤول في مناقب آل الرسول، محمد بن أحمد الشافعي (ت 652 ه)، طبع بإشراف السيد عبد العزيز الطباطبائي، مؤسسة البلاغ، لبنان، ط 1، 1999 م.

216 – المعارف، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت 276 ه)، تحقيق د. ثروت عكاشة، دار المعارف، القاهرة، د. ت.

217 – معاني الأخبار، الشيخ الصدوق محمد بن علي (ت 381 ه)، تحقيق وتعليق علي اكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، 1338 ه. ش.

218 - معايير الحكم الجمالي في النقد الأدبي، د. منصور عبد الرحمن، المعارف، القاهرة، ط 1، 1981 م.

219 - معجم آيات الاقتباس، حكمت فرج البدري، الحرية للطباعة، بغداد، 1980 م.

220 - معجم الأدباء، ياقوت الحموي (ت 626 ه)، دار المشرق، بيروت - لبنان، د. ت.

221 - المعجم الأوسط، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (ت 360 ه)، تحقيق طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، 1415 ه.

222 - معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، 1997 م.

223 - معجم رجال الحديث، آية الله العظمى السيد أبو القاسم الخوئي الموسوي، طبعة منقحة ومزيدة، ط 5، 1992 م.

224 - المعجم الكبير، أبو القاسم سليمان بن احمد الطبراني، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم، ط 2، 1983 م.

225 - معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس (ت 395 ه)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتب الإعلام الإسلامي، 1404 ه.

226 - معجم المؤلفين، رضا كحالة، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، د. ت.

227 - المعجم الوسيط، د. إبراهيم أنيس وآخرون، مكتب الثقافة الإسلامي،

ط 4، 1412 ه.

228 – المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وآخرون، أشرف على طبعه عبد السلام هارون، تقديم د. إبراهيم مدكور، المكتبة العلمية، طهران، د. ت.

229 – مع المشككين في نهج البلاغة، (مناقشة الشبهات والمؤاخذات)، عادل الأسدي، مكتبة العزيري، أميران، 2007 م.

230 – مع نهج البلاغة دراسة ومعجم، د. إبراهيم السامرّائي، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمّان، ط 1987، 1 م.

231 – المفردات في غريب القرآن، أبو الحسين بن محمد (ت 502 ه)، دار نشر الكتاب، ط 1404، 2 ه.

232 – مقامات الحريري، أبو محمد القاسم بن علي الحريري (ت 510 ه)، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، لبنان، ط 2005، 4 م.

233 – من أروع ما قاله الإمام علي عليه السلام، محسن عقيل، دار المحجة البيضاء، بيروت – لبنان، ط 2001، 1 م.

الحافظ محمد بن سليمان الكوفي (من ،234 – مناقب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، الحافظ محمد بن سليمان الكوفي (من أعلام القرن الثالث)، تحقيق العلامة محمد باقر المحمودي، مجمع إحياء الثقافة الإسلامية، ط 1، 1412 ه.

235 – مناقب الخوارزمي، الموفق بن أحمد الخوارزمي (ت 568 ه)، تحقيق الشيخ مالك المحمودي، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ط 2، د. ت.

236 – المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي،(ت 597 ه)، دراسة وتحقيق محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر

عطا، راجعه وصححه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت ن ط 1، 1992 م.

237 – من حديث الشعر والنثر، د. طه حسين، دار المعارف، مصر، ط 1، 1961 م.

238 – منهاج البراعة في شـرح نهج البلاغة، المحقق حبيب الله الهاشـمي الخوئي، تصـنيف المحقق محمد باقر، تصحيح وتهذيب السيد إبراهيم الميانجي، المطبعة الإسلامية، إيران، ط 4، د. ت.

239 – منهاج البراعة في شـرح نهج البلاغة، قطب الدين سعيد بن هبة الله الراوندي (ت 574 ه)، تحقيق السيد عبد اللطيف الكوهكمري، نشر مكتبة آية الله المرعشي، قم، 1406 ه.

240 – موسوعة الإمام علي بن أبي طالب محمد الريشهري، بمساعدة السيدين محمد كاظم الطباطبائي، ومحمود الطباطبائي، تحقيق مركز بحوث دار الحديث، دار الحديث للطباعة 1425 ه. ، والنشر، قم، ط 2 241 ميزان الإعتـدال في نقد الرجال، محمد بن أحمد الذهبي (ت 748 ه)، تحقيق محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت – لبنان، د. ت.

242 – ميزان الحكمة، محمد الريشهري، دار الحديث، قم، ط 1، 1997 م.

243 – الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، مؤسسة الأعلمي، بيروت – لبنان، ط 1، 1997 م.

244 – النثر الفني في القرن الرابع الهجري، د. زكي مبارك، المكتبة العصرية

للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، 2006 م.

245 – نشأة التشيع والشيعة، الأستاذ السيد طالب الخرسان، منشورات الشريف الرضي، ط 1، 1991 م.

246 – نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، د. علي سامي النشار، دار المعارف كلية الآداب جامعة الأسكندرية، ط 1، 2008 م.

247 – نظرية الإعجاز القرآني وأثرها في النقد العربي القديم، أحمد سيد محمد عمار، دار الفكر، دمشق، 1998 م.

248 – النظرية النقدية عند العرب، د. هند حسين طه، دار الرشيد، الجمهورية العراقية، 1981 م.

249 – نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب النويري (ت 733 ه)، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة، كوستاستوماس، القاهرة، د. ت.

250 – النهاية في غريب الحديث والأثر، أبو السعادات المبارك بن محمد (ت 606 ه)، تحقيق طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد، المكتبة العلمية، بيروت، 1979 م.

251 – نهج البلاغة، جمعهُ الشريف الرضي محمد بن الحسين الموسوي (ت 406 ه)، مؤسسة أنصاريان، إيران، ط 4، 2006 م.

252 – نهج البلاغة لمن، الشيخ محمد حسن آل ياسين، المكتبة العالمية، بيروت، ط 4، 1978 م.

253 – نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة، محمد باقر المحمودي، مطبعة

النعمان، النجف الأشرف، ط 1، 1965 م.

254 – نوادر وقصص من شرح نهج البلاغة، عبد الرسول زين العابدين، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت – لبنان، ط 1، 2008 م.

255 – نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، محمد بن عفيفي الخضري، تحقيق هيثم هلال، دار المعرفة، بيروت – لبنان، ط 1، 2004 م.

256 – هوية التشيع، الشيخ د. أحمد الوائلي، دار الصفوة، بيروت – لبنان، ط 3، 1994 م.

257 – الوافي بالوفيات، صلاح الدين بن أيبك الصفدي (ت 764 ه)، تحقيق أحمد الأرنؤوط، تركي مصطفى، دار التراث، بيروت، 2000 م.

258 – الوساطة بين المتنبي وخصومه، علي بن عبد العزيز الجرجاني (ت 366 ه)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، المكتبة العصرية، بيروت، ط 1، 2006 م.

259 – وعاظ السلاطين، د. علي الوردي، دار دجلة والفرات، بيروت – لبنان، ط 1، 2009 م.

260 – وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن خلكان (ت 681 ه)، تحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1971 م.

261 – يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، أبو منصور عبد الملك الثعالبي (ت 429 ه)، شرح وتحقيق د. مفيد محمد قميحة، دار الكتب العالمية، بيروت – لبنان، ط 1، 1983 م.

الأطاريح والرسائل 1 - ابن المقفع (حياته آثاره)، دلارا سينغ سندها، رسالة لنيل شهادة أستاذ في العلوم، كلية العلوم، الجامعة الأمريكية، بيروت، 1956 م.

2 - أبو العلاء المعري والشعر العربي في الأندلس (دراسة تحليلية في التأثير والتأثر) علي كاظم محمد علي المصلاوي، اطروحة دكتوراه، كلية التربية - ابن رشد - جامعة بغداد، 2006 م.

3 - أدب ابن المقفع بين ناقديه قديًما وحديثاً (تحليل وموازنة) أكرم علي عنبر، رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة المستنصرية، 2004 م.

4 - أدب عبد الله بن المقفع دراسة أسلوبية، عبد الحسين عبد الرضا العمري، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة المستنصرية، 2004 م.

5 - أثر الأدب النبوي في الأدب العربي حتى نهاية العصر الأموي، فؤاد جميل وهيب المجمعي، اطروحة دكتوراه مقدمة إلى مجلس كلية الآداب، جامعة بغداد، 1997 م.

6 - الأثر الدلالي للقرآن الكريم في نهج البلاغة، هادي شندوخ حميد، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة البصرة، 2008 م.

7 - التأثير والتأثر في النص النقدي العربي إلى آخر القرن السابع الهجري، أنوار سعيد، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة بغداد، 2006 م.

8 - التناص في شعر أحمد مطر، عبد المنعم جبار عبيد، أطروحة دكتوراه، كلية التربية - ابن رشد، جامعة بغداد، 2009 م.

9 - التناص في الشعر الأندلسي في عهد دولة بني الأحمر (650 - 898 ه)، أسراء عبد الرضا، أطروحة دكتوراه، كلية التربية للبنات، جامعة بغداد، 2006 م.

10 - حكم الإمام علي عليه السلام ومواعظه، تحقيق من شروح نهج البلاغة حتى نهاية القرن السابع الهجري، قاسم خلف مشاري السكيني، اطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة المستنصرية، 2008 م.

11 - الخطاب في نهج البلاغة بنيته وأنماطه ومستوياته (دراسة تحليلية)، عبد الحسين عبد الرضا العمري، اطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة بغداد، 2008 م.

12 - الإغتراب عند الإمام علي عليه السلام من خلال نهج البلاغة، محمد مشعالة دامخي، اطروحة دكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحج خضر، باتنة، 2009 م.

13 - الخطاب في نهج البلاغة دراست موضوعية فنية، إيمان عبد الحسين علي، رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة بابل، 2008 م.

14 - مصطلحات السرقة الأدبية في التراث النقدي إلى نهاية القرن السابع الهجري، سندس محسن العبودي، رسالة ماجستير، كلية التربية (ابن رشد)، جامعة بغداد، 1996 م.

15 - النثر عند الحسن البصري، سلافة صائب خضير العزّاوي، رسالة ماجستير، كلية التربية (ابن رشد)، جامعة بغداد، 1994 م.

16 - نهج البلاغة في ضوء علم اللغة الاجتماعي، نعمة دهش فرحان الطائي، أطروحة دكتوراه، كلية التربية (ابن رشد)، جامعة بغداد، 2011 م.

المجلات 1 – سجع أم فواصل، د. أحمد الحوفي، مجلة اللغة العربية بالقاهرة، ع 27، س 1971 م.

2 – ما قيل في نهج البلاغة، عبد العزيز الطباطبائي، مجلة تراثنا، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، ع 1414، 1ه.

المحتويات

ص: 467

المحتويات

المقدمة...7

التمهيد: مفهوم الأثر و...15

الفصل الأول كلام الإمام علي عليه السلام من حيث التوثيق والتأثير

المبحث الأول: نظرة توثيقية...29

أولاً: جمعه المبكر و...29

ثانياً: التشكيكات فيه...40

الوقفة الأولى: مع المشككين...44

الوقفة الثانية: مع شبهة الطول...53

الوقفة الثالثة: شبهة الصيغ الفلسفية...61

الوقفة الرابعة: شبهة السجع...69

المبحث الثاني: إضاءة تمهيدية...75

أولاً: الجانب الوراثي...77

ثانياً: الأثر النبوي...79

ثالثاً: الأثر القرآني...82

رابعاً: الشمولية في كلامه...87

خامساً: الإلهام الغيبي و...90

سادساً: هضمه لتراث العرب...95

سابعاً: سداد الرأي و...98

ثامنًا: المحن التي...104

الفصل الثاني أثر كلام الإمام علي عليه السلام في نثر الحسن البصري

توطئة...119

المبحث الأول: في خطب الحسن...127

المبحث الثاني: في رسائل الحسن...155

المبحث الثالث: أثر خطبة المتقين...189

المبحث الرابع: في مواعظ و...215

أولاً: التضمين...216

ثانياً: البسط والزيادة...221

ثالثاً: الإيجاز...234

رابعاً: العكس...241

الفصل الثالث أثر كلام الإمام علي عليه السلام في نثر ابن المقفع

توطئة...251

المبحث الأول: في رسالة الأدب الكبير...265

أولاً: التضمين...266

ثانياً: التلفيق...287

ثالثاً: البسط...304

رابعاً: الإيجاز...330

المبحث الثاني: في رسالة الأدب الصغير...235

أولاً: التضمين...238

ثانياً: التلفيق...242

ثالثاً: البسط...257

رابعاً: الإيجاز...368

المبحث الثالث: في رسالتي الصحابة...375

أولاً: أثره في رسالة الصحابة...275

ثانياً: أثره في رسالة الدرة اليتيمة...393

ثالثًا: في رسائل أدبية أخرى...400

المبحث الرابع: تكرار ابن المقفع...407

الخاتمة النتائج...423

المصادر والمراجع...435

المحتويات...469

ص: 472

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم

جَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ

(التوبه : 41)

منذ عدة سنوات حتى الآن ، يقوم مركز القائمية لأبحاث الكمبيوتر بإنتاج برامج الهاتف المحمول والمكتبات الرقمية وتقديمها مجانًا. يحظى هذا المركز بشعبية كبيرة ويدعمه الهدايا والنذور والأوقاف وتخصيص النصيب المبارك للإمام عليه السلام. لمزيد من الخدمة ، يمكنك أيضًا الانضمام إلى الأشخاص الخيريين في المركز أينما كنت.

هل تعلم أن ليس كل مال يستحق أن ينفق على طريق أهل البيت عليهم السلام؟

ولن ينال كل شخص هذا النجاح؟

تهانينا لكم.

رقم البطاقة :

6104-3388-0008-7732

رقم حساب بنك ميلات:

9586839652

رقم حساب شيبا:

IR390120020000009586839652

المسمى: (معهد الغيمية لبحوث الحاسوب).

قم بإيداع مبالغ الهدية الخاصة بك.

عنوان المكتب المركزي :

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده ای، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلی، الرقم 129، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الالكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزي 03134490125

هاتف المكتب في طهران 88318722 ـ 021

قسم البيع 09132000109شؤون المستخدمين 09132000109.

مركز
القائمية
اصبهان
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
www
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٠٩